الألف كتاب
الثاني
٣١١



موجز تاريخ العالم



تأليف
ه . ج . ويلز
ترجمة
عبد العزيز توفيق جاويد



الهيئة المصرية العامة للكتاب

يعرض هذا الكتاب بعبارة موجزة تاريخ العالم منذ أقدم حقب الحياة وحتى القرن العشرين، وقد سبق لنفس المؤلف أن قدم هذا الكتاب فى عمل موسوعى ضخم، ترجم ونقل إلى العربية فى أربعة أجزاء تحت عنوان "معالم تاريخ الإنسانية"، وصدر فى إطار هذا المشروع، ولكن هذا الكتاب ليس مجرد مختصر للكتاب القديم، بل إنه يعرض تاريخ الحضارة الإنسانية وتطورها من زاوية جديدة. وهو يحاول فى هذا الكتاب أن يبرز حقيقة هامة، وهى أن الحضارة ليست حكراً على أمة واحدة أو منطقة بعينها، بل إنها عمل إنسانى تضافرت جهود البشر فى شتى بقاع الأرض فى بنائه وتغذيته وتطويره، وهو فى الوقت نفسه يعرض للمآسى التى ألمت بتاريخ الإنسان بسبب الحروب المدمرة، حيث يرى أن الملوك الفاتحين – الذين تطنب كتب التاريخ العادية فى مدحهم – كانوا وبالاً على العالم، وأنهم بددوا جهود البشرية فى أتون الحديد والنار. وقد وفق ويلز إلى تقديم هذا المختصر السريع العميق لقصة الحضارة الإنسانية، وحظى هذا الكتاب بالشهرة الواسعة حتى أصبح من الكلاسيكيات التاريخية، وقد ترجمه المرحوم عبد العزيز توفيق جاويد، وهو واحد من أعلام حركة الترجمة العربية فى القرن العشرين وإن لم يأخذ حظه الواجب من الشهرة. واليوم نعيد تقديم هذا الكتاب من جديد إلى القارئ العربى؛ لنكمل الهدف الذى نسعى إليه فى مشروع الألف كتاب، وهو التعريف بتاريخ الحضارة الإنسانية بجوانبها المختلفة على اتساع العالم.

مطابع الهيئة المصرية

١٠٠٠ قرش

الألف كتاب الثانى

نافذة على الثقافة العالمية

موجز تاريخ العالم

تأليف

ه . ج . ويلز

ترجمة

عبد العزيز توفيق جاويد

الطبعة الثانية

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٩

محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

صفحة

كلمة المترجم

كان طبيعياً وقد ترجمت « المعالم » أن يتجه الفكر إلى شقيقه « الموجز » . ذلك أن « المعالم » ليس سفرا يسجل التاريخ ويدون أحداثه فحسب بل هو قوة دافعة تكاد تجعله من صناع التاريخ ، فهو بما جمع من دعوات ومذاهب وتعاليم من بنات أفكار مؤلفه ، يعد من الصور التى تتحول عندها أحداث هذا الكوكب . وبحسب القارىء ما به من تبصرة لمن حجب عنه البصر بأمور الدنيا ، وتنوير لمن أحاطت به سدفة الظلمات ، بحسبه ما فيه من إحاطة شاملة بأحداث هذا الكوكب الذى عليه نعيش ، تعده إقليما واحداً بل قطراً واحداً ، استغفر الله بل قرية واحدة ، يجب أن يقوم فيها من التكافل والتحاب والتعاطف ما يقوم فى كل ريف ، ويجب أن يزول منه من أسباب الخلاف والتنافر ما ينبغى أن يزول من الريف السعيد الذى ترفرف عليه ألوية الوئام . وبحسب القارىء أيضاً ما بالكتاب من نظرة عملية بيولوجية إنسانية إلى سكان هذه الدنيا ترجو أن تعمهم المساواة والإخاء والصفاء ، فلا أبيض ولا أصفر ولا أسود ولا أسمر ولا استعمارى ولا مستعمر ولا استغلالى ولا مستغل ، بل الكل فى حظ الحياة سواء . والرزق والثمرات وركاز الأرض وخيراتها قسمة بين الجميع ، وقسمة عادلة لا قسمة ضيزى .

كان طبيعياً وقد ترجم المعالم بما حوى من ذم لدول الغرب خاصة بريطانيا وفرنسا ونعى على سوء تدبيرها ، وضيق أفق رجالها وقلة درايتهم بطبائع البشر وسوءاستغلالهم للموارد البشرية ، أقول كان طبيعياً أن يتجه الفكر إلى هذا الموجز الذى تجده بين يديك عسى أن يفيد به من لم يقع كتاب المعالم فى يده .

كان هذا الموجز عندى مذ كنت طالباً بمدرسة المعلمين العليا تراودنى نفسى على ترجمته وتأبى ظروفى إلا أن تحول دون ذلك . بل لقد حالت الظروف دون مطالعته كله . وإن ألممت به فى بعض ما تيسر لى من وقت الفراغ إلماماتٍ وصلت بين نفسى وبين مؤلفه العظيم إلى أن حانت الساعة السعيدة التى اتصلت فيها به منذ ١٩٤٠ حين

ترجمت المعالم ، نخالطت آراء الكاتب منذ ذلك الوقت منى مهجة اللحم والدم ، وإذا هى قطعة من حياتى الفكرية . وبفضل هذا المؤلف العظيم بات قطعة من حياتى الإيمان بالمجالس النيابية الدستورية . وجرى فى العروق مجرى الدم الإيمان بالحرية الفردية والحرية العامة ، وذلك فضلا عما كان يخالط الروح بطبيعة الحال من كره الإنجليز الذى كان منذ حداثتنا يغتصب السلطان فى هذا البلد المسكين ، وفضلا عما لهجت به النفس المصرية مع المؤلف من حقد على الاستعمار والاستثمار الأجنبى والاستغلال : استغلال الأجنبى للمصرى واستغلال الغنى للفقير واستغلال الإقطاعى للضعيف .

لا عجب إذن أن تطرب النفس بالعودة إلى هـ . ج . ولز . بعد انقطاع الصلة به فترة ما بين المعالم والشروع فى نقل الموجز ، وزاد من شعور السعادة إحساسى بأنى أقرب للقارىء منهلا جديداً إن عز عليه فى المعالم ارتياده لعظم سعته ، لقد سهل عليه فى الموجز وروده ، وسرنى أنى وجدت آراء الرجل فى الكثير من الأمور ، مبثوثة فى الصغير ، فعلمت أنى أقدم لقارىء العربية أفكار الرجل نفسها فى ثوب موجز أنيق يستطيع تناولهـــا منه ماعن له وقت فراغ فى ليل أو نهار ، مع يسر المأخذ وقرب المتناول ، ولا يغرنك قوله فى مقدمته إن هذا الكتاب ليس خلاصة للمعالم . إذ الواقع الذى لا مرية فيه أنه خلاصة له نظر إليها من زاوية جديدة . وإلا ففيم طرب المؤلف الجليل فى الكتابين كليهما بنشوء الحضارات وإشادته بالبدايات التى أثرت فى الثقافة والفكر الإنسانى ؟ وانظر إليه فى الكتابين كليهما وهو يدق البشائر فرحا بالكتابة وصناعة الورق ، ونشوء العلوم الحديثة على أيدى يونان ، وصمود منار العلم البطلمى بالإسكندرية ، ورفع العرب لواء الحضارة بين المحيطين . وكم تحزنه الحروب ويشقيه ما تعود به على الإنسانية من دمار ووقوف بدولاب المدنية عن التقدم ، وإذا أهازيج النصر تتثاقل أنغامها حتى لتردد فى الآذان رنات المراثى الفاجعة .

هكذا كان موقف المؤلف فى الكتابين من نابليون ومن غليوم ومن هتلر وكل مضيع لجهود البشرية مبدد لها فى أتون الحديد والنار . فإن كان القارىء المصرى الضيق الوقت يستطيع بهذا الكتاب ان يحصل تلك المعلومات ويؤمن بهذه المثل التى دعا إليها الإسلام فى أوج مجده ألاوهى الحضارة ومسايرة ركب التقدم والحرية ودعت إليها انتفاضة مصر فى عهد ثورتها الفتية عام ١٩٥٢ ، فذلك حسبى وغاية ما أرجو .

وفى الكتاب آراء للمؤلف قد تخالف رأينا ولكنا أبقيناها فى موضعها عملا بحرية الرأى ومن قبيل ذلك ما جاء بالصفحات ١٧٣ و ١٧٦ عن قصة صلب المسيح فقد أبقيناها لأنها تمثل وجهة النظر المسيحية ، أما رأى الإسلام فى هذه القصة فمعروف لايحتاج إلى بيان .

وقد ضبطنا الترجمة على آخر طبعة أصدرها المؤلف قبيل وفاته وأضاف إليها فصلا عن الحرب العظمى الثانية (أكملنا ما ينقصه من حلقات) وضمنه أمانيه الخالصة للبشرية محذراً إياها عواقب أخطائها وموضحاً لها سبيل النجاة .؟

مصر الجديدة فى ١٤ يونيه ١٩٥٨ — عبد العزيز توفيق جاويد

موجز تاريخ العالم

الفصل الأول

العالم والفضاء

إن قصة عالمنا لا تزال بتراء يعتورها النقص من كل جانب . فإن كل ما كان لدى الناس من معلومات تاريخية قبل زماننا هذا بقرنين ، لم يكن مداه يتجاوز الثلاثة آلاف عام الأخيرة . أما ما حدث فى العالم قبل ذلك فكان أمراً تضرب فيه الأساطير والظنون بسهم وفير ، وكان الناس فى شطر كبير من العالم المتحضر ، يعتقدون ويلقنون أن العالم قد خلق على حين بغتة فى عام ٤٠٠٤ق.م ، وإن اختلف الثقات فيما إذا كان ذلك الخلق قد حدث فى خريف تلك السنة أو ربيعها !! .... وقد قام هذا الوهم الخاطىء العجيب فى دقة تحديده على المبالغة فى تأويل « العهد القديم » العبرانى ، تأويلا حرفيا أو بالأحرى على افتراضات وتفسيرات لاهوتية رائدها التعسف ، ولقد تخلى معلمو الأديان منذ أمد بعيد عن مثل هذه الأفكار ، وجمهرة الناس اليوم يرون أن العالم الذى نعيش فيه كان – فيما توحى به جميع الظواهر – موجوداً طوال حقبة هائلة من الزمان ، ربما لم تكن لها بداية ، ومن البدهى أن تلك الظواهر ربما انطوت على شىء من الخداع والتضليل ، على غرار الهيئة اللانهائية التى تتراءى لنا عن حجرة وضعت بها مرايا متقابلة فى كل من طرفيها . أما القول بأن العالم الذى فيه نعيش لم يخلق إلا منذ ستة أو سبعة آلاف من الأعوام ، فهو فكرة لا يمكن اعتبارها إلا باطلة تماما .

والأرض ، كما يعرف كل إنسان اليوم ، ذات شكل شبه كروى ، أى أنها كرة مضغوطة قليلا على نمط البرتقالة ، ذات قطر طوله ثمانية آلاف من الأميال تقريبا . وكان شكلها الكروى معروفا لدى عدد يسير على الأقل من نجباء الناس ، منذ قرابة ٢٥٠٠ سنة ، ولكن الناس كانوا قبل ذلك الزمن يظنون أنها منبسطة ، كما كانوا يذهبون فى شأن علاقاتها بالجو والنجوم والكواكب السيارة مذاهب شتى تبدو اليوم غريبة . ونحن اليوم نعرف أنها تدور حول محورها (الذى هو أقصر من قطرها الاستوائى بأربعة وعشرين ميلا تقريبا) مرة فى كل أربعة وعشرين ساعة ، وأن ذلك هو السبب فى تعاقب الليل والنهار ، وأنها تتم دورة كاملة حول الشمس مرة فى كل

عام فى مدار بيضاوى منحرف قليلا ومتغير تغيراً بسيطا . ويتراوح بعدها عن الشمس ، بين واحد وتسعين مليونا ونصف المليون من الأميال فى أقرب أوضاعها ، وبين أربعة وتسعين مليونا ونصف المليون من الأميال .

وتدور من حول الأرض كرة أصغر حجما ، هى القمر ، على مسافة متوسطها ٢٣٩٫٠٠٠ ميل . وليست الأرض والقمر الكتلتين الوحيدتين اللتين تسبحان حول الشمس . فهناك كذلك من الكواكب السيارة ، عطارد والزهرة ، على بعد ٣٦ ، ٦٧ من ملايين الأميال ؛ وفيما وراء مدار الأرض وبغض النظر عن منطقة من أجرام كثيرة أصغر حجما ، هى السيارات الصغرى (الكويكبات) Plauetoids ، يوجد المريخ والمشترى وزحل وأورانوس ونبتون على أبعاد متوسطها ١٤١ ، ٤٨٣ ، ٨٨٦، ١٧٨٢ ، ٢٧٩٣ مليون ميل على التعاقب ، ولا شك أن من العسير على الأفهام تصور هذه الأرقام المقدرة بملايين الأميال . وربما يسر الأمر على خيال القارىء تصغير حجم الشمس والكواكب إلى مدى أصغر يكون أدنى إلى التصور .

فإذا نحن على هذا الاعتبار صغرنا الأرض إلى كرة قطرها بوصة واحدة ، وجب أن تكون الشمس كرة كبيرة ذرع قطرها تسعة أقدام وعلى مبعدة ٣٢٣ ياردة ، أى ما يقارب خمس ميل تستغرق أربعا أو خمسا من الدقائق مشيا على الأقدام ، وعند ذلك يكون القمر فى حجم حمصة صغيرة على بعد قدمين ونصف من الأرض . ثم يأتى بين الأرض والشمس الكوكبان الداخليان ، عطارد والزهرة ، على بعد ١٢٥ ياردة ، ٢٣٣ ياردة من الشمس . ثم ينهض من حول هذه الأجرام فراغ يمتد حتى يبلغ المريخ وهو وراء الشمس بـ ٤٩٠ ياردة ، والمشترى وهو على ما يدانى الميل ، وقطره قدم واحدة ، ثم يجىء زحل وهو أصغر قليلا وعلى مسافة ميلين ، فأورانوس على أربعة أميال ، ثم نبتون على ستة أميال . ثم تأتى اللاشيئية والعدم لولا بعض جزئيات صغيرة وقطع متنقلة من البخار الخفيف تمتد إلى آلاف من الأميال ، ويكون أقرب نجم من الأرض على هذا القياس نفسه على بعد ٥٠٫٠٠٠ ميل .

وربما أعانتنا تلك الأرقام على تكوين صورة عن الخواء الذريع الذى يعم الفضاء الذى فيه تتوالى مسرحية الحياة .

ذلك أننا فى كل هذا الخواء الذريع الذى يعم الفضاء لا نعلم يقينا بوجود الحياة

إلا على سطح أرضنا ، تلك الحياة التى لا تغوص فى باطنها لأكثر من ثلاثة أميال من الأربعة الآلاف التى تفصلنا عن مركز كرتنا الأرضية ، كما أنها لا تعلو إلى أكثر من خمسة أميال فوق سطحها . وكل ما بقى بعد ذلك من فضاء لا حد له ولا نهاية يتسكون — حسبما يبدو — من خواء وعدم .

وأعمق ما بلغه الغوص فى أعماق المحيطات هو خمسة أميال . كما أن أعلى ما سجله الطيران من ارتفاع فى أطباق الجو لم يتجاوز الأربعة أميال إلا قليلا . حقا إن الإنسان قد صعد فى الجو إلى سبعة أميال بالمناطيد ، إلا أنه كابد فى سبيل ذلك آلاما ذريعة . ولا يستطيع طائر أن يرتفع إلى خمسة أميال ، إذ أن صغار الطيور والحشرات التى حملتها الطائرات تفقد وعيها قبل بلوغ ذلك المستوى من الارتفاع .

الفصل الثاني

العالم والزمان

ذهب العلماء فى السنوات الخمسين الأخيرة مذاهب شتى وممتعة فى تقدير عمر الأرض وأصلها . ولسنا ندعى ههنا أننا سندلى بموجز لتلك الآراء ، وذلك لانطوائها على أدق الاعتبارات الرياضية والطبيعية ، والحق أن العلوم الطبيعية والفلكية لا تزال حتى الآن بعيدة عن الاكتمال بعداً يجعل كل ما بذل فى مضمارها مجرد افتراضات تخمينية . والاتجاه العام للعلماء يجنح كل يوم إلى زيادة العمر المقدر للأرض . وأرجح تقديراتهم الآن أن الأرض كان لها وجود قائم بذاته ككوكب دوار يواصل الدوران حول الشمس لأكثر من بليونين (٢٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠) من السنين . وربما كانت المدة أطول من ذلك كثيرا ، ولكنها مدة يعجز الخيال تماما عن تصورها .

ولعل الشمس والأرض والكواكب الأخرى التى تدور حول الشمس كانت قبل تلك الفترة السحقية من وجودها المنفصل دوامة هائلة من المادة المنتشرة فى الفضاء . ويكشف لنا المرقب (التلسكوب) فى أجزاء مختلفة من السماوات عن غمامات لولبية منيرة من المادة ، هى السدم الحلزونية التى تبدو فى دوران مستمر حول مركز . ويظن كثير من علماء الفلك أن الشمس وكواكبها السيارة كانت يوما أحد تلك السدم الحلزونية ، وأن مادتها قد تحولت بالتركز إلى شكلها الحالى ، وتواصل ذلك التحول التركيزى دهوراً هائلة حتى أصبحت الأرض وقمرها مميزين فى تلك الحقبة البعيدة من الماضى السحيق ، الذى ترجمناه بالأرقام ، وكانا يدوران آنذاك بسرعة أكبر من سرعتهما الحالية ، إذ كان بعدهما عن الشمس أقل ؛ لذلك كانا يسبحان حولها بسرعة أشد ، ولعلهما كانا عند ذلك متوهجين أو منصهرى السطح ، وكانت الشمس نفسها شعلة فى السماء أكبر كثيرا مما هى عليه الآن .

ولو أننا استطعنا أن نخترق آماد ذلك الزمان السرمدى ، لنرى الأرض فى تلك المرحلة المبكرة من تاريخها لشهدنا منظرا أشبه بباطن أتون الصهر ، أو سطح

دافق من اللافا[1] المنصهرة قبل أن تبرد وتتصلب ـ منه بأى مشهد آخر معاصر . ولن نجد الماء هناك بطبيعة الحال ، إذ أن الماء الموجود قد استحال إلى بخار مستعر فى جو عاصف من الأبخرة الكبريتية والمعدنية . ولعلنا نجد من دون هذه الأبخرة بحراً متلاطما من المواد الحجرية المنصهرة . وإن وهج الشمس والقمر ليمر مارقا كسهم من لافح اللهب عبر جو من سحب نارية .

وبتعاقب السنين مليونا فى إثر مليون يأخذ ذلك المشهد النارى البركانى فى فقدان لظاه المتأجج ببطء تدريجى وتنساب أبخرة السماء إلى الأرض مطراً فيقل تركزها فى الجو . وتظهر على سطح ذلك البحر المنصهر كتل عظيمة من زبد الصخور الآخذة فى التصلب ، ثم تهبط دون السطح ليحل محلها كتل أخرى طافية . وتندفع الشمس والقمر عبر السموات فى سرعة متضائلة وقد أخذا يزدادان بعداً ويصغران حجما . وعند ذلك تكون حرارة القمر — نظراً لصغر حجمه — قد بردت بالفعل إلى ما دون التوهج ، ثم يأخذ على التوالى يحجب ضوء الشمس عن الأرض ويعكسه إليها فى سلسلة متعاقبة من الكسوف والبدور الكاملة .

وعلى هذا النحو من البطء الذريع فى خلال الزمن السرمدى أخذت الأرض تزداد قربا من حالها التى نعيش عليها اليوم ، حتى جاء فى النهاية عصر بدأ فيه البخار يتكثف سحباً فى الهواء البارد نوعا ، ثم تساقط أول المطر محدثا نشيشا[2] على ما تحته من الصخور الأولى . وتنقضى آلاف لا حصر لها من السنوات يظل أثناءها الجزء الأكبر من مياه الأرض بخاراً ، ولكن توجد هناك عندئذ سيول من التيارات الساخنة التى تنساب على الصخور الآخذة فى التبلور من تحتها ، كما توجد البرك والبحيرات التى تحمل تلك التيارات إليها حتاتة الأرض وتلقى فيها بالرواسب .

ولا بد أن تكون الحال قد وصلت آخر الأمر إلى مرحلة يستطيع فيها « إنسان » أن يقف على قدميه فوق الأرض وأن يتأمل ما حوله ويعيش على ظهرها ، ولو أنه قدر لنا أن نزور الأرض فى تلك الزمان لاضطررنا أن نقف على كتل ضخمة من الصخر الشبيه « باللافا » دون أن نعثر على أى أثر للتربة أو أية بقية للنبات ، فى جو مكفهر بالزوابع .

---

(١) اللافا (Lava) هى المادة الذائبة التى تقذفها البراكين من فوهاتها .
(٢) النشيش : صوت الغليان ، وذلك لأن المطر عند ما يلتقى بالصخور الساخنة يتبخر على الفور .

وربما تعرضنا آنذاك لعصف رياح حارة عنيفة تفوق أعنف ما نعرف من العواصف الهوجاء ، ولفجأتنا من المطر انهمارات لا تتأتى اليوم لأرضنا الأكثر وداعة والأشد بطئا ، ولوجدنا ماء ذلك المطر المنهمر يتدافع حوالينا عكراً بحطام الصخور ويلتقى بعضه ببعض فى سيول جارفة تنحت الخوانق الغائرة والوديان وهى مندفعة إلى البحار الأولى لتودعها رواسبها .

ولا بد أننا كنا نلمح من خلال السحب شمساً هائلة تتحرك أمام نواظرنا عبر السماء ، كما كنا نشهد فى أعقابها حين تمر وفى أعقاب القمر حركة مد يومى قوامها الزلازل والارتفاعات والتقببات فى القشرة الأرضية . ولا بد أن القمر الذى يطل الآن على الأرض بوجه واحد لا يتغير ، كان حينئذ يدور منيراً مرئياً كاشفاً الوجه الذى يداوم الآن ستره .

فلما شاخت الأرض ، وطال اليوم ، وغدت الشمس أبعد مسافة وأهدأ حدة ، وبطؤت سرعة القمر فى السماء ، خفت وطأة الأمطار والعواصف ، وتزايد الماء فى البحار الأولى وجرى جملة إلى المحيط الذى أصبح منذ ذلك الحين دثارا لكوكبنا .

ومع ذلك فلم تكن ثمة حياة على الأرض ، فكانت البحار خلوا من الأحياء ، والصخور جرداء قاحلة .

الفصل الثالث

بدايات الحياة

المصدر الذى نستقى منه إلى حد كبير معلوماتنا عن الحياة قبل ابتداء المحافظة على الذكريات والتقاليد الإنسانية الأولى هو الآثار والحفريات التى خلفتها الكائنات الحية فى الصخور الطباقية . ذلك بأن الطفل والإردواز والحجر الجيرى والرملى كلها تحتفظ لنا بالعظام والأصداف والألياف والجذوع والفواكه وآثار الأقدام والخدوش وما إليها ومعها آثار المد والجزر منذ أقدم العصور ، والخدوش التى أحدثتها أقدام الأمطار ، وقد تم لنا جمع التاريخ القديم لحياة الأرض فلذة بعد فلذة بطريق الفحص المضنى عن هذا السجل الحجرى . وذلك أمر يعد اليوم من المعلومات العادية . ولكن الصخور الطباقية (الرسوبية) لا ترقد طبقة فوق طبقة بنظام دقيق أنيق ؛ بل إنها تغضنت والتوت وتبعثرت وتعوجت ثم اختلطت على نحو ما يصيب صحف مكتبة منيت مرارا وتكرارا بالنهب والحريق ، ولذا فلم يتسن تنظيم هذا السجل وقراءته إلا بعد أن استنفدت فى سبيل ذلك أعمار كثيرة تفانى أصحابها فى الإخلاص لذلك العمل . ويقدر المدى الزمانى الكامل الذى يمثله سجل الصخور ببليون وستمائة مليون سنة — ١٫٦٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ سنة .

والچيولوچيون (علماء طبقات الأرض) يسمون أقدم صخور ذلك السجل الصخرى باسم الصخور « الآزوية Azoic » ، أى التى لا يبدو فيها أى أثر للحياة . وتوجد مساحات مترامية من هذه الصخور الآزوية عارية جرداء فى شمال أمريكا ، وهى بدرجة من السمك جعلت الجيولوجيين يقدرون عمرها بما لا يقل عن نصف عمر السجل الجيولوجى بأكمله . وإنى لمكرر على مسامعكم هذه الحقيقة الخطيرة : وهى أن نصف الحقبة الزمنية العظمى التى انقضت منذ أن تمايز اليابس والماء لأول مرة على ظهر الأرض ، لم يخلف لنا أى أثر للحياة ، حقاً لا تزال توجد على تلك الصخور آثار تموجات الماء وخدشات الأمطار ، ولكن ليس بها دلالات ولا آثار لأى كائن حى .

فإذا صعدنا درجات السجل بعد ذلك ، بدت علامات الحياة الماضية وأخذ عددها يتزايد . ويسمى الجيولوجيون هذا العصر من حياة العالم الذى نجد فيه هذه الآثار الغابرة باسم الزمن الپاليوزوى Palaeozoic السفلى .

وأول الدلالات على وجود الحياة ، الآثار والرفات الباقية لكائنات بسيطة ودنيئة نسبيا ؛ مثل أصداف أسماك محارية صغيرة وجذوع لحيوانات نباتية[١] ، ورءوس لها تشبه الأزهار وأعشاب بحرية ، وآثار حركات ديدان البحر والقشريات وبقايا لها . وتظهر منذ زمن مبكر جدا مخلوقات معينة تكاد تشبه قمل النبات ، وهى كائنات زاحفة لها قدرة على تكوير نفسها ، كما يفعل قمل النبات ، وتسمى التريلوبيت أى الثلاثة الفصوص[٢] . وبعد ذلك ببضعة ملايين من السنين تظهر أنواع معينة من العقارب البحرية ، وهى كائنات ألين حركة من كل ما شهده العالم من قبل من كائن حى وأكثر كفاية وقدرة .

ولم تحظ أية واحدة من هذه المخلوقات بضخامة الحجم وأكبرها صنف من العقارب البحرية كان طوله تسعة أقدام ، وليس هناك أى دليل يشهد على وجود أى نوع من الحياة فى البر نباتية كانت أو حيوانية ، ولا يحتوى هذا الجزء من السجل على أسماك ولا كائنات فقارية . وجميع النباتات والكائنات التى تخلفت لنا بقاياها عن تلك المدة من تاريخ الأرض ، ليست بالضرورة إلا كائنات مياه ضحلة أو مياه المناطق التى يتعاورها المد والجزر . وإذا شئنا أن نجد فى العالم اليوم شبيها لنبات وحيوان الصخور المتكونة فى الزمن الجيولوجى (الپاليوزوى) السفلى العتيق ، لوجدناه على أحسن صورة من كل النواحى إلا فى الحجم فى قطرة من الماء نأخذها من بركة صخرية أو حفرة مزبدة آسنة ، ثم نتفحصها تحت الميكروسكوب (المجهر) ، فما نجده هناك من القشريات والسمك المحارى الضئيل والحيوانات النباتية والطحالب يكون ذا شبه أخاذ بتلك الأصناف الأولى الفجيجة الأكبر حجما التى كانت فى يوم من الأيام أسمى ما بلغته الحياة على « كوكبنا » الأرض.

ومع ذلك فمن الخير أن نتذكر أنه يحتمل أن صخور الزمن الپاليوزوى السفلى قد لا تزودنا بشىء ما يمثل أو بدايات الحياة على كوكبنا . فإذا لم يكن للمخلوق عظام

---

(١) مثل ذلك الإسفنج والمرجان واسمها العلمى المرجانات Zoophytes .

(٢) الثلاثة الفصوص Trilobite هى حفريات من العصر الپاليوزوى السفلى العتيق لحيوانات ذات فصوص ثلاث وبدون فقار وهى من فصيلة العناكب Arachnida .

أو أجزاء أخرى صلبة ، وإذا لم يكن مكتسيا بقشرة صدفية أو ذا حجم كبير واف وثقل كاف ليطبع على الطين آثارا بارزة للأقدام والدروب المطروقة ، فمن غير المحتمل تخلف آثار حفرية بعده تدل على وجوده . ويوجد فى العالم اليوم مئات الآلاف من أنواع من المخلوقات الصغيرة الهشة الأجسام التى لا يتصور عقل إمكان تركها أى أثر يطوع لجيولوجى الغد العثور عليه . ولعل الماضى السحيق لهذا العالم كان يعج بملايين الملايين من أنواع تلك المخلوقات التى عاشت وتكاثرت وازدهرت ثم بادت من غير أن تترك أدنى أثر لها . وربما كانت مياه البحار والبحيرات الدفيئة الضحلة فى ذلك الزمن ، المسمى بالآزوى Azoic ، زاخرة بعينات لا آخر لها من أنواع الكائنات الدنيئة ، شبه الهلامية ، والمجردة من الأصداف والعظام ، وعينات أخرى لا حصر لها من النباتات الرغوية منتشرة فوق الصخور والشواطىء المعرضة للمد والجزر والمغمورة بضياء الشمس . ولم يصل السجل الصخرى للحياة الغابرة بعد إلى درجة الكمال ، مثله فى ذلك مثل دفاتر أحد المصارف من حيث عدم وفائها بحصر كل فرد بالمنطقة المجاورة للمصرف ، ولا يتيسر لأى نوع من الأنواع أن ينطبع على السجل حتى يأخذ فى تكوين محارة أو شويكة أو درقة أو جذع متكلس[١] ، يحفظه على هذه الصورة للمستقبل . على أنه يحدث أحيانا أن يوجد الجرافيت فى صخور سابقة فى عصرها على تلك التى تحمل آثار الحفريات ، والجرافيت الذى يسمى عادة باسم الرصاص الأسود — صورة من الكربون غير المركب ، ويرى بعض الثقات أنه ربما فصله عن مركباته النشاط الحيوى لكائنات حية مجهولة .

(١) الكلس : هو المادة الجيرية التى تتكون منها العظام والمحار .

الفصل الرابع

عصر الأسماك

كان المظنون أيام كان الناس يعتقدون أن العالم لم يدم إلا بضعة آلاف من الأعوام ، أن النباتات والحيوانات بأنواعها المختلفة إنما هى أشياء ثابتة ونهائية ؛ وأنها خلقت جميعاً كما هى عليه الآن تماما ، وخلق كل قائماً بذاته . ولكن حدث عندماشرع الناس ينقبون فى سجل الصخور ويدرسونه أن تزعزع هذا الاعتقاد بسبب الاشتباه فى أن كثيرا من الأنواع قد تغير وتطور ببطء على مر العصور ، ثم نمت هذه الفكرة بدورها حتى أصبحت اعتقادا بما يسمى النشوء العضوى والارتقاء ، وهو الاعتقاد بأن كافة ما على الأرض من أنواع الحياة سواء منها الحيوانى والنباتى ، ينحدر بعمليات تغير بطىء دائب ، من صورة سلفية غاية فى البساطة للحياة : مادة حية لا شكل لها تقريبا ، كانت موجودة أثناء العصور السحيقة فيما يسمى بالبحار الآزوية .

وقديما كانت مسألة النشوء والارتقاء العضوى هذه ، مثار مجادلات أليمة كثيرة بين الناس على غرار المسألة المتعلقة بعمر الأرض ، حتى لقد أتى على الناس حين من الدهر كانوا يظنون فيه أن الاعتقاد فى النشوء والارتقاء العضوى **Organic Evolntion** لا يستقيم — لعلة لا نعلمها — وتعاليم المسيحية واليهودية والإسلام الصحيحة . وقد انقضى ذلك الزمان ، وأصبح أشد الناس تمسكا بالعقائد الكاثوليكية الصحيحة والبروتستانتية واليهودية والإسلامية ، لايتحرجون من قبول هذا الرأى الأحدث والأشمل القائل بأن لجميع الكائنات الحية أصلا مشتركا . إذ لا يلوح أن الحياة نشأت فجأة على ظهر الغبراء . بل إن الحياة قد نمت ولا تزال تنمو . انقضت عصور بعد عصور ومرت دهور من الزمان يكل الخيال دون تصورها ، والحياة تتطور من مجرد هزة فى الصلصال المخضل بمياه المد والجزر إلى بحبوحة الحرية والقوة والإدراك .

تتكون الحياة من أفراد ، وهؤلاء الأفراد أشياء محددة ، فليسوا مثل القطع والكتل ، ولا هم يماثلون البلورات غير المحددة وغير المتحركة المكونة من المادة

غير الحية ، ثم إن لهم خاصتين مميزتين لا تشاركهم فيهما أية مادة فى عالم الجماد ، ذلك أنهم يستطيعون أن يتمثلوا فى أنفسهم مادة أخرى ويحيلونها إلى جزء منهم كما أنهم يستطيعون أن ينتجوا لأنفسهم خلفا : فهم يأكلون وهم يتناسلون وهم يستطيعون أن ينشئوا أفرادا أخر يشبهونهم إلى حد كبير ، وإن اختلفوا عنهم مع ذلك نوعا ما . وإن هناك لمشابهة نوعية وعائلية بين الفرد ونسله ، كما أن هناك فارقا فرديا بين كل والد وكل مولود له ، وهـــذا صحيح فى كل نوع من الأنواع وفى كل مرحلة من مراحل الحياة .

ورجال العلم لا يستطيعون حتى الآن أن يبينوا لنا ما الذى يوجب على النسل أن يشابه والديه وما الذى يوجب عليه أن يختلف عنهما . ولـكن نظراً لأن الذرية يجتمع فيها الشبه والاختلاف فى وقت واحد ، فإن من المعقول وإن لم يثبت علمياً أنه إذا تغيرت الظروف التى يعيش فيها النوع ، وجب أن يطرأ على النوع بعض تغيرات مناسبة . ومرد ذلك أن أى جيل من أجيال النوع يجب أن يوجد فيه عدد من الأفراد تهيء لهم فوارقهم الفردية قدرة أكبر على التـكيف بالظروف الجديدة التى لا بد للنوع أن يعيش فيها ، (وعدد آخر) فوارقه الفردية تجعل من العسير عليه نوعا ما أن يعيش . والقسم الأول يكون أطول فى الجملة عمرا وأكثر نسلا من القسم الثانى ؛ وهكذا يتطور مستوى النوع جيلا بعد آخر فى الاتجاه الملائم . وهذه العملية التى يطلق عليها « الانتخاب الطبيعى » ليست نظرية علمية بقدر ما هى نتيجة حتمية لحقائق التوالد والفوارق الفردية . قد تـكون هناك عوامل كثيرة تعمل عملها فى تبديل النوع أو إبادته أو صيانته ، دون أن يتنبه العلم إليها إلى اليوم أو يبت فيها برأى ، ومع ذلك فالرجل الذى يتأتى له أن ينـكر سريان عملية الاختيار الطبيعى هذه فى الحياة منذ بدايتها ، لا بد أن يكون إما جاهلا بالحقائق الأولية للحياة وإما غير أهل للتفـكير العادى .

ولـكثير من رجال العلم آراء وتأملات ونظر حول البداية الأولى للحياة ، وغالبا ما تـكون نظراتهم تلك عظيمة النفع ، ولـكن أحدا منهم لم يصل إلى أية معلومات باتة محددة ولا فرض علمى يركن إليه عن الصورة التى بدأت بها الحياة . على أن جميع الثقات يكادون يجمعون على أنها ربما ابتدأت على الطين أو الرمل بالمياه الدفيئة الضحلة القليلة الملوحة والمعرضة لنور الشمس . وأنها امتدت على السواحل حتى بلغت منطقة تعاقب المد والجزر ثم إلى خارج ذلك من المياه المـكشوفة .

كان ذلك العالم الغابر عالم مدوجزر وتيارات قوية . ولا بد أن إبادة الأفرادلم تسكن تقف عند حد قذف التيارات لها إلى الشواطىء ثم جفافها هناك ، أو عن طريق دفعها إلى عرض البحر وغرقها فيه فى غور لا تصله الشمس ولا الهواء . وكانت الظروف الباكرة تلائم كل تطور يتجه إلى تثبيت الجذور والبقاء ، وتشجع أى اتجاه لتكوين قشرة خارجية وغلاف يقى الفرد المتخلف على الشاطىء شر الجفاف المفاجىء . ومنذ البداية البعيدة كان أى اتجاه شعورى للذوق يجر الفرد إلى ناحية الطعام ، وأى اتجاه شعورى إلى الضوء يهديه إلى التخلص من الظلمة فى أعماق البحر ومجاهله أو إلى التلوى فرارا من التوهج الشديد فى الأضحال[1] الخطرة .

ولعل أول المحارات والدروع الواقية لأجسام الكائنات الحية كانت وقايات لها من الجفاف لا من أعدائها . ولكن لوحظ أن الأسنان والأظافر تظهر فى حقبة مبكرة من تاريخ الأرض .

وقد سبق أن ذكرنا حجم العقرب المائية الأولى . وانقضت عصور طويلة ومثل هذه المخلوقات هى صاحبة السيطرة فى الحياة . ثم يظهر بعد ذلك فى قسم من الصخور الباليوزوية يسمى بالقسم السيلورى Silurian ، (الذى يعتقد كثير من الجيولوجيين اليوم أن عمره ٥٠٠ مليون سنة) طراز جديد من الكائنات مزود بالأعين والأسنان والقدرة على السباحة بشكل قوى لم يسبق له مثيل . ذلك الطراز الجديد أول ما نعرف من الحيوانات ذوات العمود الفقرى ، وهو أقدم « الأسماك » : أول الفقاريات المعروفة .

---

(١) الأضحال : جمع ضحل وهو الماء القليل الغور .

الفصل الخامس

عصر مستنقعات الفحم

كانت اليابسة أثناء عصر الأسماك هذا خالية من الحياة تماما كما هو واضح . فإن شوامخ الصخور والأراضى الجبلية المرتفعة الجرداء كانت تسبح فى أشعة الشمس ومياه المطر ، أما التربة بمعناها الصحيح فلم تكن موجودة — إذ لم توجد حتى آنذاك أية ديدان أرضية تساعد على تفتيت جزيئات الصخور وتحولها إلى تربة ؛ كما أنه ليس هناك أثر مطلقاً لطحلب أو عشب بحرى . وكانت الحياة لا تزال تلازم البحر وحده .

وتناولت هذا العالم الصخرى الأجرد عوامل تغيرات عظيمة فى المناخ . وأسباب هذه التغيرات المناخية فى غاية التعقيد ، كما أنها لا تزال بحاجة إلى من يقدرها التقدير الصحيح ولعل من أسباب ذلك تغير شكل مدار الأرض ، والتزحزح التدريجى فى ميل محور الدوران ، وتغير أشكال القارات بل ربما أيضا ما ألم بحرارة الشمس من تقلبات، لعل هذه الأسباب مجتمعة قد تضافرت تارة على غمر مساحات واسعة من سطح الأرض بالبرد والجليد إبان أحقاب طويلة من الزمن وتارة أخرى على نشر مناخ دفىء أو معتدل أمد ملايين من السنين على سطح هذا الكوكب . ويلوح أن تاريخ العالم حافل بفترات الثوران الباطنى العظيم ، فترادفت إبان بضع ملايين من السنين عمليات رفع تمخضت عن سلاسل متلاحقة من الثوران البركانى والارتفاعات ، فأعيد بذلك تشكيل الجبال ومعالم القارات على ظهر الكرة الأرضية وبذلك زادت البحار عمقا والجبال ارتفاعا، وبلغت تطرفات المناخ أقصى الحدود . ثم يعقب تلك الفترات عصور مترامية من الهدوء والتوازن النسبى ، تضافر فيها الصقيع والمطر والأنهار على تفتيت ارتفاعات الجبال ، وحمل مقادير ضخمة من الغرين لتملأ أغوار البحار وترفع قاعها فتتسع بذلك رقعتها مع زيادة ضحالة البحر وانتشاره فوق قدر متزايد من اليابسة . وكم من عصر فى تاريخ العالم اجتمع فيه « الارتفاع والعمق » أو تجاوز فيه « الانخفاض والاستواء » . ويجب أن يبعد القارىء عن ذهنه كل فكرة توحى بأن سطح الأرض ظل يبرد باطراد منذ أن تجمدت قشرتها فبعد أن بلغت وقتئذ ذلك القدر الكبير من البرودة ، كفت الحراة الباطنية عن أن تؤثر فى أحوال السطح . وشاهد ذلك أن هناك آثارا لفترات تكاثر أثناءها الثلج

والجليد بوفرة عظمى ، وهى « العصور الجليدية » التى حدثت حتى فى العصر الآزوى نفسه (مع شدة قدمه) . ولم تتمكن الحياة من الانتشار من الماء إلى اليابسة بطريقة فعالة حقا إلا عند قرب نهاية عصر الأسماك ، فى فترة كثرت فيها البحار والمستنقعات الفسيحة الضحلة . ولا شك أن الأنماط الأول من الأشكال التى بدأت عندئذ فى الظهور بوفرة كبيرة ظلت تتطور قبل ذلك تطورا نادرا خفياً إبان عشرات ملايين من السنوات ولكن ها قد وافت الآن فرصتها .

ولا شك أن النباتات سبقت الأشكال الحيوانية فى غزوها هذا لليابسة ، ولكن الراجح أن الحيوانات تعقبت خطى النبات فى هجرته . وأول مشكلة وجب على النبات حلها هى مشكلة الحصول على عماد صلب يدعم خويصاته[1] Fronds التى يدفع بها نحو ضياء الشمس عند ما تنسحب المياه التى يطفو عليها ؛ والمشكلة الثانية هى صعوبة الحصول على الماء — الذى لم يعد آنذاك قريبا فى متناول اليد — من الأرض الموحلة فى أسفل إلى أنسجة النبات . وقد حلت المشكلتان بنشوء الألياف الخشبية التى صلب بها عود النبات وأوصلت الماء إلى أوراقه . وعلى حين بغتة يكتظ سجل الصخور بأضرب جمة من النباتات الخشبية للمستنقعات ، كان الكثير منها ضخم الحجم ، كالطحالب الشجرية الكبيرة والسراخس الشجرية وأشجار الأمسوخ[٢] الهائلة وما أشبهها وسايرت زحف هذه النباتات من الماء عصرا بعد عصر أضرب كثيرة من الأشكال الحيوانية ، مثل أم أربعة وأربعين والدود ذو الألف رجل ، وأوائل الحشرات البدائية ، ثم مخلوقات قريبة الشبه بالنوع العتيق المسمى ملك الكبوريا[٣] King-Crab والعقارب البحرية التى تحولت إلى أقدم العناكب والعقارب الأرضية ، وسرعان ما وجدت حيوانات فقارية .

وكان بعض الحشرات الأولى كبيرا جدا . فهناك رعاشات[٤] (Dragon Flies) ربما بلغ امتداد جناحيها تسعا وعشرين بوصة .

---

(١) الخويصات Fronds وتسمى أيضاً الفرونات هى نباتات بدائية لم يتمايز فيها الساق من الورق فهى سيقان ورقية أو متورقة .
(٢) الأمسوخ هو مايسمى بذيل الفرس .
(٣) هو عنكبوت بحرى عجيب له درع على شكل حدوة الحصان وهو آخر من تبقى من فصيلته
(٤) وتسمى بالسرمان أيضا وهى حشرة زاهية الألوان ذات إشعاع شفافة الجناحين .

وقد استطاعت هذه الرتب (orders) والأجناس (genera) الجديدة أن تكيف نفسها بطرق مختلفة لتنفس الهواء . وكانت الحيوانات حتى ذلك الحين تتنفس الهواء الذائب في الماء ، والحق أن ذلك نفسه هو ما لا تزال الحيوانات جميعاً مضطرة أن تفعله . ولكن مملكة الحيوانات كانت قد شرعت عند ذلك أن تكتسب ، بطرائق منوعة ، القدرة على تزويد نفسها بما يعوزها من رطوبة حيثما دعت الحاجة ، فإن رجلا له رئة جافة تماما لا منجاة له اليوم من الاختناق ؛ إذ لابد لسطوح رئته من أن تكون رطبة لكى ينفذ الهواء من خلالها إلى دمه . والتكيف لتنفس الهواء قوامه فى جميع الحالات أحد أمرين : فإما أن يتكون للخياشيم القديمة الطراز غطاء يوقف عملية البخر ، وإما أن تنشأ أنابيب أو مسالك أخرى جديدة للتنفس تندس فى صميم الجسم وترطبها إفرازات مائية . ذلك أن الخياشيم القديمة التى كان السمك الذى يعد سلفا للسلالة الفقارية يتنفس بها كانت غير صالحة للتنفس على البر . وقد حدث فى هذا القسم من مملكة الحيوان ، أن مثانة العوم هى التى أصبحت عضواً جديداً متأصلا للتنفس هو الرئة . والحيوانات المعروفة باسم البرمائيات ، وهى الضفادع وسمندل الماء الحالية ، تبدأ حياتها فى الماء ، وتتنفس بالخياشيم ؛ ثم يحدث بعد ذلك أن الرئة تتولى عملية التنفس إذ تتطور على نفس النمط الذى يحل بمثانات العوم عند كثير من الأسماك ، كنمو فى الزور شبيه بالكيس ، فيبرز الحيوان إلى الأرض ، وتضمحل الخياشيم وتختفى شقوق الخياشيم (تختفى جميعاً إلا نتوءاً فى شق واحد من شقوق الخياشيم ، يصبح فتحة الأذن وطبلتها) وعندئذ لايستطيع الحيوان البرمائى أن يعيش إلا فى الهواء ، ولكن لابد أن يعود إلى حافة الماء على الأقل ، لكى يبيض بيضه وينتج نوعه .

وكانت جميع الفقاريات المتنفسة للهواء فى هذا العصر عصر المستنقعات والنباتات تنتسب إلى فصيلة البرمائيات . وكلها تقريبا أشكال ذات قربى بسمندل العصر الراهن ، كما كان بعضها يصل إلى حجم ضخم ، حقا إنها كانت حيوانات برية ، غير أنها حيوانات برية تحتاج إلى أن تعيش فى الأماكن الرطبة والمستنقعات وبالقرب منها ، وكانت جميع الأشجار الكبرى فى ذلك العصر برمائية هى الأخرى مثل حيوانه تماما ، ولم يكن شىء منها قد أنتج حتى ذلك الحين ثمراً ولا حبا يمكن أن يقع على الأرض وينبت بدون مساعدة أية رطوبة إلا ماقد يجلبه الندى والمطر . إذ لم يكن أمامها فما يلوح مفر من أن تسقط أبواغها Spores[١] فى الماء إن قدر لها أن تتوالد .

(١) البوغ : Spore جسم أو (بذرة) مفرد الخلية منتج بغير نشاط جنسى .

ومن أمتع نواحى ذلك العلم الجميل « التشريح المقارن » اهتمامه بتعقب التكيفات المعقدة المدهشة التى حدثت للكائنات الحية وفق مايستلزمه العيش فى الهواء لجميع الكائنات الحية سواء منها الحيوانية أو النباتية ، إنما هى قبل كل شىء كائنات مائية . مثال ذلك أن جميع مايعلو الأسماك من الحيوانات الفقارية العليا فى تصاعدها حتى تشمل الإنسان نفسه ، تمر أثناء تطورها داخل البيضة أو فى الرحم قبل الميلاد ، فى مرحلة تكون لها فيها شقوق خياشيم تنمحى قبل خروج الجنين .

والعين التى هى فى السمكة عارية متصلة بالماء ، يمنعها من الجفاف فى الأشكال الحيوانية العليا جفون وغدد تفرز الرطوبة . وتموجات الصوت الخافتة فى الهواء تخلق الحاجة إلى طبلة للأذن . وإنك لتلاحظ فى كل عضو من أعضاء الجسم تقريبا تعديلات وتكييفات مماثلة لهذه ، فضلا عن توفيقات أخرى مماثلة لمواجهة الهواء وظروفه .

وكان عصر الطبقات الفحمية (Carboniferous) هذا ، أى عصر البرمائيات عصر حياة فى المستنقعات والبرك ، وعلى الشطوط المنخفضة فى تلك المياه . وكان هذ هو أقصى انتشار بلغته الحياة . فأما التلال والمرتفعات فكانت لاتزال مقفرة تماما من كل حياة ... لقد تعلمت الحياة أن تتنفس الهواء ، ولكن كانت لاتزال متأصلة فى الما موطنها الأول ، وكان عليها أن ترجع إلى الماء لتتوالد وتنتج سلالة نوعها .

الفصل السادس

عصر الزواحف

مرت فترة وفرة الكائنات الحية لعصر تكوين الطبقات الفحمية ، وجاءت فى أعقابها دورة مترامية من عصور جفاف وعسرة ويمثلها فى سجل الصخور رواسب سميكة من الحجر الرملى وأضرابه ، الحفريات فيها قليلة نسبياً . ذلك أن درجة حرارة العالم كانت تتقلب تقلباً شديداً فثمة آماد طويلة من الزمهرير الفارس ، ترتب عليها هلاك تلك الوفرة الشديدة من نباتات المستنقعات فوق مساحات واسعة من الأرض ، حتى إذا غطتها الرواسب الأحدث عهداً ، بدأت فيها عملية الضغط والتمعدن[1] التى منحت العالم معظم رواسب الفحم فى هذا العصر .

ولكن الحياة إنما تتعرض لأسرع التعديلات أثناء فترات التغير ، كما أنها إنما تلق أثمن ماتتعلم من دروس إبان المحن والشدائد . حتى إذا ارتدت الأحوال نحو الدفء والرطوبة وجدنا سلسلة جديدة من الأشكال الحيوانية والنباتية قائمة متأصلة . ووجدنا فى السجل بقايا حيوانات فقارية تبيض بيضاً ، لايتفتح عن أبى ذنيبات تحتاج إلى العيش فترة ما فى الماء ، بل هو شىء ارتقى فى سلم التطور قبل الفقس إلى مرحلة تقارب صورة الفرد التام الناضج من أبناء جنسه قربا يستطيع الصغير معه أن يعيش فى الهواء منذ اللحظة الأولى التى ينفصل فيها ويستقل بوجوده . لقد ذهبت الخياشيم تماماً ، ولم تظهر شقوق الخيشوم إلا كمرحلة من مراحل الجنين .

هذه المخلوقات الجديدة المجردة من مرحلة الذنيبات هى الزواحف . وصحب تطورها تطور للأشجار الحاملة للبذور ، والتى كانت تستطيع أن تنشر بذورها دون حاجة إلى المستنقع أو البحيرة . فكانت هناك آنذاك حزازيات شبيهة بالنخيل وكثير من أشجار المخروطيات الاستوائية ، وإن لم يوجد حتى ذلك الحين نباتات ذات أزهار ولا عشب .

---

(١) التمعدن أو المعدنة أو التفلز : اكتساب الأشياء غير المعدنية خصائص المعادن .

كان هناك عدد عظيم من السراخس . وتزايد كذلك فى ضروب الحشرات وأنواعها . فكانت هناك الخنافس ، وإن لم يكن النحل قد ظهر بعد ولا الفراشات . ولكن لاشك أن الدعامة الأساسية لجميع الأشكال الجوهرية لحيوانات ونباتات جديدة أرضية ، قد وضعت حقاً أثناء هذه العصور المترامية من العسر والشدة . ولم يكن يعوز هذه الحياة الجديدة على اليابسة إلا شىء واحد هو الظروف المواءمة لازدهارها وانتشارها .

وجاءت تلك الظروف وأخذت قساوة الجو تخف عصرا بعد عصر ومع كثير من التقلبات . وتكاتفت حركات القشرة الأرضية التى لم تبرح تتعاقب بغير حصر ، وتغيرات مدار الأرض وتقلب زاوية الميل المتبادل بين المدار والمحور زيادة ونقصاناً ، وراحت تعمل جميعها على إيجاد فترة عظيمة من الدفء الواسع النطاق . ويروى العلماء اليوم أن تلك الفترة دامت فى مجملها مايربى على مئتى مليون من الأعوام . وهى تسمى باسم الزمن الميزوزوى ، تفريقا لها عن الزمنين الآزوى والباليوزوى السابقين لها والمتفوقين عليها تماما فى الضخامة (ومجموعهما ألف وأربعمائة مليون سنة) وتمييزاً لها أيضاً عن الزمن السكاينوزوى (أى فترة الحياة الجديدة) الذى جاء بين نهايتها وعصرنا الراهن، كما أنها تسمى أيضا باسم عصر الزواحف بسبب تسلط هذا الشكل من أشكال الحياة فيها وكثرة أضربه إلى حد يبعث على الدهشة وقد انتهى ذلك العصر منذ حوالى ثمانين مليونا من السنين.

وأجناس الزواحف قليلة نسبيا فى العالم اليوم ، كما أن توزيعها فيه محدود جداً . نعم إنها أكثر تنوعا من القلة القليلة الباقية من أعضاء رتبة البرمائيات التى كانت صاحبة السلطان فى العالم فى عصر الرواسب الفحمية. إذ لا يزال لدينا الثعابين والترسة البحرية والسلاحف البرية (Chelonia) والتمساح الأمريكى (Alligator) والتماسيح العادية والسحالى[١] ، وكلها بلا استثناء مخلوقات تحتاج إلى الدفء على مدار السنة ، فهى لاتستطيع أن تتحمل التعرض للبرد ، والراجح أن جميع زواحف الزمن الميزوزوى قد كابدت الأهوال لنفس هذا السبب . كانت حيوانات مما ينمو فى البيوت الزجاجية الدافئة ، تعيش بين نبات مما يربى فى تلك البيوت الزجاجية نفسها . فلم تكن تتحمل

(١) السحالى : Lizzads دويبة ملساء تمشى مشيا سريعا ثم تقف وتسمى أيضا العظاية والعظاءة وجمعها عظاء وعظايا وعظايات (المنجم) .

صقيعا . ولكن العالم كان قد وصل إلى حيوان ونبات الأرض الجافة الحقيق، والمختلف تماما عن حيوان ونبات الطين والمستنقعات فى العصر السابق من عصور ازدهار الحياة على سطح الأرض .

وكان جميع أنواع الزواحف المعروفة لنا الآن أكثر عدداً فى تلك العصور ، فهناك ترسات وسلاحف كبيرة ، وتماسيح ضخمة وكثير من السحالى والثعابين ، ولكن كان هناك عدا ذلك عدد من عائلات من المخلوقات العجيبة التى اختفت الآن تماما من هذه الأرض . فثم أنواع جمة من كائنات تسمى الدناصير : [العظايا المهولة].وكان النبات قد شرع فى الانتشار حينئذ فوق مافى العالم من المستويات المنخفضة . فتكاثر القصب (البوص) وآجام السرخس وما ماثلها ؛ وفى هذه الوفرة من الخيرات أخذت جمهرة غفيرة من الزواحف المقتاتة بالأعشاب (Herbivorous) تعيش وترعى ، وأخذ حجمها يتزايد باطراد كلما تقدم الزمن الميزوزوى إلى ذروته ومن هذه الوحوش ماتفوق فى حجمه على كل حيوان برى عاش على ظهر البسطة قبلها ؛ فهى تضارع الحيتان فى حجمها فكانت العظاءة مزدوجة العاتق (الديبلودوكس كارنيجاى Diplodocus Carnegii) مثلا تمتد أربعة وثمانين قدما من البوز إلى الذيل؛ كما أن العظاءة الماردة (الجيجانتوصور) كانت أكبر منها أو تكاد ، إذ كان طولها مئة قدم ، وكان يعيش على هذه الوحوش حشد من العظايا المهولة (الدناصير) آكلة اللحوم (Carnivorus) المتناسبة معها حجما . وكثير من الكتب تصور أحد أفراد هذا النوع وهو العظاية الجبارة (التيرانصور) وتصفه بأنه قد بلغ الغاية فى شناعة الزواحف .

وبينما كانت هذه المخلوقات الضخمة ترعى وتتعقب بعضها بعضاً بين السيقان الورقية (Fronds) والنباتات الدائمة الخضرة للآجام الميزوزوجية، إذا قبيلة أخرى من الزواحف تطورت أطرافها الأمامية حتى أصبحت تشبه المضرب — ولا وجود لهـا الآن — تتأثر الحشرات وتتعقب بعضها البعض ، بادئة بالوثب والهبوط ثم طائرة بعد ذلك بين أغصان الغابة وسيقانها الورقية وتلك هى التيرودا كتيل (أى ذو الأصبع المجنح) (١) . وهو أول الكائنات الطيارة ذات العمود الفقرى ؛ ووجوده يشير إلى فوز جديد أحرزته القوى النامية للحيوانات الفقارية .

---

(١) وهى إحدى الحفريات : زاحفة طيارة لها جمجمة كبيرة كجمجمة الطير وغشاء للطيران يتصل بالأصبع الخامس الطويل .

وفضلا عن ذلك فإن بعض الزواحف أخذت فى العودة إلى مياه البحر . فإن طوائف ثلاث من كائنات كبيرة سباحة ، عادت إلى انتجاع البحر الذى خرجت منه أسلافها ؛ هى عظايا نهر الموز (الموسوصور) وأشباه العظايا (البلسيوصور) وعظايا البحر المندثرة (الإخثيوصور) . وبعض هذه يقارب فى حجمه حيتاننا الراهنة ، ويلوح أن الإخثيوصور كان حيوانا تام القدرة على ارتياد البحر ، ولكن البلسيوصور طراز من حيوان ليس له الآن ما يماثله . فجسمه كان بدينا ضخما له مجاديف عريضة ، مكيفة إما للسبح أو الزحف فى المستنقعات أو فوق قاع المياه الضحلة . أما الرأس الصغيرة نسبيا فمنصوبة فوق رقبة كالثعبان هائلة لا تكاد تدانيها رقبة البجعة . والظاهر أن البلسيوصور كان يعوم ويبحث عن الطعام تحت الماء ويغتذى كما نفعل البجعة ، أو يتربص تحت الماء ويختطف ما يمر به من سمك أو بهيمة .

تلك هى أهم أنواع الحياة الموجودة فى البر طوال الزمن الميزوزوى . فهى تعتبر — بمقاييسنا البشرية — تقدما فاق كل شىء سبقها . إذ أنها أنتجت حيوانات برية أكبر حجما وأوسع انتشاراً وأعظم قوة ونشاطا ، وأحفل بالحيوية (كما يقول الناس) من أى شىء شهده العالم قبلها . أما البحار فلم يحدث بها تقدم مماثل لذلك ، بل ظهر تكاثر عظيم لأشكال جديدة من الحياة . فظهرت فى البحار الضحلة أضرب هائلة العدد من مخلوقات تشبه أم الخبرذات محار مقسم إلى تجاويف معظمها حلزونى ، وهى العمونى[١] بأنواعه ، وللعمونى أسلاف قديمة فى بحار الزمن الباليوزوى . ولكن هاقد حل الآن عصر مجده . غير أنه انقرض كله ولم يبق منه اليوم أى كائن يمثله ، وأدنى الكائنات شبها به فى الوقت الحاضر هو النوتى اللؤلؤى[٢] ، الذى يعيش فى المياه المدارية ، ثم ظهر بعد ذلك طراز جديد من سمك أكثر نسلا وأشد تكاثراً وذى قشور أخف وأرق من تلك الأغطية الشبيهة بالدرقات والشبيهة بالأسنان ، التى كانت منتشرة حتى آنذاك فأصبح هو النوع السائد فى البحار والأنهار ولا يزال كذلك إلى اليوم .

---

(١) العمونى Ammonites صدف حفرى منسوب للاله عمون .

(٢) النوتى اللؤلؤى Nautilus صنف من الحيوانات البحرية جميل الصدف .

الفصل السابع

الطيور الأولى والثدييات الأولى

أوضحنا لكم فى إيجاز حالة النبات الوفير والزواحف الحاشدة التى كانت تمرح فى ذلك الصيف العظيم الأول للحياة : أعنى الزمن الميزوزوى . وبينما كانت الدناصير تسود ذلك العصر فى مراعى السلفاس وسهول المستنقعات الحارة ، والتيرودا كتيل يملأ سماء الغابات برفرفة أجنحته ، بل وربما يشق الجو أيضاً بصرخاته ونعيقه ، وهو يتعقب الحشرات الطنانة بين الشجيرات والأشجار التى لم تزل بعد مجردة من الزهر ،كانت أشكال حيوانية أخرى أقل أهمية وأدنى فى عدد أشكالها ، تعيش على هامش هذه الحياة الوفيرة الزاخرة وتحرز قوى خاصة وتتعلم دروساً معينة من الاحتمال عادت على نوعها بالخير العميم عندما حل أخيراً اليوم الذى شرعت فيه الشمس والأرض تضنان بسماحتهما البسامة .

والظاهر أن مجموعة من قبائل وأجناس الزواحف النطاطة ، وهى مخلوقات صغيرة من طراز الدينوصور ،قد أكرهتها المنافسة وتعقب الأعداء لها على المفاضلة بين أمرين: إما الانقراض أو التكيف وفق الظروف الأكثر برودة فوق التلال العالية أو إلى جوار البحر . وفى هذه القبائل التى ابتليت بالمحن تطور طراز جديد من القشور ؛ قشور مطت فأصبحت ذات أشكال تشبه أنابيب الريش ؛ وسرعان ما تفرعت تلك الأنابيب وأصبحت بدايات فجة للريش . وكانت هذه القشورة الشبيهة بأنابيب الريش ترقد إحداها فوق الأخرى مكونة غلافا حافظاً للحرارة أكثر من أى غلاف للزواحف وجد حتى ذلك الحين . وبذلك أتاحت لها أن تغزو المناطق الأكثر برودة والتى كانت قبل ذلك غير مأهولة . وربما صحب تلك التغيرات زيادة فى اهتمام هذه المخلوقات ببيضها فمن الجلى أن معظم الزواحف لاتعنى ببيضها أقل عناية ، بل تتركه لتتولى فقسه الشمس والوقت المناسب ولكن بعض أنواع هذا الفرع الجديدمن شجرة الحياة أخذت تكتسب عادة حراسة بيضها والمحافظة على دفئه بوساطة حرارة أجسامها .

وفضلا عن هذه التكيفات وفق البرودة،كانت تجرى تكيفات باطنية أخرى جعلت هذه المخلوقات ـ وهى الطيور البدائية ـ دفيئة الدم مستغنية عن الاصطلاء والاستدفاء. ويبدو أن أقدم أنواع الطير كافة كانت طيوراً بحرية تعيش على السمك ، وأن أطرافها الأمامية لم تكن أجنحة بل مضارب أو مجاديف تكاد تشبه مايوجد فى طائر البطريق. (البنجوين) وإذا نظرت إلى طائر الكيوى النيوزيلندى ذلك الطير البدائى الممعن فى بدائيته وجدت له ريشاً ذا طراز بسيط جدا ، ورأيته لايطير ولا يبدو عليه أنه ينحدر عن سلف طيار . ذلك أن الريش ظهر فى عملية تطور الطير قبل الأجنحة . ولكن ماكاد الريش يتطور ، حتى أصبح من المحتم أن يؤدى إمكان انتشاره انتشارا خفيفاً إلى ظهور الجناح ، وإنا لنعرف حفريات لطائر واحد على الأقل كانت له فى فكه أسنان من نوع أسنان الزواحف ، كما كان له ذيل كذيل الزواحف طويل ، ولكن كان له أيضاً جناح طير حق ، ولا مراء أنه كان يطير ويقوم بشئون نفسه بين التيرودا كتيل فى الزمن الميزوزوى . ومع هذا فالطيور لم تكن بالمتنوعة ولا الوفيرة فى الأزمنة الميزوزوية فلو تهيأ لإنسان أن يكر راجعاً إلى قطر ميزوزوى نموذجى ،لسار أياما كثيرة دون أن يرى شيئا يسمى بالطير أو يسمع له صوتا ، وإن رأى كثرة عظيمة من التيرودا كتيل والحشرات بين السيقان الورقية والقصبات .

وثم شيء آخر لعل عينيه لاتقعان على أى أثر له هو الثدييات . والراجح أن الثدييات الأولى كانت موجودة لعدة ملايين من السنين قبل ظهور أول طائر يمكن تسميته بذلك الاسم ، ولكنها كانت من الصغر والضآلة والانزواء بحيث كان من الصعب أن يلحظها المشاهد .

والثدييات الأولى ـ شأن الطيور الأولى ـ مخلوقات دفعتها المنافسة والمطاردة إلى تجشم حياة حافلة بالشدايد وبالتكيف مع البرد .وفيها أيضا اتخذ القشر شكل قصبة الريشة ، ثم تطور إلى غلاف حافظ للحرارة ؛ ثم ألمت بها أيضا بعض تعديلات ؛ تتمشى فى نفس الاتجاه والنوع وإن اختلفت فى التفاصيل ، وأصبحت على أثرها دفيئة الدم مستغنية عن الاستدفاء والاصطلاء.فبدلا من الريش طورت الثدييات الشعر،وبدلا من حراسة بيضها واحتضانه ، كانت تحتفظ به دافئا مصونا باستبقائه داخل أجسامها حتى يقارب النضج . وأصبح معظمها ولودا بصفة نهائية وأخذ يخرج صغاره إلى الدنيا حية وحتى بعد ميلاد صغارها ظلت تجنح إلى الارتباط بها ارتباطا يقوم على الوقاية والتغذية

وجل الثدييات اليوم ، إن لم تكن كلها ، ذات أثداء وترضع صغارها . ولا يزال هناك حيوانان ثدييان يبيضان البيض وليس لهما أثداء بالمعنى الصحيح ، وإن غذيا صغارهما بإفراز مغذ يخرج من تحت جلدهما ، وهما البلاتيب البطى المقار والإخيدنا(١). والحيوان الأخير يبيض بيضا يشبه الجلد ، ثم يضعه فى كيس أسفل بطنه ، وبذلك يحمله أينما ذهب وهو فى دفء وأمان حتى يفقس .

وكما أن الزائر للعالم الميزوزوى ربما بحث أياما وأسابيع قبل العثور على طائر ، فربما اضطر أيضاً إلى البحث عن آثار الحيوان الثديى دون جدوى ، مالم يكن يعرف بالضبط أين يبحث عنه . ولا شك أن كلا من الطيور والثدييات كانت تبدو فى العصر الميزوزوى مخلوقات غريبة الأطوار ثانوية الدرجة غير ذات أهمية .

ويقدر أهل العلم عمر عصر الزواحف بثمانين مليون سنة ، فلو فرض أن كائنا أوتى ذكاء الإنسان وعقله لبث يرقب العالم طوال ذلك الأمد البعيد الذى لايكاد يتصوره عقل ، فكم كانت الوفرة والخيرات وضياء الشمس تلوح له عند ذاك أبدية راسخة القدم !' .. وكم كان ذلك الرغد الذى يتمرغ فيه الدينوصور وتلك الكثرة الوفيرة التى بلغتها العظايا الطائرة يبدوان مطمئنين إلى الأيام ! ثم حدث بعد ذلك أن أخـــذت التقلبات الخفية المتواترة والقوى المتجمعة فى العالم تقلب ظهر المجن لذلك الاستقرار شبه الأبدى ذلك أن الحظ أخذ يدير ظهره للحياة . فنى عصر بعد عصر وفى آماد من السنين بعد آماد ، مع فترات من التوقف لاجرم ، وفترات من النكوص والتدهور ، اتجه العالم صوب تغير حافل بالشدائد والتطرف ، فتبدل مستوى سطح الأرض تبدلا عظيما وتعدل توزيع الجبال والبحار تعديلا شاملا . وشاهد ذلك كله أنا نجد فى سجل الصخور أثناء فترة إدبار الزمن الميزوزوى الطويل الكثير الوفرة والنماء ، شيئا له مغزاه الواضح فى التغيرات المتواصلة للظروف ، وهو حدوث تقلب عنيف فى أشكال الكائنات الحية وظهور أنواع جديدة وغريبة . فإن القبائل والأجناس القديمة للكائنات الحية أخذت تظهر إزاء الخطر المحدق بنوعها المهدد بإبادتها أقصى مالديها من قدرة على التغير والتكيف . فقواقع العمونى مثلا أنتجت فى هذه الصفحات الأخيرة من الزمن الميزوزوى عدداً غفيراً من الأشكال العجيبة . والظروف المستقرة لاتدعو إلى مثل ذلك الاستحداث ؛ فالمستحدثات

---

(١) الإخيدنا Echidna ويسمى الصلول وهو حيوان من الثدييات المسلكية يسكن أستراليا

لاتتطور فى ظلها ، بل تتوقف ؛ إذ أن أحسن الأنواع تكيفا يكون موجودا بالفعل . فإذا وافت ظروف جديدة فالطراز العادى هو الذى يقاسى ، والشىء المستحدث هو الذى ربما أتيحت له فرصة أحسن للبقاء وتوطيد أقدامه إلى حين .

ثم تجىء فترة انقطاع فى سجل الصخور ربما كانت تمثل عدة ملايين من السنوات. والواقع أن هناك ستارا مسدلا يحجب كل شىء حتى معالم تاريخ الحياة نفسها . فإذا ارتفع ذلك الستار ثانية إذا بعصر الزواحف قد ولى ، وإذا بالدينصور والبلسيوصور والإكثيوصور والتيرودا كتيل ، وجميع أجناس العمونى وأنواعها التى لا يحصرها عد قد اختفت تماماً . لقد بادت جميعا — على أضربها المدهشة الوفرة — ولم تخلف أى أثر بعدها . فقد قضى البرد عليها جميعا . ولم يغن عنها شيئا أقصى ما استحدثته بنفسها من تغييرات لعدم كفايته ؛ فهى لم تصب ظروف البقاء . وذلك لأن العالم مر فى دور من المناخ المتطرف يتجاوز قوة احتمالها ، ومن ثم حدثت إبادة بطيئة كاملة للحياةالميزوزوية، وهنا نشهد أمامنا منظرا جديدا ، إذا استولت على العالم مملكة نباتية جديدة أقوى بأسا ومملكة حيوانية جديدة أشد قوة .

وإنه لمشهد لايزال به أثر الزمهرير والجدب ذلك الذى يفتتح به هذا المجلد الجديد من سفر الحياة . فإن الحزازيات والمخروطيات(١) الاستوائية حلت محلها إلى حد كبير أشجار تنفض أوراقها توقيا للهلاك من ثلوج الشتاء ، كما أن نباتات وشجيرات ذات أزهار قد ظهرت ، وأخذت أنواع متزايدة من الطيور والثدييات تستولى على تراث كثرة عظيمة من الزواحف .

---

(١) المخروطيات : Conifers قبيلة من النبات من أمثال الصنوبر

الفصل الثامن

عصر الثدييات

كان مطلع الزمن السكاينوزوى الفترة التالية الكبرى من فترات حياة الأرض ، حافلا بالارتفاعات فى القشرة الأرضية والنشاط البركانى الشديد . وذلك هو الأوان الذى دفعت فيه إلى أعلى الكتل الجبلية الشاسعة : الألب والهملايا ، كما رفعت سلاسل جبال روكى والأنديز التى يشبهونها بالعمود الفقرى، وذلك أيضا هو الأوان الذى ظهرت فيه المعالم الإجمالية لمحيطاتنا وقاراتنا الراهنة ، وفى ذلك الأوان أيضا تتخذ خريطة العالم مسحة مشابهة أولية طفيفة لخريطة أيامنا هذه وتقدر المدة التى تفصل عصرنا وأوائل الزمن السكاينوزوى بما يتراوح بين أربعين وثمانين مليونا من السنين .

كان مناخ العالم صارما قاسيا عند بداية الزمن السكاينوزوى ، ثم أخذ يتدرج إلى الدفء على وجه العموم حتى دخل فى دور جديد من أدوار الوفرة والنماء الغزير ، مالبث أن تحول بعده إلى دور جديد من العسر والإمحال ؛ ومرت الأرض فى سلسلة من الدورات المفرطة البرودة ، هى العصور الجليدية التى يلوح أنها تخرج منها الآن ببطء .

غير أن معارفنا عن أسباب التغيرات المناخية ليست فى الوقت الحاضر من الكفاية بحيث تمكننا أن نتكهن بما يحتمل حدوثه من تقلبات فى الأحوال المناخية التى يخبئها لنا الغد . وربما كنا نسير نحو المزيد من الدفء وضياء الشمس ، أو ننتكس نحو زمهرير عصر جليدى آخر ؛ وربما كان النشاط البركانى ورفع الكتل الجبلية آخذاً فى الزيادة وربما فى النقصان ، فلسنا ندرى عن ذلك شيئا ، إذ يعوزنا القدر الكافى من العلم .

وبابتداء هذه الفترة تظهر الأعشاب بأنواعها ، ويظهر المرعى فى العالم لأول مرة ، وباكتمال تطور النوع الثديى الذى كان مغموراً فيما سلف ، يظهر عـــدد من

الحيوانات الشائقة الآكلة للشعب ، كما يظهر عدد من أنواع الحيوانات الآكلة للحوم التي تعيش على تلك .

وهذه الثدييات الأولى لم تكن تختلف في البداية فيما يلوح إلا في بضع خصائص مميزة فقط، عن الزواحف الآكلة للعشب والآكلة للحوم التي ازدهرت قبل ذلك بعصور ودهور ثم بادت من الأرض . وربما زعم مشاهد غير مدقق أن الطبيعة في هذا العصر الديد الثاني من أعصر الدفء والوفرة ، الذي شرع يبدأ آنئذ ، إنما كانت فقط تكرر العصر الأول ، مع قيام الثدييات الآكلة للعشب واللحوم مقابل العاشب واللاحم من الدناصير ، ومع حلول الطير محل التيرودا كتيل وهكذا . على أن هذا إنما يكون مقارنة سطحية بحتة . ذلك أن تغير الدنيا لا ينتهي ولا يقف عند حد ، فهو يتقدم تقدما أبديا ، والتاريخ لا يعيد نفسه أبداً ، وليس هناك أية متماثلات تتطابق صورها بالضبط تماماً . والفروق بين صورتي الحياة في الزمن الميزوزوي وشقيقه الكاينوزوي أعمق كثيراً من أوجه التشابه .

وأهم هذه الفوارق الجوهرية إنما يقوم في الحياة العقلية للفترتين . وهو ينشأ بالضرورة عن استمرار العلاقة بين الوالد والولد، تلك العلاقة التي تميز حياة الثدييات (وحياة الطيور بدرجة أقل) عن حياة الزواحف ، والزواحف ـ باستثناء القليل النادر منها ـ تترك بيضها يفقس وحده . فالزاحف الصغير لايعرف والديه أدنى معرفة، وحياته العقلية ـ كما هو الواقع ـ تبدأ وتنتهي بخبراته الخاصة . وربما سمح بوجود أبناء نوعه إلى جواره ، ولكن ليس بينه وبينها أي اتصال ، وهو لا يقلدها أبداً ، ولايتعلم منها أبداً ، كما أنه غير قادر على القيام بأي جهد مشترك معها . فحياته حياة فرد منعزل. ولكن نشأت مع إرضاع الصغار وتدليلها ـ وهما من مميزات السلالتين الجديدتين ، الثدييات والطيور ـ حالة جديدة هي إمكان التعلم بالمحاكاة والتواصل بصيحات التحذير وغيرها من الأعمال الجمعية ، والهيمنة والإرشاد المشترك . لقد ظهر في العالم طراز من الحياة قابل للتعلم .

والمخ عند أقدم ثدييات الزمن الكاينوزوي لا يفوق في الحجم إلا قليلا مخ الدناصير الآكلة للحوم والأكثر نشاطاً ، ولكن كلما قلبنا صفحات السجل متجهين نحو الزمن الحديث . وجدنا زيادة عامة ثابتة في سعة الفراغ المخي[1] في كل قبيل وسلالة من

---

(١) سعة الفراغ هي حجم المخ ومدى اتساع الجمجمة من الداخل .

سلالات الحيوانات الثديية . مثال ذلك ، أننا نلحظ في مرحلة مبكرة نسبيا وجود وحوش تشبه الكركدن . فإنا نجد في أبكر عهود تلك الفترة مخلوقا هو التيتانوثيروم ؛ الراجح أنه كان شديد الشبه بالكركدن العصري في عادته وحاجاته ، ولكن فراغ مخه لم يصل إلى عشر ما لخلفه الحي .

ويحتمل أن الثدييات الأولى كانت تفترق عن نسلها بمجرد انتهاء الرضاعة ، ولكن ما كادت القدرة على التفاهم المتبادل تنشأ حتى صارت مزايا الاستمرار في الترابط بين الصغار وللكبار عظيمة جدا . لذا لانلبث أن نجد عدداً من أنواع الثدييات التي تتجلى فيها بدايات حياة اجتماعية حقة ، وتعيش مجتمعة في أسراب وقطعان ورعلان وهي تلحظ بعضها بعضا ، وتقلد بعضها بعضا وتتلقى التحذيرات من أعمال الآخرين وصيحاتهم وذلك شيء جديد لم يره العالم من قبل بين الحيوانات الفقارية . ولا شك أن الزواحف والأسماك قد توجد في أسراب وأفواج ؛ ولكن مرد ذلك أنها فقست بكميات وعملت الظروف المتشابهة على استبقائها معا ، أما الترابط في حالة الثدييات الاجتماعية الميالة إلى التجمع فلا ينشأ فقط عن وجود مجموعة من العوامل الخارجية ، بل يدعمه دافع داخلي وهي ليست مجرد كائنات متشابهة ، وجدت صدفة في نفس الأماكن في نفس الأوقات ، بل هي تحب بعضها بعضا ولذلك فهي تتواجد معاً .

والظاهر أن هذا الفارق بين عالم الزواحف وعالم العقول البشرية شيء لانستطيع تجاهله من الناحية العاطفية ، فليس في إمكاننا البتة أن ندرك في أنفسنا تلك الضرورة الملحة الساذجة التي تتحكم في الدوافع الغريزية عند الزواحف من شهوات ومخاوف وكراهية . ولسنا بمستطيعين أن نفهمها فيما هي عليه من بساطة ، وذلك لأن جميع دوافعنا معقدة ؛ فدوافعنا موازنات ونتائج وليست مجرد ضرورات ملحة بسيطة . إن الثدييات والطيور تتصف بكبح للنفس واعتبار لحقوق الآخرين ، وتجاوب اجتماعي : أي ضبط للنفس مهما يبلغ انخفاض مرتبته فإنه شبيه بما نحن عليه ونتيجة لذلك نستطيع أن ننشيء العلاقات مع جميع أنواعها تقريبا . فإذا هي أحست ألما أطلقت الصيحات وأتت بالحركات التي تحرك مشاعرنا . وفي إمكاننا أن نتخذ منها حيوانات منزلية أليفة تفهمنا وتميزنا ونميزها . وفي الإمكان ترويضها حتى تقدر على ضبط نفسها إزاءنا وأن تستأنس وتعلم .

إن ذلك النمو غير الاعتيادى للمخ ، الذى هو أهم حقائق الزمن الكاينوزوى يسجل وجود ارتباط جديد بين الأفراد واعتماد بعضهم على بعض . كما أنه البشير الآذن بتطور الجماعات الإنسانية الذى سنحدثك به من فورنا .

وكلما انكشف لأبصارنا المزيد من صفحات الزمن الكاينوزوى تزايدت درجة الشابهة بين حيوانه ونباته وبين ما يقطن العالم اليوم من حيوان ونبات . أجل إن الوينتاثيرات (Uintatheres) والتيتانوثيرات (Titanotheres) الضخمة القبيحة الشكل قد انقرضت ؛ وهى وحوش ضخمة قبيحة ليس بين أحياء هذا العصر مايشبهها غير أن جماعات متسلسلة من الأشكال الحيوانية أخذت ترتقى بخطى ثابتة متواصلة من أسلاف بشعة مضحكة حتى تحولت إلى زرافة عالمنا الحاضر وجمله وحصانه وفيلته وظبائه وكلابه وأسوده وببوره[1] . أما الحصان فنشوءه وتطوره تقرأ سطورهما واضحة بوجه خاص فى صفحات السجل الجيولوجى . فإن لدينا سلسلة كاملة نوعا ما من أشكال الحصان تبدأ فى بكور الزمن الكاينوزوى بسلف صغير يشبه التابير[2] . ثم إن هناك سلسلة أخرى من سلاسل التطور تم اليوم تجميع أجزائها فى شىء من الضبط ، هى سلسلة اللاما والجمل .

(١) الببر وجمعه الببور Tiger : ضرب من الأسد مخطط وليس هو النمر كما تسميه العامة

(٢) التابير Tapir أحد الثدييات آكلة العشب يشبه الخنزير موطنه أمريكا الوسطى والجنوبية وجزائر الهند الشرقية .

الفصل التاسع

القرود والقردة العليا[1] وأشباه الإنسان

يقسم علماء الطبيعة الثدييات إلى عدد من الرتب ، ويجعلون على رأس هـــذه رتب الثدييات العليا التى تحتوى على الليمور والقرود والقردة العليا والإنسان . والأصل فى ذلك التصنيف هو وجود أوجه تطابق تشريحية بينها ، ولا دخل فيه لأى صفات عقلية .

والواقع أن من أشق الأمور تبين معالم التاريخ القديم للثدييات العليا فى السجل الچيولوچى . ذلك أنها فى الغالب حيوانات تقطن الغابة كالليمور (الهبار) أو القردة التى تقيم فى الأماكن الصخرية الجرداء كالبابون (الرباح) . ومن ثم قلما غرق الواحد منها وغطته الرواسب ، كما أن معظمها من أنواع قليلة العدد ، ولذا لايكثر وجودها بين الحفريات كأسلاف الحصان والجمال وما إليها . ولــكنا نعلم أنه حدث فى عهد مبــكر من الزمن الــكاينوزوى ، أى منذ ما يقارب الأربعين مليوناً من السنين ، أن ظهرت القردة البدائية والمخلوقات شبه الليمورية الأولى ، وكانت أصغر مخاً وأدنى تخصصاً من أخلافها المتأخرة .

وما لبثت أن دنت نهاية الصيف العالمى العظيم الذى ساد الدنيا فى الزمن الكاينوزوى الأوسط . وكان مصيره مصير الصيفين العظيمين الآخرين فى تاريخ الحياة : صيف مستنقعات الفحم ، والصيف الهائل الذى هو عصر الزواحف ، وللمرة الثانية دارت الأرض دورتها واتجهت نحو عصر جليدى . فبرد مناخ العالم ، ثم اعتدل فترة من الزمن ثم تثلج مرة ثانية وكانت أفراس البحر ترتع فى الماضى الدفىء بين نباتات غضة شبه مدارية ، وكان ببر هائل له ناب مثل السيف هو الببر المسيف ، يتصيد فرائسه فى المنطقة التى يذرعها

---

(١) القردة العليا هى أرقى أنواع القرود التى تشبه الإنسان ولا ذيل لها أو تــكاد .

الصحفيون اليوم ذهاباً وجيئة في شارع فليت بلندن[1] . ثم جاء عصر مكفهر قارس فعصور أشد برداً وزمهريراً . فأدى ذلك إلى غربلة[2] كثير من الأنواع وإبادة كثير غيرها ، وظهر فى المشهد خرتيت صوفى مكيف للمناخ البارد ، كما ظهر الماموث وهو ابن عم ضخم للفيل ذو صوف غزير ، وظهر ثور المسك القطبي وغزال الرنة .

ثم أخذ وشاح الجليد القطبي ، وأخذ شبح الموت الثلجى في العصر الجليدى يزحف نحو الجنوب قرنا بعد قرن فامتد فى انجلترا حتى دانى منطقة التاميز ، ووصل فى أمريكا إلى نهر الأهيو : ثم جاءت آماد أكثر دفئاً ذرعها بضع آلاف من السنين ، ولكن أعقبتها ارتكاسات نحو البرد المرير .

ويطلق الجيولوجيون على هذه الأدوار الشتوية اسم العصر الجليدى الأول والثانى والثالث والرابع . كما يطلقون على ما بينها من فترات اسم العصور «بين الجليدية» ... ونحن إنما نعيش اليوم فى عالم لا يزال يئن من آثار الجدب والجراح التى خلفها ذلك الشتاء الرهيب . والعصر الجليدى الأول قد حل بهذه الدنيا منذ ستمائة ألف سنة ؛ على حين بلغ العصر الجليدى الرابع أقصى زمهريره المرير منذ خمسين ألف سنة تقريبا . وفى هذا الشتاء الطويل الشامل ، وبين الثلوج القارسة عاشت على كوكبنا هذا أول الكائنات الشبيهة بالإنسان .

وعندما حل الزمن الكاينوزوى الأوسط كانت قد ظهرت قردة عليا متعددة ، ذات خواص شبه إنسانية كثيرة فى الفك وعظام الساق ، ولكنا لانعثر على أية آثار لمخلوقات نستطيع أن ننعتها بأنها « إنسانية على وجه العموم » إلا عند اقترابنا من هذه الأعصر الجليدية ؛ وليست هذه عظاما بل أدوات . إذ عثر المنقبون فى أوربا ، فى رواسب تعود إلى تلك الفترة عمرها يتراوح بين نصف المليون أو المليون من الأعوام ، على ظرانات وأحجار يتجلى فيها بوضوح أنها نحتت قصداً بيد مخلوق ذى مهارة يدوية يريد أن يطرق أو يخدش أو يقاتل بالحد المشحوذ .

وقد سميت هذه الأشياء باسم الأدوات الحجرية الأولى (Eolihths) . وليس فى .

(١) هو حى الصحافة بالعاصمة البريطانية .

(٢) الغربلة : التنقية وإزالة ما لا خير فيه .

أوربا أية عظام ولا أية بقايا أخرى لذلك المخلوق الذى صنع تلك الأشياء ، وإنما توجد الأشياء نفسها وحسب . ومهما يكن قدر ما يخالجنا من يقين أو شك فى شأنه ، فلعله لم يكن إلا قرداً غير إنسانى تماما ، وإن يكن ذكياً . ولكن حدث أن أحد العلماء عثر فى « ترينل Trinil » بجزيرة جاوة ، وبين ركام يعود إلى ذلك العصر نفسه ، على قطعة من جمجمة وأسنان وعظام مختلفة لنوع ما من إنسان قردى ، له وعاء مخى[1] أكبر من وعاء أى قرد راق يعيش الآن ، ويلوح أنه كان يسير منتصب القامة ويسمى هذا المخلوق الآن باسم الإنسان القردى المنتصب القامة (Pihecanthropus erectus)، كما أن هذا المقدار الضئيل من عظامه هو كل ما لقيه خيالنا من العون حتى الآن فى تصوره لصناع الأدوات الحجرية الأولى .

ثم لانعثر بعد ذلك فى السجل على أى جزء آخر من كائن شبه إنسانى إلا عندما نبلغ رمالا يقارب عمرها ربع مليون سنة . ولكن الأدوات كثيرة ، كما أنها تتحسن تحسناً مطرداً كلما تقدمنا فى مطالعة صفحات السجل . فهى لم تعد أدوات حجرية أولية قبيحة الصورة ، بل هى أدوات حسنة المنظر صنعت بمهارة كبيرة فضلا عن أنها أكبر كثيرا من مثيلاتها من أدوات صنعها بعد ذلك الإنسان الحق .

ثم ظهرت بعد ذلك فى حفرة رملية قرب « هيدلبرج » عظمة فك مفردة شبه إنسانية ، وهى عظمة فك قبيحة الصورة ، مجردة من الذقن تجرداً تاماً ، وهى أثقل كثيراً من أية عظمة فك إنسانية حقة ، ولكنها أضيق ضيقاً يرجح معه أن لسان صاحبها لم يكن ليستطيع أن يتحرك فى فمه بالنطق الواضح البين . ويستنتج رجال العلم من قوة عظمة الفك هذه ، أن هذا المخلوق كان وحشاً ضخما كالإنسان تقريباً ، ربما كانت له أطراف وأيد ضخمة ، وربما كان جسمه مكسواً بطبقة كثيفة من الشعر ، وهو يسمى باسم إنسان هيدلبرج .

وعندى أن عظمة الفك هذه من أشد الأشياء استثارة لرغبتنا فى الاستطلاع . وكأنى بالنظر إليها يشبه النظر إلى الماضى من خلال عدسة معيبة ، والحصول بواسطتها

---

(١) الوعاء المخى (Brain Case) هو الجمجمة ، وتسمى فى علم الأحياء بالقحفة ، ويسمى اتساعها من الداخل بالفراغ المخى .

على لمحة واحدة مغشاة محيرة لذلك المخلوق ، وهو يدلف متثاقلا خلال البرية الباردة الموحشة ، ويتسلق المرتفعات ليتجنب البر المسيف ، ويرقب الكركدن الصوفى فى الغابات . وإذا بالوحش يختفى عن نواظرنا قبل أن يتاح لنا أن نفحصه . ومع ذلك فإن تربة الأرض مملوءة بوفرة بتلك الآلات غير القابلة للبلى التى نحتها لينتفع بها .

وثمة بقايا أخرى أشد فتنة وغموضا ، وجدت فى « بلتداون » بمقاطعة ساسكس فى طبقة يقدر عمرها بما يتراوح بين مئة ألف ومئة وخمسين ألفا من السنين ، وإن جنح بعض الثقاة إلى إرجاع عمر هذه البقايا بالذات إلى زمن أقـــدم من عظمة فك « هيدلبرج » .

وهذه البقايا هى جزء من جمجمة غليظة شبه إنسانية أكبر كثيرا من جمجمة أية قردة عليا موجودة فى الوقت الحاضر ، ومعها عظمة فك تشبه عظام الشمبانزى ، ربما كانت تابعة لنفس المخلوق وربما لم تكن ، هذا إلى قطعة من عظم الفيل على شكل المضرب ، تتجلى فيها العناية فى الصنع ، وقد ثقب فيها ثقب واضح لاشك فيه . وهناك أيضاً عظمة فخذ الغزال عليها قطوع وحزوز كالتى توجد على قائم العد[1] . ثم لا شىء بعد ذلك . فأى نوع من الوحش كان ذلك المخلوق الذى كان يجلس ويثقب العظام ؟ ! .

لقد سماه رجال العلم باسم إنسان الفجر (Eoanthropus) ، وهو يختلف عن ذوى قرباه ، فهو مخلوق مختلف جدا عن المخلوق الهيدلبرجى ، وعن أى قرد راق آخر يعيش اليوم ، وليس هناك أى بقايا أخرى تماثل ذلك الكائن . غير أن الحصباء والرواسب التى انقضى عليها مئة ألف سنة فصاعدا تزداد غنى بما يكشف فيها كل يوم من آلات الظران وما شابهه من أحجار . ولم تعد هذه الآلات مجرد « أدوات حجرية أولية » غير مهذبة إذ لا يلبث علماء الآثار (الأركيولوجيون) أن يتبينوا فيها : المكاشط والمخارز ، والسكاكين ، والنبال ، وأحجار القذف والبلط اليدوية .

---

(١) قائم العد أو عصا الحساب : Tally ، قطعة من الخشب تخدش فيها خدوش للدلالة على الأرقام .

فنحن إنما ندنو كثيرا من الإنسان . وسنصف لك فى الفصل التالى أعجب هذه الأنواع المؤذنة بظهور البشر ، وهم النياندرتاليون ، القوم الذين كانوا تقريبا — وليسوا تماما — أناسا حقيقيين .

ولكن لعل من الخير أن نذكر ههنا بمنتهى الوضوح ، أنه ليس بين رجال العلم من يرى أن أيا من هذين المخلوقين : إنسان هيدلبرج ، وإنسان الفجر ، هو السلف المباشر للانسان العصرى ، وإنما هما — مهما دنت قرابتهما — أشكال تمت إليه بالقربى .

الفصل العاشر

الإنسان النياندرتالى والروديسى

كان يعيش على الأرض منذ قرابة خمسين أو ستين ألف سنة خلت ، وقبل بلوغ العصر الجليدى الرابع أوجه ، مخلوق بلغ من قوة مشابهته للانسان أن بقاياه كانت تعد إلى بضع سنوات مضت بشرية تماما . ولدينا الآن منه جماجم وعظام وكمية ضخمة من الآلات الكبيرة التى كان يصنعها ويستعملها . كان يستطيع أن يوقد النار . وكان يلتجىء إلى الكهوف اتقاء البرد . ولعله كان يجهز الجلود تجهيزا خشناً ثم يرتديها . كان يسرا يستعمل يمناه كما يفعل الناس .

غير أن علماء السلالات البشرية (Ethnologiste) يرون اليوم أن هذه المخلوقات لم تكن من الإنسان الحق فى شىء . بل هم نوع آخر من نفس الجنس ، ولهم فكاك ثقيلة بارزة وجباه منخفضة جدا وحروف حواجب كبيرة بارزة فوق العينين . ولم يكن إبهامهم مما يتقابل والأصابع كإبهام الإنسان ، وقد خلقت أعناقهم على وضع خاص لايسمح لهم أن يدفعوا رؤوسهم إلى الوراء وينظروا إلى السماء . ولعلهم كانوا يمشون فى استرخاء ورءوسهم مدلاة إلى أسفل منحنية إلى الأمام . وعظام فكاكهم العديمة الذقن تماثل فك هيدلبرج ، كما أنها تخالف فكاك الإنسان مخالفة ظاهرة ملحوظة . وبين أسنانهم والأسنان البشرية بون بعيد . فإن أضراسهم أشد تعقيدا من أضراسنا ومن عجب أنها أشد تعقيدا من أسناننا وليست دونها فى التعقيد ، إذ ليست لديهم الأسناخ الطويلة التى لأضراسنا ؛ وكذلك لم يكن لأشباه الإنسان هؤلاء تلك الأنياب التى للكائن الإنسانى العادى . على أن سعة جماجمهم إنسانية تماماً ، ولكن المخ أكبر فى المؤخرة وأخفض فى المقدم من المخ الإنسانى . وكان لقدراتهم وملكاتهم العقلية ترتيب آخر مغاير . فهم ليسوا أسلافا للسلالة الإنسانية ، إذ يختلفون عن الأرومة الإنسانية من الناحيتين العقلية والجثمانية .

وقد وجدت جماجم وعظام هذا النوع البائد من الإنسان قرب نياندرتال وبضع

أماكن أخرى ، ولذا أطلق على هذا الجنس العجيب من الإنسان الأول اسم إنسان نياندرتال ولعله ظل يقطن أوربا مئات كثيرة بل آلافا من السنين .

وفى ذلك الأوان كان مناخ عالمنا وجغرافيته مختلفين جدا عما هما عليه فى الزمن الحاضر . فكانت أوربا مثلا مغطاة بجليد يمتد جنوبا حتى نهر التاميز ، ويتوغل حتى ألمانيا الوسطى والروسيا ؛ ولم يكن هناك مضيق إنجليزى (بحر المانش) يفصل بين بريطانيا وفرنسا ، أما البحر المتوسط والبحر الأحمر فكانا واديين عظيمين ، وربما احتوت أجزاؤهما الأكثر انخفاضاً على مجموعة من البحيرات كما أن بحرا داخلياً عظيما كان يمتد من البحر الأسود الحالى عبر الروسيا الجنوبية ، ويتوغل إلى آسيا الوسطى وكانت أسبانيا وكل ما لا يغطيه الجليد فعلا من أجزاء أوربا — تتكون من مرتفعات جرداء باردة ، مناخها أشد قسوة من مناخ لبرادور ، ولم يكن الإنسان ليجد المناخ المعتدل إلا حين يصل إلى أفريقية الشمالية .

وكانت تنتقل عبر السهوب الباردة بأوربا الجنوبية بما حوت من نبات قطبى متناثر ، مخلوقات شديدة التحمل للبرد من أمثال الماموث الصوفى والخرتيت الصوفى والثيران الضخمة وغزلان الرنة ، وكلها ولا مراء تتعقب النبات نحو الشمال فى الربيع ونحو الجنوب فى الخريف .

ذلك هو المشهد الذى كان الإنسان النياندرتالى يتجول بين ظهرانيه ، متلقفاً من الغذاء ماكان يستطيع أن يلتقطه من أنواع الصيد الصغير أو الفواكه والثمار والجذور ومن المحتمل أنه كان نباتياً فى معظم أمره يمضغ العساليج والجذور . ذلك أن أسنانه المسطحة المحكمة توحى بغذاء يغلب فيه النبات . ولكنا نرى فى كهوفه أيضاً عظاما نخاعية طويلة لحيوانات كبيرة ، وقد كسرت لاستخراج ما بداخلها من نخاع ومن البديهى أن أسلحته لم تكن كبيرة الجدوى فى القتال مع الوحوش الضخمة وجهاً لوجه ، ولكن يظن أنه كان يهاجمها بالحراب عند المعابر الصعبة للأنهار ، بل حتى يحتفر لها الحفائر ليوقعها . ويحتمل أنه كان يتعقب القطعان ويفترس أى فرد منها يموت فى القتال، ولعله قام بدور ابن آوى إزاء الببر المسيف الذى كان لايزال حياً فى أيامه . ومن الممكن أن هذا المخلوق قد جنح فى أثناء محن العصر الجليدى وشدائده المريرة إلى مهاجمة الحيوانات بعد عصور طويلة من التكيف للنبات .

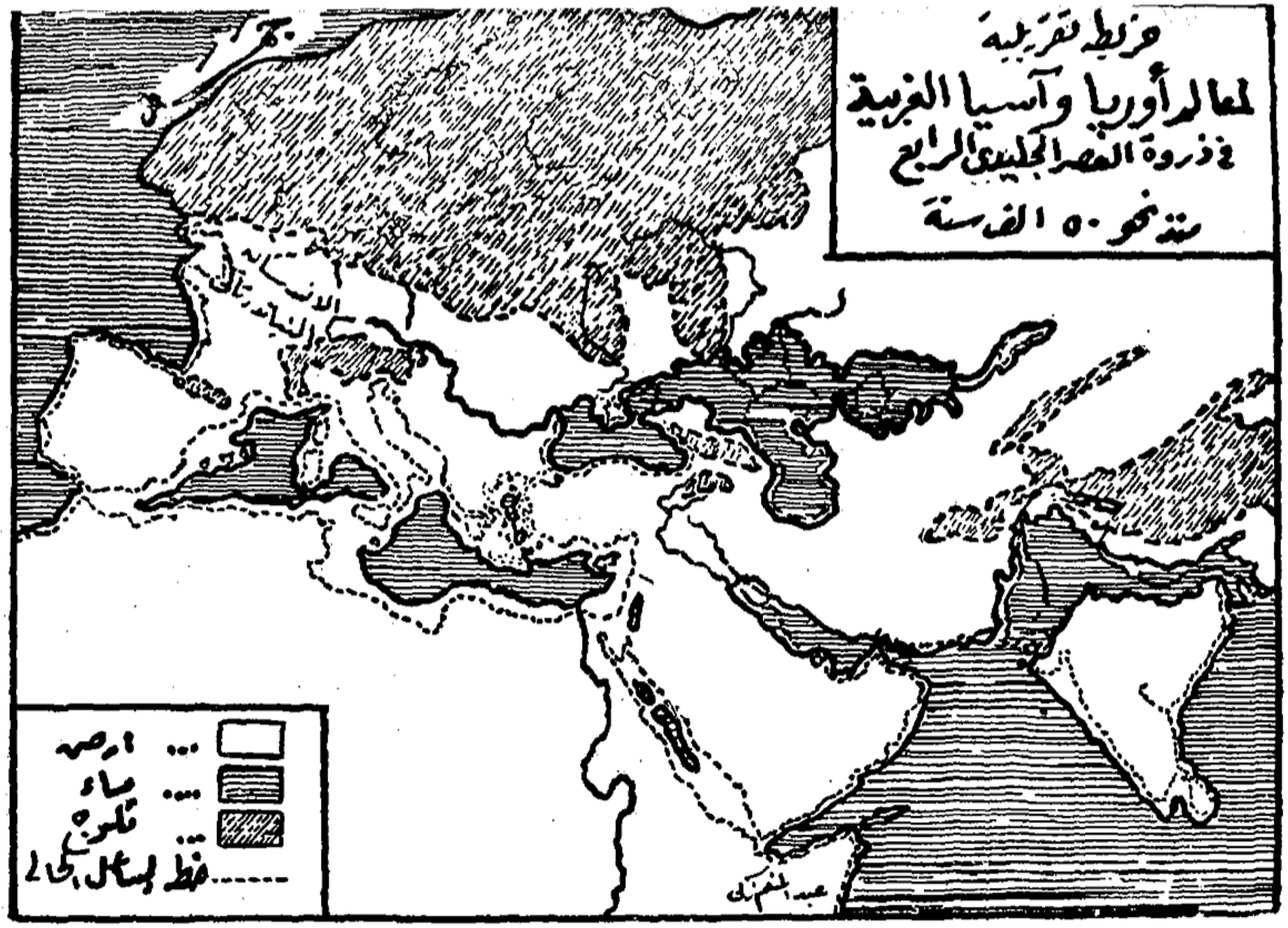
ولسنا نستطيع أن نتخيل هيئة هذا الإنسان النياندرتالى . وأكبر الظن أنه كان غزير الشعر جداً ذو هيئة غير إنسانية حقاً . بل إنا لفى شك من أنه كان يسير منتصب القامة . ولعله كان يستعمل يديه بالإضافة إلى قدميه لحمل جسمه . والراجح أنه كان يضرب فى الأرض بمفرده أو فى جماعات عائلية صغيرة ، ويدل تركيب فكه على عدم قدرته على الكلام بالصورة التى نفهمها .

وقد ظل هؤلاء النياندرتاليون آلاف السنين وهم أعلى ماشهدت القارة الأوربية من حيوان ؛ ثم حدث منذ حوالى ثلاثين أو خمسة وثلاثين ألف سنة مع تقدم المناخ نحو الدفء قليلا أن نزح إلى عالم النياندرتاليين من الجنوب جنس من كائنات تمت إليهم بالقربى ، ولكنه أكثر ذكاء وأوسع معرفة ، ثم إنه يتكلم ويتعاون بعضه مع بعض — فطردوا الجنس النياندرتالى من كهوفه ومنتجعاته ، وتصيدوا نفس الطعام الذى كان يأكله ، ولعلهم قد قاتلوا سابقيهم هؤلاء البشعين وأعملوا فيهم الفناء . هؤلاء الوافدون من الجنوب أو الشرق (فلسنا نعلم فى الزمن الحاضر بلادهم الأصلية) الذين أبادوا النياندرتاليين آخر الأمر إبادة تامة ، كائنات من نفس دمنا وجنسنا ، وهم الإنسان الأول الحق . وآية ذلك أن جماجمهم (أوعية أمخاخهم) وإبهاماتهم وأعناقهم وأسنانهم هى من الناحية التشريحية نفس ما لدينا . وقد عثر الباحثون فى كهف عند كرومانيون وفى آخر قرب جريمالدى على عدد من الهياكل العظيمة ، هى أقدم مانعرف إلى اليوم من البقايا البشرية الحقة .

وبذلك يدخل جنسنا فى سجل الصخور وتبدأ قصة البشرية .

فى تلك الأيام أخذ العالم يصبح أشبه بعالمنا وإن بقى المناخ شديداً قاسياً . وقد أخذت ثلاجات العصر الجليدى فى التراجع بأوربا ؛ وسرعان ما أخلت غزلان الرنة بفرنسا وأسبانيا مكانها لأسراب عظيمة من الخيول كلما تكاثر الكلأ على السهوب ، وأخذ الماموث يزداد ندرة فى جنوب أوربا حتى تراجع فى النهاية نحو الشمال تراجعا مطلقاً . . .

ولسنا ندرى أين نشأ الإنسان الحقيقى أولا ، ولكن حدث فى صيف ١٩٢١ ، أن اكتشفت جمجمة بالغة الأهمية مع أجزاء من هيكل عظمى قرب بروكن هل بإفريقيا الجنوبية ، جمجمة يلوح أنها بقية صنف ثالث من الإنسان ، وسط فى خواصه المميزة


خريطة تقريبية
لمعالم أوربا وآسيا الغربية
في ذروة العصر الجليدي الرابع
منذ نحو ٥٠ ألف سنة
أرض
ماء
ثلوج
خط الساحل الحالي

(خريطة رقم ١)

بين النياندرتالى والـكائن الإنسانى الحق ، ويدل الوعاء المخى على أن مخه أكبر فى المقدم وأصغر فى المؤخرة من مخ النياندرتالى ، كما أن الجمجمة منتصبة فوق العمود الفقرى على شاكلة إنسانية تماما . وكذلك الأسنان والعظام فإنها إنسانية بحتة ، أما الوجه فالراجح أنه كان شبه قردى له حروف حواجب هائلة مع بروز على امتداد وسط الجمجمة . أجل إن ذلك المخلوق إنسان حق ولـكن على وجه التقريب فقط ، لأن له وجهاً نياندرتالياً شبه قردى ، ومن الواضح أن هذا الإنسان الروديسى أوثق شبهاً بالإنسان الحق من الرجل النياندرتالى .

والراجح أن هذه الجمجمة الروديسية ليست إلا الدفعة الثانية من مكتشفات قد تتـكون منها فى النهاية قائمة طويلة من أجناس شبه إنسانية عمرت هذه الأرض فى الفترة الزمنية الهائلة الممتدة بين بدايات العصر الجليدى وبين ظهور الإنسان الحق وريثها جميعاً ، ولعله أيضاً مبيدها جميعاً ، وربما لم تـكن الجمجمة الروديسية نفسها مفرطة القدم ، إذ أن العلماء لم يصلوا حتى يوم صدور هذا الـكتاب إلى قرار دقيق بشأن عمرها المحتمل ، وربما كان هذا المخلوق شبه الإنسانى يعيش فى إفريقيا الجنوبية حتى أزمنة حديثة جدا .

الفصل الحادي عشر

الإنسان الحقيق الأول

إن أقدم مايعرفه العلم فى زماننا هذا من العلامات والآثار لبشر لايتطرق الشك إلى قرابتهم لذوات أنفسنا، عثر عليه فى أوربا الغربية وخاصة فرنسا وأسبانيا. فقد اكتشفت فى كل من هذين القطرين عظام وأسلحة وخدوش على العظام والصخر وقطع من العظم المحفورة ورسوم على جدران الكهوف وعلى سطوح الصخور، ترجع فيما يظن إلى ثلاثين ألف سنة أو أكثر . وأسبانيا هى فى الوقت الحاضر أغنى بقاع العالم بتلك البقايا المتخلفة عن أسلافنا من بشر حقيقيين .

ومن البديهى أن مالدينا فى الوقت الحاضر من مجموعات من تلك الأشياء ليس إلا قطرة من البحر الطامى الذى ينتظر جمعه مستقبلا ، يوم يتواجد العدد الكافى من المنقبين للقيام بفحص استقصائى شامل لجميع المصادر الممكنة ؛ ويوم يتاح لعلماء الآثار ارتياد بقية أقطار العالم الأخرى التى يحال بينهم اليوم وبين دخولها ،فيفحصونها فى شىء من التفصيل . فمن المعلوم أن الشطر الأكبر من إفريقيا وآسيا لم يتيسر اختراقه البتة حتى اليوم لمشاهد مدرب يهتم بهذه الأمور ويستمتع بحرية الارتياد . وعلى ذلك ينبغى لنا أن نحرص الحرص كله من أن نستنتج أن الإنسان الحق الأول استأثرت به أوربا الغربية أو أنه ظهر أولا بتلك المنطقة .

وربما انطوت آسيا أو إفريقيا أو مناطق يغطيها اليوم البحر ، على رواسب تحوى بقايا إنسانية حقة أكثر عدداً وأقدم عهداً من أى شىء عثر عليه حتى يومنا هذا . إنى أتكلم عن آسيا وإفريقيا . ولا أذكر أمريكا ، إذ لم يعثر فيها — عدا سن واحدة — على أى شىء يعود إلى الحيوانات العليا ، سواء أكانت من القردة العليا أو أشباه الإنسان أو النياندرتاليين ، أو الإنسان الأول الحقيق. ذلك أن هذا التطور الذى تناول الحياة، يلوح أنه شىء اقتصر أمره على العالم القديم وحده تقريباً ،والظاهر أن الكائنات الإنسانية

لم تتخذ طريقها إلى القارة الأمريكية لأول مرة فوق البرزخ الأرضى الذى يخترقه الآن مضيق بهرنج ، إلا عند نهاية العصر الحجرى القديم .

ويبدو أن الكائنات الإنسانية الحقيقية الأولى التى نعرفها فى أوربا ، كانت تنتسب بالفعل لأحد جنسين على الأقل متميزين تماما أحدهما عن الآخر . وكان أحد هذين العنصرين من طراز راق جداً فهو طويل القامة كبير المخ . وهناك جمجمة لإحدى النساء يفوق فراغها المخى فراغ مخ الرجل المتوسط فى هذه الأيام . كما أن أحد هيا كل الرجال يتجاوز الستة الأقدام طولا . أما طراز الأجسام فيشبه طراز الهنود الحمر بأمريكا الشمالية . وقد سمى هذا الشعب باسم الكرومانى نسبة إلى كهف كرومانيون الذى وجدت فيه أولى بقاياه . كانوا متوحشين ولكنهم متوحشون من طراز راق .

فأما العنصر الثانى الذى عثر على بقاياه فى غار جريمالدى ، فكان عنصرا ذا قسمات شبه زنجية (نجريدية)[1] لاشك فيها . وأقرب الأحياء إليه هم شعبا البوشمن والهوتنتوت بجنوب إفريقيا . ولعله مما يثير اهتمامنا أن نجد البشرية منقسمة فعلا منذ ابتداء قصة الإنسان المعروفة إلى عنصرين رئيسيين اثنين على الأقل ؛ وقد يجمح المرء منا إلى أن يفترض بغير أساس علمى أن العنصر الأول كان على الأرجح أسمر أكثر منه أسود وأنه جاء من الشرق أو الشمال ، وأن الثانى كان أميل إلى السواد منه إلى السمرة ، وأنه جاء من الجنوب الاستوائى .

هؤلاء المتوحشون الذين كانوا يعيشون منذ أربعين ألف سنة بلغ من اتصافهم بالسمات البشرية أنهم كانوا يثقبون الودع ليصنعوا منه القلائد ، وينقشون أجسامهم ، ويصنعون التماثيل من الحجر والعظام ، ويخدشون الصور على الصخور والعظام ، ويرسمون على جدران الكهوف الملساء ، وعلى سطوح الصخور التى تعجبهم رسوماً للحيوان وما شابهه ، قد تكون ساذجة ، ولكنها تنم فى الغالب على مقدرة كبيرة .

وقد صنعوا أنواعا كثيرة من الأدوات ، أصغر حجماً وأدق صنعاً مما كان للرجل

---

(١) النجريدى Negroid هو العنصر الذى يشابه الزنج فى الشكل والقسمات وإن لم يكن زنجيا بحتاً . (المترجم)

النياندر تالى. وبمتاحفنا الآن مقادير عظيمةمن أدواتهم ، وتماثيلهم الصغيرة ، وماخلفوا من صور على الصخور إلى غير ذلك .

وكان أقدم هؤلاء المتوحشين صيادين، أهم مايتصيدونه الحصان البرى ،وهوالسيسى الصغير الملتحى الذى كان يعيش فى تلك الأزمان . كانوا يتعقبونه فى مسيره وراء المرعى وكذلك كانوا يتبعون الجاموس البرى «البيزون» . وقد عرفوا الماموث ، فإنهم تركوا لنا صوراً أخاذة رائعة لذلك المخلوق وهناك رسم مبهم إلى حد ما ، يدل على أنهم كانوا يوقعونه فى الحبائل ويقتلونه .

وكانوا يصطادون بالحراب وبالقذف بالأحجار . ولا يلوح أنهم كانوا يملكون القوس ، وإنا لفى شك من أنهم حتى حينذاك قد تعلموا استئناس الحيوان . ولم تكن لديهم كلاب . وهناك صورة محفورة لرأس حصان ورسم أو اثنان كأنى بهما يمثلان حصاناً ملجماً ، وحوله جلد أو وتر مجدول . على أن الخيول الصغيرة فى ذلك العصر وتلك المنطقة لم تكن لتستطيع أن تحمل رجلا ، ولو فرض أنهم استأنسوا الحصان ، فالراجح أنهم كانوا يقودونه دون أن يركبوه . ومما نشك فيه ولا نرجحه أنهم تعلموا طريقة الاغتذاء بلبن الحيوان وهى شىء غير طبيعى أو يكاد .

وليس يبدو أنهم عرفوا البناء ، وإن جاز أنه كانت لهم خيام من الجلد ، وهم وإن قاموا بصنع دمى من الطين فإنهم لم يرتقوا قط إلى مرتبة صنع الفخار . ولما لم تكن لهم أدوات طبخ ، فلابد أن طبخهم كان بدائياً أو لاوجود له البتة . وما كانوا يعرفون عن الزراعة شيئا ، ولا شيئا عن أى نوع من أنواع صنع السلال أو القماش المنسوج . ولولا ما كان لهم من أردية من الجلد أو الفراء،لجاز لنا أن نقول إنهم من المتوحشين العراة المنقوشى البشرة .

ظل هؤلاء الناس الذين هم أقدم من نعرف من البشر يتصيدون على سهوب أوربا المنبسطة دهرا لعله مائة قرن ، ثم أخذت تغييرات المناخ تفعل فيهم فعلها وتبدل من أحوالهم . فإن مناخ أوربا أخذ يتحول قرنا بعد قرن ، ويصبح أكثر اعتدالا ومطرا فتراجع غزال الرنة نحو الشمال والشرق ، وعقبه الجاموس البرى والحصان . وحلت الغابات محل السهوب ، وحل الغزال الأحمر محل الحصان والجاموس البرى ، وظهر فى الأدوات وصفاتها تغير صحب هـذا التغير فى استعمالاتها ، وبات الصيد من الأنهار

والبحيرات ذا أهمية كبرى للانسان ، وتزايدت الأدوات العظمية الرفيعة . يقول دى مورتليه : « إن الإبر العظمية فى هذا العصر أجود كثيراً من المتأخرة عنها فى الزمن ، حتى ما كان منها فى الأزمنة التاريخية إلى عصر النهضة . فلم يكن للرومان مثلا إبر يمكن مقارنتها بإبر تلك الحقبة » .

ثم انتقل إلى جنوب أسبانيا منذ حوالى خمسة عشر ألف سنة شعب جديد من آثاره صور رائعة جدا ، رسمها على سطوح الصخور المكشوفة . هذا الشعب هو الأزيليون (نسبة إلى كهف ماس دازيل Masd' Azil) . وقد عرفوا القوس ؛ ويلوح أنهم كانوا يلبسون أغطية للرأس من الريش ؛ وكانوا يرسمون رسوما مشرقة ، ولكنهم حولوا رسومهم إلى نوع من الرمزية ـ فالرجل مثلا يمثل عندهم بخط رأسى من خطين أفقيين أو ثلاثة ـ وفى ذلك ما فيه من تلويح ببزوغ فكرة الكتابة . وكثيرا ما نجد بإزاء رسوم تخطيطية تمثل الصيد علامات كالتى على قائم العد ، وثم رسم يمثل رجلين يطردان النحل من خليته بالدخان .

هؤلاء القوم هم آخر الأناس الذين نسميهم الباليوليثيين أهل العصر الحجرى القديم لمجرد أنهم نحتوا الأدوات ، ثم بزغ فى أوربا منذ عشرة آلاف أو اثنى عشرة ألف سنة فجر طريقة جديدة من طرق العيش ، إذ تعلم الإنسان لا أن ينحت الآلات الحجرية فحسب بل أن يصقلها ويشحذها ، كما أنه شرع فى الزراعة .وبذلك أقبلت بداية حضارة العصر الحجرى الحديث (النيوليثى) .

وقد يشوق القارىء أن يعلم أنه كان هناك منذ أقل من قرن مضى فى صقع ناء من العالم ، هو جزيرة تسمانيا ، عنصر من كائنات بشرية على مستوى من التطور الجثمانى والعقلى أخفض من أى من هذه الأجناس البشرية الأولى التى تركت آثارها فى أوربا . لقد قطع هذا الشعب التسمانى عن بقية الجنس البشرى منذ آماد طويلة بفعل تغيرات جغرافية ، كما قطع عن عوامل التنبية والتحسن . ويلوح أنهم انحطوا بدل أن يتطوروا ويرتقوا وعندما اكتشفهم المكتشفون الأوربيون ، وجدوهم يعيشون عيشا خفيضا مغتذين بالمحار والصيد الصغير ، ولم تكن لهم مساكن بل منتجعات ، ولاشك أنهم رجال حقيقيون من نفس نوعنا ، ولكن تعوزهم المهارة اليدوية والمواهب الفنية التى كان الإنسان الحق الأول يتحلى بها .

الفصل الثاني عشر

الفكر البدائي

لنطلق الآن لأفكارنا العنان لتجول في عالم الخيال بضع جولات ممتعة ؛ فكيف كان الإنسان الأول يشعر بإنسانيته في تلك الأيام الأولى للمغامرة البشرية ؟ وكيف كان الرجال يفكرون وفيم كانوا يفكرون في تلك الأيام السحيقة من الصيد والتجول قبل أربعمائة قرن سلفت وقبل ابتداء أوان البذار والمحصول ؟ تلك أيام تسبق بزمن مديد كل سجل مكتوب يدون الانطباعات والأفكار الإنسانية ، لذا ليس أمامنا الآن من سبيل إلا أن نركن إلى الاستنتاج والتخمين دون غيرهما في إجابتنا عن هذه الأسئلة .

وغني عن البيان أن المصادر التي لجأ إليها رجال العلم حين حاولوا تصور تلك العقلية البدائية وإعادة تركيب أجزائها معاً ، منوعة جدا . ففي العصر الحديث يلوح لنا أن علم التحليل النفسي قد ألقى قدرا عظيما من الضياء على تاريخ الجماعة البشرية البدائية ، بأسلوبه الذي يتفحص الطريقة التي بها تكف الدوافع الأنانية والعاطفية في الطفل . أو تعدل أو تغطى بأشياء أخر ، حتى يتيسر تكييفها وفق حاجات الحياة الاجتماعية[1] ؛ وثمة مصدر آخر للاستنتاج داني القطوف ، هو دراسة فكرات وعادات المتوحشين الذين لايزالون يعيشون في هذا العالم . وهناك أيضاً ضرب من التحفر[2] والجمود العقلي نجده في الفولكلور (الأدب الشعبي) وفي الخزعبلات والتحيزات غير المعقولة العميقة الرسوخ في النفوس والتي لاتزال موجودة بين الشعوب العصرية المتمدنة . ثم إن لنا في تلك الصور والتماثيل والرسوم المحفوظة والرموز وما أشبهها مما يكثر عددا ويتزايد كلما اقتربنا من عصرنا الراهن لشواهد واضحة الدلالة على ما كان الإنسان يراه مشوقا له وجديرا بالتسجيل والتمثيل .

---

(١) انظر في هذا الموضوع كتاب : « مدخل إلى علم النفس الحديث » ترجمة المترجم إن شئت تفصيلا لنظريات التحليل النفسي .

(٢) التحفر : تحول الشيء إلى حفرية من الحفريات . وهو هنا بمعنى مجازي هو التجمد والتحجر العقلي وبقاء القديم على قدمه (المترجم) .

والراجح أن الإنسان البدائى كان يفكر بطريقة تشبه كثيرا طريقة تفكير الأطفال أعنى أنه كان يفكر فى سلسلة من الخيالات. فكان يستدعى إلى مخيلته الصور العقلية للأشياء أو كانت الصور العقلية[1] تقدم نفسها لعقله، كما أنه يتصرف حسبما تمليه عليه الانفعالات التى تثيرها تلك الأخيلة. وذلك هو ما يفعله فى هذه الأيام طفل أو شخص غير متعلم. ومن الواضح أن التفكير المنظم إنما هو تطور متأخر نسبياً فى الخبرة الإنسانية وهو لم يلعب دورا كبيرا فى الحياة الإنسانية إلا فى غضون الثلاثة الآلاف سنة الأخيرة. بل إن أولئك الذين يضبطون أفكارهم حقاً فى هذه الأيام نفسها وينظمونها فعلا ليسوا إلا أقلية ضئيلة من الناس. ولا يزال معظم الناس يتأثرون بالخيال والعاطفة.

ومن المحتمل أن أقدم ماظهر من الجماعات البشرية إبان المراحل الأولى لقصة الإنسان الحق، كانت تتكون من مجموعات عائلية صغيرة. وكما أن قطعان ورعائل الثدييات الأولى نشأت عن عائلات ظلت بعضها مع بعض ثم تكاثرت، فمن المحتمل أيضاً أن القبائل الأولى قد فعلت مثل ذلك. ولكن قبل حدوث ذلك، كان الأمر يقتضى أن تقيد بصورة ما أنانيات الفرد البدائية. وكان لابد من بسط فكرتى «الخوف من الأب واحترام الأم» حتى تتغلغلا فى حياة الكبار، وكان لابد من تخفيف غيرة الرجل الكهل الطبيعية من ذكران الجماعة الصغار عندما يكبرون. وكانت الأم من الناحية الأخرى هى الناصح الطبيعى والحامى الفطرى للصغار. وقد تولدت الحياة الاجتماعية الإنسانية عن طريق التفاعل بين الغريزة الفجة التى تدفع الصغار إلى الانفصال وتكوين أزواج من أنفسهم عندما يشبون ـ وبين مايتعرضون له من أخطار العزلة ومضارها. وهناك عالم من علماء الأجناس البشرية (Anthropology) أوتى عبقرية عظيمة هو « جـ. جـ أتكنسون » راح فى كتابه « القانون البدائى » ، يوضح إلى أى حد يمكن نسبة القانون العرفى لدى المتوحشين ـ (وهو تلك تلك المحظورات « Tabue » التى هى حقيقة بارزة فى الحياة القبليه) ـ إلى ذلك التوفيق العقلى بين حاجات الحيوان البشرى البدائى وبين حياة اجتماعية آخذة بأسباب التطور. وأظهرت الأيام إلى حد كبير صدق تأويله لهذه الأمور المحتملة بفضل جهود علماء التحليل النفسى فى الآونة الأخيرة.

ومن الكتاب المائلين إلى إطلاق العنان لتأملاتهم من يريدون منا أن نعتقد بأن احترام

---

(١) الصور العقلية images : وهى الأخيلة (المترجم).

الرجل العجوز والخوف منه ، والانفعال العاطفى الذى يحسه المتوحش البدائى إزاء العجائز المسنات اللواتى يتولين حمايته ، (وهى وجدانات تزيدها الأحلام شـــدة ، ويضاعفها عبث الأوهام والأخيلة) كانت مصدر شطر عظيم من بدايات الديانة البدائية ومن فكرة الأرباب والربات . ومما يرتبط بهذا الاحترام للشخصيات القوية أو القادرة على المساعدة شعور بالرهبة أو التوقير لهذه الشخصيات بعد وفاتها ، يرجع إلى عودتها إلى الظهور فى الأحلام . لذا كان من اليسير الاعتقاد بأنها لم تـكن ميتة حقا وأن كل مافى الأمر أنها نقلت نقلا وهمياً إلى منتأى تستمتع فيه بقوة أعظم مما كان لها .

ومن المعلوم أن أحلام الطفل وتخيلاته ومخاوفه أكثر إشراقا وواقعية من أحلام الراشد العصرى ، وما كان الرجل البدائى دائماً إلا طفلا فى تفـكيره أو يكاد . كما أنه كان أيضاً أدنى إلى الحيوانات ، وكان يتصور أن لها دوافع واستجابات مثل التى له وكان يستطيع أن يتخيل هناك حيوانات معاونة ، وأخرى معادية وحيوانات آلهة . ولا يحتاج الإنسان منا إلا أن يكون فى صغره طفلا واسع الخيال ليدرك من جديد كم كانت الصخور الغريبة الشكل أو الـكتل الخشبية أو الأشجار الشاذة الصورة وما أشبهها ، تبدو لأعين رجال العصر الحجرى القديم مهمة وذات مغزى خطر أو منذرة بالشبور أو مظهرة للمودة وكيف كانت الأحلام والأوهام تخلق من الحـكايات والأساطير عن مثل تلك الأشياء ، ما كان يصبح مقبولا ومصدقا عندما يروى . ومن هذه الحكايات مايكون من الجودة بحيث يتذكر وتعاد روايته ، وإن النساء ليروينها للأطفال وبذلك يؤسسن التقاليد ، ولا يزال معظم واسعى الخيال من الأطفال يخترعون إلى يومنا هذا قصصاً طويلة بطلها دمية محبوبة أو حيوان أثير أو كائن خيالى شبه إنسانى ، ولعل الرجل البدائى كان يفعل مثل ذلك ـ مع اختصاصه يميل أقوى كثيرا إلى الاعتقاد بحقيقة بطله ، ومرد ذلك أن أقدم من نعرف من البشر الحقيقيين ، ربما كانوا كائنات ثرثارة تماماً . وكانوا يختلفون من هذه الناحية عن النياندرتاليين ويمتازون عليهم فالنياندرتالى ربما كان حيواناً أبـكم . وحديث الإنسان البدائى ربما لم يرد بداهة عن مجموعة ضئيلة جدا من الأسماء ، وربما كان يصدر مقتضبا مصحوباً بالحركات والإرشادات والعلامات .

وليس من أصناف المتوحشين من يبلغ من الانحطاط أن يكون لديه نوع من العلم بالعلة والمعلول ، ولـكن الرجل البدائى لم يكن نقادا فى ربطه السبب بالنتيجة ؛ فما أسهل ما كان يربط نتيجة بشىء بعيد تماماً عن سببها . كأن يقول : « أنت تفعل كذا وكذا

فيحدث كيت وكيت » . فأنت تعطى ثمرة لأحد الأطفال فيموت . وأنت تأكل قلب عدو منوار فتصبح قويا . هذان مثلان للربط بين السبب والنتيجة ، وأحدهما حقيق والثانى باطل . ونحن نسمى طريقة ربط العلة بالمعلول فى عقل المتوحشين باسم الفتيشة[1] ولكن الفتيشة إنما هى فقط علم المتوحشين وهى تختلف عن العلم العصرى فى كونها لاتقوم على أى أساس من التنظيم أو التمحيص ، فهى لذلك خاطئة فى الأعم الأغلب .

ولم يكن من العسير فى الكثير من الحالات ربط السبب بالأثر ، بينما حدث فى أحيان كثيرة أخرى أن الخبرة صححت على الفور الفكرات الخاطئة ، ولكن هناك مجموعة عظيمة من النتائج ذات أهمية عظمى للرجل البدائى ، كان يلتمس فيها الأسباب بإصرار ولجاجة فلا يستكشف إلا تفسيرات خاطئة ، ولكن خطأها ليس من الكفاية ولا من الوضوح بحيث يستطيع استبانته . ولشد ما كان يهمه أن يكون الصيد وفيرا والسمك كثيرا سهل الصيد ، ولاشك أنه طالما جرب آلافامن التعاويذ والرقى والنذور وآمن بها ليحصل على هذه النتائج المرغوبة ، وثمة شاغل عظيم له هو المرض والموت . وكثيرا ما كانت العدوى تنتشر ، ويموت الناس بها أو تضعف أجسامهم دون سبب ظاهر . فهذا الأمر أيضاً لابد أنه كان يسبب لعقل الرجل البدائى المتسرع الانفعالى كثيرا من الإجهاد والقلق . وكانت الأحلام أو التخمينات الوهمية تجعله يلوم هذا الرجل أو الحيوان أو الشىء أو يلتمس منهم المعونة . كانت لديه قابلية الطفل للخوف والذعر .

ولابد أنه حدث فى زمن مبكر جدا من تاريخ القبيلة الإنسانية الصغيرة ، أن العقول الأكبر سنا والأثبت جنانا ، والتى كانت تسهم فى المخاوف وتسهم فى التخيلات ، ولكنها أقوى قليلا من العقول الأخر ، قد تصدرت للنصح ووصف الوصفات وإصدار الأوامر . فراحوا يصرحون أن هذا أمر مشؤوم وذلك شىء محتوم ، وأن هذا بشير بخير وذاك نذير بشر . وكان الخبير بالفتيشة ، وأعنى به الطبيب الساحر هو الكاهن الأول وهو الذى يقدم النصائح ويفسر الأحلام ، ويحذر ويقوم بالتعازيم الجوفاء التى تجلب الحظ وتجنب النكبات ، ولم ترق الديانة البدائية إلى ما نسميه الآن باسم الديانة من حيث هى طقوس وشعائر ، كما أن الكاهن الأول كان يملى على الناس ماهو فى الحقيقة علم عملى تحكمى

---

(١) الفتيشة وهى اعتقاد المتوحش أن كل شىء مادى تسكنه روح تقوم لذلك الشىء بالخدمات . (المترجم)

الفصل الثالث عشر

بدايات الزراعة

لايزال علمنا ببدايات الزراعة والاستقرار في العالم قاصراً جداً ، وإن يكن قد بذل في هذا السبيل إبان الخمسين عاماً الأخيرة شيء كثير من البحث وإعمال الفكر . وكل مايسعنا قوله في شيء من اليقين في الوقت الحاضر ، أنه حدث في مكان ما قبل مولد المسيح بخمسة عشر ألف عام أو اثنى عشر ألفاً ، بينما الشعب الآزيلي يقطن في جنوب أسبانيا وبينما البقية من الصيادين القدامى تنتقل شمالا وشرقا ، أن كان هناك في مكان مابشمال أفريقيا أو غرب آسيا أو بالوادي المتوسط الكبير الذي تغمره الآن مياه البحر المتوسط ، قوم داموا عصراً بعد عصر يستكشفون ويتعلمون شيئين هامين أهمية حيوية كبرى : ذلك أنهم شرعوا في الزراعة وأخذوا يستأنسون الحيوان كما أنهم شرعوا أيضا يصنعون أدوات من الحجر المصقول بالإضافة إلى الآلات المنحوتة التي ورثوها عن أسلافهم الصيادين .وقد اكتشفوا طريقة صنع السلال والمنسوجات الخشنة النسج المصنوعة من ألياف النبات ، وشرعوا يصنعون فخارا بدائي الصنع .

لقد شرع هؤلاء القوم يتقدمون نحو مرحلة من مراحل الثقافة البشرية ،هي العصر الحجري الحديث (النيوليثي) تمييزا له من العصر الحجري القديم (الباليوليثي) عصر الكرومانيين والشعب الجريمالدي والأزيليين ومن إليهم[1] ومالبث هذا الشعب شعب العصر الحجري الحديث أن انتشر رويدا رويدا في أصقاع العالم الأكثر دفئا كما أن الفنون التي حذقها ، والنباتات والحيوانات التي تعلم أن يستخدمها ، انتشرت معه عن طريق المحاكاة والتملك ، ولكن بصورة تكاد تفوق انتشار الشعب نفسه . فلما وافت

---

(١) ربما لاحظنا أن كلمة «باليوليثي» تطلق على الآلات النياندرتالية بل حتى الأدوات الحجرية Eoliths . ويسمى عصر ما قبل الإنسان « الحجري القديم الأول » أما عصر الإنسان الحق الذي استعمل أحجاراً غير صقيلة فهو « الحجري القديم الثاني » .

سنة ۱۰٫۰۰۰ ق . م . كان معظم البشرية قد ارتقى إلى مستوى العصر الحجرى الحديث .

وعمليات حرث الأرض وبذر الحبوب وجنى المحصول والدرس والطحن ، ربما بدت للعقل العصرى خطوات بديهية شديدة الوضوح شأن كروية الأرض سواء بسواء ، وربما تساءل بعض الناس : وما الذى يستطيع الناس عمله إلا هذه الأشياء ؟ وعلى أية صورة أخرى يمكن أن يكون الأمر؟.. ولكن الرجل البدائى الذى عاش منذ عشرين ألف سنة ، لا يمكن أن تكون أسس التصرف والاستنتاج العقلى التى تبدو لنا اليوم أكيدة جلية ، واضحة لديه على الإطلاق. لقد ظل يتحسس طريقه إلى الممارسة العملية النافعة خلال كثرة عظيمة من المحاولات والأخطاء ، مع الشرود إلى تفصيلات خيالية غريبة لا لزوم لها ، وتأويلات خاطئة عند كل لفتة . كان القمح ينمو بريا فى مكان ما من منطقة البحر المتوسط ؛ وربما تعلم الإنسان كيف يدق حبوبه ، ثم كيف يطحنها قبل أن يتعلم كيف يبذرها بزمن مديد فكأنه جنى قبل أن يبذر .

ومما هو جدير بالملاحظة حقا أنه ما من صقع من أصقاع العالم وجد فيه بذر وجنى إلا أمكن فيه تعقب آثار ارتباط بدائى قوى بين فكرة البذار وفكرة التضحية بالدم ، سيما التضحية بكائن إنسانى قبل كل شىء ولا مراء أن دراسة الأصل فى الخلط بين هذين الشيئين تستهوى كل ذى لب مستطلع ؛ وما على القارئ الذى يهتم بهذه الأبحاث إلا أن يطلب هذا الموضوع مدروسا دراسة وافية فى ذلك السفر الخالد الموسوم بالغصن الذهبى « Golden Bough » الذى ألفه السير ج . ج. فريزر. ويجمل بنا أن نتذكر أن ذلك الخلط بين الأمرين حدث فى العقل البدائى الطفولى الحالم صانع الأساطير ، ولذا فلن نستطيع تفسيره مهما استعملنا من أساليب الفكر والاستنتاج المنطقى .

وكل ما يمكننا قوله أنه يلوح أنه كان من عادة ذلك العالم السحيق قبل اثنى عشر ألفا إلى عشرين ألفا من السنين خلت ، أنه كلما دارت الأيام دورتها وحل أوان البذار على شعوب العصر الحجرى الحديث حلت معه تضحية بشرية . ولم تكن التضحية بأى شخص خسيس أو منبوذ ، بل كانت فى العادة تضحية بشاب مختار أو فتاة منتقاة ، وإذ كان فى الأغلب الأعم شابا يعامل معاملة تنطوى على الإجلال العميق ، بل حتى على

العبادة إلى لحظة تقديمه قربانا . كان يعد ضربا من ملك إله يقدم قربانا ، كما أن كل تفاصيل قتله أصبحت طقوسا يتولاها الرجال المسنون العارفون ، ويقرها عرف العصور الموروث .

ولا بد أن البدائيين بما لديهم من فكرة ساذجة جداً عن فصول السنة ، كانوا يجدون فى البداية صعوبة كبيرة فى تحديد أنسب اللحظات للبذر والقربان فى موسم البذار ، وهناك أسباب تحملنا على الاعتقاد بأنه أتى على الإنسان حين مبكر لم تكن لديه فيه أية فكرة عن شىء اسمه السنة . ثم نشأ أول تاريخ حسب الأشهر القمرية . ؛ ويرى بعض العلماء أن السنوات التى يذكرها « الآباء » فى العهد القديم إنما هى أشهر قمرية ، كما أن التقويم البابلى تتجلى فيه شواهد واضحة تدل على أنهم حاولوا ضبط موسم البذار باحتساب ثلاثة عشر شهراً قمريا لإتمام الدورة . ولا يزال أثر هذا التقويم القمرى باقيا إلى يومنا هذا ، ولولا أن مألوف العادة قد بلد شعورنا ، لدهشنا حقا من أن الكنيسة المسيحية لا تحتفل بذكرى صلب المسيح وبعثه فى الموعد السنوى الصحيح بل فى مواعيد تختلف سنة عن أخرى باختلاف أوجه القمر .

وربما جاز لنا أن نشك فى أن أحدا من الشعوب الزراعية الأولى قد رقب النجوم . والأرجح أن أول من رقب النجوم هم الرعاة الرحل ، الذين كانوا يجدون فيها وسيلة مناسبة لتوجيههم وجهتهم ، ولكن ما كاد الإنسان يدرك نفعها فى تحديد الفصول ، حتى أصبحت أهميتها للزراعة عظيمة جدا ، ومن ثم ربط قربان موسم البذار بمسير أحد النجوم الكبيرة جنوبا أو شمالا ، وكان اتخاذ ذلك النجم أسطورة ومعبودا أمرا لا محيص منه تقريبا عند الرحل البدائى .

من أجل ذلك أصبح من السهل أن ندرك مبلغ الأهمية التى بلغها فى بكور أيام العالم الحجرى الحديث ، رجل المعرفة والخبرة ، الرجل الذى كان يعلم علم قربان الدم والنجوم

أما الخوف من النجس والتدنس ، والطرق المستصوبة الموصوفة للتطهر ، فحدث عنها ولا حرج ، كمصدر آخر من مصادر القوة لذوى العلم الغزير من الرجال والنساء . وذلك لأن الأمر لم يخل أبدا من ساحرات عدا السحرة ، ومن كاهنات فضلا عن الكهنة .

والكاهن الأول ليس فى الحقيقة رجل دين قدر ما هو رجل علم تطبيق . فعله على الجملة تجريبي ، كما أنه فى الأغلب من صنف ردىء ؛ وكان يحتفظ به سرا مصوناً ، ويغار عليه من الناس عامة ؛ ولكن ذلك لا يغير جوهر الأمر ، وهو أن وظيفته الأولى هى « المعرفة » وأن استخدامها الأساسى لديه كان استخداما عمليا .

ومنذ اثنى عشر ألفا أو خمسة عشر ألفا من السنين، وفى جميع أجزاء العالم القديم الدفيئة والحسنة الرى إلى حد مناسب، أخذت هذه المجتمعات الإنسانية التى تعيش عيش العصر الحجرى الحديث فى الانتشار ، بما حوت من طبقة الكهان والكاهنات وتقاليدهم ، وبما لها من حقول مزروعة ، وما حصلت من تطور فى القرى والمدن الصغيرة المسورة . وترادفت العصور عصرا بعد عصر ، وتواصل انتقال الأفكار وتبادلها بين هذه المجتمعات .

وقد أطلق إليوت سميث وريفرز اسم « الثقافة الهليوليثية » (الشمسية الحجرية) على ثقافة تلك الشعوب الزراعية الأولى ، وربما لم يكن لفظ « هليوليثى » هذا خير مصطلح يمكن إطلاقه على هذه الثقافة، غير أنا مضطرون إلى استعماله حتى يوافينا رجال العلم بخير منه .

وهذه الثقافة التى نشأت فى مكان ما بإقليم البحر المتوسط ومنطقة آسيا الغربية ، ظلت تنتشر عصرا بعد عصر ، متجهة شرقا ومنتقلة من جزيرة إلى جزيرة عبر المحيط الهادى حتى وصلت إلى أمريكا نفسها فيما يحتمل . وامتزجت بطرائق العيش الشديدة البدائية لدى المهاجرين شبه المغول (Mongoloids) المنحدرين إليها من الشمال .

وحيثما ذهب الشعب الأسمر صاحب ثقافة العصر الحجرى الشمسى (الهليوليثية) ، أخذ معه كل أو جل طائفة معينة من الأفكار والعادات الغريبة . ومنها فكرات يبلغ من غرابتها أن تحتاج إلى تفسير من الخبراء بالنواحى العقلية . فهم كانوا يقيمون الأهرام والربى الضخمة ،وينشئون دوائر عظيمة من الأحجار الكبيرة ،ولعل الغرض منها كان تسهيل الرصد الفلكى الذى ينهض به الكهان ؛ وعرفوا التحنيط ، واتخذوا الموميات لحنطوا بعض موتاهم أو جميعهم ، واستعملوا الوشم والختان ، وكانت لديهم العادة القديمة المسماة بالنفاس الزائف ، التى بمقتضاها يرسلون الوالد إلى الفراش

ويلزمونه بالراحة إذا ولد له طفل ، كما كانوا يتخذون من الصليب المعقوف الذائع الصيت رمزاً للحظ .

فإذا نحن أنشأنا خريطة للعالم ورسمنا عليها نقطا تبين إلى أى مدى تركت هذه العادات المجتمعة آثارها ، وجب علينا أن ننشىء نطاقا يمتد بإزاء سواحل العالم بالمناطق المعتدلة وشبه المدارية . يمتد من ستونهنج وأسبانيا عبر العالم حتى يبلغ المكسيك وبيرو . ولكن شيئا من هذه النقط لن يمر بأفريقيا جنوب خط الاستواء ولا بالقسم الشمالى من أوربا الوسطى ولا شمال آسيا ؛ فهناك كانت تعيش أجناس بشرية تتطور فى اتجاه آخر مستقل عن هذا تقريبا .

الفصل الرابع عشر

حضارات العصر الحجرى الحديث البدائية

كانت جغرافية العالم حوالى عام ١٠٫٠٠٠ ق . م . شديدة الشبه فى معالمها العامة بجغرافية العالم اليوم . ومن المحتمل أن الحاجز العظيم ، الذى كان يمتد عبر مضيق جبل طارق ، والذى ظل حتى آنذاك يصد مياه المحيط عن وادى البحر المتوسط ، كان قد تآكل وتصدع فى ذلك الوقت ، وأن البحر المتوسط أصبحت سواحله عند ذلك تطابق إلى حد كبير نفس سواحله الحالية . أما بحر قزوين فلعله كان حينذاك لايزال أوسع كثيراً مما هو عليه الآن ، وربما كان متصلا بالبحر الأسود شمال بلاد القوقاز . ومن حول هذا البحر الآسيوى الداخلى الكبير ، كانت الأراضى التى هى الآن سهوب وصحارى جرداء ، خصبة عند ذلك وقابلة للسكنى. فإن ذلك العالم كان على وجه الإجمال عالما أكثر مطراً وأشد خصبا . كما أن الروسيا الأوربية كانت أرض مستنقعات وبحيرات أكثر مما هى عليه الآن ، وربما كان هناك حتى ذلك الحين برزخ من الأرض يمتد بين آسيا وأمريكا مكان مضيق بهرنج .

ولابد أن الأقسام الرئيسية للأجناس البشرية على ما نعهدها اليوم ، وكانت قد فصلت آنئذ وأصبح من الممكن تمييزها . وانتشرت فى طول المناطق الدفيئة المعتدلة وعرضها وعلى سواحلها فى ذلك العالم الأكثر دفئا والأكثف غابات فى تلك الأيام الحالية ، شعوب الثقافة الحجرية الشمسية (الهليولثية) السمر البشرة ، أسلاف الغالبية العظمى من السكان الحاليين لعالم البحر المتوسط ، أى أجداد البربر والمصريين وكثير من سكان جنوب وشرق آسيا .

وبديهى أن هذا الجنس الكبير كان ينطوى على عدد من الأنواع . وما الجنس الأيبيرى أى جنس البحر المتوسط أى « الأبيض القاتم » النازل على سواحل المحيط الأطلسى والبحر المتوسط ، وما الشعوب الحامية التى تنطوى على البربر والمصريين ، وما الدرافيديون (*سكان الهند الأقتم لونا*) ، وعـــدد من شعوب الهند الشرقية ،

وكثير من لأجناس البولينيزية (١) وشعب الماوورى ، إلا أقسام تتفاوت قيمتها وسط هذه الكتلة العظمى الرئيسية من البشرية . وأنواعها الغربية أشد بياضا من الشرقية. على أن جيلا من الناس يدعوه الكثيرون اليوم باسم الجنس النوردى ، ويقيم في غابات أوربا الوسطى والغربية ، وهو أكثر شقرة وله عيون زرقاء أخذ يتميز بنفسه ، ويتفرع عن الكتلة الرئيسية للشعوب السمراء .

وثمة تفريع آخر كان يحدث فى أقاليم آسيا الشمالية الشرقية المنبسطة الأكثر براحاً انفصل به فريق من الناس عن هذه البشرية السمراء واتجه إلى تكوين طراز لنفسه عيونه أكثر انحرافا ، وعظام وجناته ناتئة،وجلده مصفر وشعره أسود شديد الاستقامة وهو الشعوب المغولية . وبقيت فى جنوب إفريقيا وأستراليا وفى جزائر مدارية كثيرة بجنوب آسيا ، بقايا من الشعب شبه الزنجى (النجريدى) القديم . وقد صارت الأجزاء الوسطى من إفريقيا بالفعل منطقة تخالط بين الأجناس البشرية . إذ يلوح أن جميع الأجناس الملونة التى تقطن بإفريقيا اليوم تكاد دماؤها جميعاً أن تكون خليطا من شعوب الشمال السمراء ومن طبقه أساسية شبه زنجية .

ويجب علينا أن نتذكر أن الأجناس البشرية تستطيع جميعا أن تتخالط وتتوالد بمنتهى الحرية ، وأنها تفترق وتمتزج ، ثم تعود إلى الاتحاد كما يفعل السحاب فى السماء. والأجناس البشرية لاتتفرع كالشجر فروعا لاتلتقى بعد ذلك أبداً . والواقع أن هذا الاختلاط المتكرر للأجناس الذى يحدث عند كل فرصة تسنح أمر ينبغى ألا يغيب عن بالنا ألبتة، فإذا فعلنا ذلك نجونا من كثير من ألوان الضلال والتحيز القاسية . والناس يجنحون إلى استعمال كلمة مثل « جنس » بصورة فضفاضة يتجلى فيها إطلاق القول على عواهنه ، ويبنون عليها أشد أنواع التعليمات مخالفة للعقل والمنطق . هم يتحدثون عن جنس « بريطانى » أو عن جنس « أوربى » : ولكن الأمم الأوربية كلها تقريباً خلائط مضطربة من عناصر سمراء وأخرى بيضاء قاتمة وبيضاء ومغولية .

وكانت حقبة التطور الإنسانى المسماة بالعصر الحجرى الحديث (النيوليثى) هى التى

---

(١) بولينزيا : مجموعة جزائر بالمحيط الهادى الجنوبى حول خط طول ١٨٠ وأشهرها هواى وفيجى وساموان .

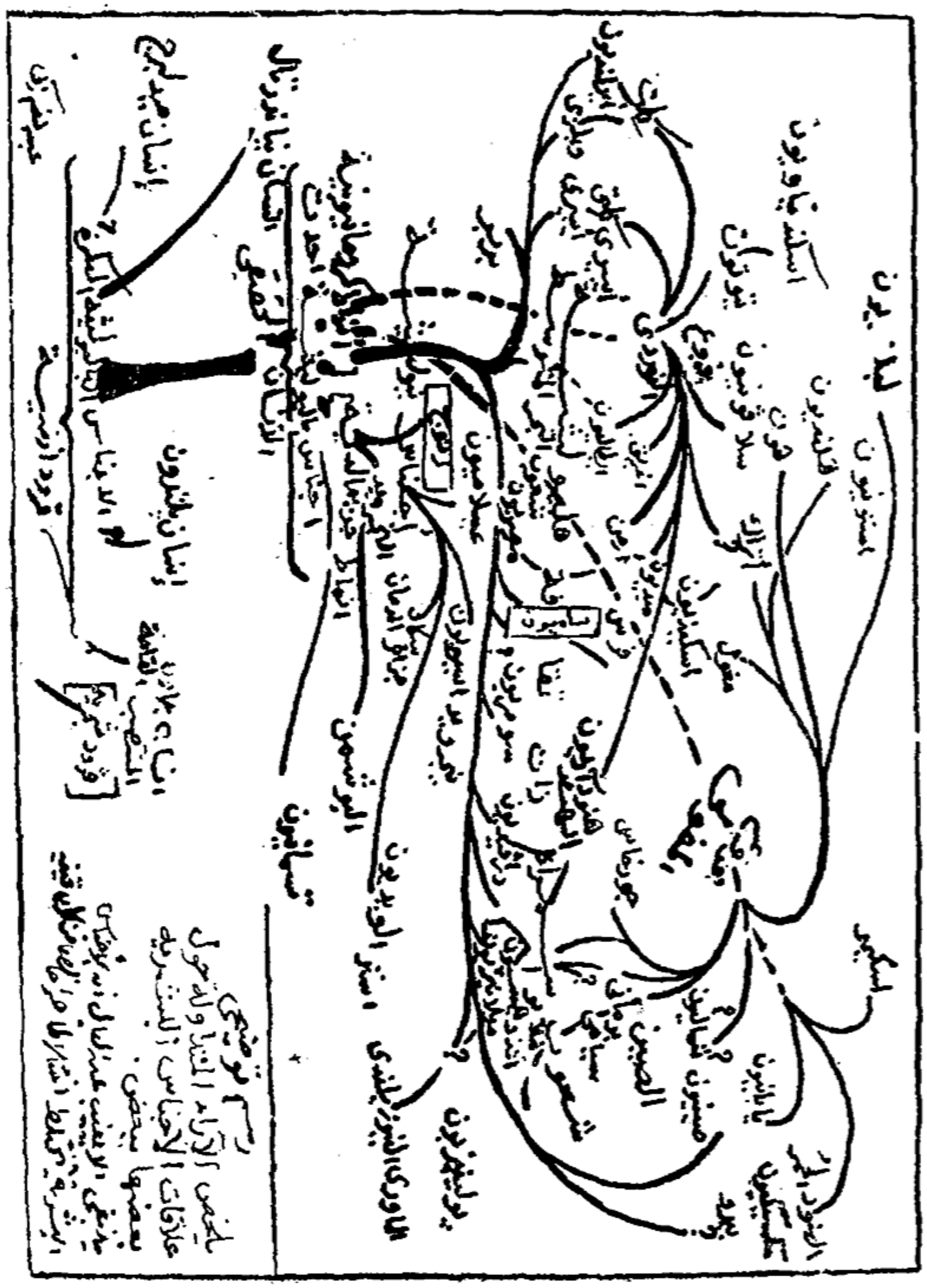
اتخذت فيها شعوب من الجنس المغولى طريقها لأول مرة إلى أمريكا . وواضح أنهم بلغوها بطريق مضيق بهرنج ثم انتشروا جنوبا فوجدوا فى الشمال الكاريبو وهو غزال الرنة الأمريكى ، وفى الجنوب أسرابا كبيرة من الجاموس البرى (البيزون). فلما وصلوا إلى أمريكا الجنوبية كان لايزال يعيش بها حيوان الجليبتودون وهو نوع ضخم من الأرمادلو ، والميجاثريوم وهو طراز من حيوان الرسيف[1] بشع قبيح الشكل يبلغ ارتفاعه ارتفاع الفيل والراجح أنهم أبادوا الحيوان الثانى وكان عاجزاً قليل الحيلة على ضخامته.

ولم يرتق الشطر الأعظم من هذه القبائل الأمريكية ألبتة عن مستوى حياة الصيد الترحلية للعصر الحجرى الحديث، فهم لم يكتشفوا الحديد أبداً، وكان رأس مافى حوزتهم من المعادن الذهب والنحاس الموجودين فى بلادهم . أما المكسيك ويوقطان وبيرو ، فكانت ظروفها توائم الزراعة المستقرة ، وهناك نشأت قرابة ١٠٠٠ ق . م . مدنيات شائقة جداً ، تناظر مدنيات العالم القديم وإن خالفتها فى الطراز. ذلك أن هذه المجتمعات أظهرت ـ شأن الحضارة البدائية الأقدم منها كثيراً فى العالم القديم ـ تطوراً عظيما فى القرابين البشرية يتصل بعمليات موسم البذار والحصاد؛ ولكن على حين أن هذه الفكرات الأساسية قد لطفت فى النهاية بالعالم القديم كما سنرى وتعقدت ثم غطت عليها فكرات أخرى،فإنها تطورت بأمريكا وفصلت حتى بلغت درجة عالية جداً من الشدة. وبديهى أن هذه الأقطار الأمريكية المتحضرة كانت بالضرورة أقطاراً متدينة يحكمها الكهنة ؛ وأن قادتهم فى الحرب وحكامهم كانوا يخضعون لقواعد صارمة من الشريعة والتطير . . .

وصل هؤلاء الكهان بعلم الفلك إلى مستوى رفيع من الضبط والدقة . فمعرفتهم بالسنين وحسابها كانت خيرا من معرفة البابليين الذين سنحدثك عنهم من فورنا . وكان لهم فى يوقطان نوع من الكتابة ، هو كتابة المايا Maya ، وهى من أعجب ما نقل التاريخ من الكتابات وأشدها إحكاما . وقد عرفنا بقدر ما استطعنا حله من رموزه أنها كانت تستعمل بوجه خاص فى تسجيل التقاويم المضبوطة المعقدة التى كان الكهنة يبدون فيها ذكاءهم . وبلغ الفن فى حضارة المايا ذروة مجده حوالى ٧٠٠ أو ٨٠٠ق.م

---

(١) الرسيف *Sloth* : أحد أنواع كثيرة من الدرديات الشجرية الطويلة الشعر البطيئة الحركة توجد فى غابات أمريكا الجنوبية ويسمى أيضا حيوان الكسلان .



خريطة رقم (٢)

وفن النحت عند هذا الشعب يذهل المشاهد العصرى بقوة تشكيله العظيمة وجماله المتزاحم كما يحيره بغرابته المضحكة وبسمة جنونية من التعقيد والتزام التقاليد التى تخرج بالضرورة عن المجال الفكرى لذلك المشاهد .

وليس فى العالم القديم شىء يماثله تماما . وأدنى الأشياء شبهاً إليه — وهو شبه بعيد — يوجد فى الطراز القديم المهجور من النحائت الهندية . فالريش ينتسج مع كل موضع منه ، والثعابين تنفتل فيه فى الداخل والخارج وكثير من كتابات المايا تشبه صنفا معينا من الرسوم المتقنة التى يصنعها المجانين فى مستشفيات الأمراض العقلية بأوربا . أكثر مما تشبه أى شىء آخر فى العالم القديم . فكأن عقل المايا قد تطور فى اتجاه جديد يختلف عن الاتجاه العقلى للعالم القديم ، وكأنما تناول فكراته التواء مغاير وكأنه من ثم ليس ألبتة متزنا إذا هو قيس بمعايير العالم القديم .

والواقع أن هذا الربط بين الحضارات الأمريكية المنحرفة وبين القول بوجود الانحراف العقلى العام ، يدعمه تسلط فكرة سفك الدماء البشرية على عقولهم تسلطا غير عادى . والمدنية المكسيكية بوجه خاص كانت تريق الدماء أنهارا ؛ فكانت تقدم فى كل عام آلافا من الضحايا البشرية وكان شق صدور الضحايا وهم أحياء ، واستخراج القلب وهو لايزال ينبض أهم مايشغل عقول وحياة هذه الكهانات الغريبة . فمحور الحياة العامة والحفلات القومية إنما هو هذا العمل الرهيب فى غرابته .

أما الحياة العادية لعامة الناس فى هذه المجتمعات فهى قوية الشبه بالحياة العادية لأى مجتمع همجى آخر من الفلاحين . وقد برعوا فى صناعة الفخار والنسيج والأصباغ ، ثم إن كتابة المايا لم تحفر فقط على الحجر بل كانت تكتب وترقش على الجلود وما أشبهها . وتضم دور المتاحف فى أوربا وأمريكا كثيرا من المخطوطات الماياوية المحيرة التى لم يحل من معمياتها فى الوقت الحاضر عدا التواريخ إلا الشىء القليل . ونشأت فى بيرو بدايات لكتابة مشابهة لهذه ، ولكن حلت محلها طريقة للتدوين بوساطة عقد تعقد فى الخيوط وكان أهل الصين يستخدمون منذ آلاف السنين طريقة كهذه من الكتابة بالخيط كوسيلة لمساعدة الذاكرة .

والعالم القديم قبل أربعة أو خمسة آلاف سنة ، أى قبل ذلك العهد بثلاثة أو أربعة آلاف سنة ، كان ينطوى على حضارات بدائية تختلف عن هذه المدنيات الأمريكية . وهى

حضارات تدور حول أحد المعابد ، ولها قدر عظيم من التضحية بالدماء ، وكهانة شديدة العكوف على الفلك . ولكن الحضارات البدائية فى العالم القديم كانت تتفاعل بعضها مع بعض ويتجه تطورها نحو ظروف عالمنا الراهن وأحواله على حين أن هذه الحضارات البدائية لم تتجاوز فى أمريكا تلك المرحلة البدائية أبداً إذ كانت كل منها تعيش فى عالمها الصغير الخاص بها وحدها . فالمكسيك ظلت فيما يبدو لا تعرف إلا القليل عن بيرو أو لا شيء ألبتة ، حتى هبط الأوربيون أمريكا . حتى إن أهالى المكسيك لم يعرفوا البطاطس الذى كان المادة الغذائية الرئيسية فى بيرو .

ظلت هذه الشعوب عصرا بعد عصر تعيش وتعجب من أمر أربابها وتقرب القرابين وتموت . وارتقى الفن الماياوى إلى مستويات عالية من الجمال الزخرفى . وكان الأفراد يعشقون والقبائل تتقاتل . ولم يبرح القحط يعقب الوفرة ، والوباء يتبع الصحة ، على حين واصل الكهان قرونا عديدة إتقان تقويمهم وإحكام طقوس التضحية ، دون أن يحرزوا فى الاتجاهات الأخرى إلا تقدما يسيرا .

الفصل الخامس عشر

سومر ومصر فى العصور الأولى ونشأة الكتابة

لا مراء أن العالم القديم مسرح أرحب أفقا وأكثر تنويعا من الجديد . فقد قامت به فعلا منذ حوالى ٦٠٠٠ أو ٧٠٠٠ ق . م مجتمعات شبه ممدنة كادت تبلغ مستوى بيرو . وقد ظهرت تلك المجتمعات فى أقاليم خصبة منوعة من آسيا كما ظهرت فى وادى النيل . وفى ذلك الوقت كان شمال إيران والتركستان الغربية وجنوب بلاد العرب أخصب مما هى عليه الآن ، إذ توجد بتلك الأقطار آثار تشهد بوجود مجتمعات فى عصور باكرة جداً . ولكن مصر والمنطقة الدنيا من أرض الجزيرة هما القطران الوحيدان اللذان تظهر بهما لأول مرة المدن والمعابد والرى المنتظم ودلائل تنظيم اجتماعى يعلو عن مستوى المدينة القروية الهمجية البحتة ، وفى تلك الأيام كان الفرات والدجلة يفيضان فى الخليج الفارسى بمصبين منفصلين ،وبنى السومريون أوائل مدنهم على الأرض المحصورة بينهما. وحوالى ذلك العهد تقريباً ــ وذلك لأن التاريخ لا يزال على شىء من الإبهام ــ كان تاريخ مصر العظيم قد أخذ يبزغ .

ويظهر أن هؤلاء السومريين كانوا شعباً أسمر له أنوف ناتئة . وكانوا يستعملون نوعا من الكتابة حلت رموزه ، فلغتهم الآن معروفة . وقد اكتشفوا البرونز وأقاموا معابد كبيرة كالأبراج من الطوب المجفف فى الشمس . وطين تلك البلاد ناعم جداً ، ومنه اتخذوا ألواحا يكتبون عليها ، لذا بقيت كتاباتهم محفوظة إلى اليوم . وقد ملكوا الماشية والأغنام والماعز والحمير ولكن الحصان كان يعوزهم . وكانوا يقاتلون راجلين فى تشكيل متراص ، وهم يحملون الحراب وتروسا من الجلد.وصنعوا ثيابهم من الصوف كما كانوا يحلقون رءوسهم .

ويلوح أن كل مدينة سومرية كانت على وجه العموم دولة مستقلة لها رب خاص وكهنة خصوصيون . وقد يحدث أحيانا أن تسود إحدى المدن باقى زميلاتها ، وتفرض الجزية على السكان . وقد عثر فى نيبور على كتابة سحيقة القدم جداً تذكر اسم

« إمبراطورية » مدينة إريتش السومرية ،وهى أول ماذكر التاريخ من إمبراطوريات، وكان إلهها وملكها الكاهن يدعيان أن سلطانهما يمتد من الخليج الفارسى إلى البحر الأحمر .

وكانت الكتابة فى البداية مجرد طريقة مختزلة من التدوين التصويرى . كما أنها شيء سحيق إذ أن الإنسان كان قد أخذ يكتب قبل العصر الحجرى الحديث نفسه بأزمان سحيقة . والصور الأزيلية الصخرية التى أشرنا إليها آنفا تظهر بداية تلك العملة . فإن كثيراً منها تسجل أحداث صيد وحملات حربية ، والأشكال الإنسانية فى معظمها مرسومة رسوما واضحة . على أن المصور لم يكن يهتم فى بعضها بالرأس والأطراف ؛ بل يكتفى بتصوير الإنسان بخط رأسى وخط آخر أفقى أو اثنين .

وكان من أيسر الأمور الانتقال من هذا التدوين بالتصوير إلى كتابة تقليدية مركزة بالصور . ومالبثت خدشات الحروف فى كتابة سومر التى كانت تكتب على الطين بعود أن أصبحت من البعد عما تمثله من صور بحيث لم يعد فى الإمكان تمييزها ، أما مصر التى كان الناس يكتبون فيها على الجدران ، وعلى شقائق من نبات البردى (وهو أول ما عرف من أنواع الورق) . فقد بقيت فيها المشابهة بين الحروف وبين الصور التى نقلت عنها تلك الحروف . والكتابة السومرية تسمى بالكتابة المسمارية أو الإسفينية أى المشابهة للمسمار أو الإسفين ، وذلك لأن الأقلام الخشبية التى كانت تستعمل فى سومر ،كانت تحدث خدوشا على شكل الوتد أو الإسفين .

وتمت خطوة هامة صوب الكتابة عندما استعملت الصور لاللدلالة على الشيء الذى تمثله بل على شيء مشابه له ولايزال هذا الأمر يحدث إلى اليوم فى ألغاز أسماء الصور (Redus[١]) ، وهى لعبة يحبها الأطفال . وإنا لنرسم معسكرا به خيام وجرس،فيبتهج الأطفال حين يخمنون أن هذا يرمز إلى الاسم الاسكوتلندى (Campbell [٢] كامبل). واللغة السومرية مكونة من مقاطع متراصة،تكاد تماثل بعض لغات الهنود الحمر المعاصرة

---

(١) ألغاز أسماء الصور : تمثيل ملغز لأحد الأسماء يصور فيها تورية تمثل أجزاء من الكلمة (المترجم) .

(٢) هنا يجمع الأطفال الإنجليز بين كلمتى خيم Camp وجرس Bell فتنتج لفظة : Campbell (المترجم) .

وقد استجابت فى يسر لهذه الطريقة المقطعية فى كتابة الكلمات المعبرة عن أفكار لايستطاع نقلها بطريق الصور مباشرة . ومرت بالكتابة المصرية تطورات موازية لهذه . وحدث فيما بعد عندما تهيأ لشعوب أجنبية تتكون لغاتها من مقاطع بدرجة أقل، أن يتعلموا هذه الكتابة بالصور ويستخدموها ــ أنهم مضوا بتلك التعديلات والتبسيطات الأخرى التى تطورت فى النهاية حتى أصبحت كتابة أبجدية ، وجميع ما ظهر فى العالم بعد ذلك من أبجديات حقة،مشتق من خليط من الكتابة السومرية المسمارية والكتابة المصرية الهيروغليفية (كتابة الكهان) . وحدث بعد ذلك فى الصين أن تطورت كتابة بالصور متواضع عليها،ولكن لم يحدث قط ببلاد الصين أنها وصلت إلى المرحلة الأبجدية

وكان اختراع الكتابة ذا أهمية كبيرة جداً فى تطور الجماعات الإنسانية. فكان من أثره أن سجلت الاتفاقات والقوانين والوصايا . وهى التى هيأت السبيل لنمو دول أكبر من دول المدن القديمة . وجعلت فى الإمكان قيام وعى تاريخى متواصل . وبها أصبح فى إمكان أمر الكاهن أو الملك أو خاتمهما أن يذهبا إلى أماكن بعيدة عن بصره وصوته وأن يبقيا بعد موته . ولعل مما يشوقك أن تلحظ أن الأختام كانت تستعمل بكثرة فى بلاد سومر القديمة. وأن الملك أو النبيل أو التاجر يتخذ خاتماً كثيرا ما يكون محفورا حفرا فنيا جميلا ، وإنه ليطبعه على أية وثيقة طينية يريد أن يصدق عليها . فكم اقتربت الحضارة من الطباعة منذ ستة آلاف سنة ! ! ثم يجفف الطين بعد ذلك ويغدو مستديمـا . ذلك أن القارىء ينبغى له أن يتذكر أن أرض الجزيرة إبان مالاعديد له من السنين ،كانت الرسائل فيها والسجلات والحسابات ، تكتب جميعاً على ألواح غير قابلة للبلى نسبيا . وإلى هــذه الحقيقة ندين بثروة عظيمة من المعارف المسترجعة من بطون الثرى .

ومنذ زمان سحيق جدا كان البرونز والنحاس والذهب والفضة معادن معروفة فى مصر وسومر جميعا ، فضلا عن الحديد المستخرج من النيازك بوصفه مادة نادرة ثمينة . ولسنا نشك ألبتة فى شدة تشابه الحياة اليومية بمصر وسومر أول أقطار العالم القــديم ظهورا على مسرح التاريخ . عدا ما تفردتا به من وجود الحمير والماشية فى الشوارع ، فلابد أن الحياة بهما لم تكن تختلف كثيرا عن الحياة بمدن المايابأمريكا بعد ذلك بثلاثة أو أربعة آلاف سنة . وكان معظم الناس يقضون أوقاتهم زمن السلم فى الرى والزراعة لاينقطعون عنهما إلا أيام الحفلات الدينية.لم تكن لديهم نقود ولا كانت بهم حاجة إليها

إذ أنهم كانوا يديرون تجاراتهم الصغيرة العارضة بالمقايضة ، واستخدم الأمراء والحكام الذين يملكون دون سواهم الممتلكات الكثيرة قضبانا من الذهب والفضة والأحجار الثمينة فى أية صفقة تجارية طارئة يتمونها . وكان المعبد متسلطا على حياة الناس ؛ والمعبد فى سومر بناء كبير شامخ يصعد منه إلى سطح يرصدون منه النجوم ، وهو فى مصر بناء ضخم ليس به إلا طابق أرضى فقط ، وفى سومر كان الكاهن الحاكم أعظم الكائنات وأفخمها . فأما مصر فكان بها فرد يرفع فوق الكهنة ؛ وهو التجسيد الحى الممثل لرب البلاد الأعلى ، وهو فرعون الملك الرب .

وفى تلك الأيام لم تكن تحدث فى العالم إلا تغيرات قليلة ، فالناس يقضون أيامهم كادحين فى ضياء الشمس ملتزمين لتقاليدهم القديمة وقل أن هبط البلاد أجنبى أو غريب.فمن اغترب منهم لم يذق للراحة طعما ، وكان الكاهن يدبر شئون الحياة وفق قواعد سحيقة القدم ، ويرصد النجوم ارتقابا لوقت البذار ويدرس النذر التى تتمخض عنها القرابين ويئول ماتجيء به الأحلام.من تحذيرات وكان الناس يعملون ويعشقون ويموتون غير محرومين من أفاويق السعادة ،ناسين ما كان لجنسهم من ماض متوحش وغير عابئين بما يكنه لهم المستقبل . وكان الحاكم فى بعض الأحيان رحيما مترفقا . شأن بيبى الثانى الذى ظل يحكم مصر تسعين عاما،وكان طموحا فى أحيان أخرى يأخذ أبناء الشعب جنودا ويرسلهم على دول المدن المجاورة ليقاتلوا وينهبوا،أو كان يسومهم العناء والكدح فى إقامة المبانى العظيمة.كذلك كان خوفو وخفرع ومنقرع الذين بنوا تلك النواويس الجبارة : أهرام الجيزة .وأعظم هذه الأهرام يبلغ ارتفاعه ٤٥٠ قدما ووزن مابه من حجر ٤٠٨٨٣٠٠٠ طن .وقد جلب هذا الحجر كله بطريق النيل فى الزوارق ، ودفعته إلى موضعه قوة العضلات الإنسانية بوجه خاص . ولابد أن تشييده قد أنهك قوة مصر أكثر من أية حرب عظمى .

الفصل السادس عشر

الشعوب المترحلة البدائية

لم يكن استقرار الناس إلى حياة الزراعة وتكوين دول المدن إبان القرون المحصورة بين ٦٠٠٠ ، ٣٠٠٠ ق . م ، قاصراً على أرض الجزيرة ووادى النيل وحدهما ، فحيثما أتيحت للناس إمكانيات للرى ومورد للطعام ثابت على مدار السنة كانوا يتبدلون حياة الاستقرار بصعوبات الصيد والتجوال وعدم ثباتهما . وشرع شعب يسمى بالآشوريين يؤسس المدن فى أعالى دجلة ؛ وكانت هناك فى وديان آسيا الصغرى وعلى شواطىء البحر المتوسط وجزائره ، مجتمعات صغيرة أخذت تكبر وتسير فى طريقها إلى المدنية . ومن الجائز أن تطورات مماثلة لهذه فى الحياة الإنسانية كانت تحدث أيضاً بالمناطق الموائمة لها من بلاد الهند والصين . وكان فى أجزاء عديدة من أوربا كثرت بها البحيرات التى يعمرها السمك بوفرة ، مجتمعات صغيرة من الناس استقرت منذ أمد بعيد فى مساكن بنيت على أعمدة فوق الماء ، كما أخذت تقلل من الاهتمام بالزراعة متبدلة بها القنص وصيد السمك . ولكن مثل هذا النوع من التوطن لم يكن ممكنا فى مناطق العالم القديم التى تكبر عن هذه كثيراً منذ كانت البشرية (وأدواتها وعلمها على مانعلم من نقص وعجز) لا تستطيع أن ترسى جذورها وتثبت أقدامها ، إذ كانت الأرض أخشن وأوعر من أن تسمح بذلك ، أو كانت الغابات كثيفة ، أو كانت التربة قاحلة جدباء أو الفصول متقلبة عديمة الاستقرار .

وكان الناس يحتاجون إن شاءوا الاستقرار فى ظلال الحضارات البدائية إلى فيض مستديم من الماء ودفء وشمس ساطعة مشرقة . فإذا لم تتهيأ هذه المستلزمات للانسان ، عاش جوالا متنقلا وقضى عمره صيادا يتبع صيده ، وراعياً يتعقب الكلأ الموسمى ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يستقر . وربما كان الانتقال من حياة الصيد إلى حياة الرعى تدريجياً جداً ، ولعل الناس انتقلوا من تعقب قطعان الماشية البرية أو الخيول البرية (فى آسيا) ، إلى تكوين فكرة عن تملكها ، كما تعلموا أن يحجزوها فى بعض الوديان ، وأن يقاتلوا دونها الذئاب والكلاب الضارية والوحوش الكاسرة الأخرى .

ومن ثم فبينما كانت حضارات الزراع البدائية تنمو بوجه خاص فى وديان الأنهار العظمى ، كانت تنمو أيضاً طريقة عيش مغايرة لهذه ، هى حياة الترحل ، وهى حياة تقضى فى حركة مستمرة ذهابا وجيئة من مرعى الشتاء إلى مرعى الصيف . وكانت الشعوب المترحلة أصلب على وجه الإجمال عوداً وأشجع فؤادا من الزراع ؛ وهم أقل إنتاجا للأولاد وأقل عددا ، ولم تكن لهم معابد مستديمة ولا كهانات شديدة التنظيم ؛ وهم أقل أدوات وأجهزة ؛ ولكن لا ينبغى للقارئ أن يستنتج من ذلك أن طريقة عيشهم كانت بالضرورة أدنى تطورا . فإن هذه الحياة الحرة كانت من أوجه عديدة حياة أوفى وأكمل من حياة عازق الأرض . فكان الفرد منهم أكثر اعتمادا على نفسه ؛ وأكثر استقلالا . وكان القائد لديهم أكثر أهمية منه فى المجتمعات الأخرى ؛ والطبيب الساحر أقل أهمية فيما يحتمل .

ولا شك فى أن نظرة المترحل إلى الحياة أرحب مجالا ،لتحركه فوق متسعات مترامية من الأرض . وهو لا يفتأ يمس حدود هذه الأرض المستعمرة وتلك ، وقد ألف رؤية الوجوه الغريبة . ولم يكن له مفر من أن يدبر الخطط فى سبيل المرعى وأن يتفاهم فى شأنه مع القبائل المنافسة؛ومعرفته بالمعادن تفضل معرفة الشعوب التى تقطن أرض الحراث، وذلك لأنه كان يسير فوق الممرات الجبلية ويخترق المناطق الصخرية .ولعل علمه بالصناعات المعدنية كان أكبر من علم الزراع . إذ يحتمل أن ظهور البرونز بل والحديد أيضاً على أرجح التقديرات ــ كان من المكتشفات التى وصل إليها الرحل . وآية ذلك أن طائفة من أقدم الأدوات المصنوعة من الحديد المستخرج من خامه قد وجدت فى أوربا الغربية على بعد عظيم من المدنيات الأولى .

كان للمستقرين من الناحية الأخرى منسوجاتهم وفخارهم كما أنهم كانوا يصنعون كثيرا من الأشياء المرغوبة . وبينما كان مذهبا الحياة هذان : الزراعة والترحل يتمايزان أحدهما عن الآخر ، لم يكن بد من أن يحصل بينهما قدر معين من النهب والاتجار . ولا شك فى أنه كان من الأمور المألوفة فى بلاد سومر بوجه خاص بما يكتنف جانبيها من صحراوات وأراض موسمية المناخ ، أن يخيم المترحلون بالقرب من الحقول المزروعة وأن يتجروا ويسرقوا وربما اتخذوا صناعة المعادن حرفة لهم، كما يفعل الأنجار (النور) إلى يومنا هذا (ولكنهم لم يكونوا ليسرقوا الدجاج كالأنجار،لأن الدجاجة المنزلية ــ وهى فى الأصل دجاجة أحراش هندية ــ لم يستأنسها الإنسان إلا حوالى ١٠٠٠ ق . م) ، وإنهم

ليجتلبون للزراع الأحجار الكريمة والمصنوعات المعدنية والجلدية ، فإن كانوا صيادين جلبوا معهم الفراء . وإنهم ليحصلون مقابلها على الفخار والخرز والزجاج والثياب ، وما إليها من أشياء مصنوعة .

وكانت هناك ثلاث مناطق رئيسية وثلاثة أصناف رئيسية من التجوال والاستقرار غير التام فى تلك الأيام السحيقة التى قامت فيها الحضارات الأولى بسومر ومصر القديمة. فهناك فى الغابات النائية بأوربا ، كانت تقيم الشعوب النوردية الشقراء المكونة من قناصين ورعاة ، وهم جنس خسيس القدر ، ولم تر الحضارات البدائية إلا النزر اليسير جدا من ذلك الجنس قبل ١٥١١ ق . م . وكانت تقيم فى السهوب الفصية من آسيا الشرقية ، قبائل مغولية منوعة ، هى الشعوب الهونية . وهى تستأنس الحصان ،وتكون فى نفسها عادة الحركة الموسمية الفسيحة المجال بين مواضع ضرب خيامها صيفاً وشتاء . ومن المحتمل أن الشعوب النوردية والهونية كانت لا تزال تفصلها بعضها عن بعض مستنقعات الروسيا ، كما يفصلها بحر قزوين الذى كان فى ذلك الزمان أعظم رقعة . ذلك أن قدرا عظيما من الروسيا كان حينذاك مكونا من مستنقعات وبحيرات .

أما صحراوات سوريا وبلاد العرب ، التى كان جدبها وجفافها آخذا عند ذلك فى الزيادة ، فإن قبائل من شعب أبيض قاتم أو أسمر ، هى القبائل السامية ، كانت تدفع فيها قطعانا من الغنم والمعز والحمير من مرعى إلى مرعى . وهؤلاء الرعاة الساميون (ومعهم قوم لهم سمة نيجريدية قوية وموطنهم جنوب إيران،هم العيلاميون)ـ أول الرحل الذين اتصلوا اتصالا وثيقا بالحضارات الأولى جاءوا متجرين ومغيرين ، حتى إذا ظهر فيهم فى النهاية قادة أجرأ جنانا ، أصبحوا غزاة فاتحين .

وفى قريب من ٢٧٥٠ ق . م ، كان قائد سامى عظيم هو « سرجون » قد فتح بلاد سومر بأكملها ، وأصبح سيدا للعالم كله من الخليج الفارسى إلى البحر المتوسط . كان همجيا أميا وتعلم شعبه الأكاديون الكتابة السومرية ، واتخذوا السومرية لغة للموظفين والعلماء . وبعد قرنين من الزمان انحطت الإمبراطورية التى أسسها ، حتى إذا وقعت البلاد فى قبضة العيلاميين ، جاء شعب سامى جديد ، هو العموريون ، فوطد بالتدريج دعائم حكمه فى سومر . فاتخذوا من بابل عاصمة لهم — وكانت حتى آنذاك مدينة صغيرة بأعالى النهر — وأنشأوا إمبراطورية تسمى الإمبراطورية البابلية الأولى. وقد رفع من شأنها وشد من تماسكها ملك عظيم اسمه حمورابى (حوالى ٢١٠٠ ق . م) وهو الذى سن أول مجموعة من القوانين يعرفها التاريخ اليوم .

أما وادى النيل الضيق فإن موقعه جعله أقل من أرض الجزيرة تعرضاً لغزوات الرحل ، ولكن حدث حوالى عهد حمورابى أن نجح الساميون فى غزو مصر وأقاموا أسرة جديدة من الفراعنة ، هم ملوك الهكسوس أو الرعاة ، الذين دام ملكهم قروناً عديدة . ولم يندمج هؤلاء الغزاة الساميون قط بالمصريين ، وذلك لأن الشعب كان ينظر إليهم على الدوام نظرة العداء بوصف كونهم أجانب وبرابرة . وأخيراً طردتهم من البلاد ثورة شعبية حوالى ١٦٠٠ ق . م .

على أن الساميين كانوا قد استقروا فى بلاد سومر إلى الأبد ، وتمثل الجنسان بعضهما بعضاً ، وأصبحت الإمبراطورية البابلية سامية فى لغاتها وسماتها .

الفصل السابع عشر

أول الشعوب البحرية

لابد أن أقدم القوارب والسفن أخذت تستعمل منذ خمسة وعشرين ألفاً أو ثلاثين ألفاً من الأعوام . ولعل الإنسان كان يتحرك على السطوح المائية بمساعدة كتلة من الخشب أو قربة منفوخة ، فى زمن لايقل عن بدايات العصر الحجرى الحديث . وكان زورق من السلال مغطى بالجلد مقلفط الفتحات يستخدم فى مصر وسومر منذ مستهل معرفتنا بهذين القطرين ، ولا تزال تلك الزوارق مستعملة هناك ، كما أنها لاتزال تستخدم حتى الساعة فى إيرلندة وويلز وألاسكا ، حيث لاتبرح زوارق من جلد الفقمة تستخدم لعبور مضيق بهرنج ، فلما تحسنت آلات الإنسان وأدواته ظهرت الكتلة الخشبية المجوفة ، وجاء بناء الزوارق ثم السفن كل بدوره فى تعاقب طبيعى .

وربما كانت أسطورة فلك نوح استبقاء لذكرى مغامرة فى بناء السفن ، مثلما أن قصة الطوفان الذائعة الصيت بين شعوب العالم ، ربما كانت ذكرى قديمة متوارثة عن غمر حوض البحر المتوسط بالمياه .

وكانت السفن تمخر البحر الأحمر قبل بناء الأهرام بزمن مديد ، كما كانت ثمة سفن على البحر المتوسط والخليج الفارسى منذ عام ۷۰۰۰ ق . م . والأغلب أن هذه السفن كانت ملكا للصيادين ، ولكن بعضها كانت فعلا سفناً للتجارة والقرصنة — ذلك أنا نفترض بغاية الاطمئنان عرفانا منا بالطبيعة البشرية ، أن البحارة الأول كانوا ينهبون حيث يستطيعون ؛ ويتجرون إذا اضطروا إلى ذلك .

وكانت البحار التى تغامر فيها هذه السفن الأولى بحارا داخلية تهب عليها الريح فى اندفاعات فجائية ، أو تنقطع فى الغالب انقطاعا تاما أياما برمتها . لذلك لم تتقدم الملاحة ولم تتجاوز مرحلة الاستعمال الإضافى ، ولم تتطور سفينة الملاحة الحسنة العدة الماخرة المحيط إلا فى السنوات الأربعمائة الأخيرة ، وسفن العالم القديم إنما هى بالضرورة

سفن تجديف تلازم الشاطئ ، وتلوذ بالمرفأ عند أول بارقة للجو العاصف . حتى إذا تطورت الزوارق فأصبحت مراكب كبيرة ، أفضى ذلك إلى نشوء الحاجة إلى أسرى الحرب ليكونوا أرقاء للسفن .

سبق أن أشرنا إلى ظهور الساميين بمنطقة سوريا وبلاد العرب على صورة متجولين ورحل ، وذكرنا كيف غزوا سومر وأقاموا الإمبراطورية الأكادية أولا ثم البابلية الأولى . ونزعت هذه الشعوب نفسها فى الغرب إلى البحر . لذلك أقاموا مجموعة من المرافئ على امتداد الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، كانت أهمها صور وصيدا ؛ فلم يأت عهد حمورابى فى بابل حتى كانوا قد انتشروا فى طول حوض البحر المتوسط وأخذوا يتجرون ويتجولون ويستعمرون .

هؤلاء الساميون البحريون يسمون بالفينيقيين . استقروا إلى حد كبير بأسبانيا بعد أن دفعوا إلى الداخل السكان القدامى من شعب الباسك الإيبيرى ، وأرسلوا بطريق جبل طارق حملات لازمت الساحل ؛ كما أنهم أقاموا المستعمرات على شاطئ إفريقيا الشمالى . وسنزيدك — فيما بعد — بيانا عن قرطاجنة إحدى تلك المدن الفينيقية .

على أن الفينيقيين لم يكونوا أول شعب يجرى السفن على صفحة البحر المتوسط . إذ كانت هناك آنفا سلسلة من المدن والبلاد تنتشر على جزائر ذلك البحر وشواطئه وتنسب إلى جنس أو أجناس تلوح كأنما ترتبط برابطة الرحم واللغة بالباسك غربا والبربر والمصريين جنوبا ، وهى الشعوب الإيجية .

وينبغى أن لا نخلط بين هذه الشعوب وبين الإغريق ، الذين يدخلون مسرحنا بعد ذلك بكثير ؛ فإنهم أقدم من الإغريق عهداً ، وإن كانت لهم مدن فى بلاد اليونان وآسيا الصغرى ، منها مثلا : ميسيناى وطروادة ؛ كما كان لهم فى كنوسوس بجزيرة كريت مستقر عريض الرغد عظيم الثراء .

ولم تظهر لنا جهود علماء الآثار القائمين بالحفائر مدى انتشار الشعوب الإيجية وتكشف لنا عن حضارتها إلا فى الخمسين سنة الأخيرة . ذلك أن آثار كنوسوس ارتيدت ارتياداً بالغا ، ومن يمن الطالع أنه لم تبن فى موضعها مدينة كانت من الكبر

بحيث تدمر أطلالها ، ومن ثم فهى المصدر الرئيسى لمعلوماتنا عن تلك الحضارة التى كاد النسيان يريم عليها .

وتاريخ كنوسوس يعادل فى قدمه تاريخ مصر ؛ وكانت التجارة بين القطرين ناشطة عبر البحر حوالى ٤٠٠٠ ق . م وبلغت الحضارة الكريتية أوج العظمة حوالى ٢٥٠٠ ق م . أى بين عهد سرجون الأول وحمورابى .

لم تكن كنوسوس مدينة قدر ما كانت قصراً عظيماً للعاهل الكريتى وشعبه ، بل إنها لم تكن محصنة ، فلم تحصن إلا فيما بعد عندما قويت شوكة الفينيقيين ، وعندما انحدر إليها فى البحر من الشمال صنف جديد من القراصنة أشد فظاعة ، هو الإغريق .

والعاهل عندهم يلقب بالمينوس Minos ، شأن العاهل المصرى الملقب بالفرعون ؛ وكان يدير شئون دولته من قصر مزود بالماء الجارى ، وبه الحمامات وما أشبهها من وسائل الترف التى لانعرف لها ضريباً فى أى طلل آخر من الأطلال القديمة . وهناك كان يقيم حفلات وأعياداً عظيمة . وكان لديهم مصارعة ثيران تشابه مشابهة فريدة مصارعة الثيران التى لاتزال باقية فى أسبانيا ؛ والمشابهة قائمة فى الحالين فى كل شىء حتى فى ثياب مصارعى الثيران ؛ وثمة حفلات لألعاب الجمباز . أما ثياب النساء عندهم فهى عصرية الروح بشكل يلفت النظر ؛ فإنهن كن يرتدين المشداب والأثواب ذات الأهداب المدلاة ، والكثير مما أنتجه هؤلاء الكريتيون من الفخار والمنسوجات وفن النحت والتصوير والجواهر والعاج والمعادن والتطعيم بالصدف وغيره جميل جمالا مدهشاً . وللقوم طريقة للكتابة لاتزال تنتظر من يحل رموزها .

وقد دامت هــــذه الحياة السعيدة المشرقة المدنة ما يقارب العشرين قرنا . فلو استعرضت كنوسوس وبابل حوالى ٢٠٠٠ ق . م لوجدتهما تعجان بأناس مثقفين ينعمون بوسائل الراحة ويعيشون فى الراجح حياة دعة ومسرة . وهم يقيمون الحفلات والأعياد الدينية ، ولديهم عبيد المنازل الذين يقومون على خدمتهم والعبيد الصناع الذين يدرون عليهم الربح فكم كانت الحياة فى كنوسوس تبدو لعين هؤلاء الناس آمنة مطمئنة ، ومن فوقها الشمس بضيائها الباهر ومن حولها لجج البحر الزرقاء المترامية ! ! ومن

البديهى أن مصر كانت تبدو فى تلك الأيام قطراً متدهوراً ، وهى تحت حكم ملوكها الرعاة نصف الهمج ، وإذا كنا ممن يهتمون بالسياسة ، لم يفتنا أن نلحظ كم كانت الشعوب السامية تنتشر فى كل مكان : فهى تحكم مصر وتحكم بابل القصية ، وتبنى نينوى بأعالى الدجلة ، وتبحر غرباً حتى أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق) وتنشئ مستعمراتها على تلك السواحل النائية .

ولا شك فى أنه كان فى كنوسوس بعض العقول المفكرة المحبة للاستطلاع ، إذ تحدثت أساطير الإغريق فيما بعد عن صانع كريتى حاذق اسمه دايدالوس ، حاول أن ينشئ ضرباً ما من آلة للطيران لعلها طائرة شرعية ، ولكنها سقطت وهوت إلى البحر .

ومن الشائق أن ندرس بعض أوجه الشبه والخلاف بين الحياة فى كنوسوس والحياة عندنا . فإن الحديد كان يعد عند أى سرى من الكريتيين يعيش فى ٢٥٠٠ ق . م معدناً نادراً يسقط من السماء كما كان شيئاً طريفاً أكثر منه نافعاً — إذ لم يكن الناس يعرفون حتى آنذاك إلا حديد النيازك ، ولم يكن أحد قد استخلص الحديد بعد من خامه المعروف . وعندى أنه لا وجه للموازنة بين هذه الحال وبين حالتنا العصرية التى يدخل الحديد فى كل مرفق من مرافقها . ومن جهة أخرى يكون الحصان حيوانا أسطوريا تماما لدى سراة كريت ، فهو عندهم صنف من الحمار الراقى يعيش فى الأراضى الشمالية الباردة الواقعة وراء البحر الأسود بمسافات شاسعة . وبديهى أن أهم موطن للحضارة لدى السرى الكريتى كان المنطقة الإيجية وآسيا الصغرى ، حيث كان الليديون والكاريون والطروادبون يعيشون عيشاً كعيشه وربما يتكلمون لغات كلغته . وكان ثمة فينيقيون وإيجيون يستقرون فى أسبانيا وشمال إفريقيا . ولكن تلك الأقطار كانت تتراءى لعين خياله بلاداً سحيقة البعد . وكانت إيطاليا لاتزال أرضاً موحشة تغطيها الغابات الكثيفة ، إذ لم يكن الإترسك (التوسكان) ذوو البشرة السمراء قد انتقلوا إليها بعد من آسيا الصغرى . ولعله حدث ذات يوم أن هبط ذلك السرى الكريتى إلى الميناء ورأى أسيراً استرعى انتباهه بشدة شقرته وزرقة عينيه . ولعل هذا السرى حاول أن يتحدث إليه فلقى الجواب رطانة غير مفهومة . جاء هذا المخلوق من مكان ما وراء البحر الأسود ، وبدا كأنما هو متوحش منحط الثقافة. ولكنه كان فى الواقع أحد أفراد القبائل الآرية ، وسنحدثك من فورنا بالشىء الكثير عن

جنسه وثقافته ، كما أن الرطانة العجيبة التى تحدث بها هى التى قدر لها أن تتمايز فيما بعد إلى السنسكريتية والفارسية والإغريقية واللاتينية والألمانية والإنجليزية ومعظم لغات العالم الرئيسية .

تلك هى كنوسوس فى أوج مجدها : ــ ذكية مغامرة مشرقة سعيدة . ولكن كارثة نزلت بها قرابة ١٤٠٠ ق . م ، ولعلها ذهبت برغدها على حين بغتة ، فدمر قصر مينوس ولم تعمر أطلاله يد ولا أقام به أحد منذ تلك الساعة . ولسنا ندرى كيف حدثت هذه الكارثة . ولكن المحتفرين من علماء الآثار يشهدون به أثر النهب والبعثرة وعلامات الحريق . ولكن وجدت كذلك آثار لزلزال عنيف مدمر . وإذن فربما كانت الطبيعة وحدها هى التى دمرت كنوسوس ، وربما أتم الإغريق ما بدأه الزلزال .

الفصل الثامن عشر

مصر وبابل وآشور

لم يخضع المصريون ألبتة برضاء تام لحكم ملوكهم الرعاة الساميين ، ثم قامت حركة وطنية قوية حوالى ١٦٠٠ ق . م ، انتهت بطرد الغاصب الأجنبي من البلاد ، وأعقب ذلك دور انتعاش جديد لمصر ، وهى فترة يطلق عليها علماء الدراسات المصرية القديمة اسم الإمبراطورية الحديثة . فإن مصر التى لم تكن قبل غزوة الهكسوس قوية التماسك أصبحت آنذاك قطراً متحدا تماماً ؛ وكان لفترة خضوعها لنير الأجنبي وثورتها عليه الفضل فى إذكاء الروح العسكرية بها . فأصبح الفراعنة غزاة فاتحين ، خاصة وقد حصلوا قبل ذلك على حصان القتال وعجلة القتال ، التى جلبها الهكسوس معهم. وسرعان ما بسطت مصر سلطانها فى آسيا حتى نهر الفرات فى عهد تحتمس الثانى وأمنحوتب الثالث (أمينوفيس) .

ونحن الآن مقبلون على مرحلة جديدة من حروب دامت ألف سنة بين حضارتى النيل وأرض الجزيرة اللتين كانتا يوما منفصلتين إحداهما عن الأخرى تماماً . وكانت لمصر الغلبة أول الأمر . وجاءت الأسر الكبرى وهى الأسر الثامنة عشرة التى من ملوكها تحتمس الثانى وأمنحوتب الثالث والرابع وملكة عظيمة هى حاناسو ، والأسرة التاسعة عشرة ومنها رمسيس الثانى (ويحسبه بعضهم فرعون موسى) الذى حكم سبعا وستين عاما ، رفعت هاتان الأسرتان شأن مصر إلى مدارج عالية من العزة والرخاء ، وفيما بين ذلك ألمت بمصر أدوار التدهور ، إذ غزاها السوريون ثم الإثيوبيون من الجنوب فيما بعد .

وسيطرت بابل على أرض الجزيرة دهرا ، ثم ارتفع شأو الحيثيين بها فسوريى دمشق إبان دور عزة قصير الأمد ؛ وجاء أوان غزا فيه السوريون مصر ، وترجح نجم الأشوريين فى نينوى بين الصعود والأفول ؛ فتارة تكون المدينة مغزوة مهيضة ؛ وتارة يحكم الآشوريون بابل ويغيرون على مصر . والبراح الذى بين يدينا أضيق من

أن يسمح لنا بأن نحدثك عن غدوات وروحات جيوش مصر والدول السامية المتنوعة بآسيا الصغرى وسوريا وأرض الجزيرة . وبحسبك أنها كانت آنذاك جيوشاً مزودة بأرتال ضخمة من العجلات الحربية ، ذلك أن الحصان (الذى لم يكن يستخدم إلا فى الحرب وإظهار العظمة) كان قد انتشر فى ذلك الوقت من آسيا الوسطى إلى بلاد المدنيات القديمة .

ويظهر على المسرح فى النور الخافت المنبعث من ذلك الزمن السحيق غزاة كبار يظهرون ثم يذهبون ، منهم تشراتا ملك ميتانى ، الذى استولى على نينوى ، ومنهم وتجلات بلسر الأول الذى فتح بابل . وأخيرا أصبح الآشوريون أعظم قوة حربية فى ذلك الأوان . فغزا تجلات بلسر الثالث بابل فى ٧٤٥ ق . م ، وأسس ما يسميه المؤرخون باسم الإمبراطورية الآشورية الجديدة . وكان الحديد قد وفد الآن هو أيضاً من الشمال إلى بلاد الحضارة ؛ إذ حصل عليه أولا الحيثيون أسلاف الأرمن وعنهم أخذه الآشوريون ، كما أن مغتصباً للعرش الآشورى ، اسمه سرجون الثانى سلح به جيوشه ، فكأن مملكة آشور أول قطر أخذ بمبدأ الحديد والدم . وزحف سنحريب بن سرجون بجيشه إلى حدود مصر ، ولكنه ارتد عنها لا لهزيمة لحقته من قوة عسكرية بل بسبب وباء الطاعون . وتم لحفيد سنحريب الملك آشور بانيبال (الذى يعرف أيضاً فى التاريخ باسمه الإغريقى ساردانابالوس) فتح مصر فعلا فى ٧٦٠ ق . م . لكن مصر كانت فى ذلك الحين قطرا محتلا تحكمه أسرة إثيوبية . فكل الذى فعله ساردانابالوس هو أن أحل فاتحا محل آخر .

فلو أتيحت لنا مجموعة من الخرائط السياسية لتلك الفترة الطويلة من التاريخ ، الممتدة على تلك القرون العشرة ، لوجدنا مصر تمتد وتتقلص كما تفعل الأميبا تحت الميكروسكوب ، ولرأينا هذه الدول السامية المتنوعة من بابليين وآشوريين وحيثيين وسوريين تجىء وتغدو ، وتبتلع إحداها الأخرى ثم تعود فتلفظ إحداها الأخرى مرة ثانية . وإنا لنجد فى غرب آسيا الصغرى دولا إيجية صغيرة مثل ليديا ، التى كانت عاصمتها سارديس ومثل كاريا . ولكن الذى حدث بعد قرابة ١٢٠٠ ق . م وربما قبلها ، هو أن مجموعة جديدة من الأسماء ظهرت على خريطة العالم العتيق ، هابطة من الشمال الشرقى والشمال الغربى . وما هذه إلا أسماء قبائل همجية معينة ، تتسلح بأسلحة الحديد وتستخدم العجلات التى تجرها الخيل ، وتغير على الحضارات الإيجية والسامية فى مناطق

تخومها الشمالية وتنزل بها النكبات . وكانوا جميعاً يتكلمون ضروبا مختلفة من لسان كان فى الأصل لغة واحدة ، هى الآرية .

أخذ الميديون والفرس يهبطون من الشمال الشرقى للبحر الأسود وبحر قزوين . وتخلط سجلات تلك العصور بين هؤلاء وبين الإسكيذيين (الأشقوذيين) والصرمانيين . ومن الشمال الشرقى أو الشمال الغربى انحدر الأرمنيون ، وجاء من شمال غربى ذلك البحر الفاصل وبطريق شبه جزيرة البلقان الكمريون والفرجيون والقبائل الهللينية التى نسميها الآن باسم الإغريق .

كان هؤلاء الآريون مغيرين وسارقين ونهابين للمدن ، سواء فى ذلك منهم من وفدوا من الشرق أو الغرب . كانوا جميعاً شعوباً متشابهة ترتبط بوشائج الرحم ، كما كانوا رعاة أشداء نزعوا إلى السلب والنهب . على أنهم لم يكونوا فى الشرق إلا سكانا نازلين على التخوم وجيرانا مغيرين ، ولكنهم استولوا فى الغرب على المدن وطردوا منها السكان الإيجيين المدنيين . وبلغ الضيق بالشعوب الإيجية أن أخذوا يبحثون عن أوطان جديدة لهم فى مناطق تخرج عن منال الآريين . فأخذ بعضهم يحاول السكنى فى دلتا النيل لولا أن صدهم المصريون ؛ وبعضهم وهم الإترسك يلوح أنهم أبحروا من آسيا الصغرى ليؤسسوا دولة فى برارى وسط إيطاليا الكثيف الغابات ؛ وأقام بعضهم لنفسه المدن على سواحل البحر المتوسط الجنوبية الشرقية ، وأصبحوا فيما بعد الشعب المعروف فى التاريخ باسم الفلسطينيين .

سنزيدك فى فصل تال بيانا عن هؤلاء الآريين الذين دخلوا مشهد الحضارات القديمة بتلك الخشونة البالغة . وسنقتصر هنا على مجرد الإشارة إلى مجمل تلك الحركات والهجرات التى حدثت فى منطقة الحضارات القديمة ، والتى بدأت بدوامة التقدم التدريجى المتواصل لهؤلاء الآريين الهمج الهابطين من الغابات والبرارى الشمالية بين ١٦٠٠ ، ٦٠٠ ق . م .

وسنحدثك أيضا فى فصل تال عن شعب سامى صغير ، هو العبرانيون ، سكان ما وراء سواحل الفينيقيين والفلسطينيين من تلال ، الذين بدأت أهميتهم فى الظهور فى قريب من نهاية هذه الفترة ، ذلك أنهم أنتجوا « أدبا » أوتى أهمية كبيرة فيما تلا تلك

من عصور التاريخ ، وذلك الأدب هو مجموعة من الكتب والتواريخ والقصائد وكتب الحكمة وأسفار التنبؤات وهو التوراة العبرانية .

ولم يسبب ظهور الآريين أى تغيير جوهرى بأرض الجزيرة [العراق] ومصر إلا بعد ٦٠٠ ق ٠ م . ولا بد أن فرار الإيجيين أمام الإغريق بل حتى تدمير كنوسوس ، قد بدا لكل من سكان مصر وبابل حركة اضطراب نائية جدا . وكانت الأسر المالكة تذهب وتجىء فى هاتين الدولتين مهاد الحضارة، على أن الحياة البشرية سارت فى مجراها الرئيسى ، وإن حلت بها ببطء على مر العصور زيادة طفيفة فى التهذيب والتعقيد . وأما مصر فكانت الآثار التى تكدست عن العصور التليدة السابقة قد زادت كثيرا بما أضيف إليها من مبان جديدة فاخرة ، شيدت بوجه خاص فى عصر الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة : وكان عمر الأهرام قد بلغ آنذاك ثلاثة آلاف سنة كما كانت فرجة يتفرج عليها الزوار كما يفعلون الآن تماما ! ويرجع معبدا الكرنك والأقصر الكبيران إلى ذلك الزمان . أما نينوى فإن الآثار الرئيسية بها : المعابد الكبرى والثيران المجنحة ذوات الرءوس البشرية ، والحفر البارز الذى يمثل الملوك والعجلات وصيد الأسود — من صنع تلك القرون بين ٦٠٠ ق ١٦٠٠ م ، كما أن هذه الفترة تشتمل أيضا على معظم ما بلغته بابل من أبهة وجلال .

ولدينا الآن من أرض الجزيرة ومصر جميعا سجلات عامة كثيرة العدد ، وحسابات لأشغال تجارية وحكايات وقصائد شعرية ومراسلات خاصة . ومنها نعلم أن حياة الموسرين وذوى النفوذ فى مدن من أمثال بابل وطيبة المصرية ، تكاد تبلغ من التهذيب والترف مبلغ حياة من يستظلون الرفاهية واليسار فى أيامنا هذه .

كان هؤلاء الناس يعيشون عيشة منظمة حافلة بالمواسم ويقطنون منازل جميلة الشكل أنيقة الأثاث والزخرفة ، ويرتدون ثيابا جزلة الزينة والوشى وجواهر بديعة ؛ وكانت لهم أعياد وحفلات ، فإن شاء الواحد منهم أن يكرم الآخر ويسليه أكرمه بالموسيقى والرقص ، كما يقوم على خدمتهم خدم رفيعو التدريب ، كما كان الأطباء وأطباء الأسنان يعالجونهم . وهم لا يكثرون من السفر وإن فعلوا لم يذهبوا بعيدا ، ولكن النزهة بالزوارق كانت من أسباب المسرة صيفا فى كل من نهرى النيل والفرات ، أما دابة الحمل عندهم فهى الحمار ؛ فى حين لم يستخدم الحصان إلا فى العربات الحربية والمناسبات الرسمية دون غيرها . وكان البغل لا يزال شيئا جديدا ، كما أن الجمل لم يكن قد دخل مصر بعد وإن عرفته أرض الجزيرة من قبل . ومن الطبيعى أن الأوعية المصنوعة من

الحديد كانت قليلة ؛ إذ إن النحاس والبرونز ظلاهما المعدنين المنتشرين . وكانت الرفائع من أنسجة القطن والتيل معروفة هى والصوف . ولـكن لم يكن هناك حرير . وعرف الناس الزجاج وأضفوا عليه الألوان الجميلة ، ولـكن الأوعية الزجاجية كانت فى العادة صغيرة . ولم يكن الزجاج صافيا شفافا كما أنه لم يستخدم فى العدسات . وكان الناس يحشون أسنانهم بالذهب وإن لم يضعوا المناظير فوق أنوفهم ! !

وهناك فارق عجيب بين الحياة فى طيبة القديمة أو بابل وبينها فى العصور الحديثة ، هو غيبة العملة المسكوكة . فالمقايضة هى الأساس فى القدر الأعظم من الصفقات التجارية وكانت بابل تسبق مصر من الناحية المالية بأشواط بعيدة . واستعمل الذهب والفضة فى التبادل وجعلا فى صورة سبائك ؛ وقبل سك النقود بزمن مديد كان هناك أصحاب مصارف ، يدمغون أسماءهم والوزن على هذه الـكتل من المعدن النفيس . وكان التاجر أو المسافر يحمل الأحجار الثمينة ليبيعها وينفق منها . وكان معظم الخدم والعمال عبيداً لايتناولون أجورهم نقدا بل عينا ولما ظهرت النقود انحط الرق .

ولو أن زائراً من أهل عصرنا زار هاتين المدينتين اللتين أصبحتا تاجا على مفرق العالم القديم ، لافتقد صنفين هامين جداً من أصناف الغذاء ، هما الدجاج والبيض . ولذا فإن الطاهى الفرنسى ما كان يجد مسرة كبيرة فى بابل . فإن هذين الصنفين وصلا من الشرق فى عصر الإمبراطورية الآشورية الأخيرة تقريباً .

وكذلك الديانة ، فقد ألم بها كـكل شىء آخر تهذيب عظيم ، إذ اختفت القرابين البشرية مثلا منذ أمد بعيد ؛ وحل الحيوان أو الدمى المصنوعة من الخبز محل الضحية . (على أن الفينيقيين وبخاصة سكان قرطاجنة أعظم مستقراتهم فى إفريقيا ، اتهموا فيما بعد بالتضحية بالـكائنات البشرية) . وجرت العادة كلمات رئيس كبير فى الأيام الخالية أن يضحى بزوجاته وعبيده وأن تـكسر الحراب والقسى عند قبره ، وذلك لـكى لا يكون فى عالم الأرواح بلا أتباع ولا أسلحة . وبقيت بمصر عن هذا التقليد الرهيب عادة لطيفة هى دفن نماذج صغيرة للبيت والدكان والخدم والماشية مع الميت . وهى نماذج تمدنا اليوم بأروع تمثيل حى لتلك الحياة الوادعة المثقفة لهذا الشعب العتيق قبل ثلاثة آلاف سنة أو تزيد .

هكذا كان العالم القديم قبل انحدار الآريين من غابات الشمال وسهوله . وحدثت بالهند والصين تطورات موازية لهذه . فقد نشأت بالوديان الـكبيرة بهذين القطرين

كليهما دول مدن زراعية لشعوب سمراء وأخذت تنمو وتزدهر ، ولكن لايبدو أنها تقدمت أو ائتلفت ببلاد الهند بنفس سرعتها بأرض الجزيرة أو مصر . لذا كانوا أدنى إلى مستوى السومريين أو مرتبة حضارة المايا الأمريكية . أما الصين فتاريخها لا يزال بحاجة إلى علمائها لكي تضفى عليه الطابع العصرى وتنقيه من كثير مما يشوبه من أساطير . والراجح أن الصين كانت فى ذلك الأوان أكثر تقدما من الهند . وقد عاصرت الأسرة الثامنة عشرة بمصر ، أسرة إمبراطورية فى الصين ، هى أسرة شانج ، وهم أباطرة كهنة يحكمون إمبراطورية منحلة الروابط من ملوك تابعين . وكان رأس واجبات هؤلاء الأباطرة الأول هو تقديم القرابين الموسمية . ولا تزال هناك إلى اليوم أوان برونزية جميلة ترجع إلى عهد أسرة شانج وفيها من الجمال وجودة الصنعة مايجعلنا نحس بأنها لم تصل إلى ما بلغته إلا بعد قرون عدة من الحضارة .

الفصل التاسع عشر

الآريون البدائيون

منذ أربعة آلاف سنة ، أى حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م ، كانت أوربا الوسطى والجنوبية الشرقية وآسيا أدفأ مناخا على الأرجح ، وأكثر مطرا وغابات مما هى الآن . وكانت تتجول فى هذه الأقاليم من الأرض مجموعة من القبائل معظمها من العنصر النوردى الأشقر الأزرق العيون بلغ من اتصالهم بعضهم ببعض أن لغاتهم لم تزد عن مجرد فروع منوعة من لغة واحدة مشتركة تنتشر من نهر الراين إلى بحر قزوين . ولعلهم لم يكونوا فى ذلك الوقت شعباً وفير العدد جداً ، ولعل البابليين الذين كان حمورابى يمنحهم آنذاك القوانين لم يحسوا بوجودهم . ولا أحست بهم أرض مصر العريقة آنفا فى القدم والتثقيف ، والتى كانت تذوق فى تلك الأيام لأول مرة مرارة الغزو الأجنبى .

وقدر لهذه الشعوب النوردية أن تلعب دوراً هاما جداً بالفعل فى تاريخ العالم . كانوا شعوب أحراش أو أراض قطعت منها الغابات ؛ ولم يملكوا الحصان فى البداءة وإن وجدت لديهم الماشية ؛ فإذا هم تجولوا وضعوا خيامهم وبقية متاعهم على عربات خشنة تجرها الثيران ؛ وإذا استقروا زمنا ما فلعلهم كانوا يصنعون عشوشا من رفيع الغصون والطين . وإذا مات واحد من ذوى المكانة فيهم أحرقوا جثته ؛ ولم يدفنوه بالمراسم كما كانت الشعوب البيضاء القاتمة تفعل ، وكانوا يضعون تراب كبار زعمائهم فى أوان ثم ينشئون حولها رابية مستديرة . وهذه الروابى هى القبور المستديرة التى تنتشر فى جميع أرجاء أوربا الشمالية ، ولم تكن الشعوب القاتمة السابقة لهم تحرق موتاها ، بل تدفنها فى هيئة جلوس داخل رواب مستطيلة هى « القبور الطويلة » **Long barrows**

وكان الآريون ينتجون القمح ، ويحرثون الأرض بالثيران ، ولكنهم لم يكونوا يستقرون إلى جوار محصولاتهم ؛ ذلك أنهم ما يكادون يحصدون حتى يرحلون ، وقد ملكوا البرونز ، ثم حصلوا على الحديد حوالى ١٥٠٠ ق . م . ولعلهم أول من

اكتشف صهر الحديد، ومالبثوا فى زمن مايقارب ذلك الوقت نفسه أو يكاد أن حصلوا أيضاً على الحصان ـ الذى بدأوا باستخدامه فى أغراض الجر دون غيرها ، ولم تتمركز حياتهم الاجتماعية حول معبد كالذى تمركزت حوله شعوب البحر المتوسط الأكثر استقراراً. وكان كبارهم قادة فى ميدان الحرب أكثر منهم كهنة. ونظامهم الاجتماعى أرستقراطى وليس فيه ربوبية للملك، وكانوا منذ مرحلة سحيقة جدا فى تاريخهم يعترفون لعائلات بعينها بالزعامة والنبل.

وهم قوم ذوو فصاحة ولسن. وكانوا يعيشون فى تجوالهم البهجة بما يقيمون من حفلات يسرفون فيها فى الشراب ، ويقوم فيها طراز خاص من الرجال هم الشعراء بالغناء والتلاوة. ولم تكن لهم كتابة قبل اتصالهم بالحضارة ، ومن ثم كانت ذاكرة هؤلاء الشعراء سجل أدبهم الخالد ، وقد عاد استعمال اللغة المتلوة كوسيلة للتسلية بأكثر الفضل عليها إذ جعلها أداة تعبير جميلة طيعة ممتازة ، كما لاشك فى أنه يعود إليه الفضل، إلى حد ما. فيما تلا ذلك من سمو اللغات المشتقة من الآرية ، وراح كل شعب آرى يبلور تاريخه الأسطورى فى تلاوات شعرية ، تختلف أسماؤها باختلاف الشعوب ، فهى تارة تسمى بالملاحم ، وتارة بالساجا ، وأخرى بالفيدا.

والحياة الاجتماعية لهذه الشعوب تتمركز حول دور زعمائهم. فإن قاعة الرئيس التى يستقر القوم بها حيناً من الزمان ، كثيرا ما كانت بناء خشبياً رحيباً جدا. ولاشك فى أنهم أعدوا بجوارها أكواخا للقطعان ومبانى ريفية فى مواضع منها متطرفة ؛ ولكن هذه القاعة كانت لدى معظم الشعوب الآرية هى المركز العام ، الذى إليه يذهب كل إنسان ليحضر الولمية ، ويصغى إلى الشعراء ، ويشترك فى الألعاب والمناقشات ، وتحيط بالقاعة حظائر البقر واسطبلات الخيل ، وينام الرئيس وزوجته ومن إليهما على منصة أو شرفة عليا ؛ أما العامة فنومهم فى أى مكان هناك ، كما هو الحال إلى اليوم « بالدوارات » الهندية وقد درجت حياة القبيلة على ضرب من الشيوعية قائم على نظام الأبوة فى كل شىء عدا الأسلحة والحلى والآلات وما أشبهها من الممتلكات الشخصية ، وكان الرئيس يملك الماشية وأراضى رعيها من أجل المصلحة العامة ؛ فى حين أن الغابات والأنهار هى والبرارى لايسكنها أحد.

ذلك هو أسلوب حياة الشعب الذى كان يتكاثر ويتزايد على أرض البراح الكبير بأوربا الوسطى وآسيا الوسطى الغربية فى أثناء نمو الحضارة العظيمة بأرض الجزيرة والنيل،

ذلك الشعب الذى نجده يضغط فى كل مكان على شعوب الحضارة الحجرية الشمسية (الهليوليثية) فى الألف الثانية قبل المسيح ، كانوا ينحدرون إلى فرنسا وبريطانيا وأسبانيا . ويتقدمون غرباً فى موجتين . وتسلح أول فوج منهم بلغ بريطانيا وإيرلنده بأسلحة من البرونز . فأبادوا أو أخضعوا الشعب الذى صنع من قبل الآثار الحجرية العظيمة المسماة بكارناك فى بريتانى وستون هنج وآفبورى بانجلترا . وقد بلغوا إيرلنده واسمهم الكلت الجويدليون (Goidelic Celts) . أما الموجة الثانية لشعب وثيق القربى بهؤلاء ، ربما خالطته عناصر من أجناس أخرى ، فهى التى أحضرت الحديد معها إلى بريطانيا العظمى ، وهى تعرف باسم موجة الكلت البريتونيين (Brithonic) وعنهم يشتق أهل مقاطعة ويلز لغتهم .

وأخذت شعوب كلتية ذات رحم بهؤلاء تشق طريقها بالقوة نحو الجنوب فى أسبانيا وتتصل لا بشعب الباسك (الهليوليثى) وحده الذى كان لا يزال يحتل البلاد ، بل وبالمستعمرات الفينيقية السامية على ساحل البحر أيضاً . كما أن ، سلسلة من القبائل وثيقة الشبه بهذه ، هى الإيطاليون ، شرعت تتقدم فى شبه الجزيرة الإيطالية وهى بعد برارى موحشة مكسوة بالغابات ، ولكن لم تكن لهم الغلبة على طول الخط ، فإن روما تظهر فى التاريخ فى القرن الثامن ق . م ، مدينة تجارية على نهر التيبر يسكنها اللاتين الآريون ولكنها تحت حكم نبلاء وملوك من الإترسك (التوسكان) .

فإذا انتقلنا إلى الطرف الآخر من المجال الآرى ، وجدنا قبائل مماثلة تتقدم هى الأخرى نحو الجنوب . فإن شعوباً آرية تتكلم السنسكريتية انحدرت من خلال الممرات الغربية إلى أرض شمال الهند قبل ١٠٠٠ ق . م بزمن مديد . وهناك اتصلوا بحضارة بدائية سمراء ، هى الحضارة الدرافيدية ، وتعلموا منها الشىء الكثير .

وهناك قبائل أخرى آرية يلوح أنها انتشرت فوق الكتل الجبلية بآسيا الوسطى ، متوغلة شرقاً توغلا بعيداً عن المجال الحالى لمثل تلك الشعوب . ولا تزال ببلاد التركستان الشرقية قبائل نوردية شقراء الشعور زرقاء العيون ، ولكنها تتكلم الآن بألسن مغولية .

وفيما بين بحر قزوين والبحر الأسود غطى الأرمنيون على الحيثيين القدامى . وصبغوهم صبغة آرية قبل ١٠٠٠ ق . م ، كما أن الآشوريين والبابليين قد شعروا فعلا بوطأة أجناس همجية جديدة شديدة المراس فى القتال على التخوم الشمالية الشرقية ،

وهى مجموعة من القبائل لا تبرح أسماء الإسكيذيين والميديين والفرس أبرز ما بقى من أسمائها .

ولكن شبه جزيرة البلقان هى الممر الذى شق فيه أول زحف قوى للقبائل الآرية طريقه إلى صميم حضارة العالم القديم . على أنهم دأبوا قبل ١٠٠٠ ق . م بعدة قرون على الانحدار جنوبا ، وعبور البحر إلى آسيا الصغرى . فجاءت أولا مجموعة من القبائل أبرزها الفريجيون ، ثم جاء على التعاقب الإغريق الأيوليون والأيونيون والدوريون ، فما وافت ١٠٠٠ ق . م ، حتى صارت الحضارة الإيجية القديمة فى خبر كان فى كل من بلاد اليونان الأصلية ومعظم الجزائر اليونانية ؛ فمحيت من الوجود مدينتا « ميسيناى » و « تيرونز » (Tiryns) ، وكاد النسيان يعفى على « كنوسوس » .

ونزع الإغريق إلى البحر قبل ١٠٠٠ ق . م ، وذلك بعد أن استقروا فى جزيرتى كريت ورودس ، وشرعوا يؤسسون المستعمرات بصقلية وجنوب إيطاليا ، على منوال المدن التجارية الفينيقية المنتشرة على طول سواحل البحر المتوسط .

فبينما كان « تجلاث بلسر الثالث » و « سرجون الثانى » و « ساردانابالوس » يحكمون مملكة آشور ويقاتلون بابل وسوريا ومصر ، كانت الشعوب الآرية تتعلم طرائق الحضارة وتستخدمها لأغراضها الخاصة فى إيطاليا وبلاد الإغريق وشمال إيران . ولم يلبث التاريخ كله منذ القرن التاسع ق . م فما بعده بستة قرون أن أصبح يدور حول قصة هذه الشعوب الآرية وكيف قويت شوكتها وأخذت بأسباب المغامرة ، وكيف ترامى بها الأمر إلى إخضاع العالم القديم بأسره ، السامى منه والإيجى والمصرى سواء ، لقد كانت الشعوب الآرية من الناحية الشكلية منتصرة بصورة مطلقة ؛ ولكن الصراع الذى نشب بين الأفكار والطرائق الآرية والسامية والمصرية ظل مستمراً بعد انتقال الصولجان إلى يد الآريين بزمن بعيد ، بل الحق إنه كفاح يستمر طيلة ما عقب ذلك من التاريخ ، بل لا يزال مستمراً على شكل ما إلى يومنا هذا .

الفصل العشرون

الإمبراطورية البابلية الأخيرة وإمبراطورية دارا الأول

لقد أوضحنا من قبل كيف أصبحت مملكة آشور دولة عسكرية عظيمة تحت حكم تجلات بلسر الثالث ، ومغتصب العرش سرجون الثانى . ولم يكن الاسم الأصلى لذلك الرجل هو سرجون ، إذ الواقع أنه اتخذه لنفسه رغبة منه فى تملق البابليين المغلوبين بتذكيرهم بالملك سرجون الأول ، المؤسس القديم للامبراطورية الأكادية ، الذى جاء قبل زمنه بألفى سنة . وعلى الرغم من أن بابل كانت مغلوبة على أمرها ، فإنها كانت تفوق نينوى فى الأهمية وعدد السكان ، ولم يكن بد من معاملة ربها الكبير « بعل مردوخ » وكهنتها وتجارها أحسن معاملة . فلقد أصبحت أرض الجزيرة فى القرن الثامن قبل الميلاد على درجة أرقى كثيرا من تلك الأيام الهمجية التى كان فيها معنى فتح مدينة هو النهب وإعمال السيف . وصار الفاتحون يحاولون استرضاء المغلوبين وضمهم إلى جانبهم . ودامت الإمبراطورية الآشورية الجديدة قرناً ونصفاً بعد سرجون ، كما أن آشور بانيبال (سارداناپالوس) قد استولى على مصر السفلى على الأقل كما سبق .

ولكن قوة آشور وتماسكها ما لبثت أن اضمحلت . فاستطاعت مصر طرد الغاصب بشىء من الجهد بزعامة فرعونها « أبسمتيك الأول » ، كما حاولت أن تشن حربا لفتح سوريا بقيادة « نخاو الثانى » وفى ذلك الوقت كانت آشور تكافح أعداء أقرب إلى ربوعها ، فلا تستطيع إزاءهم إلا أضعف المقاومة . ذلك أن شعباً سامياً من الجنوب الشرقى لأرض الجزيرة هو الكلدان ، اتحد ضد نينوى مع الميديين والفرس الآريين الهابطين من الشمال الشرقى ؛ وفى ٦٠٦ ق . م . بالضبط (إذ إننا دخلنا الآن فى مرحلة التأريخ المضبوط) استولوا على تلك المدينة .

وتم تقسيم غنائم آشور ، وأنشئت فى الشمال إمبراطورية ميدية تحت حكم كيا كسارس

(سياخار) ضمت إليها نينوى وجعلت عاصمتها إكباتانا . وامتدت حدودها شرقا إلى تخوم الهند . وإلى الجنوب من هذه ، وفى شكل هلال عظيم ، تأسست إمبراطورية كلدانية جديدة ، هى الإمبراطورية البابلية الثانية ، التى ارتفعت إلى درجة عالية من الثراء والقوة تحت حكم نبوخذنصر العظيم (وهو نبوخذنصر المذكور فى التوراة) ، وابتدأت بذلك آخر أيام بابل العظيمة ، بل أعظم أيامها جميعاً ، وظلت الإمبراطوريتان فى سلام ردحا من الزمن ، وتزوج سياخار من ابنة نبوخذنصر .

وفى نفس الوقت كان نخاو الثانى يواصل فتوحاته فى سوريا دون مقاومة ، فهزم فى معركة مجدو سنة ٦٠٨ ق . م يوشع ملك يهودا وقتله . وهى قطر صغير سنحدثك عنه بالمزيد عما قليل ، ثم انطلق إلى نهر الفرات لا ليلتقى بمملكة آشورية منحلة ، بل بدولة بابلية ناهضة. وقد قاوم الكلدانيون المصريين وأخذوهم أخذاً قوياً . ودحر نخاو ورد على أعقابه إلى مصر ، وانتقلت الحدود البابلية إلى الحدود المصرية القديمة .

وظلت الإمبراطورية البابلية الثانية منذ ٦٠٦ إلى ٥٣٩ ق . م . مزدهرة ازدهاراً غير وطيد ، فلم يدم ازدهارها إلا بقدر ما حافظت على السلم بينها وبين الإمبراطورية الميدية الأقوى منها بأساً ، والأصلب عوداً فى الشمال . وفى غضون تلك السنوات السبعة والستين لم يقتصر الازدهار فى المدينة القديمة على الحياة وحدها . بل شمل العلوم أيضاً .

وكانت بابل مسرحاً لنشاط فكرى عظيم ، حتى وهى تحت حكم ملوك الآشوريين سيما ساردانا بالوس، وهذا الملك وإن كان آشورياً إلا أنه اصطبغ بالصبغة البابلية تماما؛ فإنه أنشأ مكتبة لم تصنع مجلداتها من الورق ، بل من ألواح الطين التى كانت تستعمل فى الكتابة بأرض الجزيرة منذ أقدم العصور السومرية . وقد أزيح الستار عن مجموعة كتبه . ولعلها أثمن ما فى العالم من الذخائر التاريخية .

وكان لآخر أفراد الأسرة الكلدانية من ملوك بابل ، وهو نابونيداس ، ذوق أدبى أرهف أو يكاد ، فإنه ناصر البحوث التاريخية القديمة وشملها برعايته ، حتى إذا وصل الباحثون من علمائه إلى تحديد تاريخ تولى سرجون الأول العرش ، خلد ذكرى تلك الواقعة بما سطر من نقوش . بيد أن إمبراطوريته كانت تنطوى على كثير من دلائل التفكك ، فحاول أن يبث فيها روح المركزية بأن أحضر إلى بابل عدداً من الآلهة المحليين المختلفين ، وأقام بها المعابد لتلك الآلهة . وقد استعمل الرومان تلك


امبراطورية ليديا
قيليقية
الامبراطورية البابلية
قبرص
دمشق
كالديا
خريطة
تبين العلاقة بين الامبراطورية
الميدية والامبراطورية البابلية
الثانية " الكالدانية "
فى عهد الملك بوخذ نصر العظيم

خريطة رقم (٣)

الطريقة بنجاح تام فيما تلا ذلك من الزمان ، ولكنها أثارت فى بابل غيرة كهنة بعل مردوخ الأقوياء ، وهو رب البابليين الأكبر. فأخذوا يدبرون الخطط للتخلص من نابونيداس ، والبحث عن بديل له ، ووجدوه فى شخص قورش الفارسى ، حاكم الامبراطورية الميـــدية المجاورة ومن قبل ذلك كان اسم قورش قد برز حين هزم كرويسوس ملك ليديا الثرى فى شرق آسيا الصغرى . وزحف الملك على بابل، ودارت المعركة خارج أسوارها ، وفتحت له أبواب المدينة (٥٣٨ ق . م .) فدخلتها جنوده بلا قتال .

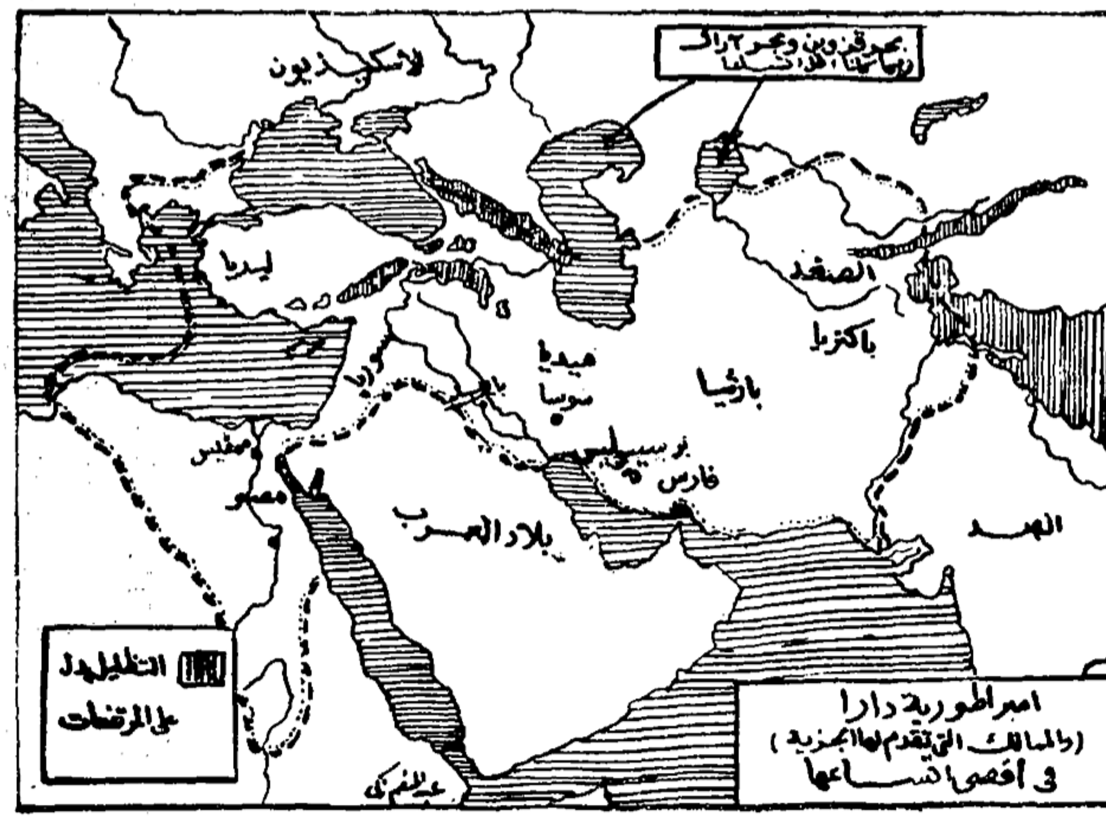
وتذكر التوراة أن ولى العهد بيلشاصر بن نابونيداس كان فى وليمة عند ما ظهرت يد وكتبت هذه الكلمات على الجدار بأحرف من نار : « منا ، منا ، تقيل ، وفرسين Mene, Mene. Takel, Upharsin » ، وقد أولها النبي دانيال الذى استدعاه الأمير ليقرأ اللغز بأن « منا أحصى الله ملكوتك وأنهاه ، وتقيل وزنت بالموازين فوجدت ناقصا ، فرسين قسمت مملكتك وأعطيت لمادى وفارس[1] » . وربما كان كهنة بعل مردوخ على علم بأمر تلك الكتابة المسطورة على الحائط . وقتل بيلشاصر فى تلك الليلة كما تقول التوراة ، وأخذ نابونيداس أسيراً ، وتم احتلال المدينة بهدوء وسلام بحيث استمرت الصلاة لبعل مردوخ دون أى توقف .

وهكذا تم توحيد الإمبراطورية البابلية والميدية . وأخضع قمبيز بن قورش مصر ، ثم جن قمبيز وقتل صدفة ، وخلفه على الفور دارا الميدى الملقب دارا الأول ، وهو ابن هستاسيس أحد كبار مستشارى قورش .

وكانت إمبراطورية دارا الأول الفارسية، وهى أول الإمبراطوريات الآرية الجديدة فى الشرق موطن الحضارات القديمة ، أعظم إمبراطورية شهدها العالم حتى ذلك الحين إذ كانت تضم آسيا الصغرى بأكملهاوسوريا ، وجميع الإمبراطوريات الآشورية والبابلية القديمة ، ومصر ومناطق القوقاز وقزوين ، وبلاد ميديا وفارس ؛ كما أنها كانت تمتد فى بلاد الهند حتى نهر السند وقد أصبح وجود مثل تلك الإمبراطورية فى حيز الإمكان عند ذلك فى العالم ، بفضل استخدام الحصان والراكب والعربة والطريق المرصوف .

---

(١) التوراة : دانيال الإصحاح الخامس .


امبراطورية دارا
(والممالك التي تقدم لها الجزية)
في أقصى اتساعها
التظليل يدل على المرتفعات
بحر قزوين وبحر آرال
الاسكيذيون
ليديا
الصغد
باكتريا
ميديا
سوسا
بارثيا
سوريا
برسيبوليس
فارس
منفيس
مصر
بلاد العرب
الهند

خريطة رقم (٤)

أما قبل ذلك فإن الحمار والثور والجمل (فى الصحراء) كانت أسرع وسائل النقل . وأنشأ حكام الفرس طرقاً عظيمة امتدت كالشرايين لربط أجزاء إمبراطوريتهم الجديدة بعضها إلى بعض ، وكانت خيول البريد واقفة على الدوام تنتظر رسول الإمبراطور أو المسافر الذى يحمل إذنا رسمياً بالسفر . وفضلا عن ذلك فإن العالم كان قد شرع آنذاك فى استعمال النقود المسكوكة . التى سهلت التجارة والتعامل تسهيلا كبيراً . ولكن عاصمة تلك الإمبراطورية الضخمة لم تعد بابل. وانقضت الأيام ولم يجن كهان بعل مردوخ من خيانتهم شيئاً . وأخذت بابل تضمحل وإن بقى لها شىء من أهميتها ، على حين صارت المدن الكبرى فى الإمبراطورية الجديدة هى برسيبوليس وإكباتانا . وكانت سوسا هى العاصمة . بينما هجرت نينوى وأخذت تتساقط أطلالا بالية .

الفصل الحادي والعشرون

تاريخ اليهود القديم

والآن نستطيع أن نتحدث عن اليهود ، وهم شعب سامى ، لم يؤتوا فى زمانهم من الأهمية قدر ما تركوا من التأثير فيما عقب ذلك من تاريخ العالم . استقر اليهود فى بلاد يهوذا (جوديا Judea) قبل ۱۰۰۰ ق . م . بزمن طويل ؛ وبعد ذلك العهد صارت أورشليم أكبر مدينة لديهم . وتتشابك قصتهم بقصة الإمبراطوريات الكبيرة الواقعة على كل من جانبيهم : مصر إلى الجنوب وتلك الإمبراطوريات المتغيرة فى الشمال ، إمبراطوريات سوريا وآشور وبابل . ولم يكن مفر من أن تصبح بلادهم طريق مرور رئيسى بين تلك الدول ومصر .

وترجع أهميتهم فى العالم إلى كونهم أنتجوا أدباً وتاريخا عالمياً ومجموعة من القوانين والتواريخ والمزامير وكتب الحكمة والشعر والقصص والكلم السياسية ، وهى التى أصبحت فى النهاية ما يسميه المسيحيون باسم العهد القديم ، وهو التوراة العبرانية . وقد ظهر ذلك الأدب فى التاريخ فى القرن الرابع أو الخامس ق . م .

والراجح أن ذلك الأدب قد جمع شتاته لأول مرة فى بابل ، وقد أسلفنا عليك كيف أن الفرعون نخاو الثانى غزا الإمبراطورية الآشورية ، وآشور تقاتل الميديين والفرس والكلدان قتال حياة أو موت ؛ وبينا كيف اعترضه يوشع ملك يهوذا ، فهزمه نخاو وقتله عند مجدو (٦٠٨ ق. م) . وبذا أصبحت يهوذا دولة تابعة لمصر ، وعندما تمكن نبوخذنصر الكبير الملك الكلدانى الجديد الذى تولى الحكم فى بابل ، من رد نخاو على عقبيه إلى مصر ، حاول أن يحكم يهوذا بإقامة ملوك ضعاف يأتمرون بمشيئته فى أورشليم ، ولكن فشلت المحاولة ، فإن الشعب أعمل الذبح فى موظفيه البابليين ، وعند ذلك صمم الملك أن يمزق تلك الدولة الصغيرة كل ممزق بعد أن ظلت أمداً بعيداً تستفيد من تأليب مصر على الإمبراطورية الشمالية ، فأمر فنهبت أورشليم وأحرقت ، وحمل من بقى بها من الناس إلى بابل أسرى .

وهناك أقاموا حتى استولى قورش على بابل (٥٣٨ ق . م .) وعند ذلك جمعهم جميعا وأعادهم إلى بلادهم ليسكنوها من جديد وليعيدوا بناء أسوار أورشليم ومعبدها .

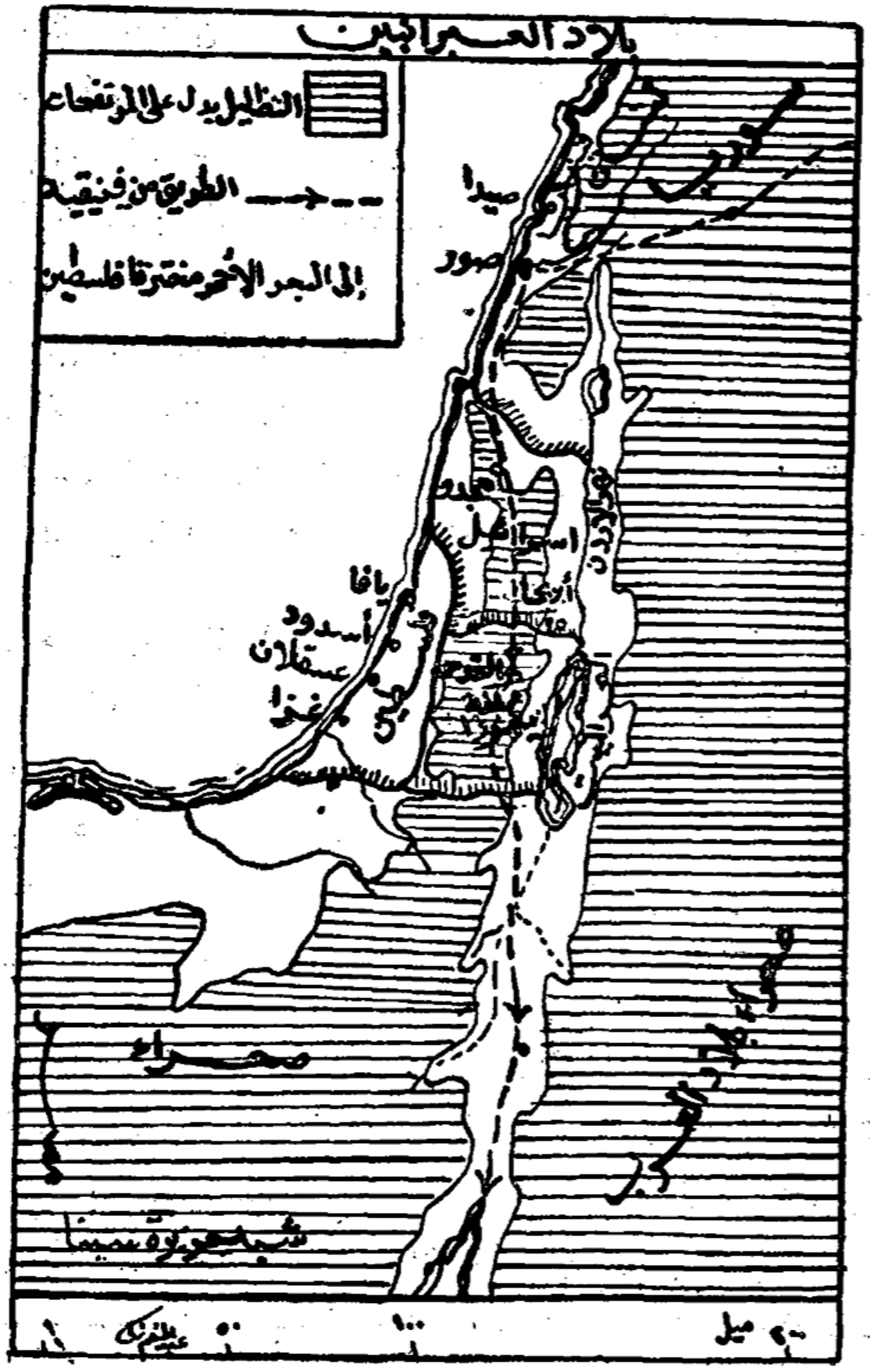
ويبدو أن اليهود لم يكونوا قبل ذلك الأوان شعباً متحضرا ولا متحدا . وربما لم يكن فيهم إلا قلة ضئيلة تستطيع القراءة والكتابة . غير أن تاريخهم نفسه لايذكر ألبتة أن الأسفار القديمة من التوراة كانت تقرأ ، ولم تذكر الكتب لأول مرة إلا فى عهد يوشع . ولكن الأسر البابلى مدنهم ووحدهم ، فعادوا إلى بلادهم شديدى اليقظة إلى أدبهم ، عادوا شعبا متأجج الوعى الذاتى مشربا بالنزعات السياسية .

ويلوح أن توراتهم لم تكن تحتوى فى ذلك الوقت إلا على أسفار موسى الخمسة (Pentateuch) ؛ أى الكتب الخمسة الأولى من العهد القديم الذى نعرفه جميعاً . وفضلا عن ذلك كان لديهم فعلا — وعلى صورة كتب منفصلة ، — كثير من الكتب الأخرى التى ألحقت منذ ذلك الحين هى وأسفار موسى الخمسة بالتوراة العبرانية الراهنة ، ومنها مثلا أسفار التواريخ والمزامير والأمثال .

ولو تأملت قصص خلق العالم وآدم وحواء والطوفان ، التى تبدأ بها التوراة ، لوجدتها وثيقة المماثلة لأساطير بابلية تشبهها ؛ والظاهر أنها كانت من المعتقدات الشائعة لدى الشعوب السامية كافة ، وكذلك قصص موسى وشمشون فإن لها نظائر سومرية وبابلية . ولكن بداية أمر الشعب اليهودى بوجه أخص لاتبدأ حقا إلا بقصة إبراهيم فما تلاها .

وربما كان إبراهيم يعيش فى نفس الوقت المبكر الذى عاش فيه حمورابى فى بابل، كان إبراهيم رجلا بدويا ساميا تعيش عشيرته فى نظام الأبوة ، وعلى القارىء أن يرجع إلى سفر التكوين بحثاً عن قصة تجولاته وقصص أبنائه وحفدته وكيف أصبحوا أسرى بأرض مصر وكيف جاس خلال أرض كنعان ؛ وتقول رواية التوراة : إن رب أبراهام وعده وأولاده بهذه الأرض البسامة ذات المدن الغنية .

وبعد مقام طويل بمصر وبعد أربعين عاما من التجول فى البرية بزعامة موسى ، يتزايد أبناء أبراهام فيصبحون شعباً مكونا من اثنى عشر سبطا ، ويغزون أرض كنعان


بلاد العبرانيين
التظليل يدل على المرتفعات
الطريق من فينيقية
إلى البحر الأحمر مخترقا فلسطين
صيدا
صور
يافا
أسدود
عسقلان
غزة
صحراء
شبه جزيرة سيناء
ميل

خريطة رقم (٥)

من القبائل العربية فى الشرق . ولعلهم فعلوا ذلك فى زمن مابين ١٦٠٠ ق . م ١٣٠٠ ق . م . وليس فيما دونته مصر عن تلك الحقبة أى ذكر لموسى ولا كنعان حتى يزيل ما يكتنف تلك القصة من غموض ، ومهما يكن من أمر فإنهم لم يفتحوا إلا منطقة التلول الداخلية فى أرض الميعاد ولم يزيدوا عليها شيئاً . فإن الساحل فى ذلك الأوان لم يكن فى أيدى الكنعانيين ، بل فى أيدى قوم وافدين من الخارج هم أولئك الشعوب الإيجية الذين يسمون بالفلسطينيين ؛ وقد استطاعت مدنهم غزة وجات وأشدود وعسقلان ويافا ، أن تصمد لهجوم العبرانيين ؛ وظل أسباط أبراهام أجيالا عديدة شعباً مغمورا يعيش فى منطقة التلال الخلفية مشغولا بمناوشات لا نهاية لها مع الفلسطينيين وذوى قرباهم من القبائل النازلة حولهم وهم المؤابيون وأهل مدين ومن إليهم . وسيجد القارئ فى سفر القضاة سجلا يسطر كفاحهم وما أصابهم من نكبات إبان تلك الفترة . ذلك أنك تجده فى الأغلب سجلا من النكبات والإخفاقات التى دونت بصراحة .

وكان حكام اليهود خلال أكبر جزء من هذه المدة ــ لو افترضنا أن لهم حكومة من أى نوع ــ قضاة من الكهنة ينتخبهم كبراء الشعب ، ولكنهم عمدوا فى النهاية فى زمن ما يقارب ١٠٠٠ ق .م . إلى انتخاب ملك هو شاءول ، ليكون لهم قائدا فى القتال. ولكن قيادة شاءول لم تزد كثيرا على قيادة القضاة ، فهلك تحت وابل من سهام الفلسطينيين فى معركة جبل جلبوع ، وأخذت دروعه إلى معبد فينوس الفلسطينية ، ودق جسمه بالمسامير على أسوار بيت شان .

وكان خلفه داود أكثر توفيقا وفطانة . وبتولى داود أشرقت فترة الرخاء الوحيدة التى قدر للشعوب العبرانية أن تعرفها على مر الدهر كله . وهى تقوم على محالفة وثيقة الأواصر مع مدينة صور الفينيقية ، التى يلوح أن ملكها حيرام كان رجلا أوتى نصيباً كبيرا من الذكاء والقدرة على المغامرة . وكان يبغى أن يكفل للتجارة إلى البحر الأحمر طريقاً آمنا عبر منطقة التلال العبرانية . وكان الأصل فى التجارة الفينيقية أن تذهب إلى البحر الأحمر عن طريق مصر ، بيد أن مصر كانت فى ذلك الزمان فى حالة بالغة من الفوضى ؛ ولعل عقبات أخرى قد حالت دون مرور التجارة الفينيقية فى تلك الطريق، ومهما يكن من شىء فإن حيرام أنشأ بينه وبين داود وابنه وخلفه سليمان أوثق العلاقات، وعند ذلك نشأت برعاية حيرام ، أسوار أورشليم وقصرها ومعبدها، وفى مقابل ذلك بنى حيرام سفنه على البحر الأحمر وسيرها فيه . وأخذ سيل جسيم من التجارة

يتدفق خلال أورشليم نحو الشمال والجنوب . وأوتى سليمان من اليسار والأبهة مالم يره شعبه من قبل . حتى لقد بلغ من أمره أن سمح فرعون بتزويج ابنته منه .

بيد أن من الخير ألا تغيب عن بالنا التقديرات النسبية للأمور . فسليمان لم يكن وهو فى أوج مجده إلا ملكا صغيراً تابعاً يحكم مدينة صغيرة . وكانت دولته من الهزال وسرعة الزوال بحيث أنه لم تنقض بضعة أعوام على وفاته ، حتى استولى شيشنق أول فراعنة الأسرة الثانية والعشرين على أورشليم ونهب معظم ما فيها من كنوز . ويقف كثير من النقاد موقف المستريب إزاء قصة مجد سليمان التى توردها أسفار الملوك والأيام. وهم يقولون إن الكبرياء القومى لدى كتاب متأخرين هو الذى دعاهم إلى إضافة أشياء إلى القصة والمبالغة فيها . بيد أنك إذا أنعمت النظر فى قصة التوارة وقرأتها بمزيد من العناية لم تجد لها الروعة التى تخيل إليك عند أول قراءة .

فلو أنا استخرجنا من القصة أطوال معبد سليمان ، لوجدنا أن فى الإمكان وضعه داخل كنيسة صغيرة من كنائس الضواحى، وأما عرباته الألف والأربعمائة فإنهاستكف عن بعث الإكبار فى نفوسنا عندما نعلم من أحد الأطلال الآشورية أن خلفه آحاب (Ahab) أرسل كتيبة من ألفين لتنضم إلى الجيش الآشورى . وواضح مما تقص التوراة أن سليمان بدد ما يملك فى المظاهر وأنه أبهظ شعبه بالعمل والضرائب . ولما أن مات انفصل الجزء الشمالى من مملكته عن أورشليم وأصبح مملكة إسرائيل المستقلة. بينما ظلت أورشليم حاضرة يهوذا .

ولم يتمتع الشعب العبرانى بخفض العيش إلا أمدا وجيزا . فمات حيرام ، وانقطع عون صور الذى كانت تقوى به أورشليم . ثم قويت شوكة مصر ثانية . ويصبح تاريخ ملوك إسرائيل وملوك يهوذا ، تاريخ ولايتين صغيرتين بين شقى الرحى تعركهما على التوالى سوريا ثم بابل من الشمال ومصر من الجنوب. وهى قصة نكبات وتحررات لاتعود عليهم إلا بإرجاء نزول النكبة القاضية ، هى قصة ملوك همج يحكمون شعباً من الهمج، حتى إذا وافت ٧٢١ ق.م محت يد الأسر الآشورى مملكة إسرائيل من الوجود ،وزال شعبها من التاريخ زوالا تاما ، وظلت مملكة يهوذا تكافح حتى حل بها فى ٦٠٤ ق . م ماحل بإسرائيل كما أسلفنا ، وربما كانت بعض تفاصيل رواية التوراة لتاريخ العبرانيين منذ أيام القضاة فما تلاها موضع الشك والنقد ، ولكنها بوجه الإجمال قصة

واضحة الصدق تتفق مع كل ماعلمناه عن طريق أعمال الحفر التى تمت فى مصر وآشور وبابل إبان القرن المنصرم .

وهناك فى بابل جمع الشعب العبرانى تاريخه بعضه إلى بعض وطور تقاليده ونماها . ذلك أن القوم الذين آبوا إلى أورشليم بأمر قورش كانوا شعباً يختلف اختلافا عظيما فى الروح والمعارف عن ذلك الشعب الذى خرج منها مأسورا ، فإنهم تعلموا الحضارة

وظهرت إبان تطورهم الخلقى الفريد فى بابه طائفة معينة من الرجال لعبت دورا عظيما جدا فى تاريخهم ، وهى طراز جديد من الرجال ، هم الأنبياء ، الذين ينبغى لنا الآن أن نوجه إليهم اهتمامنا ، ويؤذن ظهور الأنبياء بظهور قوى جديدة جديرة بالملاحظة فى التطور المطرد للجماعة البشرية .

الفصل الثاني والعشرون

كهان وأنبياء في بلاد اليهودية

لم يكن سقوط آشور وبابل إلا فاتحة سلسلة من النكبات التى كتب للشعوب السامية أن تقاسيها . ومن قبل ذلك كان العالم المتحضر بأكمله يلوح فى القرن السابع ق . م كأنما هو موشك أن يتسلط عليه حكام ساميون . ذلك أنهم كانوا يحكمون الإمبراطورية الاشورية العظمى كما استولوا على مصر ؛ وغلب الساميون على بلاد آشور وبابل وسوريا التى كانت تتكلم لغات متقاربة يمكن فهمها بينهم جميعاً . وكانت تجارة العالم فى أيدى الساميين ، فإن صور وصيدا مدينتى الساحل الفينيقى الأصليتين الكبيرتين قد نثرتا المستعمرات التى كبرت فى النهاية حتى فاقت أمها حجما فى أسبانيا وصقلية وإفريقيا . ذلك أن قرطاجنة التى أسست قبل ٨٠٠ ق . م ، تزايد عدد سكانها حتى أربى على المليون ، وظلت أعظم مدن العالم ردحا من الزمن . فذهبت سفنها إلى بريطانيا وخرجت إلى عرض المحيط الأطلسى ، ولعلها بلغت جزائر ماديرا ، وقد رأينا من قبل كيف تعاون حيرام مع سليمان على بناء السفن على البحر الأحمر لنقل التجارة العربية وربما الهندية أيضاً ، وحدث فى زمن الفرعون نخاو أن حملة فينيقية دارت بسفنها حول قارة إفريقيا .

وكانت الشعوب الآرية لا تزال فى ذلك الحين غارقة فى الهمجية ، لا يستثنى منها إلا الإغريق الذين جعلوا يعيدون بناء مدنية جديدة على أنقاض تلك التى دمروها ، وكذلك الميديون الذين أصبحوا « ذوى بأس وقوة » فى آسيا الوسطى ، كما تصفهم بعض النقوش الآشورية ، ولم يكن أحد يستطيع أن يتكهن فى ٨٠٠ ق . م بأن كل أثر لسلطان الساميين سيمحوه غزاة ينطقون بالآرية قبل حلول القرن الثالث ق . م ، وأن الشعوب السامية ستغدو فى كل مكان خاضعة أو تابعة أو مشتتة كل مشتت ، ففى كل مكان ، ما عدا صحارى بلاد العرب الشمالية ، حيث استمسك البدو بشدة بطريقة عيش الترحل ، سادت طريقة العيش التى كانت للساميين قبل زحف سرجون الأول والأكاديين لفتح سومر ، بيد أن العرب البدو لم يغزهم ألبتة سادة آريون .

ولم يتماسك من جميع هؤلاء الساميين المتحضرين الذين هزموا وأخضعوا فى إبان تلك القرون الخمسة الحافلة بالأحداث ، أقول لم يتماسك منهم ولم يستمسك بتقاليده القديمة إلا شعب واحد فقط ، هو هذا الشعب الصغير ، وأعنى به اليهود الذين أعادهم قورش الفارسى ليشيدوا مدينتهم أورشليم . وقد تيسر لهم ذلك كله ، بفضل جمعهم شتات أدبهم ذاك ، وهو التوراة ، أثناء مقامهم فى بابل .

والواقع أن اليهود لم يصنعوا التوراة بل إن التوراة هى التى صنعت اليهود . ذلك أن تلك التوراة تنطوى دفتاها على فكرات بعينها ، تخالف فكرات من حولهم من الشعوب ، وهى فكرات شديدة التنبيه للأذهان شديدة الدعم والتثبيت للأنفس ، قدر لهم أن يتعلقوا بها إبان خمسة وعشرين من قرون المحن والمغامرة والاضطهاد .

وأول هذه الفكرات اليهودية وأبرزها ، هى اعتقادهم بأن إلههم خفى مستتر وبعيد ، إله غير مرئى يعيش فى معبد لم تصنعه يد ، وهو رب الخير والبر فى أرجاء الأرض كافة . أما الشعوب الأخرى قاطبة فلها أرباب قومية تمثلوها أصناما تعيش فى معابد . فإذا تحطم الصنم وانهدم المعبد ، ولى الرب على الفور ، ولكن رب اليهود هذا كان فكرة جديدة ، فهو يعيش فى السماء ، ساميا متعاليا على الكهنة والقرابين . وكان اليهود يؤمنون بأن إلههم هذا هو إله أبراهام ، قد اصطفاهم له شعباً مختاراً ، ليسترجعوا أورشليم ويجعلوها حاضرة البر فى العالم . فهم إذن شعب سما به إلى العلا شعوره بمصيره المشترك . ذلك هو الاعتقاد الذى ملأ جوانب نفوسهم جميعاً يوم عادوا إلى أورشليم بعد الأسر فى بابل .

أفعجيب إذن أن تهفو إلى هذه العقيدة الملهمة نفوس كثير من البابليين والسوريين ومن إليهم ، ونفوس كثير من الفينيقيين فيما تلا ذلك من الزمان ؟ — وهم أقوام يتحدثون بلسان واحد تقريباً ، ولديهم ما لا حصر له من مشترك العرف والعادات والأذواق والتقاليد ، وأن يحاولوا الإسهام فى عضويتها ووعدها ولا سيما بعد أن تمرغوا فى مهاوى الهزيمة والذلة ؟ وقد لوحظ أن الفينيقيين اختفوا فجأة من صفحات التاريخ بعد سقوط صور وصيدا وقرطاجنة والمدن الفينيقية الأسبانية ؛ كما ظهرت المجتمعات اليهودية مكانهم وبمثل تلك الطريقة الفجائية عينها لا فى أورشليم وحدها بل وفى أسبانيا ، وإفريقيا ومصر وبلاد العرب ، وفى الشرق حيثما وضع الفينيقيون أقدامهم . وكانت

الرابطة التى تربطهم جميعا هى التوراة وتلاوة التوراة . ولم تكن أورشليم منذ البداية إلا عاصمتهم الاسمية ؛ أما مدينتهم الحقيقية الجامعة شملهم فهى هـذه التوراة « سفر الأسفار » ، وذلك شىء جديد فى التاريخ . وهو شىء بذرت بذوره قبل ذلك بزمن مديد ، عندما شرع السومريون والمصريون أن يحولوا كتابتهم الهيروغليفية ذات الصور إلى كتابة عادية .

كان اليهود شيئا جديداً فى هذه الدنيا ، فإنهم كانوا شعبا بلا ملك ، وما لبثوا أن غدوا بلا معبد (إذ إن أورشليم نفسها ـ كما سنحدثك ـ قد قضى عليها فى سنة ٨٠ بعد الميلاد) ، ولم يكن يجمعهم — على تباين أصولهم ، واختلاف عناصرهم — إلا قوة الكلام المسطور .

لم يدبر أحد هذا الالتئام الفكرى بين اليهود ، ولا تنبأ به إنسان ، ولا كان ثمرة جهد كاهن أوسياسى . ولم يظهر فى التاريخ بتطور اليهودنوع جديد من المجتمع وحسب ، بل نوع جديد من الإنسان ، وفى أيام سليمان لم يكن يبدو على العبرانيين إلا أنهم سيصبحون شعبا صغيراً يتجمع كأى شعب صغير آخر فى ذلك الزمان حول بلاط ومعبد ، تحكمه حصافة الكاهن وتقوده مطامع الملك . ولكن هذا الصنف الجديد من الإنسان الذى نتحدث عنه ، وأعنى به « النبى » كان موجوداً آنفا ، كما يستطيع القارىء أن يتحقق من ذلك بنفسه من التوراة . وتتزايد أهمية هؤلاء الأنبياء مع تزاحم المصائب على رأس العبرانيين المنقسمين على أنفسهم .

فما هؤلاء الأنبياء ؟ !

إنهم رجال متباينو الأصل إلى أقصى حد . فالنبى حزقيال مثلا كان من الكهنة ، وكان النبى عاموس يلبس رداء الرعاة المصنوع من جلد الماعز ، بيد أنهم يشتركون جميعا فى شىء واحد : هو أنهم لا يدينون بالولاء إلا لرب البر وأنهم يتصلون بالناس مباشرة ، كانوا يظهرون دون ترخيص من ذوى السلطان ودون تكريس مقدس كالكهان . أما طريقة تعبيرهم عما فى نفوسهم ، فهى قولهم : « الآن جاءتنى كلمة الرب » . كانوا يخوضون فى السياسة إلى أقصى حد . ولطالما حرضوا الناس على مصر ، « تلك القصبة المهشمة » على حد تعبيرهم ؛ أو على آشور أو بابل ، وقد نعوا على طبقة الكهان تراخيهم ، كما نددوا بآثام الملوك الصارخة . ووجه نفر منهم

عنايته إلى ما قد نسميه اليوم « بالإصلاح الاجتماعى » . فقالوا إن الأغنياء « يسحقون وجوه الفقراء سحقا » ، كما أن المترفين يستنفدون خبز الأطفال ، وأن الموسرين يصادقون الأجانب ويقلدونهم فى أبهتهم ورذائلهم ؛ وأن هذا بغيض إلى «ياهواه» رب « أبراهام » الذى سينزل سوط عقابه على هذه الأرض .

كانت هذه التنديدات العنيفة تدون وتصان وتدرس . وكانت تذهب حيثما ذهب اليهود ، وحيثما حلوا نشرت بين الناس روحا دينية جديدة . فباعدت بين الرجل العادى وبين الكاهن والمعبد والبلاط والملك ، ووضعته وجها لوجه أمام حكم الرب . وتلك هى أهميتهم العليا فى تاريخ البشرية . والأقوال العظيمة التى ينطق بها أشعيا يرتفع بها الصوت النبوى إلى ذروة سامية من روائع التنبؤ ، ويتوقع اتحاد الأرض كلها فى ظل إله واحد . وهنا تبلغ النبوءات اليهودية أوجها .

ولم يكن كل الأنبياء يتكلمون على هذه الشاكلة ، كما أن القارىء الفطن يجد فى كتب الأنبياء الشىء الكثير من البغضاء ، والشىء الكثير من التحيز والتحامل ، والشىء الكثير مما سيذكره بتلك المادة الشريرة ، ألا وهى المؤلفات التى تسطرها الدعاية فى الزمن الحاضر . ومع ذلك فإن الأنبياء العبرانيين الذين عاشوا حوالى زمن الأسر البابلى هم الذين يؤذنون بظهور قوة جديدة فى العالم ، هى قوة الالتجاء إلى الفرد من الناحية الخلقية ، الالتجاء إلى ضمير البشرية الحر ضد القرابين الخرافية (الفتيشية[1]) ومختلف أنواع الولاء الاستعبادى التى ظلت حتى ذلك الحين قيداً يغل جنسنا البشرى .

(١) الفتيشية : كل شىء ينظر إليه بتوقير لايقوم على منطق أو عقل . وهى فى الأصل الاعتقاد أن لكل شىء روحا تنفع وتضر . [المترجم]

الفصل الثالث والعشرون

الإغريق

فى نفس الوقت الذى كانت فيه مملكتا إسرائيل ويهوذا المنقسمتان على نفسيهما تكابدان التدمير ونقل السكان بعد عهد سليمان (الذى حكم على الأرجح حوالى ٩٦٠ قبل الميلاد) وبينما الشعب اليهودى يطور تقاليده وينميها إبان الأسر البابلى ، كانت تنشأ أيضا قوة عظيمة الأثر فى العقل الإنسانى ، هى التقاليد الإغريقية . وبينما كان الأنبياء العبرانيون يكونون فى الناس شعوراً جديداً بوجود مسئولية خلقية مباشرة بينهم وبين رب سرمدى للعالم كافة يتصف بالعدل والحق ، كان فلاسفة الإغريق يدربون العقل الإنسانى على المغامرة الفكرية بطريقة وروح جديدتين .

والقبائل الإغريقية – كما سبق أن ألمعنا – فرع من الدوحة الناطقة بالآرية ، انحدر إلى المدن والجزائر الإيجية قبل ١٠٠٠ ق . م ببضعة قرون . والراجح أنهم كانوا يتحركون نحو الجنوب قبل اليوم الذى راح فيه تحوتمس فرعون مصر يصيد فيلته الأولى وراء إقليم الفرات الذى استولى عليه ؛ ذلك أنه كانت هناك فى تلك الأيام أفيال بأرض الجزيرة وأسود فى بلاد الإغريق .

ومن الجائز أن إحدى غارات الإغريق هى التى أحرقت كنوسوس ، ولكن ليس بين الأساطير الإغريقية ما يتغنى بمثل هذا النصر ، وإن حوت تلك الأساطير قصصا تتحدث عن مينوس ، وقصر « اللابيرانت » ، وعن مهارة بعض الصناع الكريتيين .

وكان لهؤلاء الإغريق كمعظم الشعوب الآرية مغنون وقصاصون ، وكان غناؤهم وقصصهم من الروابط الاجتماعية الهامة ، وقد نقلوا عن أيام شعبهم الهمجية الأولى ملحمتين عظيمتين :

(ا) الإلياذة : التى تحدثنا كيف أن عصبة من القبائل الإغريقية حاصرت مدينة طروادة بآسيا الصغرى ، واستولت عليها وانتهبتها .

(ب) والأوديسيا : وهى مطولة تروى مغامرة أوديسيوس البطل الحكيم فى أثناء عودته من طروادة إلى جزيرته .

وقد دونت هاتان اللحمتان فى زمن ما من القرن الثامن أو السابع ق . م ، عندما تعلم الإغريق استعمال الحروف الأبجدية من جيرانهم الأكثر مدنية . ولكن نظن أنهما كانتا موجودتين قبل ذلك بزمن طويل جداً . وكانتا تنسبان فيما سلف إلى شاعر ضرير اسمه « هوميروس » ، زعم الناس أنه هو الذى صاغهما مثلما ألف « ميلتون » قصيدة الفردوس المفقود ، فهل وجد هـذا الشاعر حقا ؟ وهل ألف هاتين اللحمتين ، أم اقتصر أمره على تدوينهما وصقلهما إلى غير ذلك ؟ . .

الواقع أن هذا موضوع يلذ للعلماء أن يعرضوا له بالنقاش . وما نحن بحاجة أن نشغل أنفسنا بمثل هـذه المنازعات . وكل ما يهمنا أن اليونانيين ملكوا اللحمتين فى القرن الثامن ق . م ، وأنهما كانتا ملكا مشاعاً لهم جميعا وصلة تربط بين قبائلهم المتنوعة ، وتمنحهم شعوراً بالزمالة ضد البرابرة[1] . ذلك أنهم كانوا مجموعة من شعوب متشابهة تربطهم رابطة اللغة والكلام أولا ، ثم الكتابة فيما بعد ، ويسهمون كلهم فى مثل عليا مشتركة من الشجاعة والسلوك .

واللاحم تظهر لنا الإغريق فى صورة الشعب الفطرى الذى لا يعرف الحديد ، ولا الكتابة ، والذى لم يسكن المدن بعد ، ويلوح أنهم كانوا يسكنون فى البداية قرى غير مسورة مصنوعة من أكواخ يقيمونها حول قاعات رؤسائهم ، خارج أطلال المدن الإيجية التى دمروها من قبل ، ثم شرعوا يحيطون مدنهم بالأسوار ، وينقلون فكرة المعابد عن الشعب الذى غزوه .

وقد ألمعنا آنفاً إلى أن مدن الحضارات البدائية نمت حول مذبح آلهة إحدى

---

(١) البرابرة اصطلاحا هم من أعداء اليونانيين من الشعوب [المترجم]

القبائل ، وأن السور بنى حولها فيما بعد ؛ أما مدن الإغريق فالسور فيها سابق على المعبد . كما أنهم شرعوا يتجرون وينشئون المستقرات بكل مكان . فما وافى القرن السابع ق . م حتى كانت مجموعة جديدة من المدن قد نمت فى أودية بلاد الإغريق وجزائرها ، ضاربة صفحة النسيان على المدن والحضارة الإيجية التى سبقتها ؛ ومن أهمها أثينا وإسبارطة وكورنثة وطيبة وساموس وميليتوس . وانتشرت المستعمرات الإغريقية على امتداد ساحل البحر الأسود وفى إيطاليا وصقلية . وكان (كعب) الحذاء الإيطالى ومقدمه يسميان ماجنا جريكيا (بلاد اليونان الكبرى) . كما أن مدينة مرسيليا ليست إلا بلدة إغريقية أسست على أنقاض مستعمرة فينيقية قديمة .

والأقطار المكونة من سهول عظيمة أو التى تكون وسيلة المواصلات الرئيسية فيها أحد الأنهار العظيمة كالفرات أو النيل ، تنزع إلى الاتحاد تحت حكم مشترك . ومن أمثلة ذلك أن مدن مصر وسومر اتحدت كلها تحت نظام حكم واحد . ولكن الشعوب اليونانية كانت موزعة بين الجزائر والوديان الجبلية ؛ إذ من المعلوم أن بلاد الإغريق والجزء الجنوبى من إيطاليا (الماجناجريكيا) جبلية وعرة ؛ لذا كان الوضع ينزع صوب التفرق لا الاتحاد . وعندما ظهر اليونان فى التاريخ لأول مرة كانوا منقسمين إلى عدد من الدويلات الصغيرة التى لا يبدو عليها أى أثر للائتلاف . وكانوا يتباينون فى كل شىء حتى فى الجنس . فمن تلك الدويلات ما تألف بصفة أساسية من مواطنين من إحدى القبائل اليونانية الثلاث الأيونية أو الأيولية أو الدورية ؛ ومنها ما كان سكانه خليطا من اليونان ومن سلالات جنس البحر المتوسط السابق لليونان ؛ ومنها ما فيه مواطنون أحرار من اليونان الخلص يتسلطون عليها وعلى سكانها المقهورين المستعبدين شأن « الهيلوطيين » فى إسبارطة . ومنها ما صارت فيه العائلات الآرية القديمة المتزعمة ، طبقة أرستقراطية منعزلة ؛ وبعضها كانت تقوم فيه ديموقراطيات تضم جميع المواطنين الآريين ؛ بينما تولى الحكم ببعضها الآخر ملوك منتخبون بل حتى وراثيون ، على حين كان فى بعضها مغتصبون للعرش أو طغاة .

والظروف الجغرافية التى جعلت الدول الإغريقية منقسمة ومختلفة على الدوام فيما بينها ، هى التى عادت عليها أيضاً بصغر الحجم . فإن أعظم دولها حجما أصغر من كثير

من المقاطعات الإنجليزية ، وإنا لفى ريب من أن سكان أية مدينة من مدنهم زاد فى يوم من الأيام على ثلث المليون . وقل منها من بلغ سكانه الخمسين ألفا . وقد قامت بينهم الاتحادات بدافع المصلحة والتعاطف ، ولكن لم تنشأ ثمة أية وحدة وائتلاف . ولما تزايدت التجارة راحت المدن تنشىء بينها العصبيات وتعقد المحالفات ، كما راحت المدن الصغيرة تضع نفسها تحت حماية الكبيرة . ومع ذلك فإن بلاد الإغريق كان يجمعها كلها أمران يجعلان منها مجتمعا ذا شعور مشترك إلى حد ما ، وهما الملاحم وعادة المساهمة كل أربع سنوات فى المباريات الرياضية التى كانت تقام فى أولمبيا ، على أن هذا لم يحل دون نشوب الحروب والمنازعات ، وإن خفف شيئا مما تتسم به الحرب من وحشية وضراوة ، كما أنه استلزم قيام هدنة تصون حياة المسافرين إلى الألعاب والعائدين منها ، ونما بمضى الوقت شعورهم بأن لهم إرثا مشتركا ، وتزايد عدد الدول المشتركة فى الألعاب الأولمبية حتى لم يقتصر الأمر على اليونانيين وحدهم ، بل سمح بدخولها لمتبارين من أقطار ذات مشابهة وثيقة باليونان كإبيروس ومقدونيا إلى الشمال .

نمت أهمية المدن الإغريقية واتسعت تجارتها،وأخذ نوع حضارة القوم يرتقى باطراد فى أثناء القرنين السابع والسادس ق .م.وتختلف حياتهم الاجتماعية فى كثير من النواحى الشائقة عن الحياة الاجتماعية لحضارات بحر إيجة ووديان الأنهار ، إذ كانت لديهم معابد فخمة ، بيد أن الكهانة لم تكن تلك الهيئة التقليدية الكبيرة ، التى كانت موجودة فى مدن العالم القديم ، والتى كانت مستودع المعرفة كلها ، ومختزن الفكرات ، كان لديهم زعماء وعائلات نبيلة ، ولم يكن لديهم عاهل شبه قدسى يحيط به بلاط محكم التنظيم . والواقع أن نظامهم كان بالأحرى أرستقراطياً له عائلات متزعمة تقف إحداها للأخرى بالمرصاد وتلزمها الجادة . وحتى النظم التى يسمونها بالديموقراطيات لم تكن فى الواقع إلا أرستقراطية ، ولكل مواطن حر أن يشترك فى الشئون العامة بنصيب ، ومن حقه حضور جلسات الجمعية إن كان نظام المدينة ديموقراطيا ، ولكن لم يكن كل إنسان مواطنا حراً .

ولم تكن الديموقراطيات اليونانية تماثل ديموقراطياتنا العصرية التى لكل إنسان فيها صوت . فإن كثيرا من تلك الديموقراطيات كانت تحتوى على بضع مئات أو بضع

آلاف من المواطنين الأحرار ، ومن دونهم آلاف كثيرة من الأرقاء والعتقاء ومن إليهم ، لايستمتعون بأى نصيب فى الشئون العامة .

وعلى وجه العموم كانت مقاليد الأمور ببلاد الإغريق فى يد طائفة من رجال ذوى مكانة . وكان ملوكهم وطغاتهم على السواء مجرد رجال وضعوا على رأس غيرهم من الرجال أو اغتصبوا الزعامة اغتصاباً ؛ ولم يكونوا أشباه آلهة فوق مستوى البشر مثل فرعون ومينوس أو عواهل أرض الجزيرة . ومن ثم فإن الفكر والحكم كانا يحظيان فى ظلال الإغريق بحرية لم يحظيا بها فى أى من المدنيات القديمة . وذلك أن الإغريق أدخلوا إلى المدينة تلك « الشخصية الفردية » والمبادأة والابتكار الشخصى اللذين ينعم بهما المتجولون الرحل فى أراضى الأحراش الشمالية ، فهم أول « جمهوريين » لهم أهمية فى التاريخ .

وبينما هم ينفضون عن أنفسهم غبار حرب وحشية ضروس دارت بينهم ، يستكشف المشاهد أن شيئاً جديداً أصبح واضحاً فى حياتهم العقلية لأول مرة فى التاريخ . ذلك أنا نلتقى هنا برجال ليسوا من الكهنة ، يطلبون المعرفة ويسجلونها ويفحصون عن أسرار الحياة والوجود ، بطريقة كانت حتى ذلك الحين هى امتياز الكهنة الرفيع ، أو تسلية الملوك التى يزاولونها فى كثير من الادعاء والغطرسة . فإنا نجد فعلا فى القرن السادس ق . م (بينما كان أشعيا لايزال يتنبأ فى بابل) رجالا مثل « طاليس » و « أنا كسماندر المليطى » و « هرقليتوس » من أهل إفيسوس ، وهم قوم ممن نسميهم اليوم باسم السادة السراة ، نجدهم قد كرسوا عقولهم للبحث والتدقيق بأسلوب الذكى الأريب فى أحوال العالم الذى نعيش فيه ، متسائلين عن ماهيته ، وكنه طبيعته الحقة ، ومن أين جاء ؟ وماذا يمكن أن تكون عليه مصائره ؟ . . . ورافضين جميع الإجابات المعدة أو المحفوظة التى لاتصدر عن إعمال فكر ، أو تنطوى على التملص . وسنزيدك عما قليل بيانا عن هذا التساؤل الذى وجهه العقل الإغريقى إلى هذا الكون . وهؤلاء الباحثون الإغريق الذين أخذوا يبرزون ، ويلفتون إليهم الأنظار فى القرن السادس قبل الميلاد ، هم أول الفلاسفة ، أى أول محبى الحكمة فى العالم .

وربما أمكننا أن ننوه بعظم أهمية القرن السادس قبل الميلاد فى تاريخ البشر . ذلك

أن هؤلاء الفلاسفة الإغريق لم يكونوا وحدهم أول من جد فى طلب الأفكار الخالصة النفاذة حول هذا الكون ومركز الإنسان فيه ، على حين راح « أشعيا » يسمو بالتنبؤ اليهودى إلى أرفع مراتبه ، بل إن « جوتاما بوذا » أيضا — كما سنحدثك فيما بعد — كان يعلم الناس آنذاك بالهند ، وكذلك « كونفشيوس » ولاوتسى (لاهوتسى) ببلاد الصين . فكأن العقل الإنسانى من أثينا حتى المحيط الهادى كان فى حركة ونشاط دائبين .

الفصل الرابع والعشرون

الحرب بين الإغريق والفرس

بينما كان الإغريق فى المدن القائمة ببلادهم وجنوبى إيطاليا وآسيا الصغرى مقبلين على البحث الفكرى الحر ، وبينما كان آخر الأنبيــاء العبرانيين فى بابل وأورشليم يخلقون ضميراً حراً ، استولى شعبان آريان مخاطران : الميديون والفرس ، على زمام حضارة العالم القديم ، وشرعا فى تكوين إمبراطورية ضخمة هى الإمبراطورية الفارسية ، التى كانت أوسع رقعة بكثير من أية إمبراطورية رآها العالم حتى ذلك الحين .

ولم تلبث بابل وليديا الثرية ذات الحضارة العريقة أن أضيفتا فى عهد قورش إلى أملاك الفرس ، ثم ضمت إليهم مدن الفينيقيين بالمشرق وجميع المدن اليونانية بآسيا الصغرى وأخضع قمبيز مصر ، كما لم يلبث دارا الأول الميدى ثالث ملوك الفرس (٥٢١ ق . م) أن وجد نفسه عاهلا للعالم بأسره حسب اعتقاد الزمان . وصار رسله يجوبون الطرق بمراسيمه على الخيل من الدردنيل إلى السند ، ومن مصر العليا إلى آسيا الوسطى .

أجل ، إن يونان أوربا وإيطاليا وقرطاجنة وصقلية والمستعمرات الفينيقية بإسبانيا لم تستظل « السلم الفارسى »(١) ؛ بيد أنها كانت تعامل فارس بالاحترام ، ولم تجد الفرس مضايقة جدية إلا من قبائل آبائهم القدماء من الشعوب الآرية القاطنين بجنوب الروسيا وآسيا الوسطى ، وهم الأشقوذيون (الإسكيذيون) الذين كانوا دائمى الإغارة على الحدود الشمالية والشمالية الشرقية .

وسكان هذه الإمبراطورية الفارسية الكبيرة لم يكونوا جميعاً بطبيعة الحال من الفرس ، فلم يكن هؤلاء إلا الأقلية الصغيرة الفاتحة والحاكمة لهذه المملكة الضخمة .

---

(١) السلم الفارسى : السلم الذى تقوم بصيانته دولة فارس بالمناطق التى يرفرف عليها علمها . [المترجم]

فأما سائر السكان فكانوا على ماهم عليه قبل نزول الفرس بهم بأزمان سحيقة ، وكل ما جد فى الأمر هو أن الفارسية أصبحت لغة الحكم والإدارة . وقد ظلت التجارة والمالية ساميتين إلى حد كبير ، وبقيت صور وصيدا كشأنهما فى الماضى الميناءان العظيمان على البحر المتوسط ، كما أن السفن السامية ظلت تمخر عباب البحار . بيد أن كثيراً من هؤلاء التجار ورجال الأعمال الساميين كانوا إذا انتقلوا من مكان إلى آخر وجدوا تاريخاً مشتركا يجتمع فيه مصلحتهم وتعاطفهم ، ويتمثل فى التقاليد والكتب المنزلة العبرانية . وثمة جنس جديد كان عدده يزداد بسرعة فى تلك الإمبراطورية ، وهو الجنس الإغريقى . وتلفت الساميون فاذا باليونان قد صاروا لهم منافسين خطرين على صفحة البحر ، فضلا عن أن ذكاءهم الفياض البعيد عن الهوى جعل منهم موظفين نافعين غير متحيزين .

وكان الإسكيذيون هم السبب الذى من أجله غزا دارا الأول أوربا . فإنه شاء أن يصل إلى جنوب الروسيا موطن الفرسان الإسكيذيين . فعبر البوسفور بجيش عظيم اخترق به بلغاريا إلى نهر الدانوب ، ثم عبر ذلك النهر بجسر من الزوارق وأوغل شمالا ، فلقى جيشه الأهوال . لأنه كان فى معظم شأنه قوة راجلة من المشاة ، على حين راح الإسكيذيون — وهم من الخيالة — يناوشونه بخيلهم من جميع جوانبه ، فيقطعون عنه المدد ، ويهلكون كل من ضل من جنده ، ولا يدخلون معه فى أية معركة فاصلة . واضطر دارا أن يتراجع تراجعاً مزريا شائنا .

عاد دارا بشخصه إلى سوس ، ولكنه خلف جيشا فى تراقيا ومقدونيا ، وخضعت مقدونيا لدارا . ولما رأت مدن الإغريق الآسيوية ما حل بالملك من إخفاق شبت فيها الفتن ، وانجذب إغريق أوربا إلى حومة النزاع ، وصمم دارا على إخضاع إغريق أوربا . ولما كان الأسطول الفينيقى رهن إشارته تسنى له بمساعدته أن يخضع الجزر واحدة تلو الأخرى ، حتى انتهى به الأمر فى ٤٩٠ ق . م أن قام بهجومه الرئيسى على أثينا . وأقلعت عمارة بحرية عظيمة من موانى آسيا الصغرى وشرقى البحر المتوسط ، وأنزلت الحملة جنودها عند ماراثون إلى الشمال من أثينا . وهناك لقيهم الأثينيون وهزموهم شر هزيمة .

وفى تلك اللحظة الحرجة حدث شىء خارق . فقد كانت إسبارطة ألد منافس لأثينا يبلاد الإغريق ، واليوم لجأت أثينا إلى إسبرطة تلتمس العون ، فأرسلت إليها رسولا

عداء سريعا ، يتوسل إلى الإسبرطيين ألا يدعوا الإغريق يصبحون للبرابرة عبيداً ، وقطع هذا العداء (وهو النموذج التالى لنظرائه من عدائى ماراثون) أكثر من مائة ميل من أرض وعرة فى أقل من يومين . وهب الإسبرطيون لنصرة إخوانهم فى سرعة وكرم نفس ، ولكن عندما بلغت القوة الإسبرطية أثينا بعد ثلاثة أيام ، لم تجد شيئا تعمله إلا أن تشهد ساحة المعركة وجثث جنود دارا المندحرين . هذا إلى أن الأسطول الفارسى كان قد عاد إلى آسيا . وبذلك انتهى أمر أول هجوم فارسى على بلاد الإغريق .

على أن ما حدث بعد ذلك كان أشد وأبلغ . إذ مات دارا بعد أن بلغته أخبار اندحاره فى ماراثون بقليل ، وظل ابنه وخلفه اجزرسيس ، أربع سنوات يجهز جيشاً عظيما ليسحق به الإغريق . وجمع الذعر كلمة الإغريق إلى حين . إذ لاشك أن العالم لم يشهد من قبل جيشا فى ضخامة جيش اجزرسيس . ولكنه كان جمعا هائلا مكونا من عناصر متنافرة . فعبر الدردنيل فى ٤٨٠ ق . م بجسر من الزوارق ؛ وكلما تقدم الجيش تحرك معه بمحاذاة الساحل أسطول لايقل عنه تخلطا يحمل المؤن ، وهناك عند مضيق « ثرموبيلاى » وقفت قوة صغيرة مكونة من ١٤٠٠ رجل بقيادة ليونيداس الإسبرطى تقاوم هذا الجحفل الجرار ، ولم تلبث تلك القوة أن أبيدت بأكملها بعد قتال أبدت فيه ما ليس له نظير من البطولة ؛ لقد قتل رجالها عن بكرة أبيهم . على أن الخسائر التى أنزلوها بالفرس كانت فادحة ، وأطبق جيش اجزرسيس على طيبة[1] وأثينا كسير الروح . وخضعت طيبة وكتبت شروط التسليم . وتخلى الأثينيون عن مدينتهم فأحرقها العدو .

وبدت بلاد الإغريق كأنما قد أصبحت فى قبضة الفاتحين ، ولكن النصر عادفحالفهم رغم كل الظروف المضادة ، وعلى النقيض من كل ما كانوا يتوقعونه . فإن الأسطول الإغريقى أخذ يهاجم الأسطول الفارسى فى خليج سلاميس ودمره وإن لم يبلغ ثلث حجمه . ووجد اجزرسيس أنه وجيشه العرمرم قد صارا محرومين من المؤن ، فخانته شجاعته ؛ وتراجع إلى آسيا بنصف جيشه ، تاركا النصف الآخر لكى يهزم فى بلاتيا (٤٧٩ ق . م) . وفى نفس الوقت كان الإغريق يطاردون بقايا الأسطول الفارسى ويدمرونها عند ميكالى بآسيا الصغرى .

---

(١) طيبة : مدينة إغريقية - نرجو ألا يخلط القارىء بينها وبين سميتها العظيمة بصعيد مصر . [المترجم]

لقد زال كل خطر فارسي . وباتت معظم المدن الإغريقية بآسيا حرة . وقد سطرت هذه الأحداث جميعاً بتفصيل عظيم وفى شىء كثير من الجمال الجذاب فى أول كتاب تاريخى مدون ، وهو تاريخ هيرودوت . ولد هيرودوت حوالى ٤٨٤ ق . م فى مدينة هاليكارناسوس الأيونية بآسيا الصغرى ، فجعل يزور بابل ومصر التماسا للتفاصيل المضبوطة والمشاهدات الصحيحة . وهوت فارس منذ معركة ميكالى فى بحر من الفوضى والخلاف على العرش : فاغتيل اجزرسيس فى ٤٦٥ ق . م ، وشبت الثورات فى مصر وسوريا وبلاد الميديين، فقضت على النظام الذى استتب أمداً وجيزاً على يد تلك المملكة الجبارة . وتاريخ هيرودوت يحاول أن يؤكد ضعف فارس ، والواقع أن هذا التاريخ ضرب مما قد نسميه اليوم باسم الدعاية ــ فهو دعوة لليونانيين إلى الاتحاد والقضاء على فارس ، وإن هيرودوت ليجعل من أرستاجوراس إحدى الشخصيات المذكورة فى كتابه داعية يذهب إلى الإسبرطيين بخريطة للعالم المعروف ويقول لهم :

« ليس هؤلاء البرابرة شجعانا فى القتال ، وأنتم من جهة أخرى بلغتم اليوم أقصى المهارة فى الحرب .. وليس ثم شعب آخر فى العالم يملك ما يملكون ؛ من ذهب وفضة وبرونز وثياب موشاة وحيوان وعبيد ، وربما أحرزتم كل ذلك لأنفسكم إن أردتم ذلك حقا .. » .

الفصل الخامس والعشرون

بلاد الإغريق إبان مجدها

كان القرن ونصف القرن اللذان أعقبا هزيمة فارس عصر عظمة الحضارة اليونانية وجلالها . أجل إنه شمل بلاد الإغريق تمزق فى صراع على السطوة والعزة استيأست فيه كل من أثينا وإسبارطة ودويلات أخرى (وهى حرب البيلوبونيز ٤٣١ — ٤٠٤ م) وأنه حدث فى ٣٣٨ ق . م أن أصبح القدونيون بالفعل سادة لبلاد الإغريق ؛ ومع ذلك فإن الفكر الإغريقى وبواعث الخلق والابتكار ودوافع الفن فيهم سمت فى تلك الفترة إلى مستويات رفيعة جعلت ما أنجزوه فيها من عظائم الأعمال نبراسا تستهدى به البشرية على كر التاريخ كله .

وكانت أثينا الرأس المفكر والمركز الأساسى لذلك النشاط العقلى . وذلك أن أثينا قضت ثلاثين عاما أو تزيد (٤٦٦ — ٤٢٨ ق . م) تحت سيطرة رجل قوى الشكيمة حر الفكر سمح العقل ، هو بركليس ، الذى نصب نفسه لإعادة بناء المدينة بعد الحريق الذى أنزله بها الفرس . والآثار الجميلة التى لا تزال تملأ أرجاء أثينا إلى اليوم بالمجد والجلال تعود بوجه خاص إلى ذلك الجهد العظيم . والواقع أن بركليس لم يقتصر على إعادة بناء أثينا من الناحية المادية فقط ، بل أعاد بناءها من الناحية الفكرية أيضا . فلم يكتف بركليس بأن يجمع حوله المعماريين والمثالين وحدهم ، بل حشد أيضا الشعراء والمؤلفين الدراميين والفلاسفة والمعلمين . وفى عهده جاء هيرودوت إلى أثينا ليتلو تاريخه على مسامع الناس (٤٣٨ ق . م) كما جاء أناجزاجوراس إليها يحمل بدايات وصف علمى للشمس والنجوم . وفيها نهض إيسكيلوس وسوفوكليس ويوريبيدس الواحد منهم بعد الآخر بالدراما (المسرحية) الإغريقية إلى أعلى ذرا الرفعة والجمال .

وقد دفع بركليس حياة أثينا الذهنية دفعة ظلت حية بعد وفاته ، وذلك رغم أن السلام ببلاد الإغريق كانت تعكره وقتئذ حرب البيلوبونيز ، وأن كفاحا قتالا طويلا على السيادة بالبلاد قد اندلعت شرارته . والحق إنه يلوح أن تلبد الأفق السياسى بالغيوم ظل إلى حين يعمل على شحذ أذهان الناس لا تثبيطها .

وقبل عهد بركليس بزمن طويل كان جو الحرية العجيب الذى تستمتع به النظم الإغريقية يضفى أهمية كبرى على المهارة فى المناقشة والجدال . إذ لم يكن البت فى الأمور حقا للملك ولا كاهن ، بل كان بيد جمعيات الشعب أو الزعماء . ومن ثم غدت الفصاحة والاقتدار فى الجدل مزايا مرغوبة مطلوبة . ونشأت طبقة من المعلمين ، هم السفسطائيون الذين تعهدوا بإذكاء مواهب الشباب فى هذه الفنون . بيد أن المرء لا يستطيع أن يفكر دون مادة لفكره ، ومن ثم جاءت المعرفة فى أعقاب فنون الكلام . وكان من الطبيعى جدا أن يؤدى نشاط هؤلاء السفسطائية ومنافساتهم إلى وضع الأسلوب فى بوتقة الامتحان القاسى ، هو ومناهج الفكر وصحة الجدل . وعند ما مات بركليس كان شخص يدعى سقراط قد أخذ يبرز كناقد قدير للجدل الردىء — ولا تنسى أن الشىء الكثير من تعاليم السفسطائية كان جدلا من النوع الردىء . واجتمعت حول سقراط طائفة من الشبان الأذكياء . وانتهى الأمر بإعدام سقراط بتهمة تكدير عقول الناس (٣٩٩ ق . م) ، فحكم عليه بالموت بالطريقة الكريمة الوقورة التى كانت تتبعها أثينا فى ذلك الزمان ، بأن يتناول فى منزله الخاص وبين أصدقائه جرعة سامة من الشوكران ، بيد أن تكدير عقول الناس ظل قائما على الرغم من تنفيذ الحكم فيه . وواصل تلاميذه الشبان أداء رسالته .

وكان أفلاطون (٤٢٧ — ٣٤٧ ق . م) من أعظم هؤلاء الشبان ، فشرع من فوره يعلم الفلسفة فى حديقة الأكاديمية . وينقسم تعليمه إلى شعبتين رئيسيتين :

(ا) اختبار أسس التفكير الإنسانى ومناهجه .

(ب) البحث فى النظم السياسية .

وهو أول من كتب كتابا فى اليوتوبيا (الطوبى) ، أى رسم خطة لمجتمع يختلف عن أى مجتمع قائم ويكون أفضل منه ، وذلك أمر ينم عن جرأة ليس لها قبل ذلك من ضريب فى العقل الإنسانى الذى ظل حتى ذلك الحين يقبل التقاليد الاجتماعية والعرف المألوف ولا يكاد يقلب فيهما فكرا أو يبحثهما بسؤال واحد . قال أفلاطون للانسانية بصريح العبارة :

« إن معظم الأدواء الاجتماعية والسياسية التى منها تقاسون إنما هى أمور يسهل

عليكم التصرف فيها ، لو أنكم أوتيتم الإرادة والشجاعة اللازمتين لتغييرها . فأنتم تستطيعون أن تعيشوا بطريقة أخرى أكثر حكمة إن آثرتم أن تقتلوا الأمر تفكيراً وبحثا وتكتشفوا بالدراسة كنهه ، فأنتم لا تشعرون بما تملكون من قوة » . ولاشك أن ذلك تعليم راق يدعو العقل إلى المخاطرة والمغامرة ، وأنه لم يتغلغل بعد بصورة عامة فى فطنة جنسنا البشرى ولا بد لها من تشربه . ومن أول مؤلفاته كتاب « الجمهورية » وهو كتاب يتخيل قيام حكومة أرستقراطية شيوعية ؛ فأما كتابه الأخير الذى لم يتمه فهو كتاب « القوانين » ، وهو يرسم خطة لتنظيم دولة مثالية (يوتوبية) مماثلة لتلك.

وجاء أرسطو الذى كان تلميذاً لأفلاطون فواصل بعدوفاة أستاذه نقدمناهج التفكير وأساليب الحكم وكان يعلم فىالليسيوم . وفد أرسطاليس على أثينا من مدينة اسطاجيرا بمقدونيا ، وكان أبوه طبيباً لبلاط العاهل المقدونى ، وقضى أرسططاليس بعض الزمن معلما للاسكندر ابن الملك الذى قدر له أن ينجز أعمالا عظيمة جداً سنتكلم عنهاقريبا وقد أدت جهود أرسطو فى مضمار مناهج التفكير وأساليبه إلى رفع علم المنطق إلى مستوى ظل ملازما له مدة ألف وخمسمائة من السنين أو تزيد ، أى حتى عاد رجال العلم فى العصور الوسطى إلى تناول المسائل العتيقة من جديد ، لم ينشىء أية مدينة فاضلة (يوتوبيا) ، ذلك أن أفلاطون كان يرى أن الإنسان يستطيع أن يتصرف فى مصائره؛ ولكن أرسطو كان يدرك أن الإنسان لا بد له قبل ذلك من قدر أعظم من المعرفة ، قدر من المعرفة الصحية المحققة أعظم كثيرا مما يملك ، ومن ثم شرع أرسطو يجمع تلك المجموعة المنظمة من المعرفة التى نسميها اليوم باسم «العلم» ، فأرسل المستكشفين ليجمعوا له الحقائق ، وهو أبو التاريخ الطبيعى ، وهو المؤسس لعلم السياسة ، وقام تلاميذ فى الليسيوم بفحص دساتير ١٥٨ دولة مختلفة ومقارنتها بعضها ببعض .

فنحن نجد هنا وفى القرن الرابع ق . م قوما ذوى تفكير عصرى أو يكاد ، لقد ولت طرائق الفكر البدائى الشبيهة بطرائق الأطفال والأحلام ، وحل محلها تناول مشكلات الحياة بطريقة منظمة ونقادة، وهنا أيضاً بهمل تماما كل لجوء إلى الرمزية وكل التخيلات السحرية البشعة الدائرة حول الآلهة البشعة والوحوش المعبودة ، كما تلغى جميع المحظورات (التابوهات) والمخاوف والقيود ، التى ظلت تكبل حتى آنذاك تفكير الإنسان ، لقد ابتدأ التفكير الحر المضبوط المنظم ، إن الذهن الجديد الناشط غير المكبل بالقيود لهؤلاء الوافدين حديثاً من الغابات الشمالية ، قد ألقى بنفسه فى صميم خفايا المعبد وسمح لضوء النهار بالنفاد إلى غيابتها .

الفصل السادس والعشرون

إمبراطورية الإسكندر الأكبر

ظلت حرب البيلوبونيز تبدد قوى بلاد الإغريق من ٤٣١ إلى ٤٠٤ ق . م وفى نفس الحين كانت مقدونيا تنهض تدريجيا ، وهى قطر يقع إلى الشمال من بلاد الإغريق ويرتبط بها ببعض صلات القربى والمشابهة ، وكان المقدونيون ينطقون بلسان وثيق القرابة باللسان الإغريقى ، وكثيرا ما اشترك المتبارون المقدونيون فى الألعاب الأولمبية، وفى ٣٥٩ ق . م تولى عرش ذلك القطر الصغير رجل ذو كفايات ومطامع عظيمة جدا هو فيليب المقدونى ، وقد عاش فيليب شطرا من أيامه ببلاد الإغريق ، وكان فيها رهينة ؛ وتلقى تعليما إغريقيا بحتا ، ولعله كان ملما بآراء هيرودوت ، التى طورها ونماها الفيلسوف إيزوقراطيس ، والتى تقول بإمكان اضطلاع بلاد الإغريق — إذا اتحدت كلها — بفتح آسيا .

بدأ فيليب بتوسيع رقعة مملكته وتنظيمها وإعادة تكوين جيشه ، فقد مضت ألف سنة قبل ذلك الأوان ظلت فى أثنائها العجلة التى تقوم بالهجوم، هى العامل الحاسم فى المعارك ، وذلك عدا الجنود المشاة المتراصة فى القتال ، وكان الفرسان يقاتلون أيضا ولكن بوصفهم سربا من المناوشين يعملون فرادى ودون نظام ، ولكن فيليب جعل جنده المشاة يهاجمون فى كتلة كثيفة متراصة تراصا شديدا ، هى الفيلق المقدونى ، كما درب وجهاء قومه الراكبة (وهم الفرسان أو الرفاق) على القتال فى تشكيلات ، وبذلك اخترع نظام الخيالة .

ومنذ ذلك الحين أصبح هجوم الخيالة أهم الحركات فى معظم معاركه ومعارك ابنه لإسكندر ، فكان الفيلق المقدونى يصد مشاة العدو على حين كانت الخيالة تجتاح فرسان العدو فى الجناحين ثم تنثال على جانب مشاته ومؤخرتهم ، وكانت العجلات الحربية تصبح عاجزة بما يلقيه الرماة على خيولها من سهام .

وبهذا الجيش الجديد اخترق فيليب تساليا ومد حدوده إلى بلاد الإغريق ؛ حتى

إذا خاض معركة خيرونيا (٣٣٨ ق . م) مع أثينا وحلفائها ، أصبحت بلاد الإغريق كلها خاضعة له ، وبذا أخذ حلم هيرودوت يؤتى ثماره فى آخر الأمر ، واجتمع مؤتمر من جميع دول المدن الإغريقية فعين فيليب قائداً عاما لاتحاد مقدونى إغريقى ضد فارس ؛ وفى ٣٣٦ ق . م عبرت فرقة الحرس الأمامى البحر إلى آسيا لتبدأ هذه المغامرة التى طال التفكير فيها ، ولكن الملك لم يلحق ألبتة ذلك الحرس ، لأنه اغتيل ؛ وكان ذلك فيما يعتقده بعضهم بتحريض من زوجته الملكة أوليمبياس أم الإسكندر . وذلك لتوقد نفسها بالغيرة لأن فيليب تزوج من أخرى .

بيد أن فيليب عنى عناية فائقة بتربية ولده . فلم يكتف بأن اتخذ من أرسطاليس أعظم فلاسفة عصره معلماً للغلام الصغير ، بل أشرك الصبى أيضاً فى آرائه ودربه تدريباً عسكريا تاما ، فجعل الإسكندر قائداً للخيالة فى معركة خيرونيا آنفة الذكر وهو بعد فى الثامنة عشرة من عمره ، وبذا تسنى لذلك الشاب الذى لم يزد عمره على العشرين ، يوم توليته العرش ، أن يتولى أعباء أبيه على الفور وأن يضطلع بالمغامرة الفارسية بنجاح .

ولكنه قضى سنتين كاملتين فى تثبيت أقدامه فى مقدونيا وبلاد الإغريق ، قضاها فى إخماد ما شب ضده من الثورات ، ثم عبر البحر بجيشه إلى آسيا فى ٣٣٤ ق . م وهزم جيشاً فارسياً لا يكبر جيشه كثيرا فى معركة جرانيكوس ، واستولى على عدد من المدن فى آسيا الصغرى ؛ لزم الإسكندر ساحل البحر ، وكان من الضرورى عليه أن يخضع كل المدن الساحلية كلما تقدم فى السير وأن يترك بها الحاميات ، وذلك لأن الفرس كانوا يسيطرون على أساطيل صور وصيدا ، وبذا كانت لهم السيادة البحرية . فلو أنه ترك وراءه ميناء معاديا دون حامية تحرسه ، لجاز أن ينزل به الفرس قواتهم للاغارة على مواصلاته وقطع خط رجعته . والتقى قرب إسوس (٣٣٣ ق م) بجمع هائل مختلط تحت قيادة دارا الثالث وهزمه هزيمة ساحقة .

وكان ذلك الجيش الهائل — شأن جيش إجزرسيس الذى عبر الدردنيل قبل ذلك بقرن ونصف — جمعاً من المجندين غير متناسق ولا مترابط ، يبهظه حشد كبير من موظفى البلاط فضلا عن حريم دارا وكثير ممن يتعقبون المعسكرات التماسا للرزق ، وسلمت صيدا للاسكندر ، ولكن صور قاومت بعناد ، وأخيرا فتحت تلك المدينة الكبيرة عنوة وانتهبت ثم دمرت ، وفتحت غزة أيضا عنوة ، وعند قرب نهاية ٣٣٢ ق . م دخل الفاتح مصر واستولى من الفرس على مقاليد حكمها .

وبنى الإسكندر مدينتى الإسكندرونة بالشام ، والإسكندرية بمصر فى موقعين يمكن بلوغهما من البر .وبذا تصبحان غير قادرتين على التمرد عليه. وإلى هذين المرفأين حولت تجارة المدن الفينيقية . وهنا يختفى من التاريخ على حين بغتة فينيقيو الحوض الغربى للبحر المتوسط — وبنفس الطريقة الفجائية يظهر نهود الإسكندرية والمدن التجارية الأخرى التى شيدها الإسكندر .

وفى ٣٣١ ق . م تقدم الإسكندر من مصر بجيشه إلى بابل ، كما فعل من قبله تحوتمس ورمسيس ونخاو . بيد أنه سار بطريق صور . وعند أربيلا (إربل) بالقرب من أنقاض نينوى التى كانت قد عفى عليها آنذاك النسيان ، التقى بدارا فى معركة حاسمة . وباءت هجمة العجلات الفارسية بالفشل ، وحمل الخيالة القدونيون على ذلك الجيش العظيم المخلط حملة بددت شمله ، وأحرز الفيلق بقية النصر . وتقهقر دارا بجيشه . ولم يحاول مقاومة المغير مرة أخرى ، بل فر شمالا إلى إقليم الميديين .

وواصل الإسكندر زحفه على بابل . وكانت لا تزال بلدا ثريا هاما ، ثم إلى سوسا (سوس) وبرسيبوليس . وهناك أقام حفلا أديرت فيه الخمور ثم أمر فى أعقابه بحرق قصر دارا ملك الملوك .

وما لبث الإسكندر بعد ذلك أن جعل من آسيا الوسطى ميدانا عسكريا لعرض جيشه على الأنظار ، وانطلق به إلى أقصى تخوم الإمبراطورية الفارسية ، متجهاً بادىء الأمر نحو الشمال ، وتعقب الإسكندر دارا ، حتى أدركه عند الفجر وهو يلفظ فى عربته آخر أنفاسه ، بعد أن قتله شعبه ، وكان لا يزال على قيد الحياة عند ما وصل إليه جند المقدمة الإغريقية .

وجاء الإسكندر فوجده قد مات ، وسار الإسكندر بمحاذاة بحر قزوين ، وتوغل فى جبال التركستان الغربية ثم انحدر إلى بلاد الهند بطريق هيرات (التى أسسها) وكابول وممر خيبر ، والتحم فى معركة عظيمة على نهر السند مع ملك هندى اسمه بوروس ، وهنا التقت الجنود المقدونية بالفيلة لأول مرة ودحرتها ، وانتهى به الأمر إلى أن ابتنى لنفسه سفناً انحدر بها إلى مصب السند ، ثم عاد سيراً على الأقدام بحذاء ساحل بلوخستان ، حتى وصل إلى سوس مرة ثانية فى ٣٢٤ ق . م بعد غيبة دامت ست سنوات ، وعند ذلك أخذ يستعد لتنظيم إمبراطوريته العظيمة وشد ما بين أجزائها من روابط ، فحاول أن يفوز بمحبة رعاياه الجدد ، بأن اتخذ ثياب العاهل الفارسى وتاجه ،

فأثار ذلك غيرة قواده المقدونيين الذين لقي منهم شراً كبيراً ، ثم عقد قران كثير من من الضباط المقدونيين بنساء فارسيات وبابليات ؛ وهو ما يسمى « بزواج الشرق والغرب » ، على أنه لم يعمر لينفذ الترابط الذى أعد عدته ، إذ انتابته حمى بعد وليمة شراب أقامها فى بابل فمات فى ٣٢٣ ق . م .

وسرعان ما تمزقت إربا تلك الرقعة الهائلة من الأرض ، وقبض سلوقوس أحد قواده على معظم الإمبراطورية الفارسية من السند إلى إفيسوس ؛ واستولى على مصر قائد آخر هو بطلميوس ، كما احتاز مقدونيا قائد آخر اسمه أنتيجوناس ، أما بقية الإمبراطورية فإنها رزحت فى غمرات الفوضى وعدم الاستقرار ، وجعلت تنتقل إلى أيدى مجموعة متعاقبة من المغامرين المحليين . وابتدأت غارات البرابرة من الشمال وأخذت تتسع مجالا وتزداد حدة ، حتى انتهى الأمر كما سنخبرك فيما بعد ، بظهور قوة جديدة هى قوة الجمهورية الرومانية التى جاءت من الغرب وأخذت تخضع الجزء منها تلو الجزء ، إلى أن ربطت بينها جميعاً فى إمبراطورية جديدة أطول عمرا .

الفصل السابع والعشرون

متحف الإسكندرية ومكتبتها

كان الإغريق قبل عهد الإسكندر تجارا وفنانين وموظفين وجنوداً مرتزقة ، ينتشرون فى معظم الممتلكات الفارسية . وقد حدث فى أثناء المنازعات التى قامت حول العرش بعد وفاة إجزرسيس ، أن فئة من مرتزقة الإغريق عدتها عشرة آلاف جندى لعبت دوراً تحت قيادة أكسينوفون (زينوفون) ، ولهذا القائد كتاب أسماه « تقهقر الآلاف العشرة » وهو من أوائل قصص الحروب التى كتبها قائد فى أثناء توليه القيادة — يصف عودتهم من بابل إلى بلاد الإغريق الآسيوية . على أن غزوات الإسكندر وتقسيم إمبراطوريته القصيرة الأجل بين قواده ، زادت كثيرا من انتشار الإغريق ولغتهم وطرائقهم وثقافتهم فى أرجاء العالم القديم ؛ فقد وجدت فى مواطن نائية كبلاد آسيا الوسطى وشمال غربى الهند آثار تنم عن انتشار هؤلاء الإغريق بتلك الأصقاع . وكان تأثيرهم فى تطور الفن الهندى عميقاً .

ظلت أثينا قرونا عديدة محتفظة بتفوقها كمركز للفنون والثقافة ؛ وبقيت مدارسها حية حتى ٥٢٩ م ، أى أنها عاشت ما يقارب الألف سنة ؛ ولكن زعامة النشاط الفكرى فى العالم ما لبثت أن انتقلت عبر البحر المتوسط إلى الإسكندرية ، وهى المدينة التجارية الجديدة التى أسسها الإسكندر . وهنا كان القائد المقدونى بطلميوس قد أصبح فرعونا على مصر ، وجعل من حوله بلاطاً لغته الرسمية هى اليونانية . وكان صديقاً حميماً للاسكندر قبل توليه العرش ، كما كان متعمقاً فى دراسة آراء أرسطو ، فأخذ يعمل على تنظيم المعرفة والبحث بهمة واقتدار عظيمين . كما أنه ألف كتابا عن حملات الإسكندر ، لم يعثر عليه لسوء الحظ .

وكان الإسكندر قد رصد مبالغ هائلة من المال للانفاق منها على أبحاث أرسطو ، ولكن بطلميوس الأول كان أول من حبس على العلم منحا وهبات مستديمة . فأقام

بالإسكندرية مؤسسة هى متحف الإسكندرية الذى خصص بصفة رسمية لربات الفنون Muses ، وانقضى جيلان أوثلاثة كانت الأبحاث العلمية التى تجرى فى أثنائها بالإسكندرية ممتازة الجودة ، وظهرت هناك مجموعة خارقة من رواد العلم وعلماء الطبيعة ، من ألمع نجومها إقليدس وإراتو سثنيز الذى قاس حجم الأرض ووصل فى تقدير قطرها إلى نتيجة تقل عن قطرها الحقيقى بخمسين ميلا ، وأبولونيوس الذى ألف فى « القطاعات المخروطية » وهيبارخوس الذى رسم أول خريطة للسماء وصنف أقدم فهرس للنجوم ، وهيرون مخترع أول آلة بخارية ، وجاء أرشيدس من سيراقوزه إلى الإسكندرية ابتغاء الدراسة والبحث وكان دائب الاتصال بالمتحف ، وكان هيروفيلوس من أعظم علماء التشريح لدى الإغريق ويقال إنه مارس تشريح الأحياء .

وانقضى جيل أو ما يقارب ذلك حكم فى أثنائه بطلميوس الأول والثانى ، وتأججت فيه المعرفة والاكتشاف بالإسكندرية جذوة لم يقدر للعالم أن يشهد لها ضريبا حتى القرن السادس عشر الميلادى ، بيد أن تلك الحركة الفكرية لم تعمر طويلا ، وربما اجتمعت على اضمحلالها أسباب عدة ، وعلى رأسها فيما يرى المرحوم الأستاذ ماهافى أن المتحف كان كلية ملكية ، وأن فرعون هو الذى يعين جميع أساتذتها ومساعديهم ويدفع لهم أجورهم ، ولم يك فى ذلك أدنى ضير طالما كان ذلك الفرعون هو بطلميوس الأول ، تلميذ أرسطو وصديقه .

ولكن أسرة البطالمة تمصرت بمرور الزمن ، ووقعت تحت سلطان كهنة مصر والتطورات الدينية المصرية ، وكفوا عن موالاة ما كان يجرى من عمل ، ولم يلبث إشرافهم عليه أن خنق روح البحث والتقصى خنقا تاما ، لذلك لم ينتج المتحف بعد القرن الأول من نشاطه إلا القليل من الإنتاج الجيد .

ولم يقتصر بطلميوس الأول على محاولة تنظيم الكشف عن ينابيع جديدة للمعرفة متوخيا فى ذلك روحا عصرية خالصة ، بل حاول كذلك أن ينشئ مكتبة الإسكندرية لتكون دارا موسوعية تجمع كل كنوز الحكمة . لم تكن المكتبة مجرد مستودع للكتب ، بل كانت أيضا مؤسسة تتوفر على نسخ الكتب وبيعها ، فقد جرد حشد كبير من النساخ للعمل المتواصل مما أدى إلى مضاعفة إعداد الكتب ونسخها .

وعلى ذلك فإننا نجد فى هذه المؤسسة لأول مرة البداية الأولى المحددة للحركة

الفكرية التى نعيش فيها اليوم ؛ وفيها نجد المعرفة تتجمع وتوزع بطريقة منتظمة . فإنشاء هذا المتحف وهذه المكتبة يعد إيذانا ببدء إحدى الحقب العظيمة فى تاريخ العالم . فهى البداية الحقة للتاريخ الحديث .

وكان يعترض طريق البحث العلمى ونشر العلم بين الناس عوائق خطيرة . منها تلك الهوة الاجتماعية السحيقة التى تفصل الفيلسوف — وهو سيد مهذب — عن التاجر والصانع . كان صناع الزجاج والمعادن فى تلك الأيام كثيرى العدد ، ولكن لم يكن بينهم وبين المفكرين أى اتصال عقلى . فكان صانع الزجاج يصنع أجمل الخرز والقوارير وغيرها ألوانا ، بيد أنه لم يصنع ألبتة قنينة فلورنسية ولا عدسة من العدسات . ولا يبدو أن الزجاج الصافى لقى منه اهتماما . وكان صناع المعادن يصنعون الأسلحة والمجوهرات ولكن أحدا منهم لم يصنع أبداً ميزاناً كيميائياً وفى نفس الوقت الذى أدام فيه الفلاسفة التأمل فى ترفع حول الذرات وطبيعة الأشياء ، ولم تكن لهم خبرة عملية بالميناء ولا الأصباغ ولا أشربة توليد الحب إلى غير ذلك . لم يكن الواحد منهم يعنى بالمواد الطبيعية . ولذا فإن الإسكندرية لم تنتج يوم سنحت فرصتها الوجيزة ميكروسكوبا ولا كيمياء . ومع أن هيرون اخترع آلة بخارية ، فإنها لم تستعمل قط فى رفع الماء أو فى دفع قارب أو فى عمل أى شىء نافع . وقل أن وجدت للعلم تطبيقات عملية اللهم إلا فى مضمار الطب ، كما أن تقدم العلوم لم يكن يحفزه ويحافظ عليه اهتمام القوم بالتطبيقات العملية ولا ما تحدثه تلك التطبيقات من هزة فى النفوس لذا لم يكن هناك شىء يدعو إلى الاستمرار فى العمل عند ما ولى بطلميوس الأول والثانى وزال أريحهما للاستطلاع . ولذلك أيضاً دونت مستكشفات المتحف فى مخطوطات خفية غامضة ، ولم تصل قط إلى الناس كافة ، حتى بعث حب الاستطلاع العلمى فى عصر النهضة .

ولم تنتج المكتبة — من ناحية أخرى — أية تحسينات فى صناعة الكتب . ولم يكن ذلك العالم القديم يصنع من عجينة الخرق ورقا له حجوم معروفة . ذلك أن الورق اختراع صينى لم يصل إلى العالم الغربى إلا فى القرن التاسع الميلادى . وأما المواد الوحيدة المستعملة فى صنع الكتب فهى الرق وسلخات (شقائق) قصب البردى الموصولة حروفها بعضها ببعض . وكانت هذه الشقائق تجعل فى صورة ملفات . من أعسر الأمور فتحها ولفها للاطلاع عليها ، كما أنها متعبة جداً لكل باحث شاء الرجوع إليها .

تلك هى الموانع التى حالت دون نشأة الكتاب المطبوع ذى الصفحات . أما الطباعة نفسها فالظاهر أنها كانت معروفة فى العالم ، منذ زمن سحيق لعله العصر الحجرى القديم ؛ فقد وجدت الأختام فى بلاد سومر العتيقة ، بيد أنه لم يكن لطبع الكتب أية ثمرة مالم يكثر الورق ، هذا عدا أن الطباعة تنطوى على تقدم لم يكن بد من أن يلقى المقاومة من نقابات العمال رعاية لمصالح النساخين المستخدمين فى صناعة النسخ . وكانت الإسكندرية تنتج كتبا وفيرة ولكنها ليست بالرخيصة ، كما أنها لم تنشر المعرفة بتاتا بين سكان العالم القديم إلا فى مستوى الطبقة الموسرة ذات النفوذ .

هكذا حدث أن شعلة التقدم الفكرى لم تتجاوز قط دائرة ضيقة من الناس المتصلين بمجموعة الفلاسفة الذين جمعهم بطلميوس الأول والثانى . كان مثلها كمثل نور فى مصباح معتم يحجب النور دون العالم كافة . وقد تكون الشعلة فى الداخل وهاجة تخطف الأبصار ، ولكنها مع ذلك مستورة لا تراها الأنظار . أما بقية أصقاع العالم فإنها سارت طرائقها القديمة دون أن تدرى أنه قد بذرت بذرة المعرفة العلمية التى ستحدث فيه انقلابا تاما فى يوم من الأيام وسرعان ما غشيت الدنيا سحابة حالكة من التعصب الدينى وغمرت كل أرجائها حتى الإسكندرية نفسها . ومر على تلك اللحظة من التاريخ ألف سنة من الظلام الدامس ، الذى غطى على البذرة التى بذرها أرسطو . ثم اهتزت وأخذت تنبت . وما هى إلا بضع قرون حتى غدت تلك البذرة دوحة المعرفة الفارعة وسدرة الأفكار الخالصة التى تغير اليوم وجه الحياة البشرية بأجمعها .

لم تكن الإسكندرية هى المركز الوحيد لنشاط اليونان الفكرى فى القرن الثالث ق . م . فإن بين الحطام المتداعية المتخلفة عن إمبراطورية الإسكندر القصيرة الأمد ، مدنا أخرى كثيرة سطعت فيها حياة فكرية وقادة . فهناك مثلا مدينة سيراقوزه الإغريقية بصقلية ، التى ازدهر بها الفكر والعلم قرنين ؛ وثمة برجامة (برجاموم) بآسيا الصغرى ، التى كان لها هى أيضاً مكتبة عظيمة . بيد أن هذا العالم الهلينى الوقاد الذكاء أصيب آنذاك بغارات أهل الشمال . فإن همجا نورديين جداً هم «الغاليون» ، كانوا يسيرون فى نفس الطرق التى اخترقها يوما ما أسلاف الإغريق والفريجيين والمقدونيين . كانوا يغيرون ويحطمون ويدمرون . وجاء فى أعقاب الغاليين شعب فاتح جديد من إيطاليا هو الرومان ، الذين قاموا بالتدريج بإخضاع جميع النصف الغربى من مملكة دارا والإسكندر الهائلة . كانوا قوما ذوى كفاءة واقتدار ، ولكنهم

محرومون من نعمة الخيال ، فهم يؤثرون القانون والمنفعة على كل من العلم والفن .
وثمة غزاة جدد كانوا ينحدرون من آسيا الوسطى ليدمروا الإمبراطورية السلوقية ويخضعوها وليقطعوا مرة ثانية ما قام بين العالم الغربى وبلاد الهند من اتصال ، وكان هؤلاء هم الأشغانيون (البارثيون) ، وهم أرهاط من رماة القسى الراكبين ، فعاملوا إمبراطورية برسيبوليس وسوس الإغريقية الفارسية فى القرن الثالث ق . م نفس المعاملة التى عاملها بها الميديون والفرس فى القرن السابع والسادس . وكان هناك عندئذ أقوام آخرون من الرحل يأتون هم أيضاً من الشمال الشرقى ، ولم يكونوا قوما شقرا ولا نورديين ولا ناطقين بالآرية ، بل كانوا ذوى جلود صفراء وشعور سوداء ولهم لغة مغولية ، على أننا سنزيدك بهم بيانا فى فصل تال .

الفصل الثامن والعشرون

حياة جوتاما بوذا

الآن ينبغى لنا أن نرجع بقصتنا ثلاثة قرون إلى الوراء لنحدثك عن معلم عظيم أوشك أن يحدث انقلابا ثوريا فى فكر آسيا بأجمعها ومشاعرها الدينية . ذلك المعلم هو جوتاما بوذا ، الذى كان يعلم تلاميذه فى بنارس بالهند فى نفس الوقت الذى كان أشعيا يتنبأ فيه بين اليهود فى بابل ، والذى كان هيراقليتوس يواصل فيه تأملاته وأبحاثه الفكرية فى طبيعة الأشياء بمدينة إفيسوس . كان هؤلاء الناس جميعاً يعيشون فى العالم فى وقت واحد فى القرن السادس ق . م . دون أن يدرى أحد منهم بوجود الآخرين .

والحق أن هذا القرن السادس ق . م من أجدر عصور التاريخ بالملاحظة . ففى كل مكان كانت عقول الناس تظهر جرأة جديدة ، وذلك لأن هذه الحالة تفشت فى بلاد الصين أيضاً كما سندلى إليك فما بعد وفى كل مكان ، كان الناس يستيقظون مما ران عليهم من تقاليد الملكيات والكهان والقرابين ويسألون أشد الأسئلة تعمقا ونفاذا . وكأنما الجنس البشرى قد بلغ مرحلة الرشد بعد طفولة دامت عشرين ألف سنة .

ولا يزال تاريخ الهند الأول غامضا جدا . ففى زمن ما لعله يقارب عام ٢٠٠٠ ق.م هبط الهند من الشمال الغربى شعب ناطق بالآرية ، إما فى غزوة واحدة وإما فى سلسلة متعاقبة من الغزوات ، فاستطاع أن ينشر لغته وتقاليده فوق الشطر الأعظم من شمال الهند . وكان النوع الذى يتحدثون به من اللغة الآرية هوالفرع السنسكريتى . فوجدوا فى إقليم السند والكنج شعبا أسمر أرقى حضارة وأضعف إرادة . ولكن لا يلوح أنهم اختلطوا بهذا الشعب بالكثرة التى تخالط بها الإغريق والفرس . فظلوا عنه بمعزل . حتى إذا مرت الأيام أصبح ماضى الهند مرئيا للمؤرخ على غشاوة تغشيه ، وإذا بالمجتمع الهندى مقسم إلى طبقات كثيرة ، (مع عدد متغير من الأقسام الثانوية) ، لاتؤاكل بعضها بعضا ولاتتزاوج ولاتختلط اختلاطا حراً وإذا بهذا التقسيم الطبقى إلى طوائف يستمر

أمد التاريخ كله . وهــذا أمر من شأنه أن يجعل سكان الهند شيئا يخالف المجتمعـات الأوربية والمغولية البسيطة السهلة التزاوج ، فهم فى الحقيقة مجتمع مجتمعات .

وكان سيذاتا جوتاما أحد أبناء عائلة أرستقراطية تحكم مقاطعة صغيرة على منحدرات الهملايا . فتزوج وهو فى التاسعة عشرة من ابنة عم له جميـــلة ، وكان يصطاد ويلهو ويتجول فى عالمه المشمس المكون من الحدائق والأحراش وحقول الأرز المغمورة بالمياه ، وفيما هو ينعم بتلك الحياة حل به تذمر عظيم . كان ذلك هو شعور التعاسة الذى يحسه العقل الممتاز الذى يريد أن يعمل . ذلك أنه شعر أن الحياة التى يحياها لم تكن هى الحياة الحقة ، وأنه كان فى عطلة ــدامت أكثر مما ينبغى .

وتسلل إلى عقل جوتاما إحساس قوى بالمرض والفناء ، وبأن جميع أوان السعادة غير مأمونة وغير مرضيــة ، وبينما هو على تلك الحال التقى برجل من أولئك الزهاد المتجولين الذين يكثر وجودهم ببلاد الهند حتى قبل أيامه . كان هؤلاء الناس يتبعون فى عيشهم قواعد قاسية ، ويقضون شطرا طويلا من وقتهم فى التأمل والحوار الدينى ، وكان المفروض أنهم يتغلغلون وراء أعمق مافى الحياة من حقائق ، واستولت على جوتاما رغبة حارة فى احتذاء حذوهم .

وتقول القصة إنه كان يتفـكر فى هذا الأمر ، عندما بلغه أن زوجته وضعت بكـر أبنائه . فقال جوتاما « وتلك رابطة أخرى لا مفر من فصمها » .

عاد إلى القرية بين تهاليل أبناء عشيرته ومظاهر ابتهاجهم ، وأقيمت وليمة عظيمة ورقصت الراقصات احتفالا بميلاد هذه الصلة الجديدة ،ولـكن جوتاما استيقظ فى موهن الليل والألم الروحى العظيم يلذع فؤاده ، « وكأنه رجل أبلغ نبأ اشتعال النار فى منزله » فصمم على أن يهجر منذ تلك اللحظة حياته السعيدة التى لاهدف لها ، فتسلل إلى باب غرفة زوجته ، فرآها على نور قنديل زيت صغير وهى ترقد كالوردة الجميلة تحف بها باقات الزهور وبين ذراعيها طفله الرضيع ، عند ذلك شعر بحنين عظيم أن يحمل الطفل ويعانقه عناقا يكون هو الأول والأخير قبل الرحيل ، ولـكن خوفه من إيقاظ زوجته منعه من ذلك ، وأخيراً ولى ظهره وخرج إلى ضياء القمر الهندى الساطع وامتطى جواده وانطلق إلى العالم.

سار فى تلك الليلة شقة بعيدة ، حتى إذا أسفر الصبح توقف خارج أراضى عشيرته، وترجل على ضفة نهر رملية . وهناك قطع بسيفه ذوائبه المتهدلة ، وأماط عنه كل حلية وأرسلها مع حصانه وسيفه إلى منزله . ثم واصل سيره حتى التقى — للوقت — برجل فى أسمال وتبادل وإياه الثياب ، حتى إذا تم له بذلك تجريد نفسه من كل العوائق الدنيوية أصبح حرا فى متابعة بحثه وراء الحكمة . واتجه جنوبا إلى مثوى للنساك والمعلمين يقوم على طنف [1] بين التلال بجبال الفندهيا . وهناك كان يعيش عدد من الحكماء فى منطقة من الكهوف ، ويذهبون إلى المدينة طلباً لمستلزماتهم البسيطة ، ويدلون شفويا بما لديهم من المعرفة لكل من يعنى بالحضور إليهم وأصبح جوتاما ضليعاً بكل علوم ماوراء الطبيعة فى عصره . غير أن ذكاءه الوقاد لم يقنع بالحلول التى قدمت إليه

والعقل الهندى ميال منذ القدم إلى الاعتقاد بأن القوة والمعرفة يمكن الحصول عليهما بالزهادة المفرطة أى بالصوم وأرق الليل وتعذيب النفس ، وهنا وضع جوتاما هذه الفكرات فى بوتقة الاختبار ، فانطلق مع خمسة من رفاقه التلاميذ إلى الغابة، وهناك استسلم للصيام ورهيب التفكيرات . وطار صيته : « كرنين جرس عظيم معلق فى قبة السماوات » ، بيد أن ذلك لم يجتلب له أى شعور بأنه فاز بالحقيقة ، وبينما هو يسيرذات يوم ذهاباً وجيئة ، محاولا أن يفكر على الرغم مما هو عليه من وهن ، غاب عن وعيه فجأة . حتى إذا أفاق من غشيته ، تجلت أمام ناظريه سخافة استخدام هذه الطرق شبه السحرية للوصول إلى الحكمة .

فألقى الرعب فى أفئدة رفاقه بطلبه الطعام العادى ورفضه مواصلة تعذيب نفسه ، ذلك أنه تحقق أن خير الوسائل لبلوغ أية حقيقة هى العقل الجيد والتغذية فى جسم سليم. وكانت مثل تلك الفكرة غريبة غرابة مطلقة على أفكار البلاد والعصر . فهجره تلاميذه ، وذهبوا إلى بنارس فى حالة حزن وقنوط . وأخذ جوتاما يتجول بمفرده . . .

والعقل عندما يصطرع مع مشكلة عظيمة ومعقدة ،فإنه يتقدم فى سبيل الفوز خطوة فى إثر خطوة، دون أن يدرك إلاقليلا قدر المكاسب التى أحرزها ، وإذا هو يدرك نصره

---

(١) الطنف : ما نتأ من الجبل .

ويحققه على حين بغتة مع إحساس بالاستنارة المفاجئة . وهذا هو ماحدث لجوتاما . فإنه جلس يتناول طعامه فى ظل دوحة عظيمة إلى جوار أحد الأنهار ، وإذا بهذا الشعور بالرؤية الصافية يحل به . فلاح له أنه يروى الحياة نقية واضحة . ويقال إنه جلس طيلة نهاره وليله فى تفكير عميق ؛ ثم قام ليبلغ العالم رؤياه .

فذهب إلى بنارس وهناك جد فى البحث عن تلاميذه الذين هجروه حتى وجدهم ، وأقنعهم ثانية بتعاليمه الجديدة . فشادوا لأنفسهم فى حديقة الغزلان الملكية ببنارس أكواخا وأقاموا مدرسة وفد إليها كثيرون ممن كانوا يطلبون الحكمة .

وكانت نقطة البداية فى تعاليمه هى السؤال الذى وجهه لنفسه كشاب حالفه التوفيق: « لماذا لا أحس بسعادة تامة ؟ » وهو سؤال ينطوى على محاولة تعرف بواطن النفس. وهو سؤال يختلف اختلافا كبيراً فى النوع عن حب الاستطلاع الصريح المنطوى على نسيان الذات والموجه نحو العالم الخارجى — حب الاستطلاع الذى كان طاليس وهيراقليتوس يحاولان به تفهم مشكلات الكون ، كما يختلف كثيراً عما يعادل ذلك من نسيان للذات يتجلى فى صورة تحمل أعباء الالتزام الخلقى الذى كان أواخر الأنبيـاء يفرضونه فى العقل العبرانى فرضاً .

فالمعلم الهندى لم ينس « النفس » ، بل لقد ركز على النفس اهتمامه وحاول أن يدمرها . وعلم الناس أن كل مايقاسيه الفرد يعود إلى رغباته الشرهة . فحتى يخضع المرء تلهفاته الشخصية ، فحياته متاعب ونهايته شجن .

والتلهف على الحياة يتخذ أشكالا رئيسية ثلاثة كلهن شر . فأولها حب الشهوات والشراهة وجميع أنواع الإحساسات الجسدية ، وثانيها الرغبة فى الخلود الشخصى والأنانى ، وثالثها التهافت على النجاح الشخصى وحب الدنيا والشح وما إليه . ولابد من التغلب على أنواع هـــذه الرغبات التماسا للفرار من محن الحياة وأشجانها — فإذا تم قهرها واختفت النفس تماما ، بلغ المرء مرتبة « النرفانا » أى صفاء النفس وهى أعلى درجات الخير .

تلك خلاصة مذهبه . ولا شك فى أنه مذهب خفى جداً وميتافيزيقى ، وهو لا يكاد يدانى فى سهولة الفهم وصية الفلسفة الإغريقية التى تدعو الناس أن ينظروا ويعرفوا بلا

خوف وبالطريقة الصائبة ، ولا الوصية العبرانية الآمرة بخوف الله وإتيان البر ، كان تعلمها يعلو كثيراً على فهم تلاميذ جوتاما المتصلين به اتصالا مباشرا . فلا عجب إذن أنه ما كاد نفوذه الشخصى يزول حتى داخل المذهب الفساد والغلط ، وكان أهل الهند يعتقدون فى ذلك الزمان بأن الحكمة تهبط إلى الأرض على فترات طويلة وأنها تتجسد فى شخص مختار يسمى « البوذا » . وأعلن تلاميذ جوتاما أنه بوذا ، وأنه خاتم البوذوات ، وإن لم يقم أى دليل على أنه هو نفسه قبل اللقب ولم تكد تنقضى على وفاته فترة وجيزة ، حتى أخذت مجموعة ضخمة من الأساطير الخيالية تنتسج من حوله ، فإن من دأب القلب الإنسانى أن يفضل دائماً قصة تملؤه عجباً على جهد خلقى ومعنوى ، ولذا تحول جوتاما إلى أعجوبة مدهشة جدا .

ومع ذلك فإن العالم فاز بكسب جوهرى . فإن كانت «النرفانا» أعلى وأدق من أن يتسامى إليها خيال معظم الناس ، وإذا كانت دوافع العقل البشرى إلى نسج الأساطير أقوى من أن تقف فى سبيلها حياة جوتاما وما بها من الحقائق البسيطة ، فإن الناس كانوا يستطيعون على الأقل أن يدركوا شيئا من المقصود مما كان جوتاما يسميه باسم « الطريق ذى الشعب الثمانى » ، وهو الطريق الآرى أو النبيل فى الحياة . وهذا « الطريق » ينطوى على الإصرار على الاستقامة الذهنية ، وعلى الأهداف الصائبة والكلام الصائب وعلى السلوك الصائب والتعيش الشريف . وبفضله تم إنعاش الضمير وظهر اتجاه نحو الأهداف الكريمة المنطوية على نسيان الذات .

الفصل التاسع والعشرون

الملك آسوكا

انقضت بضعة أجيال على وفاة جوتاما، ولكن تلك التعاليم البوذية العالية النبيلة ــ أول التعاليم البسيطة القائلة بأن أعلى درجات الخير للانسان هى فى إخضاع النفس ــ لم يكتب لها إلا تقدم قليل نسبيا فى العالم. ثم ما لبثت تلك التعاليم أن استولت على لب ملك من أعظم الملوك الذين شهدهم العالم.

وقد سبق أن ذكرنا كيف أن الإسكندر الأكبر انحدر إلى بلاد الهند وقاتل ملكها «بوروس» على ضفاف نهر السند. ويروى مؤرخو الإغريق أن شخصا اسمه شاندراجوبتا موريا وفد على معسكر الإسكندر وحاول أن يقنعه بأن يتقدم حتى نهر الكنج ويفتح بلاد الهند جميعا، ولم يستطع الإسكندر أن يفعل ذلك لأن المقدونيين رفضوا أن يسيروا خطوة واحدة فى غمرات عالم مجهول، ثم تمكن شاندرا جوبتا فيما بعد (٣٢١ ق م) من الحصول على عون قبائل عديدة بمنطقة التلال وأن يحقق أحلامه دون مساعدة الإغريق. فأسس إمبراطورية فى شمال الهند، وسرعان ما تسنى له فى (٣٠٣ ق. م) أن يهاجم ممتلكات سلوقوس الأول بإقليم البنجاب وأن يزيل عن الهند آخر آثار الحكم الإغريقى، وبسط ابنه رقعة هذه الإمبراطورية الجديدة، ووجد حفيده «آسوكا» ــ وهو العاهل الذى نتكلم عنه الآن ــ نفسه فى ٢٦٤ ق م حاكما على الأقاليم الممتدة من أفغانستان إلى مدراس.

وكان آسوكا ميالا فى البداية إلى اتباع مثال أبيه وجده، وأن يتم فتح شبه الجزيرة الهندية. فغزا كالينجا (٢٥٥ ق. م)، وهى إقليم على ساحل مدراس الشرقى، وأوتى النصر فى عملياته الحربية، ولكن بلغ من اشمئزازه من قساوة الحروب وأهوالها أنه تخلى عنها ونبذها فكان بذلك نسيج وحده بين الفاتحين جميعا. وزهدت فيها نفسه تماما. وتبنى مذهب البوذية السلمى، ثم أعلن أن فتوحه ستكون منذ ذلك الحين فتوحا فى ميادين الدين.

وكان حكمه الذى دام ثمانية وعشرين عاما من أزهى فترات الهدوء الجميلة فى تاريخ البشرية المضطرب . فقام بحركة عظيمة لحفر الآبار بالهند ، ولزرع الأشجار للتظليل وأسس المستشفيات والحدائق العامة والبساتين التى تربى فيها الأعشاب الطبية . وأنشأ وزارة للعناية بأهالى الهند الأصليين وأجناسها الخاضعة . واتخذ العدة اللازمة لتعليم النساء . وخصص هبات خيرية هائلة لهيئات التعليم البوذية ، وحاول أن يبعثهم على نقد المولفات الدينية المتكدسة لديهم نقدا أحسن وأقوى أثرا . ذلك أن المفاسد والخزعبلات سرعان ما تجمعت حول التعاليم النقية البسيطة لذلك للعلم الهندى المعظم . وانطلقت البعوث الدينية من لدن آسوكا إلى كشمير وفارس وسيلان والإسكندرية .

ذلكم هو آسوكا ، أعظم الملوك كافة . كان سابقا لعصره بزمن بعيد جدا . ومن أسف أنه لم يخلف من ورائه أميرا ولا هيئة من الرجال تواصل جهوده ، لذا لم تكد تنقضى مائة عام على وفاته حتى صارت أيام حكمه العظيمة ذكرى مجيدة فى بلاد الهند التى عبثت بها أيدى التمزق والانحلال . لقد كانت طائفة الكهان البرهمانية ، وهى أعلى طوائف المجتمع الهندى وأكثرها امتيازات ، مناهضة على الدوام لتعاليم بوذا الصريحة الكريمة. فراحوا يقوضون على التدريج نفوذ البوذية فى البلاد ، واستردت الآلهة القديمة البشعة سلطانها ، هى والعقائد الهندوكية التى لا عداد لها . وأصبح نظام الطوائف أشد قوة وأعظم تعقيدا . وبعد قرون طويلة ازدهرت فيها البوذية والبرهمانية إحداهما إلى جوار الأخرى ، أخذت البوذية تضمحل ببطء ، وأخذت البرهمانية تحل محلها متخذة عددا كبيرا من الصور والأشكال . بيد أن البوذية انتشرت خارج حدود الهند بعيدا عن سلطان نظام الطوائف — حتى اجتذبت إليها بلاد الصين وسيام وبورما واليابان ، وهى بلاد لاتبرح البوذية سائدة فيها إلى اليوم .

الفصل الثلاثون

كونفوشيوس ولاهوتسى

بقى علينا الآن أن نحدثك عن رجلين عظيمين آخرين هما كونفوشيوس ولاهوتسى (لاوتسى) ، اللذان كانا يعيشان فى ذلك القرن المدهش الذى ابتدأ به رشد الإنسانية، وأعنى به القرن السادس ق . م .

ونحن فى كتابنا هذا لم ندل إلى الآن إلا بطرف يسير عن قصة بلاد الصين فى عهودها الأولى ولا يزال الغموض يغشى إلى اليوم ذلك التاريخ الباكر ، وإنا لنشخص الآن بأبصارنا إلى الباحثين وعلماء الآثار ببلاد الصين الحديثة التى تنشأ الآن نشأً جديدا راجين أن يميطوا اللثام عن ماضيهم بنفس الاستقصاء الذى كشف به اللثام عن ماضى أوربا إبان القرن الأخير .

نشأت أوائل الحضارات الصينية البدائية فى وديان الأنهار العظيمة منذ زمن سحيق جدا متفرعة عن الثقافة الشمسية الحجرية (الهليوليثية) الأولية . وكما حدث بمصر وسومر ، كانت لتلك الحضارات نفس الخصائص العامة التى اتسمت بها تلك الثقافة ، كما أنها تتركز حول المعابد التى كان الكهنة والملوك الكهان يتولون فيها تقديم القرابين الدموية الموسمية . ولابد أن الحياة فى هذه المدن كانت شبيهة جدا بالحياة المصرية والسومرية قبل ستة أو سبعة آلاف من السنين ، كما أنها شبيهة جدا بحياة المايا بأمريكا الوسطى قبل ألف عام .

فلئن كانت هناك فعلا قرابين إنسانية ، فقد حل مكانها من زمن بعيد القرابين الحيوانية قبل تنفس فجر التاريخ . كما أن ضربا من الكتابة بالصور أخذ يتكون قبل عام ١٠٠٠ ق . م بعهد بعيد .

وكما أن الحضارات البدائية فى أوربا وآسيا الصغرى كانت فى كفاح مع مترحلة الصحراء ورحل الشمال ، فكذلك نكبت الحضارات الصينية البدائية بتجمعات ضخمة من الشعوب المترحلة الضاربة على حدودها الشمالية . وكان هناك عدد من القبائل المماثلة

لغة وطرائق عيش ، يتحدث عنها التاريخ على التعاقب باسم الهون والمغول والترك والتتار كانوا يتغيرون وينقسمون ثم يعودون فيتحدون ، على نفس الشاكلة التى كانت الشعوب الآرية فى شمال أوربا ووسط آسيا ، تتغير بها وتختلف فى الاسم دون الجوهر . وقد ملكت هذه الشعوب المغولية المترحلة الحصان قبل الشعوب النوردية ، ولعلهم اكتشفوا الحديد على انفراد بمنطقة جبال آلطاى ١٠٠٠ ق . م بزمن ما . وكما حدث فى بلاد الغرب ، فإن هؤلاء المترحلين الشرقيين كان يتكون بينهم الفينة بعد الفينة ضرب من الوحدة السياسية ، ويصبحون غزاة وسادة ، وباعثين للحيوية فى هذا الإقليم المستقر المتحضر أو ذاك .

ومن المحتمل جداً أن أقدم الحضارات الصينية لم تكن مغولية بأى حال ، شأنها فى ذلك شأن الحضارات فى أوربا وآسيا الغربية التى لم تكن نوردية ولا سامية . ومن الجائز جداً أن أقدم حضارات الصين كانت حضارة سمراء ، كما كانت مماثلة فى طبيعتها لأقدم الحضارات المصرية والسومرية والدرافيدية ، وأن ابتداء أول تاريخ مسجل للصين قد حدثت قبله فتوح كثيرة واختلاط بين الأجناس .

ومهما يكن الأمر فإنا نجد أنه لما وافت ١٧٥٠ ق . م ، كانت الصين مكونة فعلا من مجموعة هائلة من الممالك الصغيرة ودول المدن ، وكلها تعترف بولاء مفكك القرى ، وتدفع رسوما إقطاعية بصورة غير منتظمة ، وغير محددة تقريباً ، لإمبراطور كاهن واحد : هو « ابن السماء الكاهن الأعظم » . وانتهى حكم أسرة « شانج » فى ١١٢٥ ق . م ، وخلفتها أسرة « تشاو » ، وأقامت بالبلاد وحدة ضعيفة الأواصر امتدت حتى عهد آسوكا بالهند والبطالمة بمصر ، وأخذت الصين تتمزق وتتحطم على التدريج فى أثناء حكم أسرة « تشاو » الطويل . وانحدرت إلى البلاد شعوب من الهون وأنشأت الإمارات ، وقطع الحكام المحليون الجزية وأصبحوا مستقلين . ويقول أحد ثقات الصينيين إن البلاد كان بها فى القرن السادس ق . م خمسة آلاف أو ستة آلاف مقاطعة مستقلة تقريباً . وهذا العصر هو الذى يسميه الصينيون فى سجلاتهم باسم « عصر الفوضى » .

على أن عصر الفوضى كان ملائما لنشوء شىء كثير من النشاط الفكرى ، ووجود كثير من مجالات الفن المحلية والعيش المتحضر . وسنجد عندما نزداد علما بتاريخ

الصين أن تلك البلاد كانت لها هى الأخرى مدن قامت بأدوار كالتى لعبتها ميلتيوس (مليطة) وأثينا وبرجامة ومقدونيا . لذا فإنا سنلتزم الإيجاز والغموض فى الوقت الحاضر فى حديثنا عن فترة الانقسام الصينى هـذه ، وذلك لأن ما لدينا من المعلومات لا يكفى لصوغ قصة متماسكة الحلقات حسنة التسلسل .

وكما أن بلاد اليونان المنقسمة على نفسها ظهر فيها الفلاسفة ، كما نشأ فى اليهودية المحطمة المأسورة الأنبياء ، كذلك نشأ فى الصين المختلة النظام الفلاسفة والمعلمون فى ذلك الأوان . وفى كل هذه الحالات يلوح أن عدم الاطمئنان والحيرة قد بعثت أحسن العقول إلى العمل الناشط . كان كونفوشيوس رجلا أرستقراطى الأصل تولى بعض المناصب الهامة بمقاطعة صغيرة اسمها « لو » . وهنا ألمت به حالة شديدة المماثلة للنزعة العقلية الإغريقية ، فاقام ضرباً من الأكاديمية لاستكشاف الحكمة وتعليمها . وقد أحزنه كثيرا ما يغشى الصين من فوضى وخروج على القانون . فاختط لنفسه صورة مثل أعلى لحكومة أحسن وحياة أفضل ، وأخذ يتنقل من ولاية إلى أخرى باحثا عن أمير يأخذ بفكراته فى التشريع والتعليم وينفذها . ولكنه لم يعثر قط على ذلك الأمير؛ أجل إنه وجد أميرا ، ولكن مؤامرات رجال البلاط قوضت سلطان المعلم عليه وتغلبت فى النهاية على مشروعاته الإصلاحية . ومن الشائق أن نذكر أن الفيلسوف اليونانى أفلاطون كان يبحث هو أيضاً عن أمير بعد ذلك بقرن ونصف ، وأنه اشتغل ردحا من الزمان مستشارا للطاغية ديونيسيوس الذى كان يحكم سيراقوزه بصقلية .

مات كونفوشيوس محطم الآمال ، قال : « لم ينهض حاكم ذكى الفؤاد ليتخذنى أستاذاً له ، وها قد حانت منيتى » ، بيد أن تعليمه كان به من الحيوية قدر أعظم مما كان يتصوره إبان سنى شيخوخته وتحطم رجائه ، فصارت تعاليمه ذات أثر عظيم فى تكوين الشعب الصينى ، إذ أصبحت إحدى « التعاليم الثلاثة » — على حد قول الصينيين — والضربان الآخران هما تعليما بوذا ولاهوتسى .

ويتلخص مذهب كونفوشيوس فى طريقة عيش الرجل النبيل أو الأرستقراطى ، فإنه شغل بسلوك الشخص انشغال جوتاما بالسلام الراجع إلى نسيان النفس ، وانشغال الإغريق بمعرفة العالم الخارجى ، واليهود بالبر والصلاح ، كان أعظم المعلمين الكبار اهتماما بالشئون العامة ، وكان يهتم إلى أقصى حد باضطراب أحوال العالم وتعاساته ، كما أنه كان يريد أن يجعل الناس نبلاء رغبة منه فى إيجاد عالم نبيل ، لذا حاول أن ينظم

السلوك إلى درجة تفوق كل مألوف ، وأن يدبر القواعد السليمة لكل مناسبة من مناسبات الحياة . وكانت صورة السيد المهذب الذى يهتم بالشئون العامة والذى يكاد يأخذ نفسه بالتأديب الصارم ، هى المثل الأعلى الذى وجده يتطور فى عالم الصين الشمالية والذى أضفى عليه الهيئة الثابتة الدائمة .

وكان مذهب لاهوتسى أحفل بالتصوف والغموض والتحايل من مذهب كونفوشيوس . وقد شغل لاهوتسى زمنا طويلا منصب أمين المكتبة الإمبراطورية ، والظاهر أنه كان يدعو دعوة الروافيين من حيث عدم الاهتمام بمسرات الدنيا وضروب السلطان فيها ، كما كان يبشر فى الناس بضرورة العودة إلى حياة بسيطة قديمة توهمها خياله ، وقد ترك كتابات أسلوبها شديد الاقتضاب كما أنها غامضة جداً . كان يكتب فى ألغاز . وبعد وفاته أفسدت تعاليمه كما أفسد مذهب بوذا من قبله ، وتفشتها الأساطير ، وضمت إليها أشد الطقوس والفكرات الخرافية تعقيداً وخروجا على المألوف .

وحدث فى الصين مثلما حدث فى الهند بالضبط ، أن نشطت فكرات السحر البدائية ، وتحركت الأساطير البشعة التى ظهرت فى ماضى طفولة جنسنا تكافح ضد التفكير الجديد فى العالم ، ونجحت فى أن تسدل عليه ستاراً سابلا من طقوس غريبة مضحكة وغير معقولة وعتيقة بالية . وكل من البوذية والتاوية (التى تنسب نفسها إلى حد كبير إلى لاهوتسى) ، كما نجدها اليوم ببلاد الصين ، ديانة راهب ومعبد وكاهن وتقريب قرابين ؛ ديانة قديمة الطراز شكلا إن لم تكن كذلك فكراً وموضوعاً كديانات القرابين بسومر القديمة ومصر ؛ على أن مذهب كونفوشيوس لم يلق مثل تلك الإضافات لأنه كان مذهباً محدودا وواضحا ومستقيم المنهج ، كما أن طبيعته لم تكن تسمح له بقبول مثل تلك التشويهات .

وأصبح شمال الصين ، أى جزؤها الذى يخترقه نهر هوانج هو كونفوشيا فى فكره وروحه ، وغدت الصين الجنوبية التى يخترقها نهر اليانج تسى كيانج ، تاوية المذهب والعقيدة . ومنذ تلك الأيام يمكن تتبع آثار الصراع الذى شجر بالصين بين هاتين النزعتين : نزعة الشمال ونزعة الجنوب ، أى بين بيكين ونانكين (فيما عقب ذلك من أيام) ، بين الشمال المستقيم المحافظ صاحب عقلية الموظفين ، وبين الجنوب المتشكك الميال إلى الفنون والتراخى والتجريب .

وبلغت انقسامات الصين فى أثناء عصر الفوضى أسوأ مراحلها فى القرن السادس ق.م، وبلغ من ضعف أسرة تشاو وحطة شأنها ، أن اضطر لاهوتسى إلى ترك بلاطها التعس وإلى التقاعد .

وتسلطت على البلاد فى تلك الأيام ثلاث دول تدين بتبعية اسمية للامبراطور ، هى « تسئى » و « تسئن » وهما دولتان شماليتان ، و « تشوثو » التى كانت دولة عسكرية ميالة إلى العدوان فى وادى اليانج تسى . وأخيرا كونت تسئى حلفا مع تسئن ، وأخضعتا تشوثو وفرضتا فى البلاد معاهدة عامة تقضى بالسلام ونزع السلاح . وما لبثت قوة تسئن أن صارت هى الغالبة . وانتهى الأمر فى زمان يقارب عهد آسوكا بالهند بأن استولى عاهل تسئن على أوعية القربان التى لإمبراطور أسرة تشاو ، واضطلع بواجباته القربانية . ومدونات التاريخ الصينى تسمى ابنه شى هوانج تى (الذى أصبح ملكا ٢٤٦ ق . م وإمبراطورا فى ٢٢٠ ق . م) باسم « الإمبراطور العام الأول » .

وكان شى هوانج تى أسعد حظا من الإسكندر لأنه حكم ستة وثلاثين عاما قضاها ملكا وإمبراطورا ويؤذن حكمه الحافل بالنشاط والاقتدار ببداية حقبة جديدة من الوحدة والرخاء للشعب الصينى . فإنه قاتل الهون المغيرين من الصحارى الشمالية أشد القتال ، كما أنه بدأ ذلك العمل الهائل ، وأعنى به سور الصين العظيم ، ليحد من اعتداءاتهم .

الفصل الحادي والثلاثون

ظهور روما
على مسرح التاريخ

سيلحظ القارىء تماثلا عاما فى تاريخ هذه الحضارات ، على الرغم مما بينها من التباعد الواقعى الناجم عن الحواجز العظيمة بتخوم الهند الشمالية الغربية والكتل الجبلية بآسيا الوسطى وأقاصى الهند وقد انتشرت الثقافة الشمسية الحجرية (الهليوليثية) أولا وفى مدى آلاف من السنين بجميع وديان الأنهار الدفيئة الخصيبة بالعالم القديم ، وأنتجت حول قرابينها التقليدية نظاما قوامه المعبد والكاهن والحاكم .

وواضح أن أول من كون تلك الثقافة كانوا دائما هم أولئك الشعوب السمراء الذين قلنا إنهم هم الجنس البشرى المركزى . ثم هبط بأرضها المترحلة من أقاليم الحشائش الوسمية والهجرات الموسمية ، ففرضوا خصائصهم بل حتى لغتهم أحياناً على الحضارة البدائية . وحدث التفاعل بين الطرفين ؛ فإنهم أخضعوها ونبهوها ، وحفزتهم هى بدورها إلى إحداث تطورات جديدة ، حتى لقد تنوعت الحضارة فصارت هنا شيئا وهناك شيئا آخر .

أما أرض الجزيرة فإن العيلاميين ومن بعدهم الساميين ، وأخيرا النورديين من الميديين والفرس والإغريق هم الذين قدموا بها خمائر الحفز والتنبيه ، وأما منطقة الشعوب الإيجية فالإغريق فيهاهم الحافز المنبه ، وكان الحافز الذى أنعش الهند هو أصحاب اللسان الآرى ، أما مصر فكان اندماج الغزاة فيها أضعف بسبب شدة ارتباط حضارتها بالكهانة والكهان ؛ أما الصين فكان الهون يغزونها فتمتصهم ثم يعقبهم هون جدد . وصبغت الصين بالصبغة المغولية كما صبغت بلاد الإغريق وشمال الهند باللون الآرى ، وكما انطبع الطابع السامى ثم الآرى على أرض الجزيرة ، وكان المترحلة يدمرون حيث يحلون تدميرا عظيما ، بيد أنهم كانوا حيث حلوا يدخلون روحا جديدة من البحث الحر والابتداع الخلقى . راحوا يمتحنون معتقدات العصور السحيقة ؛ فأدخلوا ضوء النهار إلى ظلمات المعبد ، وأقاموا ملوكا لم يكونوا كهنة ولا آلهة بل مجرد زعماء لقوادهم ورفاقهم .

وإنا لنجد فى كل مكان إبان القرون التى أعقبت القرن السادس ق . م أن التقاليد العتيقة أصيبت إصابة مميتة ، وأن روحا جديدة من البحث الخلق والذهنى قد استيقظت ، وهى روح لم يتيسر لأحد بعد ذلك أن يقمعها تماما فى خضم التقدم البشرى العظيم . فالقراءة والكتابة تصيران تحصيلا عاديا سهل المنال لدى الأقلية الحاكمة الموسرة ، ولم تعودا بعد ذلك سراً يحتفظ بها الكاهن فى حرص واستئثار . ويزيد إقبال الناس على السفر ويصبح النقل أسهل وأيسر بما تهيأ للناس من خيل وطرق ممهدة . وظهرت العملة المسكوكة فكانت وسيلة جديدة سهلة لتسهيل التجارة .

وسننقل الآن بؤرة اهتمامنا من الصين فى أقصى شرق العالم القديم إلى النصف الغربى من البحر المتوسط . وهنا نجد لزاما علينا أن نسجل ظهور مدينة قدر لها أن تلعب فى النهاية دوراً عظيما فى الشئون الإنسانية : ألاوهى مدينة روما .

لم نحدثك حتى الآن فى قصتنا هذه إلا بالنذر اليسير عن إيطاليا . كانت قبل ١٠٠٠ ق . م أرض جبال وغابات قليلة السكان . وقد زحفت قبائل ناطقة بالآرية فى شبه الجزيرة وأنشأت مدناً وبلدانا صغيرة، كما أن طرفها الجنوبى كانت تنتثر عليه المستعمرات الإغريقية . ولاتزال الأطلال الفاخرة لمدينة بايستم تحتفظ لنا إلى يومنا هذا بشىء من الأبهة والجلال التى كانت لتلك المؤسسات الإغريقية الباكرة . وكان شعب غير آرى، لعله من ذوى قربى الشعوب الإيجية، وأعنى به الإترسك، وطد قدمه فى الجزء الأوسط من شبه الجزيرة . وقد عكسوا هنا الآية المعتادة بأن أخضعوا لنفوذهم قبائل آرية منوعة. وعندما تظهر روما فى ضياء التاريخ ، تكون بلدة تجارية صغيرة واقعة إلى جوار مخاضة على نهر التيبر ، وسكانها قوم ناطقون بالآرية يحكمهم ملوك من الإترسك ، والتواريخ القديمة تجعل عام ٧٥٣ ق . م بدءا لتأسيس روما ، أى بعد تأسيس قرطاجنة المدينة الفينيقية العظيمة بنصف قرن ، وبعد إقامة أول حفل للألعاب الأولمبية بثلاثة وعشرين عاماً ، ولكن الحفر فى السوق (الفوروم الرومانى) كشف مع ذلك عن قبور إترسكية ترجع إلى عهد أبعد كثيرا من ٧٥٣ ق . م .

وفى هذا القرن السعيد الحافل بالذكريات ، وهو القرن السادس ق م ، طرد ملوك الإترسك (٥١٠ ق . م) وأصبحت روما جمهورية أرستقراطية ، بها طبقة سادة من الأسر النبيلة (البطارقة) تتحكم فيمن عداها من عامة الشعب (البليبيان) .

ولولا ما كانت تنطق به من لسان لاتيني ، ما شعر أحد بفارق بينها وبين كثير من الجمهوريات الإغريقية الأرستقراطية .

وظل تاريخ روما الداخلي بضعة قرون وهو قصة كفاح مديد عنيد قام به العامة مطالبين بالحركة ونصيب في الحكم ولو استعرضنا تاريخ الإغريق لما عسر علينا أن نجد حالات مماثلة لهذا الصراع، ولوجدنا الإغريق يسمونها الصراع بين الأرستقراطية والديمقراطية . وانتهى الأمر بأن حطم العامة (البلبيان) معظم ما كان للعائلات القديمة من امتيازات ، وتساووا معهم مساواة واقعية . فقضوا على اعتزال البطارقة القدم وجعلوا من الميسور والمقبول لروما أن توسع « مواطنيتها » بحيث تشمل عدداً متزايداً من « الغرباء » . ذلك أنها ظلت ردحاً من الزمان تكافح في الداخل ، على حين كانت تمد سلطانها في الخارج .

وشرع الرومان يبسطون سلطانهم في القرن الخامس ق . م وكانوا حتى ذلك الحين في حروب دائمة مع الإترسك كانت تنتهي بالإخفاق على وجه العموم ، وكانت هناك على بضعة أميال من روما ، قلعة إترسكية ، هي قلعة فياى ، التي لم يستطع الرومان قط أن يفتحوها . على أن الإترسك حلت بهم في ٤٧٤ ق . م نكبة جائحة ؛ إذ دمر إغريق سيراقوزه بصقلية أسطولهم .

وفي نفس الوقت هبطت عليهم من الشمال موجة من المغيرين النورديين ، هي موجة الغالة . فلما وقع الإترسك بين الرومان والغالة . سقطت دولتهم واختفوا من التاريخ . واستولى الرومان على فياى . وتقدم الغالة إلى روما وانتهبوا المدينة (٣٩٠ ق . م) . بيد أنهم لم يستطيعوا أن يفتحوا الكابيتول . فإن صياح الأوز كشف عن محاولة الغالة القيام بهجوم ليلي مباغت ، وانتهى الأمر بأن افتدى الرومان أنفسهم وحريتهم بالمال ، وتراجع الغالة إلى شمالي إيطاليا .

ويلوح أن غارة الغالة قد عادت على روما بالقوة لا بالضعف . فإن الرومان غلبوا على الإترسك وتمثلوهم ، ومدوا سلطانهم على كل إيطاليا الوسطى من نهر الآرنو إلى نابلي . وقد بلغوا هذه البسطة في السلطان قبيل عام ٣٠٠ ق . م ببضع سنوات، وكانت فتوحهم في إيطاليا تحدث في نفس الأيام التي تم فيها نمو قوة فيليب في مقدونيا وبلاد اليونان ، وغارة الإسكندر الهائلة على مصر وبلاد السند . ولما تمزقت إمبراطورية

الإسكندر ، كان الرومان قد أصبحوا شعباً تملأ شهرته العالم المدن إلى الشرق من بلادهم .

وكان الغالة ينزلون إلى الشمال من دولة الرومان ؛ على حين تناثرت إلى الجنوب منهم مستعمرات الإغريق للنشأة بماجنا جريكيا ؛ وأعنى بذلك جزيرة صقلية ومقدم حذاء إيطاليا وكعبها . وكان الغالة شعباً حربياً شديد المراس . حافظ الرومان على حدودهم معهم بخط من القلاع والمستعمرات المحصنة. فأما المدن الإغريقية فى الجنوب وعلى رأسها تارنتم (وهى مدينة تارانتو الحديثة) وسيراقوزه . فلم تكن تهدد الرومان قدر ما كانت تخافهم وتخشى بأسهم ، وكانت تتلفت من حولها تلتمس ناصراً يعينها على هؤلاء الغزاة الجدد .

وقد سبق أن ذكرنا كيف تمزقت إمبراطورية الإسكندر إربا عند وفاته وكيف تقسمها قواده ورفاقه . وكان بين هؤلاء المغامرين أمير من ذوى قرابة الإسكندر اسمه بيروس ، وطد ملكه فى إبيروس ، وهى وراء البحر الإدرياتى قبالة كعب إيطاليا ، وكان يطمع فى أن يلعب من « الماجناجريكيا » دور فيليب المقدونى معها ، وأن يصبح حاميا وسيداً عاما لمدينة تارنتم وسيراقوزه وباقى ذلك الجزء من العالم .

وكان لديه جيش كان يعد فى زمانه جيشا عصريا عظيم الكفاية ؛ كان لديه فيلق من المشاة وكتيبة راكبة من تساليا ، كانت آنذاك تضارع فى كفايتها الخيالة المقدونية الأصلية ، وثم خمسة وعشرون فيلا مقاتلا . فغزا إيطاليا وبدد شمل الرومان فى موقعتين عظيمتين إحداها معركة هراقليا (٢٨٠ ق . م) والثانية أوسكولم (٢٧٩ ق . م) . ولما تم له دفعهم نحو الشمال وجه اهتمامه إلى إخضاع صقلية .

بيد أن هذا جلب عليه عدوا كان فى ذلك الحين أرهب جانبا من الرومان ، وهو مدينة قرطاجنة الفينيقية التجارية ! التى لعلها كانت آنذاك أعظم مدن العالم ، إذ كانت صقلية قريبة من القرطاجيين قربا لا يستطيعون معه أن يرحبوا بمقدم إسكندر آخر جديد إليها ، كما أن قرطاجنة كانت لا تزال تذكر المصير الذى حل بأمها صور قبل ذلك بنصف قرن ؛ لذلك أرسلت أسطولا يشجع روما — أو يرغمها — على مواصلة الكفاح ، كما قطعت مواصلات بيروس ، فوجد الرومان يهاجمونه من جديد ، ويحطمون بعنف ساحق هجوما قام به على معسكرهم فى بنفنتم بين نابلى وروما .

وعلى حين بغتة وردت إليه أنباء اضطرته للعودة إلى إبيروس . فإن الغالة أخذوا يغيرون من الشمال إلى الجنوب كعادتهم . ولكنهم لم يكونوا يغيرون فى هذه المرة على بلاد إيطاليا ؛ إذ كانت التخوم الرومانية القوية التحصين والحراسة ، أمنع من أن يستطيعوا لها اختراقا لذا كانوا يغيرون الآن جنوبا مخترقين إلليريا (وهى الآن ألبانيا وبلاد الصرب) إلى مقدونيا وإبيروس وتخلى بيروس عن أطماعه فى الفتح وعاد إلى بلاده (٢٧٥ ق . م) بعد أن صده الرومان . وأحدق به فى البحر خطر القرطاجيين ، وهدد الغالة بلاده ، على حين خلا الجو لروما فبسطت سلطانها حتى مضيق مسينا .

وكانت تقوم على الجانب الصقلى من المضيق مدينة مسينا الإغريقية ، وسرعان ما وقعت هذه البلدة فى قبضة جماعة من القراصنة . وكان القرطاجيون من قبل ذلك سادة صقلية أو يكادون ، كما كانوا حلفاء لسيراقوزه ، فكان من الطبيعى أن ينهضوا للقضاء على القراصنة (٢٧٠ ق . م) وأن يضعوا فى المدينة حامية قرطاجية . ولجأ القراصنة إلى روما يلتمسون العون منها ، وأصغت روما لشكايتهم . وهكذا التقت دولة قرطاجنة التجارية العظيمة من وراء مضيق مسينا بذلك الشعب الفاتح الجديد : الرومان ، وأخذا يتبادلان نظرات العداوة والبغضاء .

الفصل الثاني والثلاثون

بين روما وقرطاجنة

كانت سنة ٢٦٤ هي السنة التي ابتدأ فيها الكفاح العظيم بين روما وقرطاجنة ، وهو الذي يسمى باسم الحروب البونية . وفي تلك السنة كان آسوكا يستهل حكمه في بهار ، وكان شي هوانج تي طفلا صغيرا ، وكان متحف الإسكندرية لايفتأ ينتج إنتاجا علميا لا بأس به ، كما كان الغالة البرابرة قد حلوا عند ذاك في آسيا الصغرى وأخذوا يفرضون الجزية على برجامة .

وكانت أقطار الأرض المختلفة لاتزال تفصلها بعضها عن بعض مسافات مترامية لا سبيل إلى التغلب عليها . ولعل بقية الإنسانية لم تكن تسمع إلا الشائعات الغامضة المقتضبة عن ذلك القتال الفتاك الذي دارت رحاه قرنا ونصفا في إسبانيا وإيطاليا وشمال إفريقية والبحر المتوسط الغربي ، ذلك القتال الذي نشب بين آخر معقل لقوة الساميين وبين روما الوافد الجديد بين الشعوب الناطقة بالآرية .

وقد تركت تلك الحرب آثارها في مسائل لاتزال تحرك العالم إلى اليوم . أجل إن روما انتصرت على قرطاجنة ، بيد أن التنافس بين الآرى والسامى كتب له أن يندرج فيما بعد تحت الكفاح الذي نشب بين غير اليهودى واليهودى .

وأخذ ركب التاريخ يقترب الآن من أحداث لاتزال عواقبها وتقاليدها المشوهة تحتفظ في منازعات اليوم وخصوماته بثمالة ضئيلة من حيوية تلفظ آخر أنفاسها ، كما أن لها على تلك المنازعات سلطانا يعود عليها بالتعقيد والاضطراب .

ابتدأت الحرب البونية الأولى في ٢٦٤ ق . م بسبب قراصنة مسينا ، وتطورت إلى كفاح على امتلاك صقلية بأجمعها عـدا ممتلكات ملك سيراقوزه الإغريقي . وكان للقرطاجيين التفوق البحرى في مبـدأ الأمر . فكانت لهم سفائن حربية كبيرة لم

يسمع حتى ذلك الحين بمثل حجمها ، وهى الخماسيات أى السفن ذات الصفوف الخمسة من المجاديف والـكبش الضخم[١] . وكانت أعظم السفن فى معركة سلاميس . قبل ذلك بقرنين من الزمان ، هى المثلثات ، وليس لها إلا ثلاثة صفوف . ولـكن الرومان نصبوا أنفسهم بهمة خارقة على الرغم من قلة درايتهم بالأمور البحرية ـ للتفوق على ما ينتجه القرطاچيون من سفن . وكانوا يستخدمون بحارة من الإغريق فى تسيير الأساطيل الجديدة التى أنشأوها ، ولـكى يعوضوا أنفسهم عما عليه العدو من تفوق فى الملاحة ، اخترعوا طريقة إمساك سفن الأعداء بالـكبابيش (بالـكلابات) واعتلائها ، فإذا أقبل القرطاچيون لصك مجاديف الرومان بالـكباش أو قطعها ، تعلقت كبابيش ضخمة من الحديد بسفنهم ، وتزاحم الجند الرومان إلى ظهورها زرافات . فهزم القرطاچيون فى كل من ميلاى (٢٦٠ ق . م) وإيكونوهاس (٢٥٦ ق . م) هزيمة ساحقة . ثم صدوا الرومان وحالوا بينهم وبين النزول على البر بالقرب من قرطاجنة ، ولـكنهم هزموا هزيمة منـكرة قرب بالرمو ، حيث خسروا مائة وأربعة من الفيلة ـ وأخذها الرومان وجعلوها زينة لموكب نصر عظيم اخترق الفوروم لم تر روما له من قبل نظيرا . ولـكن الرومان عادوا بعد ذلك فهزموا مرتين ثم جددوا قوتهم ثانية ، وما لبثوا أن بذلوا آخر ما لديهم من جهد فهزمت آخر قوات قرطاجنة البحرية فى معركة الجزائر الآيجاتية (٢٤١ ق . م) ، ومن ثم طلبت قرطاجنة الصلح . وتخلت للرومان عن صقلية بأكملها فيما عدا ممتلـكات هيرون ملك سيراقوزه .

وحافظت كل من روما وقرطاجنة على ذلك الصلح اثنين وعشرين عاما ، إذ كان لـكل منهما من المشكلات الداخلية ما يشغله . فإن الغالة انحدروا جنوبا فى إيطاليا مرة ثانية وهددوا روما ـ (لحملها الهلع على تقديم القرابين البشرية للآلهة ! !) ـ ثم دحروا وبدد شملهم فى معركة تيلامون . وعندئذ تقدمت روما قدماً إلى جبال الألب ، بل تجاوزتها ومدت سلطانها جنوبا بحذاء ساحل البحر الإدرياتى حتى إلليريا ، وكابدت قرطاجنة الأهوال مما كان بها من ثورات داخلية ومما حدث فى قورسيقة وسردينية من فتن ، على أنها لم تبلغ ما بلغته روما من قدرة على علاج الأمور ، وأخيرا ، استولت روما على الجزيرتين وألحقتهما بها ، وهو عمل عدوانى لا يطاق .

وفى ذلك الأوان كانت إسبانيا حتى نهر إبرو شمالا تابعة لقرطاجنة ، إذ حرم

---

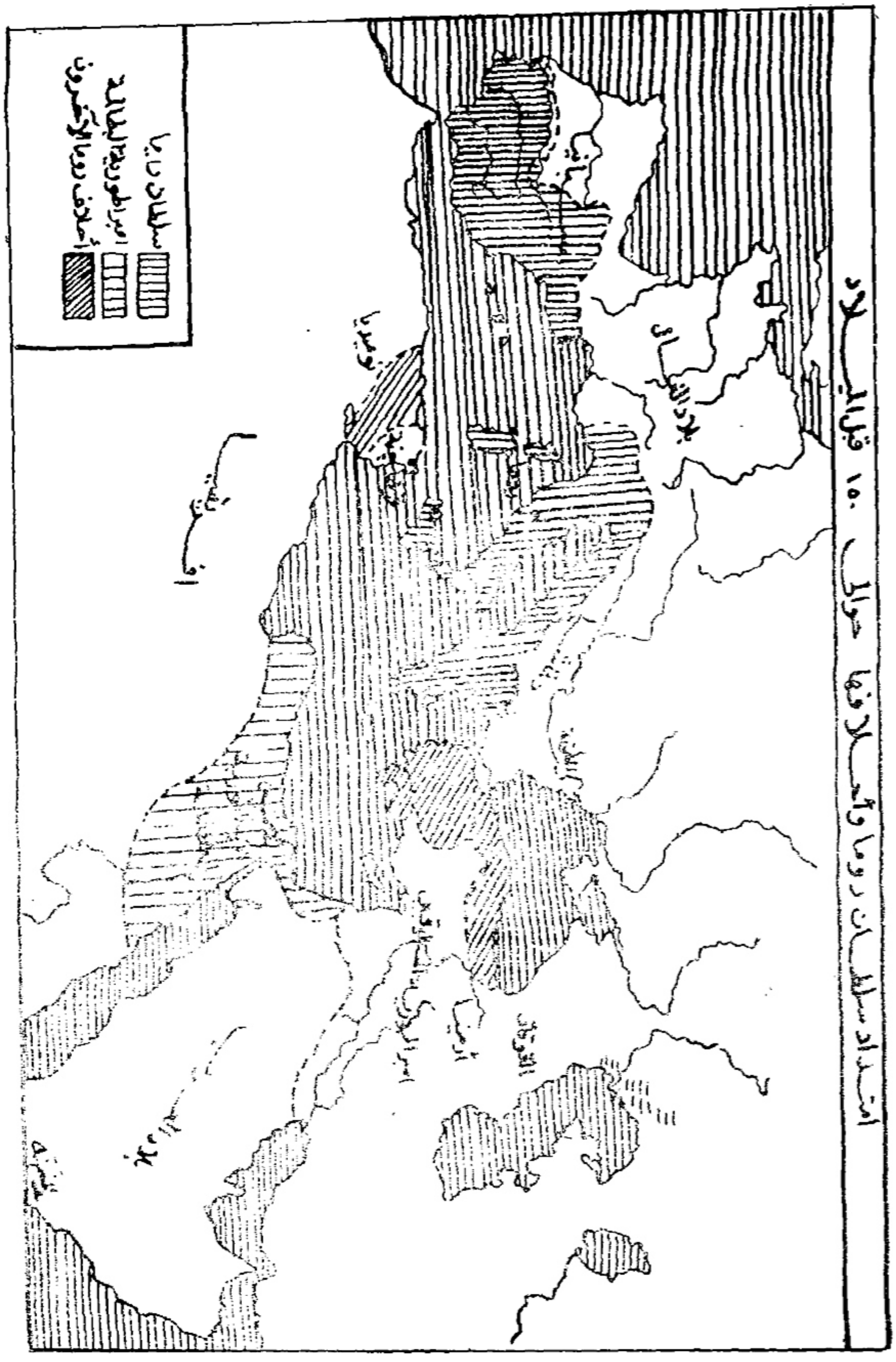
(١) الـكبش نتوء برأس كبش ناشز من سفينة لإتلاف سفن الأعداء .

عليها الرومان تجاوز ذلك الحد ؛ فإذا عبرت قرطاجنة نهر الإبرو عد ذلك عملا حربيا معاديا للرومان . وانتهى الأمر بأن أرغمت قرطاجنة فى ٢١٨ ق . م إزاء اعتداءات جديدة للرومان ، إلى عبور ذلك النهر فعلا بقيادة قائد شاب اسمه هانيبال ، وهو قائد من ألمع القواد على مر التاريخ كله . فسير عليها جيشه مخترقا إسبانيا وعبر جبال الألب إلى إيطاليا ، وهناك أثار الغالة على الرومان ، وواصل الحرب البونية الثانية فى إيطاليا نفسها مدة خمسة عشر عاما . وأنزل بالرومان هزائم فادحة فى معركتى بحيرة تراسيمينى وكاناى ، ولم يستطع أى جيش رومانى طيلة حملته الإيطالية بأكملها أن يقف أمامه دون أن تحيق به الهزيمة . غير أن الرومان أنزلوا عند مرسيليا جيشاً قطع مواصلاته مع إسبانيا ، وكانت تعوزه أدوات الحصار ومعداته ، كما أنه لم يتمكن أبداً من الاستيلاء على روما . واضطر القرطاجيون آخر الأمر إزاء ثورة قام بها النوميديون فى أرض الوطن ، أن يرتدوا للدفاع عن مدينتهم الأصلية بإفريقية ، وهنا عبر جيش رومانى البحر إلى إفريقية . ولقى هانيبال أول هزيمة أصابته تحت أسوار المدينة فى معركة زاما (٢٠٢ ق . م) على يد سيبيون الإفريقى الأكبر .

وكانت معركة زاما هى خاتمة الحرب البونية الثانية ، واستسلمت قرطاجنة ، وتنازلت لروما عن إسبانيا وعن أسطولها الحربى ، ودفعت لها تعويضا هائلا ، ووافقت على تسليم هانيبال للرومان لينتقموا منه ، لولا أن هانيبال نجا من قبضتهم وفر إلى آسيا حيث تجرع السم ومات عند ما أحس أنه موشك أن يقع فى قبضة أعدائه الغلاظ الأكباد .

وانقضت ست وخمسون سنة ظلت روما ومدينة قرطاجنة الكسيرة الجناح تستظلان فى أثنائها السلام . وراحت روما فى نفس الوقت تبسط سلطانها على بلاد الإغريق المضطربة المنقسمة على نفسها ، وتغزو آسيا الصغرى وتهزم أنطيوخوس الثالث الملك السلوقى عند مدينة ماغنيسيا فى ليديا ، ثم جاء دور مصر ، وكانت لا تزال تحت حكم البطالمة ، كما جاء دور برجامة ومعظم الولايات الصغيرة بآسيا الصغرى ، فحولتها روما إلى حلفاء لها ، أو « دول محمية » كما قد نسميها اليوم .

وذلك فى حين كانت قرطاجنة الذليلة الضعيفة قد أخذت تسترد فى بطء شيئاً من رخائها السالف ، فأثار ذلك عليها حقد الرومان ومخاوفهم ، فهاجموها (١٤٩ ق . م)


امتداد سلطان روما وأحلافها حوالي ١٥٠ قبل الميلاد
سلطان روما
امبراطورية البطالمة
أحلاف روما الآخرون

خريطة رقم (٦)

لأسباب تافهة مفتعلة إلى أقصى حد ، فلم يكن منها إلا أن قاومتهم مقاومة عنيدة مريرة وتحملت حصارا طويلا ثم فتحت عنوة (١٤٦ ق . م) ، واستمر القتال — أو قل المذبحة — فى الشوارع ستة أيام ، وكان قتالا دمويا بشعاً . وعند ما سلمت القلعة لم يكن على قيد الحياة من أهالى قرطاجنة البالغ عددهم ربع مليون سوى خمسين ألفا تقريبا ؛ فبيعوا بيع الرقيق ، وأحرقت المدينة ، ودمرت تدميرا تاما وسير المحراث فى أنقاضها المسودة بالحريق ، وبذرت فيها البذور ليكون ذلك شاهدا على محوها رسميا .

وبذلك انتهت الحرب البونية الثالثة . ولم يبق مستمتعا بالحرية من الدول والمدن السامية التى ازدهرت فى العالم قبل ذلك بخمسة قرون ، إلا قطر صغير وحيد بقى تحت حكم حكام من أهله . ذلك القطر هو يهوذا (جوديا) التى حررت نفسها قبل ذلك من أيدى السلوقيين ، وكانت تحت حكم الأمراء المكابيين الوطنيين وكانت التوراة قد تمت فى ذلك الحين أو كادت ، كما كانت تتطور آنذاك على أيديهم التقاليد المميزة للعالم اليهودى على ما نعرفه اليوم . وكان من الطبيعى أن يلتمس القرطاجيون والفينيقيون وذوو قرباهم من الشعوب المبعثرة فى أرجاء العالم رابطة مشتركة بينهم تتمثل فى ألسنتهم المتقاربة ، وفى هذا الأدب الذى يبعث فيهم الأمل ويملؤهم بالشجاعة ، وكانوا لا يزالون إلى حد كبير هم تجار العالم وأصحاب المصارف فيه . ذلك أن العالم السامى لم يذهب من الوجود ، بل غلب عليه عالم آخر .

واستولى الرومان على أورشليم فى ٦٥ ق . م التى كانت على الدوام رمزا لليهودية لا مركزها ، وبعد أن تغلبت عليها تصاريف منوعة من شبه استقلال وثورات ، حاصروها فى سنة ٧٠ م ، واستولوا عليها بعد كفاح عنيد ، ودمر الهيكل ، وكان دمارها النهائى بعد ثورة أخرى شبت فى ١٣٢ م ، فأما أورشليم التى نعرفها اليوم فهى مدينة أعيد بناؤها برعاية الرومان . وأقيم فى مكان الهيكل معبد للرب الرومانى « جوبتر » وحرم على اليهود سكنى المدينة .

الفصل الثالث والثلاثون

نمو الإمبراطورية الرومانية

كانت هذه الدولة الجديدة التي مازالت تعلوحتى تسلطت على العالم الغربي في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد ، شيئاً آخر يختلف في كثير من النواحي عن أية إمبراطورية من الإمبراطوريات العظمى التي سادت العالم المدن حتى ذلك الوقت . لم تكن في مستهل أمرها ملكية ، كما لم تكن من خلق فاتح عظيم بعينه . ولم تكن في الواقع أولى الإمبراطوريات الجمهورية ؛ فقد تسلطت أثينا في عهد بركليس ، على مجموعة من الدول الحليفة والتابعة ، وكانت قرطاجنة يوم أن دخلت حومة كفاحها القتال مع روما سيدة لقورسيقة وسردينية ومراكش والجزائر وتونس ومعظم إسبانيا وصقلية ، بيد أنها كانت أولى الإمبراطوريات الجمهورية التي نجت من الإبادة وواصلت السير في طريقها ، وهي تنشئ التطورات الجديدة .

وكان مركز هذه المنظمة الجديدة يقع إلى الغرب على بعد كبير من مراكز الإمبراطوريات الأقدم منها عهدا ، التي كانت إلى ذلك الحين هي وديان الأنهار بأرض الجزيرة ومصر . وبفضل هذا الموقع الغربي تمكنت روما من أن تدخل إلى حظيرة الحضارة شعوباً ومناطق جديدة كل الجدة .

وامتد سلطان روما إلى مراكش وإسبانيا ، وسرعان ما امتد نحو بريطانيا في الشمال الغربي مجتازا ما يسمى اليوم باسم فرنسا وبلجيكا ، وتوغل شمالا بشرق إلى المجر وجنوبي الروسيا ، ولكنها من الناحية الأخرى لم تستطع أبدا أن تحتفظ بمركزها في وسط آسيا أو بلاد فارس لشدة بعدها عن مراكزها الإدارية .

ومن ثم فقد كانت تضم حشودا هائلة من شعوب نوردية جديدة ناطقة بالآرية ، وسرعان ما ضمت إليها جميع من في العالم من الشعب الإغريقي تقريبا ، وكان اصطباغها بالصبغة الحامية والسامية أضعف كثيرا من أية إمبراطورية سالفة .

ظلت هذه الإمبراطورية الرومانية بضعة قرون دون أن تتردى فى مهاوى السوابق والتقاليدالجامدة ، التى سرعان ما ابتلعت فى جوفها الإمبراطوريات الفارسية والإغريقية ، وإنما كانت فى كل ذلك الزمان تواصل التطور والارتقاء . ذلك أن حكام الميديين والفرس كانوا يصطبغون تماما بالصباغ البابلى ؛ مدى جيل واحد تقريبا ، فكانوا يتقلدون تاج ملك الملوك ويتقبلون معابد آلهته وكهاناتها ؛ فسار الإسكندر وخلفاؤه فى نفس ذلك السهل طريق التمثل ؛ واتخذ ملوك السلوقيين نفس البلاط وطرائق الإدارة التى كانت لنبوخذ نصر وأصبح البطالمة فراعنة وتمصروا تمصرا تاما . فامتصتهم البلاد على نحو ما امتص السومريون غزاتهم الساميين

أما الرومان فإنهم كانوا يحكمون فى مدينتهم الخاصة ، وظلوا بضعة قرون يحافظون على القوانين التى أملتها طبيعتهم الخاصة . والشعب الوحيد الذى كان له عليهم تأثيرذهنى عظيم قبل القرن الثانى أو الثالث الميلادى هو أبناء قرابتهم الإغريق الذين يشبهونهم لذا كانت الإمبراطورية الرومانية فى جوهرها محاولة أولى لحكم دولة عظيمة مترامية على أسس آرية بحتة تقريبا كانت حتىذلك الأوان طرازا جديدا لا مثيل لهفىالتاريخ كانت جمهورية آرية مترامية الرقعة . ولم ينطبق عليها الطراز القديم القائم على فاتح فرد يحكم مدينة رئيسية نمت حول معبد لرب حصاد . كان للرومان — لا جرم — آلهتهم ومعابدهم ، ولكنها كانت — كآلهة الإغريق — آلهة من أشباه البشر المخلدين أو النبلاء الأقداس وكان الرومان أيضا يسفكون الدماء قربانا ، بل لقد بلغ بهم الأمر أن كانوا يقدمون البشر قربانا إذا أصابتهم نازلة ، وهى أمور لعلهم تعلموها من أساتذتهم الإترسك السمر ، ولكن لم يحدث قطحتى يوم تجاوزت روما أوج عظمتها بزمن مديد ، أن قام الكاهن أو المعبد بأى نشاط سياسى كبير فى تاريخ الرومان

كانت الإمبراطورية الرومانية جسما ناميا جديدا لم ترسم لنموه خطة . وتلفت الشعب الرومانى وإذا هو يعمل من غير وعى منه تقريبا فى تجربة إدارية هائلة ليس فى الامكان أن تنعت بالتجربة الناجحة . إذ إن إمبراطوريتهم ترامت إلى الانهيار التام فى النهاية . كما أنها كانت تغير شكلها وأسلوبها تغيرا هائلا من قرن إلى قرن. كان التغير الذى يحدث بها فى مائة عام أعظم مما كان يحصل فى البنغال أو أرض الجزيرة أو مصر فى ألف سنة . كانت دائمة التغير ، ولم تصل قط إلى الثبات على حال .

فشلت التجربة بمعنى ما كما أنها لا تزال — بمعنى ما — ناقصة غير مستكملة ، ولا تزال

أوربا وأمريكا فى يومنا هذا تحل ألغاز السياسة العالمية التى واجهها الشعب الرومانى لأول مرة .

ومن الخير أن يتذكر دارس التاريخ التغيرات العظيمة التى ألمت ، لا بالأمور السياسية وحدها ، ولكن بالاجتماعية والأخلاقية التى استمرت طيلة فترة سيادة الرومان. وكثيراً ما يجنح بعض الناس إلى إظهار شىء من المبالغة حين يزعمون أن الحكم الرومانى كان شيئاً متقن التكوين وطيد الأركان ، وأنه كان حكما حازما وكاملا ونبيلا وحاسما. هذا كتاب ماكولى المسمى « أناشيد روما القديمة Lays of Ancient Rome » S . P . Q . R [1] ، لو اطلعت عليه لوجدت فيه كاتو الأسن ، وأفراد أسرة سبيون ويوليوس قيصر ودقلد يانوس وقسطنطين الأكبر ، ومواكب النصر والخطب ومصارعات المجالدين واستشهاد المسيحيين مختلطة بعضها ببعض فى صورة تمثل شيئاً سامياً وقاسيا ومهيباً .

ولابد لك من أن تحلل تلك الصورة وتخلص أجزاءها بعضها من بعض . ذلك أنها قد جمعت اعتباطا من مواضع مختلفة من عملية تغير أعمق من ذلك التغير الذى يفرق بين لندن فى عهد وليم الفاتح وعهدنا الراهن .

ورغبة فى التيسير نقسم تاريخ روما إلى مراحل أربعة ، ابتدأت المرحلة الأولى منها بنهب الغالة لروما فى (٣٩٠ ق . م) ، ودامت حتى نهاية الحرب البونية الأولى فى (٢٤٠ ق . م) . وقد يجوز لنا أن نسمى هذه المرحلة باسم مرحلة الجمهورية المتمثلة[٢]. ولعلها كانت أروع مراحل التاريخ الرومانى وأشدها تميزاً . ففى أثنائها كانت المنازعات الطويلة الأمد بين البطارقة (الأشراف) والعامة تقترب من نهايتها ، وزال خطر الإترسك ولم يكن هناك تفاوت عظيم فى الثراء . فلاغنى فاحش ولا فقر مدقع ، وكان معظم الناس ينزعون إلى الحرص على المصلحة العامة .

كانت جمهورية ، كجمهورية البوير فى جنوب إفريقيا قبل ١٩٠٠ ، أو كالولايات

---

(١) S . P . Q . R معناها مجلس شيوخ روما وشعبها.

(٢) المتمثلة : التمثل تحويل الشىء إلى مادة مماثلة كالطعام فى الجسم . والجمهورية هنا كانت تتمثل غيرها من الشعوب والدول . [المترجم]

الشمالية فى الاتحاد الأمريكى بين ١٨٠٠ ، ١٨٥٠ ؛ هى جمهورية فلاحين أحرار . وكانت روما فى مستهل هذه المرحلة دويلة صغيرة لا تكاد مساحتها تبلغ عشرين ميلا مربعا . وكانت تقاتل ذوى قرباها من الدول القوية الشكيمة المحيطة بها وتحاول الائتلاف وإياها دون تدميرها . وتدرب شعبها فى أثناء قرون الفرقة الأهلية والشحناء على التراضى والتساهل. فإن بعض المدن المنهزمة أصبحت رومانية تماما لها نصيب من التصويت فى الحكومة ، وأصبح بعضها يحكم نفسه بنفسه مع السماح لأفرادها بالاتجار فى روما ومصاهرة أهلها ؛ وكانت الحاميات المؤلفة من مواطنين يستمتعون بالحقوق الوطنية الكاملة تقام عند المراكز الحربية الهامة ، كما أن المستعمرات المنوعة الامتيازات كانت تؤسس بين ظهرانى الشعوب المحتلة حديثاً . وأنشئت الطرق العظيمة . وكان صبغ إيطاليا السريع بالصباغ اللاتينى هو النتيجة الحتمية لمثل هذه السياسة ، ففى (٨٩ ق م) أصبح سكان إيطاليا الأحرار جميعا مواطنين لمدينة روما يستمتعون بالحقوق الوطنية الكاملة . وأصبحت الإمبراطورية الرومانية بأجمعها من الناحية الرسمية مدينة مبسوطة الرقعة . وفى ٢١٢ م منحت الحقوق الوطنية الكاملة لكل حر فى طول الإمبراطورية وعرضها ، أى الحق فى أن يعطى صوته فى اجتماع مدينة روما إن استطاع إليها وصولا .

وهذا التوسع فى بسط حقوق المواطنة على المدن سهلة الضبط وعلى أقاليم بأكملها كان الوسيلة المميزة للتوسع الرومانى . وهو الذى قلب الطريقة القديمة رأسا على عقب، طريقة الفتح وتمثل الفاتحين . وبهذه الطريقة الرومانية كان الفاتح الغازى هو الذى يتمثل المقهور .

ولكن حدث بعد الحرب البونية الأولى وضم صقلية ، أن نشأت ظاهرة أخرى جديدة مع استمرار عملية التمثل القديمة . ذلك أن صقلية مثلا عوملت معاملة فريسة مقهورة . فأعلنوها «مزرعة» للشعب الرومانى واستغلت أرضها الخصبة وجهود شعبها المجد فى سبيل زيادة ثراء روما . وكان الأشراف وذوو النفوذ من العامة يحصلون على النصيب الأعظم من تلك الثروة . وجلبت الحروب أيضاً فيضا متدفقا من الأرقاء . وكان سكان الجمهورية قبل الحرب البونية الأولى يتكونون فى معظم حالاتهم من مواطنين أحرار من الفلاحين . وكانت الخدمة العسكرية عملهم الذى يمتازون به وتبعتهم المسئولة منهم . وكانت الديون تركب مزارعهم حين ينخرطون فى الخدمة العسكرية العاملة ، فانتشر

فى طول البلاد وعرضها نوع من الإنتاج الزراعى الكبير القائم على الرقيق ؛ فإذا عاد الجند إلى ديارهم وجدوا محصولاتهم تنافسها المحصولات التى أنتجها الرقيق بصقلية وبالمزارع الجديدة الضخمة بأرض الوطن ، وتغيرت الأيام وبدلت الجمهورية سجاياها . فلم يقتصر الأمر على أن صقلية أصبحت فى قبضة روما ، بل إن الرجل العادى أصبح فى قبضة الدائن الغنى والمنافس الغنى . بذلك دخلت روما فى مرحلتها الثانية ، وهى جمهورية الأغنياء المغامرين .

وظل الجند الرومان المزارعون مائتى سنة يكافحون من أجل الحرية والاشتراك فى حكم دولتهم ؛ بعد أن ظلوا مائة عام ينعمون بامتيازاتهم . ولكن الحرب البونية الأولى بددت قواهم وسلبتهم كل ما كانوا غنموه .

وتبخرت أيضا قيمة امتيازاتهم الانتخابية . وكانت فى الجمهورية الرومانية هيئتان حاكمتان . الأولى منهما والأكثر أهمية هى مجلس الشيوخ (السناتو) وكان هذا المجلس فى الأصل هيئة من الأشراف ، ثم غدا مكونا من الرجال البارزين من جميع الطبقات ، وكان يدعوهم إلى جلساته فى البداية موظفون ذوو نفوذ وسلطان ، هم القناصل والرقباء (Censors) [1] . وإذا هو يصبح كمجلس اللوردات البريطانى، جمعية تضم كبار أصحاب الأراضى والسياسيين البارزين وكبار رجال الأعمال ومن إليهم . كان أقرب إلى مجلس اللوردات البريطانى منه إلى مجلس الشيوخ الأمريكى وظل ثلاثة قرون بعد الحروب البونية . وهو مركز الفكر الرومانى السياسى وقبلته . وكانت الهيئة الثانية هى الجمعية الشعبية،التى كان مفروضا أن تضم مواطنى روما جميعا . وكان ذلك ممكنا يوم كانت روما دويلة مساحتهاعشرون ميلا مربعا . أما وقد بسطت حقوق روما المدنية إلى ماوراء حدودها ، فقد أصبحت هيئة عقيمة . وأخذت اجتماعاتها التى كان يعلن افتتاحها بالنفخ فى الأبواق من الكابيتول وأسوار المدينة ، تصبح من يوم إلى آخر اجتماعا من المأجورين السياسيين ورعاع المدينة،ومن قبل كانت الجمعية الشعبية فى القرن الرابع ق . م رادعا قويا يكبح مجلس الشيوخ ، وكانت خير من يمثل مطالب الشعب وحقوقه ، ولكنها استحالت عند نهاية الحروب البونية إلى طلل دارس لاحول

---

(١) كان لروما رقيبان مهمتهما تحديد الحقوق المدنية للأفراد والمحافظة على الآداب العامة .

له لرقابة شعبية محطمة . فلم يبق هناك أى رادع قانونى فعال يكبح تصرفات كبار الرجال .

ولم يحدث قط أن أدخل فى الجمهورية الرومانية أى شىء من قبل الحكومة التمثيلية النيابية . ولم يفكر أحد ألبتة فى انتخاب مندوبين يمثلون إرادة المواطنين . وهذه مسألة هامة جدا ينبغى للباحث أن يدركها . فلم يحدث قط أن بلغت الجمعية الشعبية مستوى مجلس النواب الأمريكى أو مجلس العموم البريطانى ، كانت من الناحية النظرية هيئة المواطنين مجتمعين ؛ ولكنها من الناحية العملية تعطلت تماما عن أن تكون شيئاً يستحق الاعتبار .

ومن ثم فإن المواطن العادى فى الإمبراطورية الرومانية كان فى حالة يرثى لها بعد الحرب البونية الثانية ؛ كان الفقر قد حل به ، إذ ضاعت مزرعته فى الغالب ، وحرمه الرقيق ثمرة الإنتاج المجزى ، كما لم يبق فى يديه أية سلطة سياسية يستطيع بها علاج الموقف ، فلم يبق أمامه من وسائل التعبير الشعبى كشعب حرم كل صورة من صور التعبير السياسى إلا الاضطراب والعصيان . وقصة القرنين الثانى والأول قبل الميلاد من حيث السياسة الداخلية ، لاتخرج عن قصة حركات ثورية غير مجددة . على أن حجم هذا الكتاب لن يسمح لنا أن نحدثك حديث أنواع كفاح ذلك العصر المعقدة ، ولا حديث المحاولات التى بذلت لتمزيق المزارع الكبرى ورد الأرض للمزارع الحر ، ولا حديث المقترحات التى قدمت لإلغاء الديون جملة أو جزئيا . وجاء التمرد ونشبت الحرب الأهلية وزاد من شقاوة إيطاليا أن الرقيق ثاروا فى ٧٣ ق . م ثورة عظيمة بقيادة اسبارتاكوس ، وكان لثورة رقيق إيطاليا شىء من الأثر ، إذ كان فيهم كبار المقاتلين فى حفلات المجالدين (١) . وظل اسبارتاكوس صامدا سنتين فى فوهة بركان فيزوف ، الذى كان خامدا فى ذلك الزمن . ثم هزم الثائرون وأخمد العصيان بقسوة جنونية . فصلب سته آلاف من أتباع اسبارتاكوس على جانبى الطريق الآبيانى ، وهو الطريق العظيم الذى يمتد من روما نحو الجنوب (٧١ ق . م) .

---

(١) المجالدون (Gladiators): المصارعون فى العهد الرومانى ، وكانوا يقاتلون بالسلاح رجالا مثلهم أو وحوشا ضارية . وهى رياضة وحشية كانت تروق الرومان . ومكان هذه المصارعة كان يسمى بالمجتلد (Arena) [المترجم]

ولم يدر بخلد الرجل العادى قط أن يقاوم القوى التى كانت تخفضه وتحط من قدره. بيد أن الأغنياء الكبار الذين تغلبوا عليه كانوا حتى بعد أن أنزلوا به الهزيمة يجهزون قوة جديدة فى العالم الرومانى ما لبثت أن تغلبت فى النهاية عليهما جميعاً : هى قوة الجيش .

كان جيش روما قبل الحرب البونية الثانية يتكون من جند المزارعين الأحرار الذين كانوا يسيرون إلى المعركة مشاة أو راكبين بحسب مرتبتهم . وكان هذا النوع من القوات نافعاً جداً فى الحرب طالما كان ميدانها قريباً ، ولكنه ليس من نوع الجيوش التى تذهب إلى خارج البلاد وتتحمل أعباء الحملات الطويلة بصبر وجلد . وفضلا عن ذلك فقد ترتب على تكاثر الرقيق ونمو رقاع المزارع الكبرى ، أن تناقص عدد المقاتلة من الفلاحين الأباة الأحرار ، ثم ظهر قائد شعبى هو ماريوس فكان له الفضل فى إدخال عامل جديد . وذلك أن شمال إفريقيا أمسى بعد أن ذهبت ريح الحضارة القرطاجية دولة شبه همجية ، هى مملكة نوميديا . وحدث نزاع بين الدولة الرومانية وبين جوجرثا ملك تلك الدولة ، فكابدوا أهوالا كثيرة فى التغلب عليه . حتى إذا ثار الشعب غضباً لكرامته اضطر أولو الأمر إلى تعيين ماريوس قنصلا عاما للبلاد ، لينهى الحرب الشائنة . وتم له ذلك بجمعه الجند المأجورين وتدريبهم تدريباً شديداً .

وأحضر جوجرثا إلى روما مكبلا بالسلاسل (١٠٦ ق . م) ، فأما ماريوس فإنه تشبث بمنصبه كقنصل بعد أن انتهت مدته واستمسك به استمساكا غير شرعى تظاهره كتائبه المنشأة حديثاً ، ذلك أن روما لم تكن بها قوة تستطيع صده ومقاومته .

وبظهور ماريوس ابتدأ الدور الثالث فى تطور الدولة الرومانية : وهى جمهورية القواد العسكريين ، فالآن ابتدأت مرحلة كان فيها جنود الكتائب المأجورون يقاتلون فى سبيل السيطرة على العالم الرومانى . وثار على ماريوس قائد أرستقراطى هو سلا ، الذى كان يعمل تحت إمرته بإفريقيا . وقام كل منهما بدوره يعمل السيف بشدة فى خصومه السياسيين ، فكان الرجال يحرمون من حماية القانون ويعدمون بالألف ، كما تباع مزارعهم ، وبعد المنافسة الدموية التى اضطرمت بين هذين الرجلين وبعد الرعب الذى ملأ النفوس من جراء عصيان اسبارتاكوس ، جاء طور كان فيه لوكولوس

وبومبي الأكبر وكراسوس ويوليوس قيصر أمراء على الجيوش ومتسلطين على مقاليد الشئون وقد هزم اسبارتاكوس على يد كراسوس . أما لوكولوس فإنه فتح آسيا الصغرى وتوغل حتى أرمينية ، ثم تقاعد متمتعا بثراء عريض في حين أن كراسوس سار قدما وغزا بلاد فارس ثم هزمه البارثيون (الأشغانيون) وقتلوه . وبعد منافسة طويلة انهزم بومبي أمام يوليوس قيصر (٤٨ ق . م) ثم قتل بمصر تاركا يوليوس قيصر وحده سيدا على العالم الرومانى .

وشخصية يوليوس قيصر شخصية أثارت فى الخيال الإنسانى هزة أضاعت كل أسباب التناسب بينها وبين قيمتها أو أبعادها الحقيقية ، فلقد أصبح رمزا . وعندى أن أهميته تنحصر بوجه خاص فى كونه النذير الذى يؤذن بالانتقال من طور المغامرين العسكريين إلى بداية المرحلة الرابعة للتوسع الرومانى : وهى الإمبراطورية الأولى ، ذلك أن حدود الدولة الرومانية كانت تتقدم طوال ذلك الزمن نحو الخارج على الرغم من حدوث أعنف الاضطرابات الاقتصادية والسياسية ، وعلى الرغم من الحروب الأهلية والانحلال الاجتماعى ؛ وما زالت تلك الحدود تزحف نحو الخارج حتى بلغت أقصى حد لها حوالى ١٠٠ ميلادية .

أجل حدث للحدود شىء من الانـكماش فى أثناء فترات الشك والتخوف التى رانت على البلاد فى الحرب البونية ، كما كان هناك هبوط ظاهر فى الهمة فى المدة التى سبقت إعادة تنظيم الجيش على يد ماريوس ، وكانت ثورة اسبارتاكوس أمارة آذنت بدور ثالث ، وقد شاد يوليوس قيصر صيته الطيب كقائد حربى فى بلاد الغالة ، وهى تسمى الآن فرنسا وبلجيكا ، (كانت أهم القبائل التى تسكن ذلك القطر تنتمى إلى نفس الشعب الـكلتى الذى كان ينتمى إليه الغالة الذين احتلوا شمال إيطاليا ردحا من الزمن، والذين أغاروا فيما بعد على آسيا الصغرى واستقروا فيها تحت اسم الغلاطيين) . صد قيصر عن بلاد الغالة غارة قام بها الجرمان ، ثم ضم القطر كله إلى الإمبراطورية ، كما أنه عبر مضيق دوفر إلى بريطانيا مرتين (٥٥ و ٥٤ ق . م) ، غير أن فتحه لتلك البلاد لم يدم طويلا ، وفى نفس الوقت كان بومبي الأكبر يحكم الروابط بين أجزاء الفتوحات الرومانية التى بلغت فى الشرق بحر قزوين .

وفى ذلك الوقت أى منتصف القرن الأول ق . م ، كان مجلس الشيوخ الرومانى

لايزال هو المركز الأسمى للحكومة الرومانية ، وهو الذى يعين القناصل وغيرهم من الموظفين ، ويمنح السلطات وما شاكل ذلك . وكانت طائفة من رجال السياسة يبرز فيها اسم شيشرون ، تكافح من أجل صيانة التقاليد العظيمة لروما الجمهورية وللاحتفاظ لها بالاحترام وهيبة القوانين . بيد أن بواعث المواطنة وروحها كانت قد ولت من إيطاليا منذ ضيع الفلاحون الأحرار وتفرقوا بددا ؛ فقد استحالت البلاد الآن إلى أرض رقيق ورجال عضهم الفقر بنابه حرموا نعمة الفهم والرغبة فى الحرية ، ولم يكن ثمة شىء يناصر هؤلاء الزعماء الجمهوريين بمجلس الشيوخ ، بينما كانت الكتائب تحتشد من وراء المغامرين الكبار الذين كان المجلس يخشى بأسهم ويبغى إخضاعهم ، وكان كراسوس وپومپى وقيصر يتقاسمون فيما بينهم حكم الإمبراطورية متخطين السناتو فى ذلك (وهم الحكومة الثلاثية الأولى) وعندما قتل الأشغانيون كراسوس بعيد ذلك بمنطقة كارهاى النائية ، دب الخلاف بين پومپى وقيصر ، فانتصر پومپى للمبادىء الجمهورية ، وصدرت القوانين بمحاكمة قيصر على ما ارتكب من خرق للقانون ، وعلى عدم إطاعته لمراسيم مجلس الشيوخ .

ولم يكن القانون يبيح لأى قائد أن يتجاوز بجنده دائرة حدود قيادته ، وكان الحد الفاصل بين منطقة قيادة قيصر وبين إيطاليا هو نهر الروبيكون [بإقليم توسكانى] . وفى ٤٩ ق ، م عبر قيصر نهر الروبيكون قائلا : « الآن رميت القداح وسبق السيف العذل » ثم زحف بجيشه على پومپى وروما .

وقد جرت عادة روما فى الماضى ، أن تنتخب فى الفترات العسكرية العصيبة «دكتاتورا» له سلطات غير محدودة تقريبا ليتولى الحكم فيها فى أثناء الأزمة . وبعد أن قضى قيصر على پومپى عين دكتاتورا لمدة عشر سنوات أولا ثم مدى الحياة فى (٤٥ ق . م) . والواقع أنه جعل عاهلا للامبراطورية مدى الحياة ، ثم دارت الأحاديث فى شأن الملكية والملوك ، وهى كلمة بغضت إلى الرومان منذ طرد الإترسك قبل ذلك بخمسة قرون . ورفض قيصر أن يكون ملكا ، بيد أنه اتخذ العرش والصولجان .

وكان قيصر قد واصل زحفه إلى مصر بعد هزيمة پومپى ، وأخذ يطارح كليوبطرة

الغرام ، وهى آخر البطالمة ، وملكة مصر الربة ، ويلوح أنها لعبت برأسه تماما ، وعاد قيصر إلى روما حاملا معه فكرة « الملك المؤله » المصرية . وشاهد ذلك أن تمثاله أقيم فى أحد المعابد وعليه عبارة نصها : « إلى الإله الذى لايقهر » . ولآخر مرة اندلع من الروح الجمهورية المحتضرة بروما لهيب احتجاج أخير ، وطعن قيصر بالخناجر حتى قضى نحبه فى مجلس الشيوخ تحت أقدام تمثال منافسه المصروع بومبى الكبير .

انقضت ثلاث عشرة سنة أخرى استمر فيها هذا الصراع بين الشخصيات الطامحة . وظهرت هيئة ثلاثية أخرى مكونة من لبيدوس ومارك أنطونيو وأوكتافيوس قيصر ، وهو ابن أخى يوليوس قيصر وأخذ أوكتافيوس كعمه الولايات الغربية الأشد فقراً والأقوى شكيمة . والتى كانت تجند منها أحسن الكتائب ، وتمكن فى ٣١ ق . م من هزيمة مارك أنطونيو منافسه الخطر الوحيد فى معركة أكتيوم البحرية ، وبذلك جعل من نفسه السيد الأوحد للعالم الرومانى .

على أن أوكتافيوس كان رجلا من طينة أخرى مخالفة تماما ليوليوس قيصر . فلم يخامره أى حنين طائش لأن يصبح إلها أو ملكا . ولم تكن له ملكة معشوقة يريد أن يبهرها بضيائه . فأعاد الحرية لمجلس الشيوخ ولشعب روما ، وأبى أن يصبح دكتاتوراً . وغلب الشكر على السناتو فأسلم إليه مقابل ذلك جوهر السلطان بدلا من صورته الشكلية . أجل لم يلقبه حقا بالملك ، بل أطلق عليه لقب « الأمير » ولقبه بـ« أوغسطوس » . ثم أصبح لقبه بعد ذلك أوغسطوس قيصر أول أباطرة الرومان (٢٧ ق م إلى ١٤ م) .

وخلفه تيبريوس قيصر (١٤ م – ٣٧ م) ، وأعقب هذا آخرون ، هم كاليجولا وكلوديوس ونيرون ، وهكذا حتى جاء تراجان (٩٨ م) ، وهادريان (١١٧ م) ، وأنطونيوس بيوس (١٣٨ م) وماركوس أوريليوس (١٦١ – ١٨٠ م) ، وهم جميعا أباطرة كتائب ، فالجند هم الذين نصبوهم ، والجند هم الذين قضوا على بعضهم ، وأخذت سلطة مجلس الشيوخ تتقلص شيئا فشيئا وتتوارى من التاريخ الرومانى ، بينما جعل الإمبراطور وموظفوه الإداريون يحلون محله .

عند ذلك كانت حدود الإمبراطورية قد ترامت نحو الخارج إلى أقصى حد لها ،

فضم الشطر الأكبر من بريطانيا إلى الإمبراطورية ، ثم ضمت ترنسلفانيا بوصفها مقاطعة جديدة أسميت « داكيا » وعبر تراجان نهر الفرات .

ومن عجب أن هادريان ساورته فكرة تذكرنا على الفور بما حدث فى الطرف الآخر للعالم القديم . فإنه — شأن شى هوانج تى — شيد الأسوار ليصد برابرة الشمال ؟ فبنى أحدها عبر بريطانيا من اليمين إلى اليسار ، ومد الحواجز الدفاعية بين نهرى الرين والدانوب ، وتخلى عن بعض ما استولى عليه تراجان .

فإن توسع الإمبراطورية الرومانية بلغ أقصى مداه .

الفصل الرابع والثلاثون

بين روما والصين

يؤذن القرنان الثانى والأول قبل الميلاد بظهور مرحلة جديدة فى تاريخ البشرية . فلم تعد أرض الجزيرة ولا البحر المتوسط الشرقى مركز الاهتمام . أجل لم تزل كل من أرض الجزيرة ومصر على سابق خصوبتها وازدحامها بالسكان ورغدها المتوسط ، بيد أنهما لم تعودا بعد الإقليمين المتسلطين على العالم . إذ إن القوة انتقلت غربا وشرقا ، وآلت سيادة العالم آنذاك إلى إمبراطوريتين عظيمتين : تلك الإمبراطورية الرومانية الجديدة ، وإمبراطورية الصين الحديثة النهوض والبعث .

ومدت روما سلطانها إلى نهر الفرات ، غير أنها لم تستطع ألبتة تجاوز ذلك الحد لفرط بعده عنها . ومن وراء الفرات انتقلت ممتلكات السلوقيين السابقة بالهند وفارس إلى يد عدد من سادة جدد .

أما الصين ـ التى كانت آنذاك تحت حكم أسرة « هان » التى خلفت أسرة « تسئن » عند وفاة شى هوانج تى ـ فإن سلطانها انبسط آنذاك إلى التركستان الغربية عبر بلاد التبت وفوق ممرات هضبة البامير الجبلية العالية . ولكنها بلغت هناك أيضاً حدها الأقصى ، أما ما وراء ذلك فكان سحيق البعد .

وكانت الصين فى ذلك الزمان أعظم نظام سياسى فى العالم وأحسنه تنظيما وأكثره تمدنا . كانت من حيث الاتساع وعدد السكان تفوق الإمبراطورية الرومانية وهى فى أوج مجدها . من هنا يتبين إذن أن هاتين الدولتين العظيمتين قد أمكن أن تزدهرا فى عالم واحد ووقت واحد دون أن تعلم إحداهما بوجود الأخرى . ذلك أن وسائل المواصلات فى كل من البر والبحر لم تكن قد بلغت بعد من التطور والتنظيم الدرجة الكفيلة بالاحتكاك المباشر بينهما .

على أن التفاعل تم بينهما مع ذلك بطريقة عجيبة جدا ، وكان تأثيرهما عميقاً شديداً

فى مصير الأقاليم التى تقع بينهما وهى آسيا الوسطى والهند : إذ إن قدرا بعينه من التجارة كان يترقرق فى تلك الأقاليم على ظهور الجمال بطريق القوافل عبر بلاد فارس مثلا ، وبالسفن الساحلية بطريق الهند والبحر الأحمر

وفى ٦٦ ق . م زحفت الجنود الرومانية بقيادة بومبى مقتفية خطى الاسكندر الأكبر على الشواطئ الشرقية لبحر قزوين . وفى ١٠٢ م وصلت إلى بحر قزوين حملة عسكرية بقيادة پان تشاو ، وأرسلت مبعوثيها ليقدموا لها التقارير عن قوة دولة الرومان . ولكن قدر أن تمر قرون أخرى كثيرة قبل أن تتهيأ للمعلومات المحددة والعلاقات المباشرة أن تربط العالمين العظيمين المتوازيين ، عالمى أوربا وآسيا الشرقية .

وإلى الشمال من هاتين الإمبراطوريتين العظيمتين كانت تنبسط البرارى الهمجية المتبربرة . فكانت منطقة ألمانيا الحالية إقليما تكسو الغابات معظمه ، على حين كانت الغابات تتوغل قدما فى صميم الروسيا ليستوطنها الثور الجبار (الأوروك) ، الذى يقارب حجمه حجم الفيل . ثم كان يمتد بعد ذلك إلى الشمال من الكتل الجبلية الآسيوية العظيمة شريط من الصحراوات والسهوب تجىء بعد الغابات والأراضى المتجمدة . ويقع مثلث منشوريا العظيم فى المنبسط الواقع شرقى المرتفعات الآسيوية .

إن أجزاء كبيرة من هذه المناطق تمتد من جنوبى الروسيا والتركستان حتى منشوريا كانت ولا تزال مناطق غير ثابتة المناخ إلى درجة خارقة . فقد تغيرت كمية الأمطار تغيرا كبيرا فى مدى بضعة قرون . فهى بلاد غادرة تخون الإنسان . تمر عليها سنوات متعاقبة وهى ممتلئة بالحشائش والكلأ الذى يقوت[١] السكان ، ثم تجىء فترة انخفاض فى الأمطار ودورة من دورات الجفاف والقحط المهلك .

والجزء الغربى لهذه المنطقة الشمالية الهمجية الممتد من الغابات الألمانية إلى جنوب الروسيا والتركستان ومن جوثلنده [بالسويد] إلى جبال الألب هو الأرض الأصلية للشعوب النوردية واللسان الآرى . كما أن السهوب الشرقية وصحراء منغوليا هى منبت الشعوب الهونية أو المغولية أو التتارية أو التركية — ذلك أن كل هذه

---

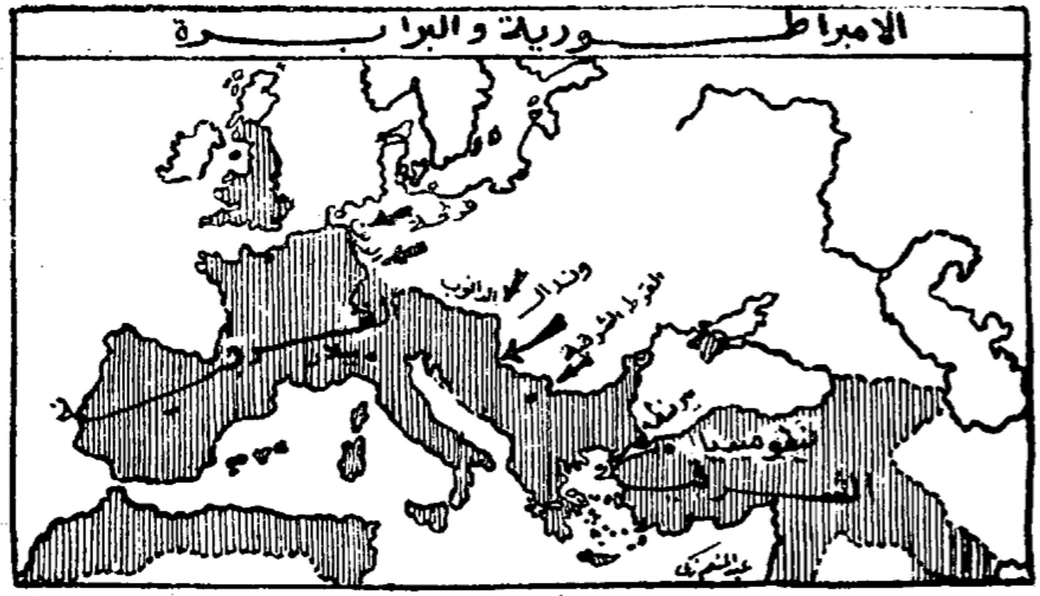
(١) يقوت السكان : يرزقهم ويعطيهم القوت ويعولهم من (قات يقوت قوتا)

الشعوب المتعددة كانت متماثلة فى اللغة والعنصر وطريقة الحياة . وكما أن الشعوب النوردية كانت تطغى دائما فيما يظهر على حدودها ، وتضغط جنوبا على الحضارات النامية بأرض الجزيرة وساحل المتوسط ، فكذلك كانت القبائل الهونية ترسل فائضها على صورة جوالين ومترحلين ومغيرين وفاتحين فى أقاليم الصين المأهولة بالمستقرين . وكانت فترات الوفرة والخيرات بأقاليم الشمال تعنى زيادة عدد من بها من سكان ؛ ولكن إذا حدث نقص فى العشب أو حلت نوبة من نوبات طاعون الماشية ، لم يكن مفر من أن يؤدى ذلك إلى دفع رجال القبائل الجياع المقاتلين الأشداء نحو الجنوب .

وجاء زمان اجتمعت فيه فى العالم إمبراطوريتان قويتان إلى حد ما تستطيعان صد البرابرة ، بل دفع خط السلام الإمبراطورى إلى الأمام . وظلت إمبراطورية هان تضغط من شمال الصين إلى قلب منغوليا ضغطا قويا لا ينقطع . وكان السكان الصينيون ينطلقون من وراء السور العظيم ، وكان الفلاح الصينى ومعه المحراث والحصان يتقدم فى إثر حارس الحدود الإمبراطورى ، فيحرث منابت الكلأ ويحيط المراعى الشتوية بالسياجات . وكانت الشعوب الهونية تغير على المستقرين وتقتلهم ، بيد أن حملات الصينيين التأديبية كانت لهم بالمرصاد .

ولم يكن للرحل بد من الاختيار بين أحد أمرين ، فإما الاستقرار فى حياة الزراعة ودفع الضرائب للحكومة الصينية ، وإما الرحيل طلباً لمراع صيفية جديدة . وسلك بعضهم الطريق الأول فابتلعته بلاد الصين ، وانتقل بعضهم نحو الشمال الشرقى أو نحو الشرق من فوق الممرات الجبلية وانحدروا إلى التركستان الغربية .

وهذا الانتقال غربا للخيالة المغوليين بدأ يحدث منذ ٢٠٠ ق . م ؛ وكلما حدث ، دفعت القبائل الآرية نحو الغرب ، فيضغط هؤلاء بدورهم على الحدود الرومانية التى هم على استعداد لاختراقها بمجرد ظهور أى عارض من عوارض الضعف . وجاء الأشقانيون (البارثيون ، وهم فيما يظهر شعب أشقوزى تخالطه بعض شوائب مغولية) ونزلوا أرض الفرات عند القرن الأول قبل الميلاد ، فقاتلوا پومپى الكبير فى غارته على بلاد الشرق وهزموا كراسوس وقتلوه ، وأنزلوا ملوك السلوقيين عن عرش فارس ،



خريطة رقم (٧)

وتبدلوا بهم ملوكا من الأشقانيين ، هى الأسرة الأرشكية[١] .

ولـكن جاء زمان كانت فيه أضعف مناطق المقاومة للرحل الجياع لاتقع فى الغرب ولا فى الشرق ، بل تسير فى آسيا الوسطى ، ثم تنحرف جنوباً بشرق عابرة ممر خيبر إلى بلاد الهند . فالهند هى القطر الذى تلقى حركة الانتقال المغولية إبان هـذه القرون التى قويت فيها شوكة الصينيين والرومان . وانثالت موجات متـكررة من الفاتحين والمغيرين خلال إقليم البنجاب حتى وصلت إلى السهول العظيمة تعمل فيها نهباً وتخريبا ، فتمزقت إمبراطورية آسوكا ، وانحـدر تاريخ الهنـد حينا من الدهر إلى غياهب الظلمات . ..

(١) الأسرة الأرشكية : أسرة بارثية ملـكية مؤسسها أرشك الذى اقتطع مملـكته من دولة السلوقيين فى ٢٥٠ ق م ، ودامت حتى قضى عليها فى ٢٢٦ ميلادية أردشير مؤسس الدولة الساسانية .

[المترجم]

وجاءت فترة حكمت فيها بشمال الهند باسطة عليها شيئاً من النظام أسرة كوشانية بعينها أسستها قبائل « الهندواشقوذيين Inbo — Scythians » وهم جيل من الشعوب المغيرة . وتواصلت هذه الغزوات بضعة قرون . ونكبت الهند دهرا طويلا من القرن الخامس الميلادى بالإفثاليين أو الهون البيض ، الذين كانوا يجبون الجزية من الأمراء الصغار ، ويوقعون الرعب فى أرجاء البلاد . وكلما أقبل الصيف رحل هؤلاء الإفثاليون إلى التركستان الغربية ليرعوا ماشيتهم ، فإذا جاء الخريف عادوا بطريق الممرات وقذفوا الرعب فى قلوب السكان الوادعين .

وحلت بالإمبراطوريتين الرومانية والصينية فى القرن الميلادى الثانى نكبة عظيمة ، لعلها أضعفت مقاومتهما جميعا لضغط البرابرة ، فإنهما أصيبتا بوباء وبيل لا نظير له . ظل ذلك الوباء يتفشى بشدة فى بلاد الصين أحد عشر عاما ، حتى أفسد النظام الاجتماعى أشد الفساد ، فسقطت أسرة هان ، وابتدأ عصر جديد من عصور الانقسام والفوضى ، لم تستطع الصين أن تفيق منه تماما إلا فى القرن السابع الميلادى عند ظهور أسرة تانج العظيمة

وانتشرت العدوى خلال آسيا إلى أوربا وأخذ الوباء ينتشر فى أرجاء الإمبراطورية من ١٦٤ إلى ١٨٠ م . وواضح أنه هز كيانها إلى حد خطير جدا . فإنا نسمع بعد ذلك عن نقص السكان بالولايات الرومانية ، كما نشهد انحلالا ملحوظا فى قوة الحكومة وكفايتها . ومهما يكن الأمر فإنا نعلم للفور أن التخوم لم تعد منيعة لا يمكن اختراقها ، ونجدها تتداعى فى هذا المكان أولا ، وفى ذاك ثانيا .

وثمة شعب نوردى جديد هو القوط جاء أصلا من جوثلندة ببلاد السويد . ثم هاجر عبر الروسيا إلى منطقة الفولجا وشواطئ البحر الأسود حيث جنح إلى البحر وإلى أعمال القرصنة . ولعلهم شرعوا عند نهاية القرن الثانى يشعرون بضغط هجوم الهون غربا عليهم . وفى ٢٤٧ م قاموا بغارة برية عظيمة فعبروا نهر الطونة (الدانوب) وهزموا الإمبراطور ديكيوس وقتلوه فى معركة دارت رحاها فيما يسمى الآن ببلاد الصرب . وفى ٢٣٦ . م اخترق الحدود عند نهر الرين الأدنى شعب جرمانى آخر هو

الفرنجة ، كما انهال الألمانى على إقليم الألزاس . وتمكنت الكتائب المعسكرة ببلاد الغال من صد المغيرين عليها ؛ ولكن القوط النازلين بشبه جزيرة البلقان أعادوا الإغارة هناك مرة بعد أخرى . فاختفت مقاطعة داكيا من التاريخ الرومانى .

لقد دبت برودة الموت فى كبرياء روما وثقتها بنفسها . وفى ٢٧٠ — ٢٧٥ م حصن الإمبراطور أوريليان روما بعد أن ظلت ثلاثة قرون مدينة آمنة مفتوحة .

الفصل الخامس والثلاثون

حياة الرجل العادى

فى عهد الإمبراطورية الرومانية القديمة

قبل أن نحدثك كيف وقعت هذه الإمبراطورية الرومانية فى مهاوى الفوضى وتمزقت إربا بعد أن تكونت فى القرنين السابقين للميلاد ، وازدهرت فى بحبوحة السلام والطمأنينة منذ أيام أوغسطوس قيصر مدة قرنين آخرين — يجدر بنا أيضاً أن نوجه بعض عنايتنا إلى حياة الناس العاديين أعنى العامة فى أثناء عصر هذه الدولة العظيمة . لقد وصلنا فى تأريخنا الآن إلى حوالى ألف سنة من زماننا هذا ، كما أن حياة الناس المتحضرين الذين كانوا يعيشون فى ظل من « سلام » روما و « سلام » أسرة هان ، قد أخــذت تقترب رويداً رويداً من حياة خلفائهم المتحضرين فى يومنا هذا .

وكان استخدام النقود المسكوكة شائعاً آنذاك فى العالم الغربى ، وأصبح لكثير من الناس خارج عالم الكهانة موارد مستقلة دون أن يكونوا من موظفى الدولة ولا من الكهان ، وبات الناس يمشون فى مناكب الأرض بحرية لم تتسن لهم من قبل أبدا ، وأنشئت الطرق العامة وشيدت الفنادق لنزولهم ؛ فلو قارنت حياتهم بما كانت عليه فى الماضى أى قبل ٥٠٠ ق . م ، لوجدتها أكثر رخاء ويسرا . وقبل ذلك التاريخ كان المتحضرون مقيدين بناحية أو إقليم ، مقيدين بالتقاليد ، يعيشون فى حدود أفق ضيق جداً ، ولم يكن أحد يستطيع الاتجار أو السفر إلا الشعوب الرحل .

بيد أنه لا « السلام » الرومانى ولا « السلام » الصينى لدى أسرة هان كان يعنى أن الحضارة انتشرت انتشارا منتظماً فى الأقاليم الضخمة الواقعة تحت سيطرتهما . فالفوارق المحلية عظيمة جدا بين إقليم وآخر ، كما أن التناقضات وعدم المساواة فى الثقافة عظيمة أيضاً بين ناحية وأخرى ، كما هو الحال اليوم فى ظلال « السلام » البريطانى بالهند ، وكانت الحاميات والمستعمرات الرومانية تنتثر هنا وهناك فى أرجاء تلك المساحة العظيمة ، وهى تعبد آلهة الرومان وتتكلم بلغتهم ؛ فإن كانت هناك مدن

أو بلدان قبل مجىء الرومان تركت لها إدارة شئونها عندئذ وإن أخضعت ، وسمح لها فترة على الأقل بعبادة آلهتها بطريقتها الخاصة . ولم تنتشر اللغة اللاتينية ألبتة فى بلاد الإغريق وآسيا الصغرى ومصر والشرق المهلن[١] عامة مذ كانت الإغريقية هى السائدة هناك ولا سبيل إلى قهرها . وكان شاؤول الطرسوسى الذى أصبح بولس الرسول ، يهوديا ومواطناً رومانياً ، غير أنه كان يتحدث بالإغريقية ويكتب بها دون العبرانية . بل لقد بلغ الأمر أن اليونانية كانت لغة الطبقة الراقية فى بلاط يقع خارج الدولة الرومانية تماما ، هو بلاط الأسرة الأشقانية التى خلعت السلوقيين الإغريق عن عرش فارس . وكذلك صمدت أيضاً اللغة القرطاجية فى بعض أصقاع إسبانيا وشمال إفريقية زماناً طويلا ، على الرغم من تدمير قرطاجنة . فإن مدينة كإشبيلية ، ذلك البلد الذى أوتى الغنى والرخاء قبل أن يسمع الناس باسم الرومان بزمن بعيد ، ظلت تحافظ على معبودتها الربة السامية وتنطق بلسانها السامى مدة أجيال عديدة على الرغم من وجود مستعمرة من محنكة جند الرومان بإقليم إيتاليكا على بضعة أميال منها . وهنالك الإمبراطور سبتميوس سيفيروس (تولى العرش من ١٩٣ – ٢١١) الذى كانت القرطاجية لغته القومية . ثم تعلم اللاتينية فيما بعد كلغة أجنبية ، ويسجل التاريخ أن أخته لم تتعلم اللاتينية قط ، وأنها كانت تتفاهم فى دارها بروما باللغة الفينيقية .

أما المناطق التى لم تكن بها من قبل مدن كبرى ، ولا معابد ، ولا ثقافات ، كبلاد الغالة وبريطانيا وولايات داكيا (وهى الآن رومانيا على وجه التقريب) وبانونيا (وهى الآن بلاد المجر جنوبى الدانوب) ، فإن الإمبراطورية استطاعت على كل حال أن تصبغها بالصباغ اللاتينى . وهى التى مدنت هذه الأقطار لأول مرة ، وأنشأت مدنا كانت اللاتينية فيها هى اللسان الغالب منذ البداية ، وكانت آلهة الرومان تعبد فيها ، كما يتبع بها عرف الرومان وعاداتهم . وما اللغات الرومانية والإيطالية والفرنسية والإسبانية ـ وكلها مشتقة من اللاتينية ـ إلا تذكرة لنا بهذا الامتداد للسان والعرف اللاتينى ، وأصبح شمال غربى إفريقية فى النهاية ناطقا باللاتينية إلى حد كبير .

---

(١) المهلن : Hellenized : المطبوع بالطابع الهلينى . [المترجم]

أما مصر وبلاد الإغريق وسائر أجزاء الإمبراطورية الواقعة شرقا فلم تصطبغ قط بالصباغ اللاتيني ، بل ظلت مصرية وإغريقية روحا وثقافة . وبلغ الأمر باليونانية أن انتشرت بروما نفسها ، فتعلمها المتعلمون بوصفها لغة علية القوم ، كما أن أدب اليونان وعلمهم كانا يفضلان على اللاتيني فى أرجح الاحتمالات .

وكان من الطبيعى فى مثل هذه الإمبراطورية المختلفة أن تكون طرائق أداء الأعمال والأشغال فيها جد مختلطة أيضاً ، كما أن الزراعة كانت إلى حد كبير رأس صناعات العالم المستقر . وقد أسلفنا لك كيف حلت المزارع الكبيرة والعمال الأرقاء محل المزارعين الأشداء الأحرار الذين كانوا هم العمود الفقرى للجمهورية الرومانية القديمة . أما العالم اليونانى فكانت أساليب الزراعة فيه منوعة جدا ، منها الطريقة الأركادية ، التى كان كل مواطن حر يكدح بمقتضاها بيديه ، ومنها خطة إسبرطة ، التى كان من المهانة فيها أن يعمل المرء بيديه ، والتى كان العمل الزراعى فيها تقوم به طبقة خاصة من رقيق الأرض هم الهيلوطيين (Helots) . بيد أن هذه الأمور كانت قد أصبحت فى تلك الأيام نفسها قطعة من التاريخ العتيق ، فإن طريقة المزارع الكبيرة وفرق الأرقاء كانت قد انتشرت فى معظم أرجاء العالم الهلينى . كما أن الأرقاء الزراعيين كانوا أسرى يتكلمون لغات مختلفة كثيرة ، ولا يستطيعون لذلك أن يفهم بعضهم بعضاً ، أو كانوا عبيدا بمولدهم ، لم يكن بينهم تضامن لمقاومة الاضطهاد ، ولا تقاليد لحقوق يتناقلونها ولا معرفة يفيدونها ، ذلك أنهم كانوا أميين لا يعرفون القراءة والكتابة . ومع أنهم صاروا على مدى الأيام الأغلبية بين سكان البلاد ، فإنهم لم يقوموا ألبتة بحركة ثورية ناجحة . أما ثورة اسبارتاكوس التى اندلعت فى القرن الأول ق.م ، فهى ثورة للأرقاء الخصوصيين الذين كانوا يدربون لمصارعات المجالدين . وكان عمال الزراعة بإيطاليا فى أواخر أيام الجمهورية وأوائل عهد الإمبراطورية يلاقون شر الإهانات ، فيربطون بالسلاسل ليلا لمنعهم من الهرب أو تحلق نصف رءوسهم ليصعب الفرار عليهم ، ولم تكن لهم زوجات ، ومن حق سادتهم انتهاك حرماتهم والتنكيل بهم أو قتلهم . وكان فى إمكان السيد أن يبيع عبده ليقاتل الوحوش فى المجتلد ، فإذا قتل عبد سيده ، صلب القاتل وجميع من فى الدار من عبيد . نعم إن بعض أرجاء بلاد الإغريق وبخاصة أثينا ، لم يكن حظ الرقيق فيها رهيباً إلى هذه الدرجة تماماً ، بيد أنه كان مع ذلك حظاً بغيضاً إلى نفوسهم . ولذا فالمغيرون والهمج الذين أخذوا يخترقون

خط دفاع الكتائب ، لا يعدون فى نظر مثل هؤلاء السكان أعداء بل محررين ومنقذين .

وقد انتشر نظام الرقيق فى معظم الصناعات وفى كل نوع من أنواع العمل تستطيع الجماعات عمله . فالعمل بالمناجم وصناعات المعادن والتجديف فى السفن ورصف الطرق وعمليات البناء الكبرى تتم فى الأغلب على يد الأرقاء . كما أن الرقيق كان يقوم بكل الأعمال المنزلية تقريباً . كان هناك رجال أحرار فقراء ، ورجال عتقاء يعملون فى المدن والمناطق الريفية ، إما لحساب أنفسهم وإما مقابل أجر يتناولونه ، ومنهم الصانع الماهر والمشرف على العمال وما شاكل ذلك ، وهم عمال من طبقة جديدة تتلقى الأجور نقداً وتنافس العمال الأرقاء ؛ على أننا نجهل مدى النسبة بينهم وبين عدد السكان عامة . ولعلها كانت تتباين تبايناً بعيداً باختلاف الأماكن والأزمان . وأدخلت على نظام الرق تعديلات جمة ، فها هنا عبد يقيد بالأغلال ليلا ثم يدفع بالسياط إلى المزرعة أو المحجر نهاراً ، وهناك العبد الذى وجد سيده أن من المصلحة أن يتركه يزرع قطعة أرضه الصغيرة ، أو يعمل فى صنعته ويستمتع بملكية زوجته كالرجل الحر ، على شريطة أن يدفع لسيده مبلغاً مرضياً ثمناً لحريته .

كان هناك عبيد مدربون على حمل السلاح . وقد ابتعثت فى روما قبيل بداية الحروب البونية فى ٢٦٣ ق . م الرياضة الإترسكية ، التى كان العبد الرقيق يضطر فيها إلى القتال لينقذ حياته . وسرعان ما لقيت تلك اللعبة رواجاً كبيراً ، وما لبث كل عظيم من أغنياء الرومان أن احتفظ لنفسه بحاشيه من المجالدين ، الذين كانوا يقاتلون أحياناً فى المجتلد ، والذين كان عملهم الحقيقى هو أن يكونوا حرسه الخاص من (البلطجية) .

وكان هناك أيضا عبيد علماء . ذلك أن فتوح الجمهورية المتأخرة شملت المدن الراقية التمدن ببلاد الإغريق وشمال إفريقية وآسيا الصغرى ؛ فأمدتها بكثير من الأسرى الواسعى العلم والاطلاع . حتى لقد جرت العادة أن يكون معلم أى فتى رومانى من عائلة كريمة عبداً . وإن الرجل الغنى ليملك العبد الإغريقى ويتخذه خازنا لمكتبته ، كما يتخذ الأمناء (السكرتيرين) والعلماء من الأرقاء . وإنه ليحتفظ بشاعره مثلما يحتفظ بكلبه القادر على أداء الألاعيب اللطيفة . وفى هذا الجو من العبودية تطورت تقاليد النقد

الأدبى والدراسات الأدبيــة العصرية متسمة بالتدقيق والتخوف والميل إلى الشحناء . وثمة أقوام ميالون إلى التجارة كانوا يشترون الغلام الذكى ثم يعلمونه لـكى يبيعوه عندما يشب ، وكان العبيد يدربون على نسخ الـكتب وصياغة الجواهر وغير ذلك مما لا حصر له من المهن التى تستدعى المهارة .

وقد طرأت على مركز الأرقاء تغيرات جوهرية فى أثناء السنوات الأربعمائة التى امتدت بين أيام الفتح الأول فى عهد جمهورية الأغنياء وبين أيام الانحلال التى أعقبت الوباء العظيم . وتكاثر عدد أسرى الحرب فى القرن الثانى ق . م ، وأصبحت الطباع خشنة وحشية ؛ ولم يكن للرقيق أية حقوق ، وما من امتهان أو انتهاك يدور بخلد القارئ إلا كان ينزل على رأس الأرقاء فى تلك الأيام . ولـكن ظهر بالفعـل إبان القرن الأول الميلادى تحسن ملحوظ فى اتجاه الحضارة الرومانية إزاء الرق . ذلك أن الأسرى قل عددهم لسبب من الأسباب ، كما أن العبيد صاروا أغلى ثمنا . فبدأ أصحاب الأرقاء يدركون أن الربح والراحة اللذين يجدونهما على يد عبيدهم يزيدان إذا استمتع هؤلاء بالاحترام الذاتى . هذا إلى أن الشعور الخلقى للمجتمع أخذ يسمو ، وأن شعوراً بالعدالة أخذ يؤتى ثماره ؛ فإن عقلية الإغريق الراقية كانت تهذب من خشونة الرومانيين . وضيق الخناق على القساة . فلم يعد يجوز للسيد أن يبيع عبده ليقاتل الوحوش ، ومنح العبد حقوق الملـكية فيما كان يسمى باسم الملك الخاص (Peculium) ، وصار الأرقاء يتناولون أجوراً تشجيعاً لهم وحثا لهم على العمل ، واعترف القانون بنوع من الزوجية للعبيد . ومن المعلوم أن كثرة كبيرة من أنواع الزراعة لا تصلح لعمل فرق العمال ، أولا تحتاج إليها إلا فى مواسم بعينها . فـكان العبد فى المناطق التى من هذا القبيل ينقلب للوقت إلى رقيق أرض Serf[1] ، يدفع لمالـكه جزءاً من محصوله أو يعمل عنده فى مواسم معينة .

ومتى أيقنا أن هذه الإمبراطورية الرومانية الـكبرى الناطقة بالإغريقية فى القرنين الميلاديين الأولين كانت فى جوهرها دولة رقيق ، وعرفنا كم كانت الأقلية التى تسعد فى حياتها بشىء من الحرية أو الـكبرياء ضئيلة العدد ، وضعنا أصابعنا على بيت الداء فى

---

(١) رقيق الأرض أو مولى الأرض . عبد تابع لنبيل يحرث له أرضه ويباع ويشترى مع تلك الأرض . [المترجم]

انحلالها وانهيارها . فما نسميه باسم الحياة العائلية لم يكن منه لديهم إلا النزر اليسير ، أما العيش المعتدل والفكر والدراسة الناشطة فلا مكان لها إلا فى بيوت قليلة ؛ وكانت المدارس والكليات قليلة ومتباعدة . وأنى لك أن تجد الإدارة الحرة والعقل الحر فى أى مكان . أما الطرق العظيمة ، وخرائب البنايات الفخمة ، وتقاليد القانون والسلطان التى خلقتها وأثارت بها دهشة الأجيال التالية ، فيجب ألا تخفى عن أعيننا أن كل أبهتها الظاهرة أقيمت على إرادات مسلوبة وذكاء مكبوت ورغبات كسيحة ومنحرفة . وحتى الأقلية التى كانت تسودها فوق خضم الاستعباد المتلاطم ، ولجات القمع والسخرة ، كانت أرواحها تتقلب على جمر القلق والتعاسة . وفى ذلك الجو القاتل اضمحل الفن والأدب والعلم والفلسفة ، التى هى ثمار العقول الحرة السعيدة .

أجل جرى الشىء الكثير من النقل والمحاكاة ، وتزايد عدد الصناع الفنيين ، وتكاثر متحذلقة العبيد بين صفوف رجال العلم الأذلاء ، إلا أن الإمبراطورية الرومانية جمعاء لم تنتج فى مدى أربعة قرون شيئاً يمكن موازنته بالنشاط العقلى الجرىء النبيل ، الذى بذلته مدينة أثينا الصغيرة نسبيا فى أثناء قرن عظمتها الوحيد، ولم تصب أثينا فى ظلال الصولجان الرومانى إلا الانحطاط والتدهور . واضمحل علم الإسكندرية بل يلوح أن روح الإنسان كانت تضمحل فى تلك الأيام .

الفصل السادس والثلاثون

التطورات الدينية

فى ظلال الإمبراطورية الرومانية

أصيبت روح الإنسان فى عهد تلك الإمبراطورية اللاتينية اليونانية إبان القرنين الأولين من الحقبة المسيحية بالاضطراب والحبوط ، فرانت القسوة والإكراه على كل ربوعها . كان هناك ، لاجرم ، الكبرياء والتظاهر ، ولكن ليس معها إلا القليل من الشرف ، وإلا القليل من الصفاء ، ومن السعادة الدائمة . وكان البؤساء محتقرين تعسين ، بينما أولو الحظوظ غير مطمئنين ، متلهفون على إشباع الرغبات تلهف المحموم . كانت الحياة تتمركز فى عدد عظيم من المدن حول انفعالات المجتلد المضرجة بالدماء حيث يصطرع الرجال والوحوش ويتعذبون ويذبحون . . . والمدرجات(١) هى أبرز عناصر الخرائب الرومانية . وتمضى الحياة على هذا النهج ، والقلق الذى يأ كل قلوب الناس يتخذ صورة القلق الدينى العميق .

فمنذ اخترقت الحشود الآرية لأول مرة حدود المدنيات العتيقة ، لم يكن مفر من أن تلم التكيفات العظيمة بالأرباب والكهانات القديمة ، أو تذهب من الوجود جملة . وقبل ذلك بمئات الأجيال ظلت الشعوب الزراعية فى المدنيات السمراء تشكل حياتها وأفكارها وفق الحياة المتركزة حول المعبد .

وكانت رعاية المراسم ، والخوف من مخالفة القواعد المتبعة والتقاليد والقرابين والخفايا ، تطغى على أذهانهم . وتبدو آلهتهم فظيعة وغير منطقية فى نظر عقولنا

---

(١) المدرج (Amphitheatre) : مسرح دائرى فى الوسط هو المجتلد تحيط به المقاعد فى صفوف دائرية متصاعدة يعلو بعضها بعضا ، وتشرف على المجتلد . [المترجم]

العصرية ، وذلك لأننا ننتمي إلى عالم غلب عليه الطابع الآرى ، ولكن هذه الآلهة كانت لها عند هذه الشعوب القديمة نفس الإقناع المباشر ونصاعة الإشراق التى تتجلى بها الأشياء حين ترى فى حلم أخاذ . فإذا غزت دولة مدينة دولة أخرى كسومر أو مصر القديمة ، كان معنى هذا تغير الأرباب أو الربات ، أو تغيير أسمائهم على الأقل ، ولكن شكل العبادة وروحها كانا يظلان سليمين لم يمسسهما سوء . فالتغيير لم يكن يمس هيئتها العامة من بعيد أو قريب ، فكأن الصور المرئية فى الحلم كانت تتغير ، ولكن الرؤيا تظل مستمرة . ثم إن الفاتحين الساميين الأولين كانوا من وثيق المشابهة فى روحهم للسومريين بحيث اعتنقوا ديانة حضارة أرض الجزيرة التى أخضعوها ، دون أن يدخلوا على تلك الديانة أى تعديل . والواقع أنه لم يحدث أبداً أن مصر أخضعت إخضاعا يعرضها لانقلاب دينى . فظلت معابدها ، وهيا كلها ، وكهاناتها ، مصرية صميمة فى ظلال حكم البطالمة والقياصرة على السواء .

وطالما كانت الفتوحات تحدث بين شعوب ذات عادات اجتماعية ودينية متماثلة ، كان فى الإمكان التغلب بعملية تجميع وتمثل — على ما بين رب هذا المعبد وهذا الإقليم ورب ذاك من تعارض ، فإذا تشابه الربان فى خصائصهما جعلا شيئا واحداً . فكان الكهان والناس يقولون إنه فى الحقيقة نفس الرب تحت اسم آخر ، وهذا المزج والصهر بين الأرباب يسمى توحيد الآلهة أو (الثيوكرازيا) ؛ والواقع أن عصر الفتوح العظيمة فى ألف السنة السابقة للميلاد كان عصر توحيد للآلهة ، فإن الآلهة المحليين فى مناطق مترامية كان يحل محلهم — أو بالحرى يبتلعهم — إله عام . حتى إذا ترامى الأمر بأن أعلن الأنبياء العبرانيون فى بابل على الملأ أن للعالم ربا واحدا للصلاح والبر ، كانت عقول الناس مهيأة تماما لتقبل تلك الفكرة .

ولكن كثيرا ما كانت شقة التباين بين الأرباب أشد تباعدا من أن تسمح بمثل ذلك التمثل ، وعند ذلك كان القوم يجمعونها معاملتمسين لذلك أية علاقة مقبولة . ومن وسائلهم فى ذلك تزويجهم الربة الأنثى برب ذكر ، (والعالم الإيجى قبل مجىء الإغريق كان مولعا بالربات والأمهات) ، ومنها تمثل الرب الحيوان أو الرب النجم بشرا واتخاذ الهيئة الحيوانية أو الظاهرة الفلكية كالثعبان أو النجم حلية أو رمزا . ومنها أن رب الشعب المقهور يصبح خصما شريرا يسىء لآلهة الشعب الغالب . وتاريخ اللاهوت

حافل بأمثال هذه التـكييفات لوضع الأرباب المحليين والتوفيقات بينها وبين غيرها والتبريرات لها .

وقد حدث الشيء الـكثير من هذا التوحيد بين الآلهة فى أثناء تطور مصر وانتقالها من حالة دول المدن إلى حالة الدولة الواحدة الموحدة . وكان أعظم الآلهة بوجه الإجمال هو أوزيريس ، وهو إله حصاد قربانى كان المفروض أن فرعون هو الصورة الأرضية التى تجسده . ويمثل أوزيريس فى صورة من يموت مراراً وتـكراراً ثم يبعث حياً ؛ فـكأنه لم يكن وحسب البذرة والمحصول ، بل كان يتحول أيضاً بتوسيع طبيعى للفـكرة إلى وسيلة للخلود البشرى . ومن رموزه الجعل (الجعران) المديد الأجنحة ، الذى يدفن بيضه ليبعث من جديد ، ومنها أيضا الشمس المتألقة التى تغرب لتشرق ثانية . ثم تقمص فيما بعد شخصية أبيس العجل المقدس . الذى ترتبط به الربة إيزيس . أما إيزيس فهى أيضا هاتور ، وهى بقرة ربة ، وهى الهلال ونجمة البحر . ويموت أوزيريس ، وتحمل إيزيس طفلا هو حورس ، الذى يتمثل أيضا صقرا معبوداً ، كما أنه هو الفجر وهو الذى يكبر ليصبح أوزيريس مرة أخرى ، وصور إيزيس تمثلها وهى تحمل بين ذراعيها طفلها الرضيع حورس وقد وقفت فى وسط الهلال . هذه العلاقات ليست بطبيعة الحال منطقية . غير أن العقل البشرى استحدثها قبل تطور التفـكير الجدى المنظم والتماسك بينها أشبه بتماسك أجزاء الأحلام .

ومن دون هذه المجموعة الثلاثية توجد آلهة مصرية أخرى أكثر غموضا ، وهى آلهة شريرة ، منها أنوبيس الذى له رأس كلب ، والليل الأسود وما ماثلهما ، وهى أرباب تلتهم وتغرى وتعادى الإنسان والرب على السواء .

وغنى عن البيان أن كل نظام دينى كان يوفق نفسه آخر الأمر طبق صورة النفس الإنسانية ، ولا شك أن الشعب المصرى استطاع أن يتخذ من هذه الرموز غير المنطقية طرائق يبث فيها صادق عبادته ويلتمس فيها العزاء والسلوى . وكانت الرغبة فى الخلود قوية جداً فى العقل المصرى ، حتى لقد جعلوها محورا لحياتهم الدينية ؛ فالديانة المصرية ديانة خلود بصورة لم تتهيأ لأية ديانة أخرى فى أى عصر من العصور . فلما خضعت مصر لفاتحيها الأجانب ، وولت عن الآلهة المصرية كل أهمية سياسية مرضية ، اشتد بها ذلك الحنين إلى حياة الجزاء فى الدار الآخرة .

وبعد الفتح الإغريقى ، أصبحت مدينة الإسكندرية الجديدة مركزاً لحياة مصر الدينية بل أصبحت فى الحق مركز الحياة الدينية للعالم الهلينى كافة . فأقام بطلميوس الأول معبداً عظيما هو معبد السرابيوم ، كان يعبد فيه نوع ما من ثالوث من الأرباب ، مكون من سيرابيس وإيزيس وحورس ، والأول اسم جديد أطلق على أوزيريس أبيس . ولم يكن الناس يعدونها أربابا منفصلة ، بل هيئات ثلاثا لإله واحد ؛ ثم ذهبوا إلى أن سيرابيس هو زيوس الإغريقى ، وأنه جوبيتر (أى المشترى) الرومانى وإله الشمس الفارسى ، وانتشرت هذه العبادة حيثما بسط النفوذ الهلينى ألويته ، حتى لقد بلغ شمال الهند وغرب الصين .

ولا عجب أن تسود فكرة الخلود ، خلود المثوبة والسلوى ، وأن يتلقفها بشوق عالم كانت فيه حياة الناس العاديين فى تعس يحطم كل رجاء . وكان سيرابيس يسمى « مخلص النفوس » ، ولو تأملت تراتيل ذلك الزمان لوجدتها تقول : « لن نبرح بعد الموت فى ظلال عنايته الربانية » . أما إيزيس فكانت تجتذب إليها كثيراً من الأنفس المتعبدة القانتة . وتماثيلها القائمة فى معابدها كانت تمثلها فى صورة ربة السماء وهى تحمل بين ذراعيها طفلها حورس . وكانت الشموع توقد أمامها ، كما كانت النذور تقدم إليها ، على حين أن الكهان الحليقين الناذرين أنفسهم للعزوبة كانوا يقومون على خدمة هيكلها .

أفضى قيام الإمبراطورية الرومانية إلى فتح أبواب عالم أوربا الغربية لهذه العقيدة النامية . ومن ثم ترسمت معابد سيرابيس إيزيس ، وتراتيل الكهان والأمل فى حياة الخلود خطى الأعلام الرومانية إلى اسكتلنده وهولنده . على أن منافسى ديانة سيرابيس إيزيس كانوا كثيرين . ومن أبرز هؤلاء المنافسين الديانة المثرائية . وهى ديانة ذات أرومة فارسية ، وتتمركز حول خفايا نسيت اليوم ، مدارها مثرا وهو يضحى بعجل مقدس محب للخير ، وكأنى هنا أرى شيئاً بدائياً جداً وأقدم كثيراً من معتقدات سيرابيس إيزيس المعقدة المصطنعة . فنحن هنا نكر راجعين مباشرة إلى عهد القرابين الدموية لمرحلة العصر الشمسى الحجرى من الثقافة البشرية . والعجل المرسوم على الآثار المثرائية ينزف دائماً بغزارة من جرح فى جنبه ، ومن هذا الدم تنبع الحياة الجديدة . وكان من ينقطع لعقيدة مثرا يستحم فعلا فى دم العجل الضحية . فإذا حل يوم انخراطه فى العهد دخل تحت سقالة يذبح عليها عجل ليسيل عليه الدم فعلا .

وكل من هاتين العقيدتين ديانة شخصية : وهو قول يصدق على كثير من العقائد العديدة المتماثلة التى كانت تنشد ولاء الأرقاء والمواطنين فى عهد أباطرة الرومان الأول. وهى شخصية ،لأنها تهدف إلى الخلاص الشخصى والخلود الشخصى. ولم تكن الديانات القديمة شخصية على مثل هذا النحو ، بل كانت اجتماعية . والأصل فى الطراز القديم للمعبود أن يكون ربا أو ربة للمدينة أو للدولة أولا ، ولم يكن إلهاً للفرد إلا فى المحل الثانى . وكان تقديم القرابين وظيفة عامة لا خاصة . ذلك أنها تتصل بالحاجات العملية للجماعة فى هذا العالم الذى نعيش فيه . ولكن الإغريق ومن ورائهم الرومان قد أبعدوا الديانة عن مجال السياسة . فالديانة قد انسحبت إلى العالم الآخر تقودها التقاليد المصرية .

واستطاعت ديانات الخلود الفردى هذه أن تسلب من الديانات القديمة التابعةللدولة كل ما تحتويه من عزم وعاطفة ، بيد أنها لم تحل محلها فعلا . والمدينة النموذجيةفى عهد أباطرة الرومان الأول هى التى كانت تحوى عدداً من المعابد المشيدة لعبادة جميع أنواع الآلهة . فربما وجدت بها معبداً لجوبيتر [المشترى] الكابيتولى رب روما العظيم ، وربما وجدت هناك أيضاً معبداً آخر للقيصر المتربع على العرش .

ذلك أن القياصرة تعلموا من الفراعنة أن الألوهية شىء ممكن . وكانت تقام فى مثل هذه المعابد عبادات ذات طابع سياسى فخمة المظهر ولكن لاروح فيها ، وهناك كان الناس يدلفون ليقدموا الذبائح ، ويحرقون شيئاً من البخور ليظهروا ولاءهم لقيصر ، ولكن معبد إيزيس ملكة السماء العزيزة ، هو الذى تهفو إليه القلوب ، وتسعى أقدام كل فرد مفعم الفؤاد بالمتاعب ، ينشد النصيحة وتفريج الكرب ، وربما وجدت آلهة محلية ذات طباع شاذة .فقد ظلت مدينة إشبيلية زمناًمديداً تعبد «الزهرة» ربة القرطاجيين القديمة . وربما وجدت فى هذا الكهف أو المعبد المقام تحت الأرض هيكلا لمثرا ، يقوم على خدمته الجند والأرقاء . وربما وجدت أيضاً بيعة يجتمع فيها اليهود ليقرءوا توراتهم وليشدوا من اعتقادهم فى الرب غير المنظور لهذا العالم بأجمعه . وقد يحدث الخلاف أحيانا مع اليهود من جراء الجانب السياسى من عقيدة الدولة . ذلك أنهم كانوا يعتقدون أن ربهم رب غيور لا يسمح بعبادة الأوثان . وإنهم ليأبون أن يشتركوا فى القرابين العامة التى تقدم لقيصر . وإنهم ليرفضون حتى أن يحيوا الأعلام الرومانية خشية أن ينطوى ذلك على عبادة الأوثان .

وهناك فى بلاد الشرق كان الزهاد موجودين قبل عهد بوذا بزمن مديد ، وهم رجال ونساء انصرفوا عن معظم ملذات الحياة ونبذوا الزواج والملكية ، والتمسوا القوة الروحية والفرار من ويلات الدنيا وهمومها بالتقشف والألم والوحدة . ولعلكم تذكرون أن بوذا نفسه قد اعترض على الإسراف فى الزهادة ، ولكن ذلك لم يمنع كثيرا من تلاميذه من أن يعيشوا عيش رهبنة يمعن فى الشظف . وثمة العقائد الإغريقية الخفية التى كانت لها أنظمة شبيهة بهذه ربما غلت إلى حد التنكيل بالنفس . وظهر الزهد بين المجتمعات اليهودية فى يهوذا والإسكندرية فى القرن الأول ق . م ، أيضاً ؛ فكانت جماعات من الناس تتخلى عن العالم وتستسلم للتقشفات والتأملات الصوفية . ومن هؤلاء طائفة الإسينيين[1] . وانصرم القرنان الأول والثانى الميلاديان والعالم كله غارق أو يكاد فى نزوعه إلى مثل هذا التبرؤ من الحياة ، يمعن فى نشدانه العام « للخلاص » من محن الزمان . فلقد ولى من الدنيا الشعور القديم باستقرار النظم ، وولت معه الثقة القديمة فى القسيس والمعبد والقانون والعرف .

وفى هذا الجو الذى يعمه الرق والقساوة والخوف والقلق والتبديد والتظاهر بالمظاهر والتهافت على إشباع الملذات ، كان ينتشر فى الناس هذا الوباء ، وباء الاشمئزاز الذاتى وعدم الاطمئنان العقلى ، وكان يتفشى فيهم هذا الالتماس الأليم للسلام وإن نالوه مقابل التخلى عن الدنيا والمكابدة الإرادية للآلام . تلك هى الحال التى طالما ملأت السرابيوم بالنادمين والباكين واجتلبت المؤمنين إلى ظلمة الكهف ودمائه الدافقة .

---

(١) الإسينيون (Essenes) هيئة من الزهاد اليهود بفلسطين قبل ظهور المسيحية ، نظموا حياتهم على قواعد تماثل قواعد عيش الرهبنات التى ظهرت فيما بعد ومارسوا طريقة المشاركة فى السلع . وقد ذكرهم من المؤرخين فيلون ويوسيفوس وبلينى . [المترجم]

الفصل السابع والثلاثون

تعاليم يسوع

ولد يسوع مسيح النصرانية فى يهوذا ، إبان حكم أوغسطوس قيصر أول قياصرة روما . وباسمه نشأ دين قدر له أن يصبح الديانة الرسمية للامبراطورية الرومانية بأجمعها .

وعندى أنه من الأوفق بصورة إجمالية أن نباعد بين اللاهوت والتاريخ . فإن شطراً عظيما من العالم المسيحى يعتقد أن عيسى كان الصورة الجسدية لذلك الإله رب العالم أجمع الذى كان اليهود أول من عرفه . والمؤرخ لايستطيع ـ إن هو شاء أن يحتفظ بصفته تلك ـ أن يقبل ذلك التأويل أو ينكره . كان عيسى يبدو من الناحية المادية فى صورة إنسان ، ولذا وجب على المؤرخ أن يتناوله بوصفه إنسانا .

ظهر فى يهوذا فى أثناء حكم تيبريوس قيصر . كان نبيا ، يبشر على طريقة من سبقوه من أنبياء اليهود . كان عمره يناهز الثلاثين ، أما منوال حياته قبل أن يبدأ التبشير برسالته فذلك أمر نجهله جهلا تاما .

فليس لدينا مصدر مباشر للعلم بحياة عيسى وتعاليمه إلا الأناجيل الأربعة . وكلها تجمع على إعطائنا صورة لشخصية قوية التحديد ، لايسع المرء منا إلا أن يقول : « لا شك أن بين أيدينا إنسانا ، وليس فى الإمكان أن يكون خبره هذا مفتعلا » .

ولكنك تكاد تحس ، أنه كما أن شخصية جوتاما بوذا ، قد شوهها وأخفاها ذلك التمثال الجامد الجالس القرفصاء ، صنم البوذية المتأخرة المذهب ، فكذلك شخصية يسوع النحيلة الدءوب المجهدة قد أضربها كثيراً جو تقليدى لايمت إلى الحقيقة بسبب ، فرضه على شخصه فى الفن المسيحى الحديث توقير خاطئ . كان يسوع معلما معدما ، يتجول فى أرجاء بلاد يهوذا المتربة تحت لفحات الشمس المحرقة ، ويعيش على ما يتلق

من هبات عارضة من الطعام ، ومع هذا فإن ذلك الفن يمثله على الدوام نظيفا ممشط الشعر وضاء المحيا نقى الثياب منتصب القامة ، وحوله جو هيولى ساكن لا يتحرك كأنما هو منزلق على أجنحة الأثير . وهذا الأمر وحده هو الذى جعله يبدو شيئا خياليا غير حقيقى فى عين كثير من الناس ممن لا يستطيعون أن يميزوا لباب القصة من زخرف الإضافات الزائفة الخرقاء التى ضمها إليها القانتون الجهلة .

وإذا نحن جردنا هذا السجل من تلك الإضافات العسيرة ، بقينا وجها لوجه أمام صورة إنسان كامل الإنسانية جدا ، جاد جدا وعاطفى معرض للغضب السريع ، وهو يعلم الناس مبدأ جديدا بسيطاً عميقاً : — هو أبوة الرب المحبة الشاملة وظهور ملكوت السموات . وواضح أنه كان شخصا ذا جاذبية شخصية حادة ، إن جاز لنا أن نستعمل هذا التعبير العادى ، فإنه كان يجتذب إليه الأتباع ويملأ قلوبهم محبة وشجاعة . وكان وجوده يشد من عزم الضعفاء والمرضى ويشفيهم ، ومع ذلك فإنه كان ذا بنية ضعيفة ، وذلك بسبب موته السريع تحت آلام صلبه . إذ يروى أنه أغمى عليه عند ما كلف كما جرت بذلك العادة ، بحمل صليبه إلى مكان التنفيذ . ظل يتجول فى البلاد نحو ثلاث سنوات وهو ينشر مبادئه ، وهبط أورشليم ،واتهم بمحاولة إقامة مملكة عجيبة فى يهوذا فحوكم بهذه التهمة ، وصلب مع اثنين من اللصوص . وقبل أن يموت هذان بزمن طويل كان قد أسلم الروح .

ولا شك أن مذهب ملكوت السماوات الذى هو فكرة يسوع الرئيسية من أشد المذاهب الثورية التى حركت الفكر الإنسانى فى جميع العصور . فلا عجب إذن أن فات عالم ذلك الزمان أن يفهم معناها الكامل ، وأن ينكص على عقبيه فزعا من أى فهم — مهما دق — لتحدياتها الهائلة لما يرسخ لدى الناس من عادات ونظم . ذلك أن مذهب ملكوت السماوات كما يلوح أن يسوع كان يعلمه للناس ، لم يكن إلا طلبا جريئا لا تسامح فيه يطالب بتغيير كامل وتطهير تام لحياة جنسنا المكافح ، تطهير مطلق من الداخل والخارج على السواء .

وعلى القارىء أن يلجأ إلى الأناجيل التماسا للبقية الباقية من تلك الفكرة الهائلة ؛ فكل ما يهمنا فى هذا المقام إنما هو الهزة التى أحدثها اصطدامها بالفكرات المستقرة القديمة .

كان اليهود يؤمنون بأن الله الرب الأحد للعالم الأجمع ، كان رب بر وصلاح ، ولـكنهم كانوا يقولون أيضا بأنه رب تاجر ، أتم فى شأنهم صفقة مع أبيهم أبراهام ، صفقة رابحة جدا لصالحهم والحق يقال ، يتعهد بها أن يرتفع بهم فى النهاية إلى السيادة على الأرض ! ! ؟ . فلا عجب إذن أن يأخذهم الفزع والغضب حين يسمعون يسوع وهو يحطم أمامهم نفيس ضماناتهم . ذلك أنه راح يعلم الناس أن الله ليس صاحب صفقات ، وأن ليس هناك شعب مختار ولا قوم ينالون الحظوة فى مملـكة السماوات ، وأن الله هو الأب المحب للأحياء أجمعين ، وأنه كالشمس تماما لا يستطيع أن يحبو أحدا دون غيره بحظوة ، وأن الناس جميعا إخوة — كلهم خاطىء مذنب ، وكلهم ابن محبوب لذلك الأب الإلهى ، وأن يسوع ليصب فى قصة السامرى الطيب جام سخريته على ذلك الميل الطبيعى الذى نخضع له جميعا ، وهو تمجيدنا لقومنا والتقليل من نصيب العقائد الأخرى والشعوب الأخرى من البر . ثم إنه فى قصة العمال ينبذ ظهريا ادعاء اليهود العنيد فى أن لهم على الله حقا معينا . وعلم الناس أن كل من أخذه الله فى الملـكوت ، حباه برعاية واحدة لا تفريق فيها ، فالله لا يعرف تمييزا فى معاملته لعباده ، إذ لا حد لطيبته وفضله . وهو يتطلب من الجميع قصاراهم كما يتجلى ذلك فى أمثولة العملة المدفونة ، وكما تعززه حادثة فلس الأرملة . وليس فى ملـكوت السماوات امتيازات ، ولا تخفيض مالى ولا معاذير .

ولـكن يسوع لم يقتصر فقط على انتهاك وطنية اليهود القبلية الحادة — وهم كما هو معلوم ، شعب ذو ولاء قبلى قوى — بل راح يزيح كل عاطفة قبلية ضيقة ، تنطوى على التحديد فى ذلك الفيضان العظيم : فيضان حب الله . إذ لا بد لمملـكة السماء بأكملها أن تشمل عائلة أتباعه . والإنجيل يحدثنا أنه « وفيما هو يكلم الجموع إذا أمه وإخوته قد وقفوا خارجين طالبين أن يـكلموه . فقال له واحد هو ذا أمك وإخوتك واقفون خارجا طالبين أن يكلموك . فأجاب وقال للقائل له : من هى أمى ومن هم إخوتى ؟ ثم مد يده نحو تلاميذه وقال : ها أمى وإخوتى ، لأن من يصنع مشيئة أبى الذى فى السموات هو أخى وأختى وأمى »[١] .

(١) إنجيل متى ١٢ ، ٤٦ — ٥٠ .

ولم يكتف يسوع بتوجيه الضربات إلى الوطنية ، وإلى روابط الولاء القبلى باسم أبوة الله الجامعة وأخوة البشر جميعا ، بل كان من الواضح أن تعاليمه كانت تهاجم كل ما يحتويه النظام الاقتصادى من تدرج ، وتنتقص كل ثروة خاصة وكل منفعة شخصية. ذلك أن الناس جميعا ينتمون إلى الملكوت، وأن ممتلكاتهم جميعا تنتمى إلى الملكوت، وأن الحياة البرة للناس جميعا ، الحياة البرة الوحيدة ، إنما تقوم فى خدمة إرادة الله بكل ما نملك ، وبكل أفئدتنا . وظل يذم الثروة الخاصة مرة بعد أخرى ، ويذم الإبقاء على كل حياة خاصة .

« وفيما هو خارج إلى الطريق ، ركض واحد وجثا له ، وسأله : أيها المعلم الصالح ، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية ؟ فقال له يسوع : لماذا تدعونى صالحا ، ليس أحدا صالحا إلا واحد وهو الله . أنت تعرف الوصايا : لا تزن ، لا تقتل ، لا تسرق ، لا تشهد بالزور ، لا تسلب ، أكرم أباك وأمك . فأجاب وقال له : يا معلم هذه كلها حفظتها منذ حداثتى . فنظر إليه يسوع وأحبه ، وقال له : يعوزك شىء واحد ، اذهب بع كل مالك واعط الفقراء ، فيكون لك كنز فى السماء ، وتعال اتبعنى حاملا الصليب . فاغتتم على القول ومضى حزينا لأنه كان ذا أموال كثيرة . فنظر يسوع حوله وقال لتلاميذه : ما أعسر دخول ذوى الأموال إلى ملكوت الله ! فتحير التلاميذ من كلامه . فأجاب يسوع أيضا وقال لهم : يا بنى ، ما أعسر دخول المتكلين على الأموال إلى ملكوت الله . مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله(١) » .

وفضلا عن ذلك ، فإن يسوع قد ضاق بما للديانة الرسمية من بر قائم على المساومات، وذلك بسبب نبوءته الهائلة بذلك الملكوت الذى يتحد فيه الناس جميعا فى ذات الله ، ثم إن شطرا عظيما مما سجل من أحاديثه موجه إلى المبالغة الشديدة فى الأخذ بأصول التقوى وحياة التقى . « ثم سأله الفريسيون والكتبة لماذا لا يسلك تلاميذك حسب تقليد الشيوخ بل يأكلون خبزا بأيد غير مغسولة ؟ . فأجاب وقال لهم حسنا تنبأ إشعياء عنكم أنتم المرائين كما هو مكتوب . هذا الشعب يكرمنى بشفتيه وأما قلبه فمبتعد

---

(١) إنجيل مرقس الاصحاح العاشر ١٧ — ٢٥ .

عنى بعيدا . وباطلا يعبدوننى وهم يعلمون تعاليم هى وصايا الناس . لأنكم تركتم وصية الله وتتمسكون بتقليد الناس . غسل الأباريق والكؤوس وأمورآ أخر كثيرة مثل هذه تفعلون . ثم قال لهم حسنا رفضتم وصية الله لتحفظوا تقليدكم »(١) .

لم يكن ما أعلنه يسوع مجرد ثورة خلقية أو اجتماعية ؛ بل إن هناك عشرات الشواهد التى تدل بجلاء على أن تعاليمه كانت تنطوى على لمسة سياسية من أبسط الأنواع حقا إنه قال إن مملكته لا تنتمى إلى هذا العالم ، وإن مكانها فى قلوب الرجال وليس عرشا من العروش ؛ ولكن لا يقل عن ذلك وضوحا أنه حيثما قامت مملكته من قلوب الناس ومهما يكن مقدارها فى تلك القلوب ، فإن العالم الخارجى يتجدد ويلم به الانقلاب بنفس النسبة .

ومهما يكن ما فات سامعيه من أقواله الأخرى بسبب عمايتهم أو صممهم ، فمن الجلى أنهم لم يفتهم تصميمه على إحداث انقلاب فى العالم . فإن اتجاه المعارضة التى لقيها والظروف التى أحاطت بمحاكمته وإعدامه ، تدل بأجلى بيان على أن معاصريه كانوا يرون فيه صورة من يقترح صراحا ، بل يرون أنه اقترح صراحا — تغيير الحياة الإنسانية بأجمعها وصهرها وتحريرها .

وإذا راعينا ما قاله صراحا ، لم نجد غرابة فى أن يشعر كل غنى وكل موفق رغيد الحال بشعور الرعب من التعاليم الجديدة الغريبة ، ويحس أن عالمه يدور به بسبب هذه التعاليم ! ! ذلك أنه كان يحاول استخراج كل مدخراتهم التى جمعوها عن طريق الخدمة فى المجتمع ليصبه فى خضم حياة دينية جامعة . كان أشبه الناس بصائد خلقى رهيب يستخرج البشرية من القبور القديمة الوادعة التى كانت تعيش فيها حتى حين ، ولم يكن يجوز أن يحتوى الضياء الوهاج لملكوته على ملكية ولا امتياز ولا كبرياء ولا أسبقية ولم يكن هناك فى الواقع أى حافز ولا مثوبة إلا المحبة . أفعجيب إذن أن تنبهر عيون الناس وأن تنخطف أبصارهم وأن يتصايحوا به ؟ حتى لقد بلغ الأمر أن تصايح تلاميذه أنفسهم عند ما لم يقبل أن يعفيهم من باهر الضياء ، أعجيب إذن أن يدرك الكهنة أنه ليس بينهم وبين ذلك الرجل خيار ، فإما أن يهلك هو وإما أن تهلك الكهانة؟ أعجيب إذن أن

---

(١) إنجيل مرقس الإصحاح السابع ٥ — ٩ .

يلجأ الجند الرومان وقد واجههم وأذهلهم ذلك الشيء الذي يحلق في الأجواء فوق أفهامهم ويهدد جميع أنظمتهم – أقول يلجئون إلى الضحك الضاري يتوارون وراءه، وأن يتوجوه بتاج من الأشواك وأن يلبسوه اللون الأرجواني ويتخذوا منه قيصرا هزوا! ذلك أن أخذه مأخذ الجد كان معناه الدخول في حياة غريبة مزعجة، والتخلي عن مألوف العادة، وضبط الغرائز والدوافع، وتجربة ضرب من سعادة لم تخطر لهم على بال.

الفصل الثامن والثلاثون

تطور المسيحية المذهبية

لو اطلعنا على الأناجيل الأربعة لوجدنا فيها شخصية عيسى وتعاليمه ، ولم نعثر إلا على النزر اليسير من مذاهب الكنيسة المسيحية . على أن الرسائل ، وهى سلسلة من الكتابات سطرها أتباع عيسى المباشرون ، هى التى بسطت فيها الخطوط العريضة للعقيدة المسيحية .

وكان القديس بولس من أعظم من أنشئوا المذهب المسيحى . وهو لم ير عيسى قط ولا سمعه يبشر الناس . وكان اسم بولس فى الأصل شاءول ، وكان فى بادئ الأمر من أبرز وأنشط المضطهدين لفئة الحواريين القليلة العدد ، ثم اعتنق المسيحية فجأة ، وغير اسمه فجعله بولس . أوتى ذلك الرجل قوة عقلية عظيمة ، كما كان شديد الاهتمام والحمية لحركات زمانه الدينية . فتراه على علم عظيم باليهودية والميثرائية وديانة ذلك الزمان التى تعتنقها الإسكندرية . فنقل إلى المسيحية كثيراً من فكراتهم ومصطلح تعبيرهم . ولم يأت إلا بالقليل فى توسيع أو تنمية فكرة يسوع الأصلية ، وأعنى بها فكرة « ملكوت السموات » . ولكنه علم الناس أن عيسى لم يكن المسيح الموعود فحسب ، ولا زعيم اليهود الموعود فقط ، بل إن موته كان تضحية ـ مثل ممات الضحايا القديمة المقربة إلى الآلهة فى أيام الحضارات البدائية ــ من أجل خلاص البشرية .

وعندما تزدهر الديانات إحداها إلىجوار الأخرى تنزع إلى التقاط طقوس بعضها من بعض وغيرها من الخواص الخارجية . مثال ذلك أن البوذية فى بلاد الصين تملك اليوم نفس نوع المعابد والكهان والعرف الذى كان للتاوية ، التى تتبع تعاليم لاهوتسى. ومع ذلك فإن التعاليم الأصلية للبوذية والتاوية متضادة على خط مستقيم تقريباً .

وليس مما يشين المسيحية أو يبعث الشك فى تعاليمها الجوهرية أنها استعارت أشياء شكلية كالقسيس الحليق وتقدمة النذور والهياكل والشموع والتراتيل والتماثيل

التى كانت لعقائد مثراس والإسكندرية ، بل تبنت أيضاً حتى عباراتها فى عبادتها وأفكارها اللاهوتية ، ذلك أن هذه الديانات كانت جميعاً تزدهر إلى جوار كثير من العقائد القليلة الأهمية ، وكانت كل واحدة منها تلتمس الأنصار ، ولابد أن المعتنقين لها كانوا ينتقلون باستمرار من إحداها إلى الأخرى ، وربما حظيت إحداها أو الأخرى يوما بالحظوة لدى الحكومة ، على أن المسيحية كانت موضع الشك أكثر من منافساتها ، وذلك لأن أنصارها كانوا كاليهود يأبون أن يعبدوا القيصر الرب . من أجل ذلك اعتبرت ديناً يدعو إلى التمرد والفتنة ، وذلك فضلا عن الروح الثورية التى تبثها تعاليم يسوع نفسه .

وراح القديس بولس يقرب إلى عقول تلاميذه الفكرة الذاهبة إلى أن شأن عيسى كشأن « أوزيريس » : كان رباً مات ليبعث حياً وليمنح الناس الخلود ، وسرعان ما مزقت المنازعات اللاهوتية المعقدة المجتمع المسيحى كل ممزق ، والعقيدة بعد فى طور الانتشار ، فاستعرت الخلافات حول علاقة هذا الرب يسوع « بالله » أبى البشرية . فذهب أتباع آريوس إلى أن عيسى إله ، غير أنه متميز عن الآب وأدنى منه مرتبة . وعلم أتباع سابيليوس[١] أن يسوعا لم يكن إلا مجرد أقنوم من أقانيم الآب ، وأن الله هو يسوع والآب فى الوقت نفسه ، مثلما يمكن أن يكون الرجل والداً وصانعاً فى نفس الوقت ؛ وارتأى الثالوثيون مذهباً أكثر دقة وغموضاً يقول بأن الله واحد وثلاثة فى وقت معاً ، وأنه آب وابن وروح قدس .

وانقضى ردح من الزمن لاح فيه أن مذهب آريوس سيفوز بالنصر على منافسيه ، ثم حدثت منازعات ، وثارت مشاحنات عنيفة ، ونشبت حروب أسفرت عن فوز مبدأ الثالوثيين بالقبول لدى العالم المسيحى بأكمله . ومن الممكن العثور على ذلك المبدأ فى أتم صورة فى عقيدة القديس اثناسيوس .

ولن ندلى هنا بأى تعقيب على هذه الخصومات ، فهى لاتؤثر فى التاريخ أثر تعاليم يسوع الشخصية . إذ يلوح محققاً أن تعاليم عيسى الشخصية تؤذن بطور جديد فى حياة جنسنا الخلقية والروحية . فإن إصرارها على أبوة الله الشاملة ، وعلى قيام أخوة ضمنية

---

(١) أسقف إفريقى عاش فى منتصف القرن الثالث الميلادى [المترجم]

بين الناس جميعاً ، وإصرارها على قداسة كل شخصية إنسانية بوصفها معبداً حياً لله ، أمور كتب أن يكون لها أعمق الأثر فى كل ما عقب ذلك من حياة البشرية ، من الوجهتين السياسية والاجتماعية . فقد ظهر فى العالم بمجيء المسيحية وانتشار تعاليم يسوع احترام جديد لشخصية الإنسان فى حد ذاته . أجل ربما صح أن القديس بولس كان يعلم العبيد الطاعة ، كما كان يدفع بذلك بعض نقاد المسيحية المعادين ، ولكن يعدل ذلك فى صدقه أن روح تعاليم يسوع بأجمعها ، كما تحفظها لنا الأناجيل، تناهض إذلال الإنسان للانسان . هذا إلى أن المسيحية عارضت بشكل أوضح انتهاك الكرامة الإنسانية الذى يحدث فى مثل مصارعات المجالدين[1] فى المجتلد .

انتشرت تعاليم الديانة المسيحية فى كل أرجاء الإمبراطورية الرومانية إبان القرنين اللذين أعقبا ميلاد المسيح ، وأخذت توثق الروابط بين جمهور من المتنصرين لايبرح يزداد فى كل آن ، وتخلق منه مجتمعاً مرتبطاً بأواصر الفكرات والإرادة . واختلف موقف الأباطرة منها ، فمنهم من عاداها ، ومنهم من تسامح معها ، وبذلت فى كل من القرنين الأول والثانى محاولات للقضاء على هذه العقيدة ، وانتهى الأمر فى ٣٠٣ وما عقبها من أعوام بأن أنزل بها الإمبراطور دقلديانوس اضطهاداً عظيما ، فصودرت أملاك الكنيسة الضخمة وجميع الكتب المقدسة والكتابات الدينية ثم دمرت ، وأهدرت دماء المسيحيين على أنهم خارجون على القانون ، وأعدم كثير منهم .

وتدمير تلك الكتب أمر جدير بالملاحظة بوجه خاص ، فهو يبين كيف عرفت السلطات قدرة الكلام المكتوب على ربط أتباع العقيدة الجديدة معاً ،وكانت « عقائد الكتب » هذه المسيحية واليهودية ، ديانات تعلم الناس ، وكان استمرار بقائها يعتمد إلى حد كبير على قدرة الناس على قراءة فكراتها الذهبية وتفهمها ، ولم تكن الديانات قديمة العهد ترجع مثل هذا الرجوع إلى ذكاء الأفراد ،حتى إذا أقبلت عصور الفوضى البربرية التى أخذت ظلماتها تغشى أوربا آنذاك ، كانت الكنيسة المسيحية هى الوسيلة الفعالة فى المحافظة على التراث العلمى .

فشل اضطهاد دقلديانوس فشلا تاما فى القضاء على المجتمع المسيحى النامى ، وكان

---

(١) المجالدن Gladiator : هو مصارع محترف بروما القديمة يتصارع مع الرجال أو الحيوانات فى المجتلد ، وهو الجزء المخصص للمصارعات من المدرج القديم وهو مفروش بالرمل ليصطرع فيه الرجال . [المترجم]

عديم الأثر فى كثير من الولايات ، وذلك لأن كتلة السكان وكثيراً من الموظفين كانوا من المسيحيين . ثم صدر فى ٣١٧ مرسوم بالتسامح أصدره الإمبراطور جاليريوس الشريك[١] . وفى ٣٢٤ أصبح قسطنطين الأكبر الحاكم الوحيد للعالم الرومانى ، وهو صديق للمسيحية . كما أنه اعتنقها حين عمد وهو على فراش موته . فتخلى عن كل مدعياته فى الألوهية ، ووضع شارات المسيحية ورموزها على دروع جنوده وألويتهم ...

ولم تمض بضع سنوات حتى توطدت قدم المسيحية وأصبحت الديانة الرسمية للامبراطورية . أما الأديان المنافسة لها فقد اختفت أو اندمجت فى غيرها بسرعة خارقة ، وفى ٣٩٠ أمر ثيودوسيوس الأكبر بتدمير تمثال چوبيتر سرابيس بالإسكندرية . ولم يعد هناك كهنة ولا معابد فى الإمبراطورية الرومانية إلا كهنة المسيحية ومعابدها ، منذ بداية القرن الخامس الميلادى فصاعداً .

---

(١) أشركه معه دقلديانوس فى الحكم فى ٣٠٥ ، وجعله قيصرا على الليريا Illyricum والأقاليم الدانوبية . وانفرد بحكم الإمبراطورية الشرقية فى ٣٠٥ عند تنازل دقلديانوس [المترجم]

الفصل التاسع والثلاثون

البرابرة يشطرون الإمبراطورية إلى شطرين : شرقى وغربى

ظلت الإمبراطورية الرومانية تواجه البرابرة طوال القرن الثالث الميلادى ، وهى تضمحل اجتماعياً وتنحل خلقياً . وكان أباطرة تلك الفترة مقاتلة عسكريين مستبدين ، كما أن عاصمة الإمبراطورية راحت تتنقل حسبما تقتضيه ضرورات سياستهم الحربية . فتكون القيادة الإمبراطورية فى ميلانو آناً ، وآناً آخر فيما يسمى الآن ببلاد الصرب بمدينة سيرميوم أونيش ، أو تكون بنيقوميديا[1] إحدى مدن آسيا الصغرى . ذلك أن مدينة روما الواقعة فى منتصف شبه الجزيرة الإيطالية كانت من البعد عن مركز النفوذ والسلطان بحيث لاتصلح أن تكون قصبة ملائمة للامبراطورية ، ولذا أخذ الاضمحلال يدب إليها .

أجل لم يبرح السلام يرفرف على معظم أجزاء الإمبراطورية ، وكان الناس يتنقلون فى ربوعها دون حاجة إلى حمل سلاح . كما أن الجيوش ظلت معقل القوة ومصدرها الأوحد ؛ ولكن الأباطرة الذين كانوا يعتمدون على كتائبهم ما انفكوا يزدادون استبداداً ببقية أجزاء الإمبراطورية وتزداد دولتهم فى كل آن شبهاً بدولة الفرس وغيرهم من ملوك الشرق . حتى لقد بلغ الأمر بدقلديانوس أن اتخذ لنفسه تاجا ملكياً وارتدى ثياباً شرقية .

وفى إبان ذلك كان أعداء الإمبراطورية يضغطون بشدة على امتداد حدودها بأكملها ، وكانت الحدود تمتد على طول نهرى الرين والدانوب بوجه التقريب ، فقد

---

(١) مدينة قديمة بآسيا الصغرى على شاطىء بحر مرمرة ومكانها إزميت العصرية .[المترجم]

تقدم الفرنجة وغيرهم من القبائل الجرمانية حتى نهر الرين ، واحتل الوندال شمال بلاد المجر ؛ بينما نزل القوط الغربيون فيما كان يسمى آنذاك باسم « داكيا » التي هي رومانيا الحالية . ومن وراء هؤلاء بجنوب الروسيا استقر القوط الشرقيون ، بينما حل من ورائهم الألن (Alans) بإقليم الفولجا ، وليت الأمر اقتصر على هؤلاء ، فإن الشعوب المغولية كانت تشق آنذاك طريقها شقاً نحو أوربا . وكان الهون يفرضون الجزية وقتئذ على الألن والقوط الشرقيين ويدفعونهما غربا .

أما فى آسيا فإن التخوم الرومانية أخذت تتصدع وتتراجع بضغط دولة فارسية فتية ناهضة . وقد قدر لدولة الفرس الجديدة هذه ، التى أقام دعائمها ملوك بنى ساسان ، أن تصبح منافساً قويا محبواً بالنجاح فى جملة الأمر ، وخصما لدودا بآسيا للدولة الرومانية إبان القرون الثلاثة التالية .

ولو أن القارىء ألقى نظرة على خريطة أوربا لأدرك مظاهر ضعف الإمبراطورية . فإن نهر الدانوب يتحول مجراه حتى يصبح على بعد لا يتجاوز مائتى ميل من البحر الأدرياتى بالمنطقة التى يسمونها اليوم باسم أقاليم الصرب والبوسنه . وهناك ينحرف شرقا محدثا زاوية قائمة منعكسة .

ولم يكن الرومان يهتمون بالمحافظة على مواصلاتهم البحرية وحسن نظامها ، ولذا كانت هذه السلخة الضيقة من الأرض التى لا تتجاوز المائتى ميل خط مواصلاتهم الوحيد بين شطر إمبراطوريتهم الغربى الناطق باللاتينية وشطرها الشرقى الناطق باليونانية ، وكان ضغط البرابرة أعظم ما يكون فى تلك الزاوية القائمة من نهر الدانوب . حتى إذا اخترقوها أصبح انقسام الإمبراطورية إلى شطرين أمرا لا مفر منه .

ولو وجدت مكان الإمبراطورية الرومانية دولة أقوى بأساً لزحفت أمامها واستردت مقاطعة « داكيا » ، ولكن تلك الإمبراطورية كانت تعوزها مثل تلك الشكيمة القوية .

ومن المحقق أن قسطنطين الأكبر كان عاهلا شديد الإخلاص والذكاء ، فصد غارة للقوط جاءت من تلك المناطق البلقانية الحيوية نفسها ، ولكنه لم يملك من القوة العسكرية ما يتيح له أن يدفع الحدود إلى ما وراء الدانوب . كما أنه شديد الانشغال بضعف الإمبراطورية الداخلى وإصلاح عيوبها . فلجأ إلى ما للمسيحية من قوة تماسك

وروح معنوية راجياً أن يبتعث بهما روح الإمبراطورية المتداعية ، كما قرر أن ينشىء لها عاصمة جديدة دائمة مقرها بيزنطة على مضيق البوسفور . وراح يعيد بناء المدينة من جديد ، ويطلق عليها اسماً جديدا هو القسطنطينية تيمناً باسمه ، ولكنه قضى نحبه قبل أن يتم عمله .

وحدثت فى آخر أيام هذا العاهل صفقة عجيبة ، فإن القوط ضغطوا على الوندال فلجأ هؤلاء إلى الإمبراطورية يلتمسون قبولهم بها ، فمنحوا بعض الأراضى فى پانونيا ، التى هى اليوم شطر بلاد المجر الواقع غرب نهر الدانوب ، وأصبح مقاتلتهم فى مقابل ذلك فرقة من جند الإمبراطور اسميا . على أن هؤلاء الجند الجدد ظلوا تحت إمرة رؤسائهم الأصليين ، ولذا فشلت روما فى هضمهم .

مات قسطنطين وهو مكب على إعادة تنظيم مملكته ، وسرعان ما اخترق القوط الغربيون حدودها وتقدموا حتى أوشكوا أن يبلغوا القسطنطينية ، فهزموا الإمبراطور ڤالنز عند أدرنه ، ثم عقدوا تسوية استقروا بها بمنطقة بلغاريا الحاليـــة مثلما استقر الوندال فى پانونيا . وبهذه التسوية صاروا رعايا للامبراطور بالاسم فقط ، ولكنهم فى الواقع غزاة فاتحون .

وفى عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأكبر (٣٧٩ - ٣٩٥) ، ظلت الإمبراطورية متماسكة من الناحية الشكلية . وكانت جيوش إيطاليا وپانونيا تحت قيادة استيليكو الوندالى ، بينما كان على رأس جيوش جزيرة البلقان ألاريك وهو من القوط . ولما مات ثيودوسيوس عند نهاية القرن الرابع ترك من ورائه ولدين . فناصر ألاريك أحدهما وهو (أركاديوس) بالقسطنطينية ، وظاهر استيليكو أخاه الآخر (هونوريوس) بإيطاليا . ومعنى ذلك بعبارة أخرى أن ألاريك ومنافسه استيليكو اقتتلا على الإمبراطورية متخذين من الأميرين ألعوبة فى أيديهما ، وفى غضون ذلك الكفاح ، زحف ألاريك على إيطاليا ، واستولى على روما بعد حصار قصير (٤١٠ م) .

شهد النصف الأول من القرن الخامس وقوع الإمبراطورية بأكملها بين براثن جيوش من اللصوص أو البرابرة . ويكاد يعسر علينا تصور صورة حقة لأحوال العالم إبان تلك الفترة . فالمدن العظيمة التى ازدهرت فى ظل الإمبراطورية الأولى بفرنسا وإيطاليا وإسبانيا وشبه جزيرة البلقان لم تزل قائمة عند ذاك ، ولكن الفقر عضها بنابه

وهجرها سكانها وعدت عليها عوادى الاضمحلال . ولا بد أن الحياة بها قد أصبحت سطحية منحطة مفعمة بعدم الاطمئنان إلى المستقبل ، كما أنه لا شك فى أن الموظفين المحليين ظلوا يظهرون سلطانهم ويواصلون أعمالهم كل حسب ما أوتى من ضمير ، وذلك باسم الإمبراطور الذى أصبح عندئذ بعيداً أعظم البعد ولا سبيل إلى الوصول إليه . وواصلت الكنائس عملها ولكن على يد قساوسة معظمهم فى العادة من الأميين . وقل القراء والقراءة وانتشرت الخرافات واستبدت بالناس المخاوف . ولكن الكتب والتماثيل والصور وما ماثلها من إنتاج فنى لم تبرح موجودة فى كل مكان ، اللهم إلا حيث دمرها الناهبون والمعتدون .

دب الانحلال أيضا فى حياة الريف . فزايل الخير وحسن الشكل كل أصقاع ذلك العالم الرومانى . فبعض المناطق أحال الحرب والوباء أرضها الزراعية إلى يباب مقفر . وعاث اللصوص فى الطرق والغابات فسادا . وتقدم البرابرة إلى تلك المناطق وهى على ذلك الحال ، فلم يلقوا مقاومة تذكر ونصبوا رؤساءهم حكاما عليها ، وأطلقوا عليهم فى كثير من الأحيان الألقاب الرومانية الرسمية ، فإنهم كانوا برابرة نصف متحضرين ، منحوا الجهات التى يفتحونها شروطاً معقولة ، فيمتلكون المدن ويختلطون بأهلها ويتزوجون منهم ويتعلمون اللسان اللاتينى ينطقونه بنبرة خاصة ؛ على أن الجوت والأنجل والسكسون الذين نزلوا بمقاطعة بريطانيا الرومانية كانوا شعوبا زراعيين ، لا حاجة بهم إلى المدن ، ويلوح أنهم طهروا جنوب بريطانيا من كل السكان المصطبغين بالصبغة الرومانية ، واستبدلوا بلغة أولئك السكان لهجاتهم التيوتونية التى أصبحت اللغة الإنجليزية آخر الأمر .

ومن المحال علينا أن نترسم فى هذا المجال الضيق حركات جميع أصناف القبائل الجرمانية والسلافية المختلفة وهى تروح وتغدو فى هذه الإمبراطورية المختلة النظام بحثاً عن الأسلاب والغنائم والتماسا لموطن جميل تستقر فيه . على أننا سنتخذ الوندال مثالا نسوقه إليك . فإنهم ظهروا على مسرح التاريخ بألمانيا الشرقية . واستقروا كما أسلفنا فى بانونيا . ومنها انتقلوا إلى إسبانيا حوالى ٤٢٥ م مخترقين الولايات التى تقع فى طريقهم . فوجدوا بإسبانيا القوط الغربيين الوافدين من جنوب الروسيا ، كما وجدوا قبائل ألمانية أخرى نصبت عليها الملوك والأدواق .

وأبحر الوندال من إسبانيا إلى شمال إفريقية (٤٢٩) بقيادة جنسريك . واستولوا على قرطاجنة (٤٤٩) ، وأنشئوا أسطولا ، وما لبثوا أن أحرزوا السيادة البحرية ثم استولوا على روما وانتهبوها (٤٥٥) ، ولما تنهض بعد من كبوتها تماما بعد الذى أصابها من عدوان ونهب على يد ألاريك قبل ذلك بنصف قرن ، ثم راح الوندال يبسطون سيادتهم على قورسيقة وصقلية وسردينية ومعظم جزائر البحر المتوسط الغربى . الواقع أنهم أنشئوا دولة بحرية شديدة المماثلة فى سعتها ورقعتها بإمبراطورية قرطاجنة البحرية قبل ذلك بسبعمائة عام على وجه التقريب . وبلغت دولتهم ذروة رفعتها حوالى ٤٧٧ . ولم يكن الوندال إلا طائفة صغيرة من الغزاة استولت على ذلك الإقليم بأجمعه . ولكن لم ينصرم القرن التالى حتى استردت القسطنطينية جمع أقطار دولتهم تقريبا إبان نهضة مؤقتة فى عهد جستنيان الأول .

وليست قصة الوندال إلا مثالا واحداً من المغامرات المماثلة . ولكن ها قد أقبلت إلى العالم الأوربى جحافل أبعد ما تكون شبها بهؤلاء العاثين وأبعث للرعب فى القلوب : الهون المغوليون أو التتار ، وهم شعب أصفر ملىء بالنشاط والاقتدار ، بصورة لم يلتق العالم الغربى بمثلها قبل ذلك أبداً .

الفصل الأربعون

الهون ونهاية الإمبراطورية الغربية

ربما جاز لنا أن نعد ظهور هذا الشعب المغولى فى أوربا مؤذنا ببدء مرحلة جديدة فى تاريخ البشرية. ذلك أن الصلة بين الشعوب المغولية والنوردية لم تكن وثيقة إلى ما قبل الحقبة المسيحية بحوالى قرن من الزمان. أجل إنه حدث فى الأراضى المتجمدة البعيدة الواقعة وراء مناطق الغابات، أن اللابيين (أهل لابلنده) وهم شعب مغولى – انتقلوا غربا حتى بلغوا ذلك القطر (لابلنده)، ولكنهم لم يلعبوا أى دور فى مجرى التاريخ الرئيسى. كما أنه حدث أن العالم الغربى ظل آلافا من السنين مسرحا للتفاعلات الأخاذة بين الشعوب الآرية والسامية والشعوب الأصلية السمراء دون أى تدخل من الشعوب السوداء إلى الجنوب ومن العالم المغولى فى أقصى الشرق، إلا ما حدث من غزو الأثيوبيين لمصر.

والراجح أن حركة هؤلاء المغول الرحل المتجهة غربا ترجع إلى سببين رئيسيين: أولهما تماسك إمبراطورية الصين الكبرى وارتباط أجزائها واتساع رقعتها شمالا وتزايد عدد سكانها فى أثناء الرخاء الذى أظل البلاد فى عهد أسرة هان. وثانيهما حدوث شىء من التغيرات فى المناخ، لعله قلة فى المطر جففت المستنقعات وربما أزالت الغابات، أو لعله زيادة فى الأمطار بسطت رقعة الرعى فوق سهوب الصحراء، أو لعل هاتين العمليتين جميعا تعاورتا على أقاليم مختلفة فترتب عليها على كل حال تسهيل أمر الهجرة غربا.

وثمة سبب ثالث قد يرجع إلى ذلك الأمر نفسه، وهو الأحوال الاقتصادية التعسة فى الإمبراطورية الرومانية وما أصابها من انحلال داخلى وتناقص فى عدد السكان. وذلك أن الأغنياء فى الجمهورية الرومانية المتأخرة، ومن ورائهم جباة الضرائب للأباطرة العسكريين، امتصوا كل ما فيها من حيوية. ولعل القارىء قد تجلت أمامه الآن عوامل ذلك الزحف ووسيلته والفرصة التى تهيأت له. وخلاصة هذا بإيجاز، هى أن الضغط ظهر فى الشرق وقد نخر الفساد فى الغرب وانفتحت الطريق لمن شاء أن يتقدم.

بلغ الهون الحدود الشرقية لروسيا الأوربية إبان القرن الأول الميلادى ، ولـكن ذلك الشعب الذى كانت الفروسية أعظم مظاهر حياته لم يتبوأ منزلة السيادة على أقاليم السهوب إلا فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين . فالقرن الخامس هو قرن عظمة الهون . وأول من بلغ إيطاليا من الهون جماعات من الجند المرتزقة كانوا يقبضون أعطياتهم من استيليـكو الوندالى صاحب السيادة على هوريوس . ولم ينقض طويل زمن حتى وقعت فى قبضتهم بانونيا عش الوندال الحالى .

ونشأ بين الهون فى الربع الثانى من القرن الخامس زعيم حربى عظيم هو أتيلا . وللأسف أن كل مالدينا من علم بدولته لايتجاوز اللمحات المبهمة التى لاتشفى غليلا . ومهما تـكن الحال ، فإن حكمه لم يقتصر على الهون وحدهم ، بل شمل أيضاً خليطاً من القبائل الجرمانية المتأخرة ، وامتدت دولته عبر السهول المترامية من نهر الرين إلى آسيا الوسطى . وقد تبادل السفراء مع الصين ، وجعل مقر قيادته ومعسكره الرئيسى بسهل المجر شرقى نهر الدانوب . وهناك زاره مبعوث من القسطنطينية هو بريسكوس ، الذى يقص علينا وصفا لدولته نعرف منه أن نظام معيشة أولئك المغول كان شديد الشبه بطريقة عيش الآريين البدائيين الذين احتل الهون مكانهم . فالعامة يعيشون فى الأكواخ والخيام ، على حين كان الرؤساء يعيشون فى قاعات عظيمة من الخشب تحوطها السياجات . وكانوا يقيمون الولائم ويحتسون الشراب ويستمعون لإنشاد الشعراء . فلو بعث أبطال الملاحم الهومرية ، بل حتى رفقاء الإسكندر الأكبر المقدونيون أنفسهم لشعروا وهم فى قاعدة أتيلا العسكرية بقدر من الإلف وعدم الـكلفة يفوق فى الراجح ما قد يحسونه فى بلاط راق متدهور كبلاط الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى بن أركاديوس ، الذى كان يحـكم آنذاك فى القسطنطينية .

ومرحين من الدهر زعم الناس فى أثنائه أن الرحل بقيادة الهون وأتيلا ، سيلعبون إزاء الحضارة الإغريقية الرومانية بأقطار البحر المتوسط نفس الدور الذى لعبه الإغريق البرابرة نحو الحضارة الإيجية منذ أمد سحيق . وكأنما شرع التاريخ يعيد نفسه فى نطاق أوسع . ولـكن الهون كانوا أكثر تعلقاً بحياة الترحل من قدماء الإغريق ، الذين يمكن عدهم مربين للماشية ميالين للهجرة أكثر منهم مترحلين . وراح الهون يغيرون وينهبون دون أن يستقروا فى مكان .

وظل أتيلا بضع سنوات يضغط على ثيودوسيوس ويبعث فى قلبه الرعب ما شاء له

هواه ، وذلك فى نفس الوقت الذى انطلقت جيوشه فيه تعيث فى البلاد فساداً وتعمل النهب فيها إلى أسوار القسطنطينية نفسها ، ويقدر جيبون عدد ما دمره من المدن فى شبه جزيرة البلقان بما لايقل عن سبعين مدينة دمرت نهائياً ، حتى اضطر ثيودوسيوس أن يشترى رحيله بدفع الجزية إليه ، كما حاول أن يتخلص منه إلى الأبد بإرسال مبعوثين سريين لاغتياله . ثم عاد أتيلا فوجه التفاته فى ٤٥١ إلى حطام نصف الإمبراطورية الناطق باللاتينية فغزا بلاد الغالة . فلم تنج مدينة واحدة تقريباً فى شمال غالة من النهب والسلب. عند ذلك اجتمع عليه الفرنجة والقوط الغربيون والقوات الإمبراطورية ودحروه عند ترويس Troys فى معركة ضخمة مترامية الأطراف قتل فيها جمهور غفير من الرجال يتراوح عدده بين مائة وخمسين ألفاً وثلاثمائة ألف . ولم تلبث تلك الهزيمة أن أوقفت تقدمه ببلاد الغالة ، بيد أنها لم تنل كثيراً من موارده العسكرية الهائلة . فإنه دخل إيطاليا فى السنة التالية عن طريق فينيشيا[١] (منطقة البندقية) وأحرق أكويليا وپادوا وانتهب ميلانو .

وسارعت جماهير غفيرة من اللاجئين الذين فروا من هذه المدن الإيطالية الشمالية وبخاصة پادوا فلاذت بجزائر بالمستنقعات الواقعة عند رأس البحر الإدرياتى ، وهناك وضعوا أول حجر فى دولة مدينة البندقية ، التى كتب لها أن تغدو من أهم المراكز التجارية فى العصور الوسطى .

مات أتيلا فى ٤٥٣ موت الفجاءة بعد حفل عظيم أقامه ابتهاجا بزواجه من حسناء صغيرة ، فتمزق بموته ذلك الاتحاد القائم على النهب . وعند ذلك اختفى الهون الحقيقيون من التاريخ ، باختلاطهم بمن حولهم من أقوام ينطقون بالآرية ويفوقونهم عدداً . على أن هذه الغارات الهونية الضخمة أتت تقريباً على الدولة الرومانية اللاتينية . فتولى حكم روما بعد موته عشرة أباطرة مختلفين فى مدى عشرين عاماً ، أقامهم الوندال وغيرهم من مرتزقة الجند . فإن الوندال جاءوا من قرطاجنة واستولوا على روما فى ٤٥٥ ، وانتهى الأمر فى ٤٧٦ ، بأن قضى أودواكر كبير الجند البرابرة على شخص پانونى وتولى

---

(١) فينيشيا : قسم إقليمى قديم بإيطاليا ينقسم الى :
(ا) فنيتو (البندقية الأصلية) . (ب) وفنيتو تريدنتينا .
(ﺟ) وفنيتوجوليا . [المترجم]

مهام الإمبراطورية تحت اسم مهيب هو رومولوس أوغسطولوس ، وأبلغ بلاط القسطنطينية أنه لم يعد هناك إمبراطور فى الغرب ، وبذلك انتهت الإمبراطورية الرومانية اللاتينية على هذه الصورة المزرية غير الكريمة . ثم أصبح ثيودوريك القوطى ملكا على روما فى ٤٩٣ .

كان زعماء البرابرة يحكمون عند ذلك جميع أقطار أوربا الغربية والوسطى متخذين ألقاب الملوك والدوقات ، ومستقلين فى الواقع وإن اعترفوا فى معظم الحالات بشىء من الولاء الرمزى للامبراطور . كان هناك مئات بل آلاف من مثل هؤلاء الحكام المغتصبين المستقلين تقريباً . وكانت اللغة اللاتينية لاتزال منتشرة ببلاد الغالة وإسبانيا وإيطاليا وداكيا فى صور ولهجات محلية مشوهة ، ولكن عمت بريطانيا والأقاليم الواقعة شرق نهر الرين بعض لغات من المجموعة الألمانية ، كما انتشرت فى بوهيميا لغة صقلبية هى التشكية ـ وأصبحت اللسان الشائع بين الناس . وذلك على حين واصل كبار رجال الدين وثلة صغيرة من بقايا غيرهم من المتعلمين قراءة اللاتينية وكتابتها وقد عمت الفوضى وعدم الطمأنينة كل مكان ولم يعد للممتلكات من واق إلا قوة الساعد . فتكاثرت القلاع وساءت أحوال الطرق . وقد بدأ بظهور القرن السادس عصر انقسام وفرقة، ران فيه الظلام الفكرى على العالم الغربى بأجمعه . فلولا أن قيض الله للعلم اللاتينى رهبان المسيحية ومبشريها لقضى عليه قضاء مبرماً .

فلماذا نمت الإمبراطورية الرومانية ؟ ولماذا اضمحلت ذلك الاضمحلال التام ؟ لاجرم أنها نمت لأن فكرة المواطنية شدت فى البداية بنيانها وربطت بين أجزائها . إذ بقى فيها فى أيام توسع الجمهورية جميعاً ، بل حتى إبان عهد الإمبراطورية الأولى ، عدد غفير من رجال أقوياء الوعى بالمواطنية الرومانية ، يرون فى تلك المواطنية امتيازاً لهم وواجباً والتزاما عليهم ، ويطمئنون إلى حقوقهم فى ظل القانون الرومانى ، ويبذلون التضحيات باسم روما عن طيب خاطر ، وذاع صيت روما وأصبح رمزاً للعدالة والعظمة والمحافظة على القانون ، حتى تجاوز حدودها كثيراً . على أن ذلك الشعور بالمواطنية أخذ ينخر فيه منذ عهد يرجع إلى زمن الحروب البونية نفسها نمو الثروة والاسترقاق . أجل إن المواطنية نفسها انتشرت حقاً ، ولكن لم ينتشر ما تنطوى عليه من فكرة .

ومهما يكن من شىء ، فإن الإمبراطورية الرومانية لم تكن إلا دولة بدائية جداً ، لأنها لم تقم بتعليم الناس ، ولم تحاول أن تفسر نفسها وتصرفاتها لجماهير مواطنيها الغفيرة

المتزايدة العدد ، ولم تدعهم إلى التعاون معها فيما تتخذه من قرارات . فلم تقم بها تلك الشبكة الضخمة من المدارس التى تكفل إيجاد التفاهم المشترك بين أجزاء الدولة ، ولا نهض أحد فيها بنشر الأخبار للمحافظة على الجهود الحشدية ودعم النشاط الجماعى . فالمغامرون الذين ظلوا يتقاتلون على السلطان منذ أيام ماريوس وسولا لم يكن لديهم أدنى فكرة عن تكوين رأى عام ودعوته ليبدى رأيه فى شئون الدولة . لقد مات روح المواطنية جوعا ، ولم يدرك إنسان أنه مات . وغير خاف أن الإمبراطوريات والدول وتنظيمات الجماعات الإنسانية إنما هى نتاج نهائى للتفاهم والإرادة . وهذه الإمبراطورية الرومانية لم تبق لها فى العالم إرادة . لذا جاءت نهايتها وزالت من الوجود .

ومع أن للدولة الرومانية الناطقة باللاتينية لفظت آخر أنفاسها فى القرن الخامس الميلادى ، فإن شيئاً آخر تكون فى أحشائها قدر له أن يفيد إلى أقصى حد من هيبتها وتقاليدها : وهو النصف الناطق باللاتينية من الكنيسة الكاثوليكية . لقد عاش ذلك النصف الكاثوليكى على حين ماتت الإمبراطورية لأنه كان يلجأ ويعتمد على عقول الناس وإراداتهم ، ولأنه ملك الكتب كما ملك جهازا ضخما من المعلمين والمبشرين يربط بين أجزائه ، وهى أشياء أقوى من أى قانون أو أى جيش . وبينما الإمبراطورية تتدهور على كر القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، كانت النصرانية تنتشر فى أوربا وتمد عليها ألويتها الشاملة . حتى لقد غزت البرابرة غزاة الدولة أنفسهم فى عقر دارهم ، ألم يحل بطريق روما دون زحف أتيلا على المدينة عندما تسامع الناس بانتوائه ذلك ، وبذا فعل مالا تستطيع الجيوش فعله ، حيث رده عن غرضه بالقوة المعنوية البحتة !

كان بطريق أو (بابا) روما يدعى أنه رئيس الكنيسة المسيحية بأكملها ، حتى إذا ولت الإمبراطورية ، ولم يعد هناك أباطرة ، شرع يدعى لنفسه ألقابا ومدعيات مما كان لأولئك الأباطرة ، فانتحل لقب « الحبر الأعظم » Pontifex Maximus وهو لقب كاهن القرابين الأكبر فى الدولة الرومانية إبان الوثنية ، وأقدم الألقاب التى كان الأباطرة يحملونها .

الفصل الحادى والأربعون

الإمبراطوريتان البيزنطية الساسانية

امتاز النصف الشرقى من الإمبراطورية الرومانية الناطق باليونانية بقدر لابأس به من التماسك السياسى يفوق كثيراً مابدأ فى النصف الغربى . وبذلك استطاعت مواجهة كوارث القرن الخامس الميلادى والتغلب عليها ، وهو القرن الذى تحطمت فيه بصورة تامة ونهائية دولة الرومان اللاتينيةالأصلية . أجل أرهبأتيلا الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى وأخذ يغير على ممتلكاته ويعيث فيها نهباً وفساداً حتى قارب أسوار القسطنطينية نفسها ، إلا أن تلك المدينة ظلت سليمة لم ينل منها أتيلا شيئاً . وكذلك انحدر النوبيون فى النيل وانتهبوا مصرالعليا ، ولكن مصر السفلى والإسكندرية ظلت تعيش معذلك فى قدر لابأس به من الرغد . وحافظت الدولة على معظم آسيا الصغرى رغم عدوان الفرس الساسانيين .

أما القرن السادس الذى خيمت فى أثنائه على الغرب دياجير الظلام ، فقد شهد فى دول الروم انتعاشاً جسيما . فإن جستنيان الأول (٥٢٧ — ٥٦٥) كان حاكما عالى الهمة عظيم الطموح ، كما أن زوجته الإمبراطورة ثيودورا ، كانت لاتقل عنه كفاية ، وهى امرأة بدأت حياتهاممثلة. فاستردجستنيان شمال إفريقية من الوندال ، واستعاد معظم إيطاليا من القوط ، بل استرد جنوب إسبانيا ، ولم يقصر نشاطه على المشروعاتالعسكرية والبحرية ، بل أسس جامعة وشيد كنيسة القديسة صوفيا الكبرى بالقسطنطينية وجمع القانون الرومانى . ولكنه شاء أن يقضى على أحد المنافسين لجامعته الجديدة ، فأغلق مدارس الفلسفة بأثينا ، بعد أن ظلت تعمل بلا انقطاع منذ أيام أفلاطون ، أعنى مايقارب ألف سنة من الزمان .

ظلت دولة ساسان منافساً مستديماً للدولة البيزنطية (دولة الروم) منذ القرن الثالث الميلادى . وبسبب تلك المنافسة ساد الاضطراب والدمار الدائم آسيا الصغرى

وسوريا ومصر . وكانت تلك الأقطار لا تزال ترفل فى القرن الأول الميلادى فى بحبوحة الحضارة الرفيعة والثراء ووفرة السكان ، على أن استمرار ذهاب الجيوش وغدوها وكثرة الذابح والنهب وضرائب الحرب الباهظة ، لم تزل بها حتى لم يبق منها إلا مدن خربة مهدمة تقوم وسط ريف ليس به من السكان إلا قلة متناثرة من الفلاحين ، ولم ينج من عملية الإفقار والفوضى المحزنة هذه إلا مصر السفلى التى ظل حالها أقل سوءاً من بقية العالم . كما أن الإسكندرية والقسطنطينية احتفظتا مع ذلك بقسط متضائل من التجارة بين الشرق والغرب .

وفى غضون ذلك لاح للناس أن العلم والفلسفة قد قضيا نحبهما وزايلا هاتين الإمبراطوريتين المتناحرتين المضمحلتين . ومن قبل ذلك راح أواخر فلاسفة أثينا يحتفظون حتى يوم قضى عليهم جستنيان بنصوص الأدب التليد الموروث عن الماضى العظيم ،ويحوطونها بما لا نهاية له من التوقير والاحترام مع قلة الفهم والإدراك . ولكن العالم كانت تعوزه تلك الطبقة من الرجال : من أولئك السادة المهذبين الأحرار الذين تعودوا فى التفكير عادات الجرأة والاستقلال فى الرأى — ليواصلوا تقاليد التعبير الصريح والبحث الحر التى تسنها تلك المؤلفات العتيقة . ولا شك أن الفوضى الاجتماعية والسياسية هى المسئول الأول عن انعدام هذه الطبقة من الرجال . على أن هناك أيضاً سبباً آخر هو مردما انتاب الذكاء الإنسانى من العقم والانتكاس فى أثناء ذلك العصر . فقد ران التعصب وعدم التسامح على كل من فارس وبيزنطة . فكانت كل منهما دولة قائمة على الدين ولكن على شاكلة جديدة . شاكلة عاقت إلى حد كبير جميع نواحى النشاط الحر للعقل الإنسانى .

وقد كانت أقدم الإمبراطوريات فى العالم بطبيعة الحال دولا دينية تتمركز حول عبادة أحد الآلهة أو الملوك الآلهة . وقد اتخذ الإسكندر إلها ، وجعل القياصرة أرباباً بحيث أقيمت لهم الهياكل والمعابد . وجعل تقديم البخور امتحانا وشاهداً على الولاء لدولة الرومان . على أن هذه الديانات الغابرة كانت فى جوهرها ديانة عمل وواقع . فهى لم تكن لتغزو العقول . فإذا تقدم إنسان بقربانه وانحنى أمام آلهة ، لم يتلق إرشاداً من أحد ، فهو لايترك فقط ليفكر فى الله على أية شاكلة يهواها ، بل ليقول ما يشاء تقريباً . أما ذلك النوع الجديد من الأديان الذى ظهر عندئذ فى العالم ، وخاصة المسيحية ، فإنها تتجه

إلى سويداء النفوس . لم تكن تلك الديانات تكتفى بالمطالبة بمسايرة الرجل لمن حوله فى الإيمان بل تنشد الاعتقاد الواعى . ومن الطبيعى أن تنشب الخصومات العنيفة بين الناس حول المعنى الدقيق لتلك المعتقدات ، ذلك أن هذه الديانات الجديدة كانت ديانات عقائد .

لقد واجه العالم الآن عهد جديد : عهد العقيدة القويمة ، كما واجهه تصميم شديد على وضع جميع الأعمال بل حتى الكلام والأفكار الباطنية داخل حدود وتعاليم معلومة مفروضة . ذلك أن الأخذ برأى خاطئ ، فضلا عن نقله إلى سائر الناس لم يعد يعتبر عيباً ذهنياً بل خطأً خلقياً قد يجلب اللعنة على إحدى النفوس ويقضى عليها بالدمار السرمدى .

ومن ثم اتجه كل من أردشير الأول الذى أسس الأسرة الساسانية فى القرن الثالث الميلادى ، وقسطنطين الأكبر الذى أعاد بناء الإمبراطورية الرومانية فى القرن الرابع ، إلى الهيئات الدينية ملتمساً عونها ، وذلك لأنهما وجدا فى تلك الهيئات وسيلة جديدة لاستخدام إرادة الناس والهيمنة عليها . لذا لم يكد القرن الرابع يشارف نهايته حتى كانت كل من الدولتين تحرم حرية القول وكل ابتداع دينى . أما فى فارس ، فإن أردشير وجد فى عقيدة زرادشت الفارسية العتيقة بكل ما حوت من كهنة ومعابد ونار مقدسة تتقد دواماً فوق مذابحها ، أداة مهيأة لما ينشده من عقيدة للدولة . فلم تكد نهاية القرن الثالث تقترب حتى كانت الديانة الزرادشتية تضطهد النصرانية ، كما أن مانى مؤسس « المانوية » وهى عقيدة جديدة ، صلب فى ٢٧٧ وسلخ جلده . وذلك بينما كانت القسطنطينية من الجهة الأخرى تجد فى مقاومة الزندقات المسيحية . ذلك أن فكرات العقيدة المانوية أثرت فى المسيحية، ولم يكن بد من محاربتها بأفظع الطرق ؛ وحدث فى مقابل ذلك أن تأثرت المبادئ الزرادشتية الخالصة بالفكرات المسيحية . وبذا أصبحت جميع الأفكار متهمة مريبة . فليس عجيباً إذن أن يصاب نجم العلم بالأفول التام طوال فترة التعصب هذه ، والعلم يستلزم قبل كل شىء عقلا حراً فى عمله غير مضطرب فى تفكيره .

كانت الحياة البيزنطية فى تلك الأيام تدور حول الحرب وأشد أنواع اللاهوت تعصباً وأبشع رذائل البشر المألوفة . وكانت بيزنطة ترى فى ذلك شيئاً رائعاً جذابا ، كما

تراه شيئاً شاعرياً رومانسياً[١] ؛ وإن كان الواقع يكذب ذلك لحرمان الوضع كله من كل حلاوة أو استنارة . فما تكاد يد بيزنطة أو فارس تخلو من الحرب مع برابرة الشمال حتى تهويا على آسيا الصغرى وسوريا بالخراب فى أثناء حروبهما المهلكة المدمرة . ولو فرض جدلا أن هاتين الدولتين عقدتا أوثق أواصر المحبة والتحالف لما سهل عليهما مع ذلك أن يصدا البرابرة ويستعيدا ما ينبغى لهما من رغد . وفى إبان ذلك ظهر الترك أو التتار لأول مرة فى التاريخ متحالفين آناً مع فارس وآناً آخر مع بيزنطة .

حتى إذا وافى القرن السادس كان الخصمان الكبيران هما جستنيان وكسرى أنوشروان ؛ فإذا حلت بداية السابع كان العداء قائما بين الإمبراطور هرقل وبين كسرى الثانى (٥٨٠) .

وقد استطاع كسرى الثانى فى بداية الأمر ، وحتى أصبح هرقل إمبراطورا (٦١٠)، أن يجتاح كل شىء أمامه ، فاستولى على أنطاكية ودمشق وأورشليم وبلغت جيوشه مدينة خلقدنيه ، القائمة بآسيا الصغرى قبالة القسطنطينية . ثم فتح مصر فى (٦١٩) . وعندئذ تقدم هرقل ليطعن بجيوشه قلب فارس فى هجوم مضاد كبير ، وشتت قرب نينوى شمل جيش فارسى (٦٢٧)، وإن احتفظت فارس فى نفس الحين بجيشها فى خلقدنية وفى (٦٦٧) خلع قباذ أباه كسرى الثانى وقتله ، وعقد بين الإمبراطوريتين المكدودتين صلح غير حاسم .

لقد اشتبكت بيزنطة وفارس فى حربهما الأخيرة ، ولكن قل من الناس من كان يحلم آنذاك بتلك العاصفة التى كانت تتجمع فى نفس الحين فوق أراضى الصحراء لتقضى إلى الأبد على ذلك الكفاح المزمن الذى لاهدف له .

وبينما كان هرقل يعيد النظام إلى نصابه فى سوريا ، وصلته رسالة أحضرت إلى موقع أمامى للحراسة الإمبراطورية عند بصرى فى جنوب دمشق ؛ كانت الرسالة مكتوبة بالعربية إحدى اللغات السامية ، ولابد أن أحد التراجمة تلاها على مسامع الإمبراطور — إن كانت وصلته أصلا — كانت تلك الرسالة واردة من إنسان

---

(١) الرومانسى : كل شىء خيالى شعراً كان أم نثراً ينطلق وراء حدود الحياة العادية ويسمى أحيانا بالرومانتيكى. [المترجم]

يسمى محمداً رسول الله ، وهى تدعو الإمبراطور إلى عبادة الله الواحد الأحد وشهادة أن لا إله إلا الله . ولم يسجل لنا التاريخ ما قاله الإمبراطور فى تلك الرسالة .

وجاءت رسالة مماثلة لهذه إلى قباذ فى المدائن . فاستاء منها ومزقها ، وأمر الرسول بالانصراف . فلما بلغ محمدا نبأ ذلك قال :

« مزق الله ملكه » .

وقد ظهر أن محمدا الذى أرسل الرسالة كان زعيما دينيا اتخذ مركز دعوته فى « المدينة » إحدى البلدان الصحراوية الصغيرة . وكان يعلم الناس ديانة جديدة تدعوهم إلى عبادة الله الواحد الحق .

الفصل الثاني والأربعون

أسرتا « سوى ، وتانج »

بالصين

امتازت القرون الخامس والسادس والسابع والثامن الميلادية بتقدم الشعوب المغولية نحو الغرب . فلم يكن هون أتيلا إلا مقدمة لذلك التقدم ، الذى أفضى فى النهاية إلى استقرار شعوب مغولية فى فنلندة واستونيا وبلاد المجر ، حيث لايزال أحفادهم يعيشون إلى يومنا هذا ويتكلمون لغات تشبه التركية . والبلغار أيضا شعب تركى الأرومة ، ولكنهم اتخذوا لأنفسهم لسانا آريا . فإن المغول كانوا يلعبون مع الحضارات المطبوعة بالطابع الآرى فى أوربا وفارس والهند ، نفس الدور الذى لعبه الآريون إزاء المدنيات الإيجية والسامية قبل ذلك ببضعة قرون.

أما فى آسيا الوسطى فإن الشعوب التركية سارت فيما نسميه اليوم باسم التركستان الغربية ، كما أن الدولة الفارسية كانت تستخدم فعلا كثيرا من الموظفين الأتراك والجند المرتزقة الأتراك . وكان الأشقانيون (البارثيون) قد بادوا من التاريخ تماما وامتصهم سكان فارس بوجه عام ، ولذا لم يعد فى تاريخ آسيا الوسطى أى رحل آريين ؛ إذ حلت الشعوب المغولية محلهم . وأصبح الترك سادة على آسيا بالمنطقة الممتدة من بلاد الصين إلى بحر الخزر (قزوين) .

أدى الوباء العظيم نفسه الذى حدث عند نهاية القرن الثانى الميلادى ونجم عنه تمزيق الدولة الرومانية ، إلى إسقاط أسرة « هان » عن عرش الصين . ثم حلت بالصين فترة خيمت عليها فى أثنائها الفرقة والانقسام والتعرض لغارات الهون، ولم تلبث أن نهضت بعدها منتعشة القوى ، وبصورة أسرع وأكمل مما تهيأ لأوربا فيما بعد : فلم

يكد يحل القرن السادس الميلادى حتى كانت الصين قد اتحدت تحت أسرة سوى ، ولم تلبث هذه حتى حلت محلها فى عهد هرقل أسرة تانج ، التى يسجل التاريخ لحكمها عهدا عظيما آخر من عهود الرخاء بالصين .

كانت الصين طوال القرون السابع والثامن والتاسع الميلادية ، أعظم أقطار العالم أمنا وأبعد فى الحضارة باعا، ومن قبل ذلك مدت أسرة هان تخومها شمالا ؛ ثم جاءت أسرتا سوى وتانج فبسطتا ألوية حضارتها جنوبا ، وبذلك شرعت الصين تحصل على الرقعة الفسيحة التى لها اليوم . أجل إن ممتلكاتها كانت آنذاك بآسيا الوسطى أبعد كثيراً مما هى اليوم ، إذ كانت تمتد على طريق القبائل التركية الخاضعة لها ، حتى تبلغ فى النهاية تخوم فارس وبحر قزوين .

وشتان بين الصين الجديدة التى نشأت وقتئذ وبين الصين العتيقة لأسرة هان . فقد ظهرت بها مدرسة أدبية جديدة أعظم قوة من كل ما سبقها ، وحدث فى الشعر نهضة عظيمة ؛ كما أن البوذية أحدثت انقلاباً فى الفكر الفلسفى والدينى، وحدث تقدم عظيم فى الإنتاج الفنى والمهارة الفنية التطبيقية وفى كل مايبهج الحياة من نعم ومسرات . فاحتسى الشاى لأول مرة فى التاريخ ، كما صنع الورق ، وبدىء بالطباعة بوساطة الكتل الخشبية . والحق أن ملايين من الناس كانوا يعيشون ببلاد الصين عيشاجذابا رقيقا منظما إبان تلك القرون ، التى كان فيها سكان أوربا وآسيا الغربية الذين تناقص عددهم يعيشون عيشا زريا : بين ساكن فى كوخ حقيرأو نازل فى مدينة مسورة صغيرة أو متحصن بقلعة لصوص بشعة الصورة . وفى نفس الوقت الذى كانت تغشى فيه عقل الغرب دياجير التعصب اللاهوتى ، كان عقل الصين متفتحا للعلم متسامحا باحثا عن المعرفة .

ومن أقدم ملوك أسرة تانج الإمبراطور تاى تسونج الذى ابتدأحكمه فى (٦٢٧) ، وهى نفس السنة التى انتصر فيها هرقل قرب نينوى . وقد جاءه سفير من قبل هرقل ، الذى ربما كان يبحث عن حليف له فى الجهة الأخرى من بلاد فارس ووفدت عليه من فارس نفسها جماعة من المبشرين المسيحيين (٦٣٥ م) . فسمح لهم أن يشرحوا عقيدتهم أمامه ، وأخذ يدرس ترجمة صينية لكتبهم المنزلة . ثم أعلن أن فى الإمكان قبول هذه الديانة العجيبة ،وأذن بإنشاء كنيسة ودير .

وإلى ذلك العاهل نفسه أقبلت رسل النبي محمد فى (٦٢٨) فوصلوا إلى كانتون على ظهر إحدى السفن التجارية ، بعد أن قطعوا الطريق بالبحر على امتداد سواحل الهند . وأعار نايتسونج لهؤلاء المبعوثين أذنا مصغية كريمة على النقيض مما فعله قباذ وهرقل، ثم أبدى اهتماما بآرائهم الدينية ، وساعدهم فى بناء مسجد بمدينة كانتون ، وهو مسجد لايزال باقيا ـ فيما يقال ـ إلى وقتنا هذا ، فهو بذلك أقـــدم مساجد العالم .

الفصل الثالث والأربعون

محمد والإسلام

لو أن هاويا للتنبؤ فى التاريخ استعرض أحوال العالم عند مستهل القرن السابع الميلادى لأمكنه أن يستنتج بحق ـ أنه لن تنقضى بضعة قرون حتى تقع أوربا وآسيا بأكملها فى قبضة المغول ، ذلك أن أوربا الغربية حرمت كل شاهد يدل على النظام أو الاتحاد ، كما أن الدلائل كلها كانت تدل على أن دولتى الروم والفرس لن ترجعا حتى تدمر كل منهما الأخرى . وكان الانقسام والخراب يعمل عمله فى الهند أيضاً ، وذلك فى حين أن الصين كانت آنذاك إمبراطورية مستمرة الاتساع ، ربما فاقت أوربا جمعاء فى عدد السكان ، فضلا عن ميل الشعب التركى الذى أخذ يتسنم غارب القوة بآسيا الوسطى إلى العمل على الوفاق مع الصين.

وما كانت مثل هذه النبوءة عبثاً باطلا بأى حال ، إذ جاء فى القرن الثالث عشر أوان قدر فيه لسيد مغولى أعلى أن يحكم إقليما يمتد من نهر الدانوب إلى المحيط الهادى ، كما كتب للأسرات التركية المالكة أن تحكم الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية جميعاً وتسود مصر ومعظم بلاد الهند .

أما النقطة التى ربما تعرض فيها ذلك التكهن للخطأ فهى عدم تقديره بالضبط قدرة أوربا اللاتينية على استرداد قواها ، وتجاهله للقوى الكامنة فى الصحراء العربية ، إذ إن بلاد العرب ربما لاحت لعينه على صورتها التى دامت عليها منذ أزمان سحيقة القدم : حيث كانت مرتعا لقبائل صغيرة متناوشة من الرحل ، وقد انقضت آنذاك أكثر من ألف سنة ، لم ينشئ شعب سامى فى أثنائها إمبراطورية واحدة .

ثم مالبث نجم البدو أن سطع بباهر الضياء مدة قرن واحد وجيز حافل بالأبهة والفخامة ، مدوا فى أثنائه حكمهم ولغتهم من بلاد الأندلس حتى حدود الصين ، ومنحوا

العالم ثقافة جديدة ، وأقاموا عقيدة لا تزال إلى اليوم من أعظم القوى الحيوية فى العالم .

أما الرجل الذى أشعل ذلك القبس العربى ، وهو محمد [عليه السلام] فيبدو لأول مرة فى التاريخ بمدينة مكة ، حيث تزوج وهو شاب من أرملة ثرية ولم تأته الرسالة حتى بلغ الأربعين ؛ لذا لم يتميز قبل ذلك بشىء اللهم إلا ما عرف عنه من أمانة واستقامة، والظاهر أنه كان يهتم اهتماما بالغا بالبحوث[1] الدينية . كانت مكة بلدة وثنية فى فى ذلك الزمان تعبد بوجه خاص حجرا أسود فى بناء الكعبة ذاع صيته فى كل أرجاء الجزيرة العربية ، فأصبح مقصد الحج والحجاج ؛ ولكن البلاد كانت تحوى عدداً ضخماً من اليهود — بل الواقع أن الجزء الجنوبى من بلاد العرب كان يعتنق اليهودية دينا — كما أن سوريا كانت بها العقائد المسيحية .

وعندما قارب الأربعين من عمره ، أخذ ينزل عليه ناموس النبوة الذى كان لأنبياء العبرانيين قبل عهده باثنى عشر قرنا .

فتحدث أولا إلى زوجته بكلام كثير : — عن الله الواحد الحق . وعن ثواب الإحسان والمحسنين وعذاب الشر والضلال ، فجمع حوله حلقة صغيرة من المؤمنين، ثم شرع يعظ الناس فى بلدته ويحضهم على ترك مايعبدون من أوثان ، فكرهه لذلك قومه وأهل بلدته ، نظرا لأن الحج إلى الكعبة كان أعظم مصدر للخير العميم الذى تحظى به مكة .

ومالبث أن زاد جرأة وأن حدد تعاليمه أكثر ، فأوحى إليه فأعلن أنه خاتم أنبياء الله وأنه بعث ليتم الدين ومكارم الأخلاق . وصرح بأن إبراهيم وعيسى كانا به مبشرين ومنذرين سابقين . وأنه اصطفى ليتم ويكمل الكشف عن إرادة الله .

---

(١) لم يعرف عنه صلوات الله وسلامه عليه ذلك، بل المعروف هو نفوره من عبادة الأصنام وعدم سجوده لصنم قط.

[المراجع]

وكلما اشتدت قوة تعاليمه اشتدت وطأة عداوة أبناء بلده له ، حتى ترامى بهم الأمر إلى التآمر به ليقتلوه ؛ ولـكنه هاجر مع صديقه الصدوق وتلميذه الأمين أبي بكر إلى بلدة المدينة الموالية التي اعتنقت مبادئه .

ومالبثت الخصومة والحرب أن استعرت بين مكة والمدينة ،وانتهت في آخر الأمر بمعاهدة صلح ؛ قبلت مكة بمقتضاها أن تعبد الله الواحد الأحد ، وأن ترضى بمحمد رسولا له ونبياً ، على أن يواصل أتباع العقيدة الجديدة أداء فريضة الحج بمكة .

بذلك وطد محمد — بوحى من ربه — عبادة الرب الواحد الحق بمكة دون أن يضر تجارتها وحجيجها . وعاد إلى مكة فى ٦٢٩ سيداً لها مطاع الـكلمة ، وإذا هو يرسل فى مدى سنة من ذلك التاريخ مبعوثيه إلى هرقل وتايتسونج وقباذ وجميع حكام الأرض كافة .

ثم راح النبي عليه الصلاة والسلام يبسط سلطانه على بقية أجزاء الجزيرة العربية فى السنوات الأربع الأخيرة قبل وفاته فى (٦٣٢) ، وتزوج عدداً من النساء فى أثناء سنى شيخوخته .

ويلوح أنه رجل ركبت فيه طباع كثيرة،منها شدة الشعور الدينى القوى والإخلاص . وأوحى إليه من الله كتاب هو القرآن ويحوى كثيرا من التعاليم والشرائع والسنن .

ويحتوى الإسلام الذى فرضه النبى على العرب ديناً ،الشىء الـكثير من القوة والإلهام . فمن خصائصه التوحيد الذى لاهوادة فيه ؛ وإيمانه البسيط المتحمس بحكم الله للناس وأبوته الشاملة لهم وخلوه من التعقيدات اللاهوتية .

ومن خصائصه كذلك أنه منفصل تمام الانفصال عن كاهن القرابين ومعبدها ، فهو عقيدة نبوية تماما ، بمأمن حصين من كل انزلاق نحو القرابين الدموية .

والقرآن حين يذكر طبيعة الحج إلى مكة بصورة محددة واضحة الشعائر ، إنمـا يجعلها بمأمن من كل احتمال للنزاع فى شأنها ، كما أن النبى اتخذ كل احتياط ليحول دون تأليهه بعد مماته ، وثمة عنصر ثالث للقوة يكمن فى إصرار الإسلام على أن المؤمنين جميعاً إخوة متساوون تماما أمام الله ، مهما اختلفت ألوانهم أو أصولهم أو مراكزهم .

هذه هى الأمور التى جعلت الإسلام قوة فعالة فى الشئون الإنسانية . ويقول

المؤرخون إن المؤسس الحق للدولة الإسلامية لم يكن محمداً قدر ماهو صديقه ومساعده أبو بكر. فلئن كان محمد هو العقل المفكر والتصور الملهم للاسلام الأصلى ، فلقد كان أبو بكر ضميره وإرادته ، حتى إذا مات محمد أصبح أبو بكر خليفته ، ثم راح بعقيدة تزحزح الجبال ، يعمل ببساطة وعقل راجح على إخضاع العالم كله لأمر الله — بوساطة جيوش يتراوح عددها بين ثلاثة أو أربعة آلاف عربى طبقاً لتلك الرسائل التى كتبها النبى عليه السلام من المدينة فى (٦٢٨) إلى جميع ملوك العالم. فهو بحق مؤسس دولة الإسلام .

الفصل الرابع والأربعون

عهد عظمة العرب

ثم جاءت بعد ذلك أعجب قصص الفتوح التي مرت على مسرح تاريخ الجنس البشري . إذ تمزق الجيش البيزنطي في معركة اليرموك (وهو أحد روافد نهر الأردن) في (٦٣٤) ؛ ولم يلبث الإمبراطور هرقل — وقد استنزف داء الاستسقاء قواه كما استنفدت الحرب الفارسية موارده المالية — أن رأى ممتلكاته التي استردها وشيكا في سوريا وهي دمشق وتدمر وأنطاكية والقدس وغيرها ، تتداعى أمام المسلمين دون مقاومة تقريباً . واعتنقت الإسلام نسبة كبيرة من السكان . ثم اتجه المسلمون شرقا إلى بلاد الفرس الذين وجدوا في رستم قائداً قديرا ؛ فجمعوا له جيشاً عظيما به قوة من الفيلة ؛ واستمروا يقاتلون العرب ثلاثة أيام عند القادسية (٦٣٧) ثم هزموا في النهاية هزيمة تامة .

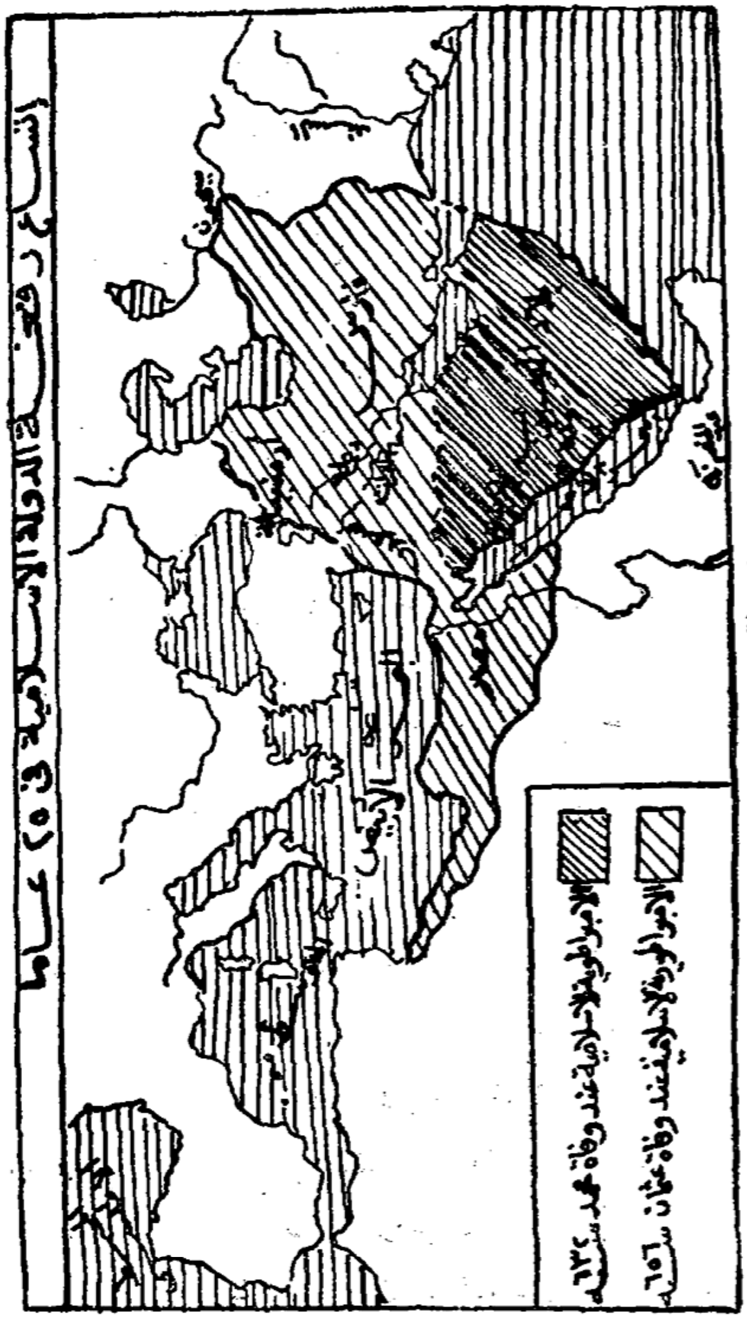
وتم بعد ذلك فتح فارس بأجمعها ، وتقدمت الدولة الإسلامية قدما إلى التركستان الغربية ثم توغلت في الشرق حتى التقت بالصينيين ، وسقطت مصر دون مقاومة تذكر في يد الفاتحين .

واندفع سيل الفتوح على ساحل إفريقية الشمالي حتى بلغ مضيق جبل طارق وتجاوزه إلى بلاد الأندلس في ٧١٠ ، وبلغ الفاتحون جبال البرانس في ٧٢٠ . ولم يلبث تقدم العرب حتى بلغ وسط فرنسا في ٧٣٢ ، ولكنه أوقف هنا إلى الأبد بعد معركة بواتييه[1] ، ورد على أعقابه إلى جبال البرانس ثانية . وصار للعرب بفتح مصر أسطول بحري ، وجاء أوان لاح فيه سقوط القسطنطينية وشيكا ، فهاجموها بحرا مرات عديدة بين ٦٧٢ ، ٧١٨ ، ولكن المدينة العظيمة صمدت أمام هجماتهم .

لم يوهب العرب كفاية سياسية كبيرة ، كما أنهم لم يرزقوا أية خبرة سياسية أبدا ، لذا

---

(١) هي معركة بلاط الشهداء التي هزم فيها عبد الرحمن الغافقي على يد شارل مارتل الفرنجي


اتساع رقعة الدولة الإسلامية في ٥٠ عاما
الإمبراطورية الإسلامية عند وفاة محمد سنة ٦٣٢
الإمبراطورية الإسلامية عند وفاة عثمان سنة ٦٥٦

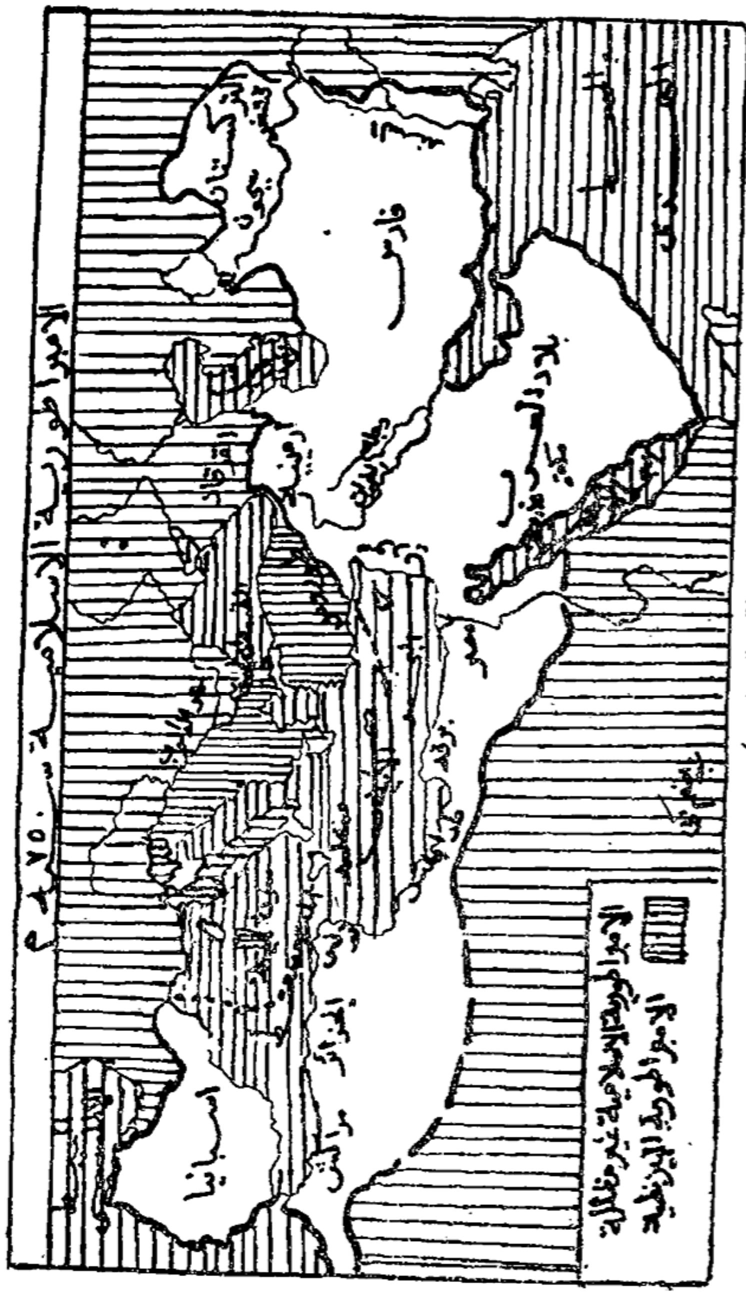
خريطة رقم (٨)

لم يقدر لهذه الإمبراطورية العظيمة التى أصبحت قصبتها آنذاك مدينة دمشق ، والتى امتدت رقعتها من إسبانيا إلى الصين ، أن تعيش طويلا ومنذ البداية نفسها ، قوضت الخلافات المذهبية وحدتها . على أن محور اهتمامنا هنا ليس قصة تفككها السياسى ، بل أثرها فى العقل الإنسانى وفى المصائر العامة لجنسنا البشرى . لقد قذفت المقادير بالذكاء العربى فى طول العالم وعرضه بصورة أسرع وأروع مما فعلت بالعقل اليونانى قبل ذلك بألف سنة خلت . لذا عظمت إلى أقصى حد الاستثارة الفكرية التى أحدثها وجودهم للعالم أجمع غربى بلاد الصين ، كما اشتد تمزيق الأفكار القديمة وتطور أخرى جديدة .

وفى فارس اتصل هذا العقل العربى الجديد المتنبه لا بالمبادئ المانوية والزرادشتية والمسيحية وحدها ، بل التقى أيضاً بمؤلفات الإغريق العلمية ، التى لم تكن مكتوبة فقط باللغة اليونانية بل فى ترجمات سريانية كذلك . ثم إنه وجد العلوم اليونانية بمصر أيضاً . كما أنه استكشف فى كل مكان وخاصة ببلاد الأندلس تقليدا يهوديا ناشطا فى نواحى التأمل الفكرى والجدل . والتقى فى وسط آسيا بالبوذية وبما بلغته الحضارة الصينية من ألوان التقدم المادى ؛ فتعلم منها صناعة الورق ، التى يرجع إليها الفضل فى ظهور الكتب المطبوعة . ثم اتصل ذلك العقل أخيرا بالرياضة والفلسفة عند الهنود .

وما هى إلا فترة وجيزة جدا حتى ولى الشعور المتعصب بالكفاية الذاتية الذى ظهر فى أيام العقيدة الأولى . والنبى كان يصور القرآن فى صورة الكتاب الوحيد الذى يجوز الأخذ به . فكان العلم يثب على قدميه وثبا فى كل موضع وطئته قدم الفاتح العربى . فلم يحل القرن الثامن الميلادى حتى كانت للدولة منظمات تعليمية تنتشر فى كل أرجاء العالم المستعرب . وحين وافى التاسع إذا بالعلماء فى مدارس قرطبة بالأندلس يتراسلون مع إخوانهم علماء القاهرة وبغداد وبخارى وسمرقند . وتمثل كل من العقلين اليهودى والعربى بعضهما بعضا ، ومرت فترة تعاون فيها الجنسان الساميان على العمل المتضافر بوساطة اللسان العربى . ثم تمزق شمل العرب وضعفت شوكتهم ، ولكن هذا الارتباط الفكرى بين أصقاع العالم الناطق بالعربية دام بعد ذلك التمزق طويلا . وكان لايزال ينتج فى القرن الثالث عشر نتائج عظيمة جداً .

وهكذا حدث أن التجميع والنقد المنظم للحقائق الذى بدأه الإغريق لأول مرة ،



خريطة رقم (٩)

عاد سيرته الأولى فى ثنايا تلك النهضة المدهشة التى نهضها العالم السامى . فالآن دبت الحياة في بذرتى أرسطو ومتحف الإسكندرية ، اللتين طال العهد على خمودهما وإهمال الناس لهما ، وإذا هما تنبتان من جديد وتأخذان فى الإثمار .

لقد تم للعرب فى حقول العلوم الرياضية والطبية والطبيعية ضروب كثيرة من التقدم . فنبذت الأرقام الرومانية القبيحة وحلت محلها الأرقام العربية التى نستعملها إلى يومنا هذا . واستعملت علامة الصفر لأول مرة .

ولا يخفى أن اسم « الجبر » نفسه لفظ عربى . وكذلك كلمة « كيمياء » . ثم إن أسماء نجوم كنجم الغول والدبران والعواء Bootes تحتفظ بذكرى فتوح العرب فى أطباق السماء، وبفضل فلسفتهم عادت الحياة إلى فلسفة القرون الوسطى بكل من فرنسا وإيطاليا والعالم المسيحى كافة .

وكان علماء الكيمياء التجريبيون عند العرب يسمون « أصحاب الصنعة » Aldhemists ، ولكنهم ظلوا على جانب كبير من النزعة الهمجية من حيث احتفاظهم بطرائقهم ونتائجها فى طى الكتمان ما وسعهم ذلك ، لأنهم أدركوا منذ البداية الأولى ماقد تعود به عليهم مستكشفاتهم من مزايا هائلة وما قد يترتب بها على الحياة البشرية من عواقب بعيدة الأثر .

ولا شك أنهم وفقوا إلى مستنبطات فى المعادن والتطبيق الفنى كثيرة ولها قيمة قصوى ؛ فهم الذين عثروا على السبائك والأصباغ والتقطير والألوان والعطور وزجاج العدسات .

ولكنهم كانوا ينشدون غرضين رئيسيين ظلوا ينشدونهما عبثا ، أما أول الغرضين « فحجر الفلاسفة » الذى ابتغوه وسيلة لتحويل العناصر المعدنية بعضها إلى بعض ، وبذلك يحصلون على الهيمنة على صنع الذهب . أما الغرض الثانى فهو إكسير الحياة . وهو ترياق يعيد الشباب ويطيل العمر إلى مالا نهاية ، وعن هؤلاء الكيماويين العرب انتشرت إلى العالم المسيحى التجارب المعقدة المحفوفة بالمشقة والصبر، ذلك أن فتنة أبحاثهم امتدت إلى غيرهم . ولم تصبح جهود هؤلاء الكيماويين تعاونية واجتماعية بدرجة أكبر إلا رويدا رويدا وبالتدريج البطىء للغاية ، فإنهم شعروا بالفائدة التى تعود عليهم من تبادل الأفكار وموازنتها .

وهكذا أصبح أواخر أهل الصنعة أول فلاسفة التجريب على صورة من التدرج البطىء غير المحسوس .

كان قدماء أهل الصنعة ينشدون حجر الفلاسفة الذى يراد له أن يحيل المعادن الدنيئة إلى ذهب ، كما يطلبون إكسيرا للخلود ؛ ولـكنهم عثروا على مناهج العلم التجريبى الذى يوشك فى خاتمة المطاف أن يمنح الإنسان سلطاناً لاحد له على العالم كله ، بل وعلى مصائره هو نفسه .

الفصل الخامس والأربعون

تطور عالم المسيحية اللاتينية

يجدر بنا أن نلحظ أن مساحة نصيب الآريين من هذا العالم فى القرنين السابع والثامن قد أصبحت متقلصة تقلصاً مفرطاً . وقبل ذلك بألف سنة ، كانت الأجناس الناطقة بالآرية هى صاحبة الغلبة على العالم المتحضر كافة إلى الغرب من بلاد الصين . أما اليوم فقد تقدم المغول حتى بلغوا بلاد المجر ، ولم يبق من آسيا شىء تحت حكم الآريين إلا الممتلكات البيزنطية بآسيا الصغرى ، كما أفلتت من قبضتهم إفريقية كلها وضاعت إسبانيا كلها تقريباً . وقد انكمش العالم الهلينى العظيم حتى أصبح بضع ممتلكات قليلة تتمركز حول نواته مدينة القسطنطينية التجارية ، ولم يبق من شىء يخلد ذكرى العالم الرومانى سوى اللسان اللاتينى الذى ينطق به قساوسة المسيحية الغربية . وعلى النقيض القوى لقصة الانحطاط هذه ، كانت التقاليد السامية قد انتعشت ثانية ونفضت عنها غبار الذلة والانحطاط بعد ألف سنة من الظلمات الداجية .

على أن حيوية الشعوب الآرية لم تستنفدها الأيام تماما . فإنهم وإن حصروا آنئذ فى منطقة أوربا الوسطى والشمالية الغربية وتمرغوا تمرغاً ذريعاً فى حمأة أفكارهم الاجتماعية والسياسية ، فقد شرعوا مع ذلك يبنون بالتدريج وبصفة مستمرة دائمة نظاما اجتماعياً جديداً ويعدون العدة ، بغير وعى منهم ، لاستعادة سلطان أوسع كثيراً مما استمتعوا به فى الماضى .

وقد أسلفنا لك كيف أنه حدث فى بداية القرن السادس أن أوربا الغربية لم تعد بها على الإطلاق حكومة مركزية . فإن ذلك العالم قد تقاسمته جماعة من الحكام المحليين الذين يستقل كل منهم بشئونه بقدر طاقته . وفى ذلك ما فيه من الاضطراب الذى لا يبشر بأى دوام لتلك الحالة ؛ لذا نجم بين ظهرانى تلك الفوضى ضرب من التعاون والترابط ، هو النظام الإقطاعى الذى بقيت آثاره فى الحياة الأوربية إلى وقتنا هذا . كان هذا النظام الإقطاعى ضربا من تبلور المجتمع حول « القوة » ، فإن

الرجل الفرد أحس فى كل مكان بالخوف وعدم الطمأنينة وبدافع يدفعه إلى مقايضة شىء من حريته بشىء من المعونة والحماية . فالتمس لنفسه رجلا أقوى منه شوكة ليكون سيداً له وحامياً ؛ وإليه قدم خدماته العسكرية ودفع المكوس ، وتلقى مقابل ذلك تأكيداً بامتلاكه ماله من ممتلكات ، وكذلك الشأن مع سيده الذى كان يحس الأمان فى الخضوع لمولى أعظم منه هو أيضاً . ووجدت المدن كذلك أن من الخير الملائم لها أن تحصل على حماة إقطاعيين ، كما أن الأديرة وممتلكات الكنيسة ربطت نفسها بروابط مماثلة لهذه . ومن البديهى أن الولاء كان يطلب فى كثير من الأحيان قبل أن يقدم تلقائياً ؛ فكأن النظام كان ينمو إلى أسفل مثلما كان ينمو من أسفل إلى أعلى . وبذلك نشأ ضرب من نظام هرمى يختلف اختلافا بعيداً بمختلف المناطق ، ويسمح فى البداية بقدر عظيم من العنف والحروب الأهلية أو الخاصة ولكنه يتجه باستمرار نحو إقرار النظام ، ونحو عهد جديد يسوده القانون . وما زالت الأهرامات تعلو حتى أصبح بعضها ملكيات واضحة المعالم . وكانت هناك منذ عهد قديم جداً ، هو بواكير القرن السادس ، مملكة فرنجية تحت حكم مؤسسها كلوفيس وموقعها فرنسا الحالية والأراضى المنخفضة (بلجيكا وهولندة) ، وسرعان ما ظهرت أيضاً ممالك قوطية غربية ولومباردية .

وعند ما عبر المسلمون جبال البرانس فى ٧٢٠ وجدوا هذه المملكة الفرنجية تحت الحكم « الواقعى » لشارل مارتل ، ناظر القصر لدى حفيد منحل من سلالة كلوفيس ، — وهناك عند پواتييه (٧٣٢) لقوا على يده هزيمة فاصلة . كان شارل مارتل هذا فى الواقع السيد المتحكم فى أوربا فى رقعة تمتد شمال جبال الألب ، من جبال البرانس حتى بلاد المجر . وكان يسيطر على العدد الجم من السادة التابعين الناطقين باللاتينية الفرنسية ، وباللغتين الجرمانيتين العليا والسفلى(١) . وما لبث ابنه « پيين » أن قضى على آخر البقية الباقية من أحفاد كلوفيس ، واستولى على مملكتهم وتاجهم . ووجد حفيده شرلمان الذى بدأ حكمه فى ٧٦٨ نفسه حاكما على مملكة بلغت من الاتساع أنه فكر أن يعيد لقب أباطرة الدولة الرومانية الغربية (اللاتينية) ويتلقب به . ففتح شمال إيطاليا وجعل نفسه سيداً على روما .

(١) الجرمانية العليا : هى لغة مرتفعات ألمانيا وجنوبيها — والجرمانية السفلى هى لغة السهول الشمالية المنخفضة . [المترجم]

وعندى أن فى مستطاعنا ، ونحن نستعرض قصة أوربا استعراض التاريخ العالمى الرحيب الأفق ، أقول فى مستطاعنا أن نتبين أكثر من مؤرخ قومى بحت ، الأثر الأليم المعوق الذى جلبه على أوربا إحياء ذلك اللقب الرومانى الإمبراطورى . إذ إن أوربا نكبت بكفاح حاد ضيق الأفق دار حول هذه السيادة الوهمية ولقبها مدة تزيد على ألف سنة ، استنفدفى أثنائها كل طاقاتها . ولو نظرت إلى تلك الفترة كلها لأمكنك تعقب خصومات حامية الوطيس فيها ؛ ولرأيتها تتأجج فى عقول الأوربيين تأجج الوسواس[1] فى عقل مخبول به مس من الجنون . ومن هذه الدوافع القوية طموح كبار الحكام ، الذين يمثلهم شرلمان (ومعناها شارل الأكبر) — إلى التلقب بلقب قيصر . وكانت مملكة شرلمان تتكون من مجموعة معقدة من دول إقطاعية جرمانية تتراوح فى قوة طابعها البربرى . وقد تعلمت معظم هذه الشعوب الجرمانية فى غرب نهر الرين أن تنطق بلهجات تلونت باللون اللاتينى، ولم تلبث فى النهاية أن اندمجت فأصبحت اللغة الفرنسية الحديثة . أما إلى الشرق من نهر الرين فإن الشعوب الجرمانية المماثلة فى جنسها لتلك التى فى غرب النهر لم تفقد لسانها الجرمانى . لذا لم يعد التواصل سهلا بين طائفتى هؤلاء الغزاة البرابرة ، وسرعان ما حدث الصدع بينهما . وزاد فى تيسير الصدع أن عرف الفرنجة كيف يجعلون من الطبيعى تقسيم إمبراطورية شرلمان بين أولاده عند موته .

لذا أصبح من الظواهر المألوفة فى تاريخ أوربا منذ أيام شرلمان فما بعدها ، أن يتحول إلى تاريخ لهذا الملك وأسرته أو ذاك ، وهم يكافحون فى سبيل رياسة مقلقلة على من عاصرهم فى أوربا من ملوك وأمراء ودوقات وأساقفة ومدن ، فى حين أخذ العداء بين العناصر الناطقة بالفرنسية والألمانية — يزداد عمقاً فى طوايا تلك الخصومة . وقد جرت العادة بإقامة انتخاب شكلى لكل إمبراطور يتولى العرش ، وكان أقصى ما يتمنى كل منهم أن يكافح حتى يمتلك روما العاصمة البالية ذات الموقع السيء وأن يحظى بالتتويج فيها .

أما العامل الثانى فى الاضطراب السياسى بأوربا فهو تصميم الكنيسة بروما على ألا تسمح لأى أمير علمانى إلا بابا روما نفسه أن يصبح إمبراطورا واقعيا . وقدسبق للبابا

(١) الوسواس : (Obsession) فكرة ملحة تعاود الفرد دائماً تتلون عادة بلون عاطفى قوى ، وغالباً ما تنطوى على دافع إلى القيام بنوع من التصرف ، وهى حالة عقلية مرضية وتسمى فى علم النفس باسم الحواز أو الانحصار . [المترجم]

كما أسلفنا أن اتخذ لقب الحبر الأعظم ؛ وكانت كل الدواعى العملية البحتة تدعوه إلى الاحتفاظ بتلك المدينة المتداعية المتدهورة ؛ ولئن أعوزته الجيوش فلقد كان يملك على الأقل مؤسسة فخمة للدعاية ، لسانها قساوسته المنتشرون فى كل أصقاع العالم اللاتينى ؛ ولئن قل نصيبه من السلطان على أجسام الرجال ، فلقد ملكت يمينه فيما تتصور أخيلتهم مفاتيح الجنات والجحيم ، وكان له من ثم نفوذ كبير على نفوسهم . لذا فالصور التى ترتسم أمامنا عن العصور الوسطى بأكملها هى أنه فى الوقت الذى كان أحد الأمراء يداور ويناور ضد زميل له طلبا للمساواة به أولا ، ثم التفوق عليه ثانيا ، ثم التماسا للهدف الأعلى المرموق أخيراً — كان البابا فى روما يداور هو أيضا ويناور لإخضاع الأمراء جميعا لسلطانه بوصفه السيد الأعلى للنصرانية ، يقوم بذلك بجرأة وجسارة أحيانا ، وبإعمال المكر والدهاء تارة ، أو بخسة وضعف أخرى (وذلك لأن البابوات كانوا جماعة متعاقبة من الشيوخ لم يزد حكم أحدهم عن سنتين قط) .

بيد أن هذه الخصومات الناشبة بين الأمير وبين الإمبراطور والبابا لم تكن هى وحدها بأية حال عوامل الاضطراب بأوربا ، فقد كان بالقسطنطينية إمبراطور يتكلم الرومية ويطالب أوربا كلها بالولاء لعرشه ، وعندما حاول شرلمان أن يبتعث الإمبراطورية ، لم يوفق إلى أكثر من ابتعاث القسم اللاتينى منها . فكان من الطبيعى إذن أن ينشأ بسرعة بين إمبراطورية اللاتين وإمبراطورية الروم شعور بالمنافسة . على أن تطور المنافسة بين الكنيسة المسيحية الناطقة بالرومية وبين مثيلتها الحديثة الناطقة باللاتينية كان أشد وأسرع . فادعى البابا بروما أنه خليفة القديس بطرس كبير تلاميذ يسوع المسيح وأنه رئيس المجتمع المسيحى فى كل مكان. وبديهى أن إمبراطور القسطنطينية وبطريقها لا ينظران بعين الرضا إلى هذا الادعاء ، ونشب نزاع فى ١٠٥٤ حول نقطة دقيقة فى موضوع الثالوث المقدس ، فكان نقطة الانفجار التى تصدعت معها العلاقة بين الطرفين بعد مجموعة متتالية من الخلافات . فافترقت الكنيسة اللاتينية عن أختها اليونانية وتميزت إحداهما عن الأخرى منذ ذلك الحين ، وأسفرت عما تكنه للأخرى من عداوة . وينبغى أن نضيف هذه الخصومة الجديدة إلى غيرها من الخصومات التى ذكرناها فى تعدادنا للمنازعات التى بددت قوى عالم النصرانية اللاتينية فى العصور الوسطى .

وعلى رأس هذا العالم المسيحى المتفرق الكلمة ، انهالت الضربات من قبضة



خريطة رقم (١٠)

مجموعات ثلاث من الخصوم . فإن منطقة بحر البلطيق والبحار الشمالية ظلت مقيمة بها مجموعة من القبائل النوردية لم تعتنق المسيحية إلا ببطء شديد وبغاية النفور والتمنع ، وهى قبائل النورمان (أهل الشمال) ، جنحت تلك القبائل إلى البحار واحترفت القرصنة ، وأخذت تغير على شواطئ العالم النصرانية جميعا حتى إسبانيا . وقد تقدموا قبل ذلك إلى المناطق العليا من الأنهار الروسية حتى بلغوا المناطق القاحلة الوسطى ، ثم نقلوا سفنهم إلى الأنهار المتجهة صوب الجنوب . وظهروا كقراصنة على صفحة بحر قزوين والبحر الأسود وأقاموا الإمارات بالروسيا ؛ وهم أول شعب سمى باسم الروس ، وأوشك هؤلاء النورمان الروسيون على الاستيلاء على القسطنطينية يوما ما . وكانت إنجلترا فى مستهل القرن التاسع قطراً متنصرا يسكنه قوم من الأرومة الألمانية السفلى تحت ملك هو إجبرت ، وهو تلميذ لشرلمان ينضوى تحت حمايته ولكن النورمان اغتصبوا نصف المملكة من خلفه ألفريد الكبير (٨٨٦) ، ثم جعلوا من أنفسهم فى عهد كانوت (١٠١٦) سادة على البلاد . وجاءت ثلة أخرى من النورمان بقيادة رودلف العداء (٩١٢) ففتحت شمال فرنسا التى أصبحت تسمى منذ ذلك الحين باسم نورمانديا .

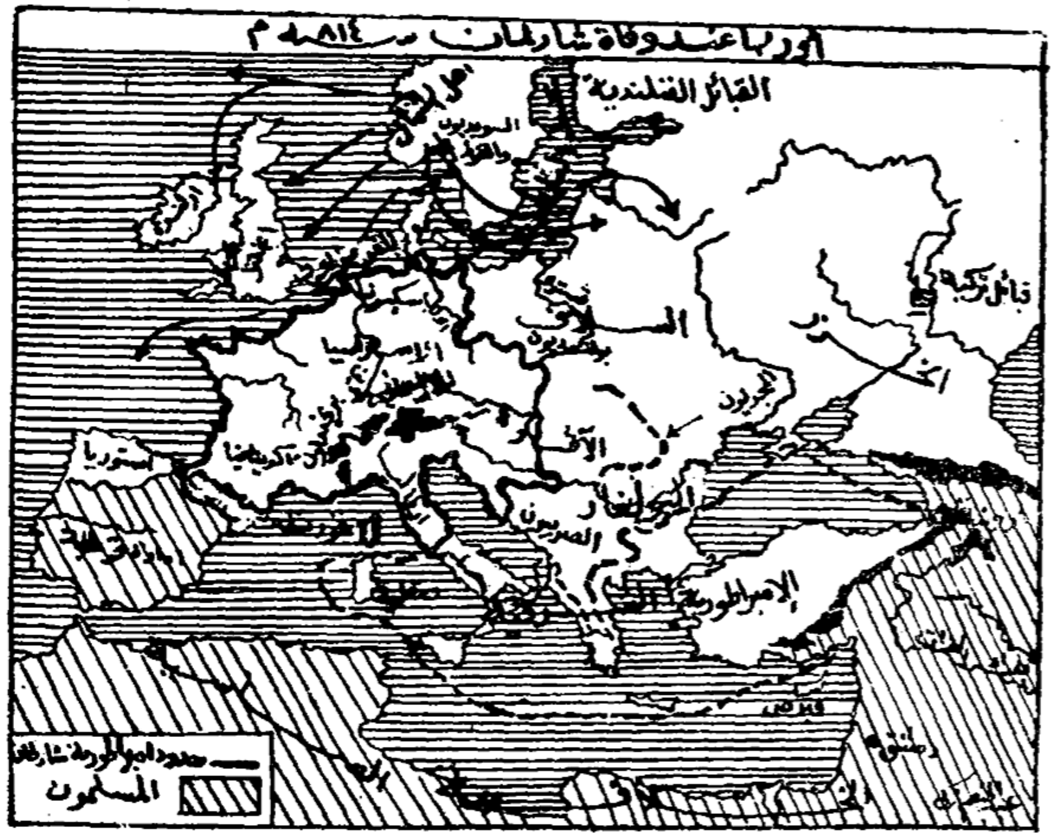
وامتد سلطان كانوت فلم يقتصر على إنجلترا وحدها بل شمل بلاد النرويج والدانيمرك أيضا ، ولكن إمبراطوريته القصيرة الأجل تمزقت عند موته إربا ، بسبب نقطة الضعف

السياسى للشعوب البربرية جمعاء ، وهى انقسام أبناء الحاكم والرئيس على أنفسهم . ولعله مما يثير اهتمامك أن تتأمل النتائج التى كانت تترتب على دوام هذا الاتحاد المؤقت الذى قام على يد النورمان . والنورمان شعب أوتى جرأة مدهشة وهمة نادرة . تقدموا بمراكبهم فى البحر طويلا حتى لقد بلغوا إيسلنده وجرينلنده . وهم أول من نزل على أرض أمريكا من الأوربيين . وقد حدث فيما يلى ذلك من عهود التاريخ أن النورمان استردوا صقلية من يد العرب ونهبوا روما . وقد يستهوى ألبابنا تصور تلك الدولة البحرية الشمالية العظيمة التى كانت نواتها مملكة كانوت ، وقد امتدت من أمريكا إلى الروسيا .

وإلى الشرق من الجرمان والأوربيين المصطبغين بالصبغة اللاتينية كان ينزل خليط من القبائل السلافية (الصقلبية) والشعوب التركية . ومن أبرز هؤلاء المجريون (الهنغاريون) الذين ظلوا يتقدمون غربا طيلة القرنين الثامن والتاسع . ولقد صدهم شرلمان إلى حين ، ولكنهم وطدوا أقدامهم بعد موته فى بلادهم الحالية ، وأخذوا يغيرون كلما جاء الصيف على أقطار أوربا المستقرة على جارى عادة الهون أسلافهم المشابهين لهم . وقد اخترقوا ألمانيا كلها فى ٩٣٨ حتى وصلوا فرنسا ، وعبروا جبال الألب حتى دخلوا شمال إيطاليا ، ومنها عادوا إلى وطنهم بعد أن عاثوا فى تلك البلاد سرقة وتحريقاً وتدميراً .

وأما الضربة الثالثة التى نزلت بأوربا ، فجاءت من العرب الذين هبوا بهمة قوية من الجنوب يقضون على بقايا الدولة الرومانية . فمدوا سلطانهم على البحر إلى حد كبير ، ولم يكن لهم على صفحته من منافس قوى البأس إلا النورمان : — نورمان الروس الخارجون إليهم من البحر الأسود ونورمان الغرب .

حتى إذا أحاطت هذه الشعوب العدوانية العارمة بشرلمان وبمن خلفه من عواهل طامحين إلى العلا ، وجعلتهم يشعرون أنهم تكتنفهم قوى لا يفقهون لها معنى وأخطار لا يستطيعون لها تقديراً ، راحوا يضطلعون بمسرحية غير ذات غناء ، هى إعادة الإمبراطورية الغربية إلى الحياة تحت اسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة . ولم تزل هذه الفكرة تخامر الحياة السياسية لأوربا الغربية منذ عهد شرلمان مخامرة حالات التهوس ، على حين كان النصف اليونانى من الدولة الرومانية يضمحل فى الشرق ويذوى حتى لم يبق منه فى النهاية شىء خلا مدينة تجارية فاسدة متدهورة هى القسطنطينية وحولها بضعة أميال من الأراضى المحيطة بها . وبهذا أصبحت قارة أوربا من الناحية السياسية محافظة متمسكة بالتقاليد العقيمة غير المثمرة مدة ألف سنة بعد أيام شرلمان .



خريطة رقم (١١)

إن اسم شرلمان يتبدى عظيما ضخما على صفحات التاريخ الأوربى ، ولكن قلما رأى أحد شخصيته جلية واضحة المعالم . كان أمياً لايقرأ ولا يكتب ، ولكن إكباره للعلم كان جسيما ؛ وكان يميل إلى الاستماع إلى القراءات فى أثناء تناوله الطعام ، كما كان شديد الولع بالمجادلات اللاهوتية ؛ وكان كلما ذهب إلى مشتاه فى إكس لاشابيل أو ماينز جمع حوله طائفة من العلماء ليلتقط الشىء الكثير مما يدور بينهم من حديث ، فإذا حل الصيف انطلق لقتال العرب الأندلسيين مرة ، أو الصقالبة والمجريين أخرى ، أو السكسون وغيرهم من قبائل الجرمان التى لم تبرح على الوثنية . فهل راودته فكرة تولى القيصرية بعد رومولوس أوغسطوس قبل استيلائه على شمال إيطاليا ، أم ترى أوحاها إليه البابا ليو الثالث ، الذى كان يتوق إلى فصل الكنيسة اللاتينية عن القسطنطينية ؟ — ذلك ما لا سبيل إلى الوصول إلى رأى حاسم فيه .

لقد جرت فى روما مناورات ومداورات من أعجب ما يكون . فالبابا يريد أن يظهر على الملأ أنه هو الذى منح التاج الإمبراطورى للامبراطور المنتظر الذى لم يكن يريد

ذلك المظهر : ونجح البابا فى تتويج ضيفه الغازى على غرة منه بكنيسة القديس بطرس فى يوم عيد الميلاد من عام ٨٠٠ . ذلك أنه أبرز التاج ووضعه على رأس شرلمان ونادى به قيصرا وأوغسطوس . وتعالى هتاف الناس . ولم ترض نفس شرلمان بأى حال عن الطريقة التى تم بها الأمر ، الذى ظلت ذكراه تجرح كرامته ، كأنها هزيمة منى بها ؛ كما أنه ترك لابنه أدق التعليمات موصيا إياه ألا يسمح للبابا بتتويجه ؛ وأن يتناول التاج بيديه ويضعه بنفسه فوق رأسه .

وهكذا نرى منذ البداية الأولى لعودة الإمبراطورية ، استهلال النزاع الطويل المديد بين البابا والإمبراطور على السيادة الدنيوية . على أن لويس الورع بن شرلمان أغفل تعليمات أبيه وخضع للبابا خضوعا تاما .

وتمزقت إمبراطورية شرلمان شر ممزق بموت ولده لويس الورع ، واتسعت شقة الصدع بين الفرنجة الناطقين بالفرنسية والفرنجة الناطقين بالجرمانية . وكان الإمبراطور الذى تلاه على العرش هو أوتو ، وهو ابن أمير من أمراء السكسون يدعى هنرى الصياد ، وهو الذى انتخبته ملكا على ألمانيا جمعية من أمراء الجرمان وأساقفتهم فى ٩١٩. وقد زحف أوتو على روما وتوج بها إمبراطورا فى ٩٦٢ . وانقرضت هذه الأسرة السكسونية فى أوائل القرن الحادى عشر وحل محلها حكام آخرون من الجرمان ، ولم يحدث قط أن أمراء ونبلاء الإقطاع المقيمين فى الغرب والناطقين بلهجات فرنسية منوعة خضعوا لسلطان هؤلاء الأباطرة الألمان منذ أن انقرضت الأسرة الكارلوفنجية : أعنى أحفاد شرلمان ، كما لم يحدث قط أن جزءاً من بريطانيا وقع تحت سيادة الدولة الرومانية المقدسة ، وبذلك ظل دوق نورماندى وملك فرنسا ، وعدد من صغار الحكام الإقطاعيين بمنأى منها .

وقد انتقلت مملكة فرنسا فى ٩٨٧ من يد الأسرة الكارلوفنجية إلى يدهيو كابت ، الذى كان أحفاده يحكمون فرنسا فى القرن الثامن عشر ، ولم يكن ملك فرنسا يحكم أيام هيو كابت إلا منطقة صغيرة نسبيا تحيط بمدينة باريس .

وفى ١٠٦٦ هوجمت إنجلترا من جهتين فى وقت واحد تقريبا ، فغزاها نورمان النرويج بقيادة هارولد هارد رادا ، كما هاجمها من الجنوب النورمان ذوو الطابع

اللاتينى بقيادة دوق نورماندى . وعند ذلك تقدم هارولد ملك إنجلترا فهزم الغازى النرويجى فى معركة جسر ستامفورد ، ولكن دوق نورماندى هزمه عند هاستنجز . وفتح النورمانديون إنجلترا ، وأبعدوها عن كل علاقة بالشئون الإسكندناوية التيوتونية والروسية ، وأحكموا ما بينها وبين الفرنسيين من علاقات وزجوا بها فيما لهم من منازعات . وظل الإنجليز مشتبكين طوال القرون الأربعة الأخيرة فى المنازعات الدائرة بين أمراء الإقطاع الفرنسيين ، كما ظلوا تلك المدة الضخمة يبددون قواهم فى ميادين القتال الفرنسية .

الفصل السادس والأربعون

الحروب الصليبية

وعصر السيادة البابا وية

لعله مما يثير اهتمامنا أن نشير إلى أن شرلمان تبادل الرسائل مع الخليفة هارون الرشيد ، وهو نفس هارون الرشيد الذى تذكره أقاصيص ألف ليلة وليلة . ويسجل التاريخ أن هارون أرسل السفراء من بغداد ـ التى أصبحت آنذاك عاصمة المسلمين بعد دمشق ـ يحملون الهدايا والألطاف التى منها خيمة فاخرة نفيسة وساعة مائية وأحدالفيلة ومفاتيح الناووس المقدس .

وقد رمى الخليفة من وراء هذه الهدية الأخيرة إلى خطة محكمة التدبيرأراد بهاتأليب كل من دولة الروم الشرقية وهذه الإمبراطورية الرومانية المقدسة إحداهما على الأخرى حول المسيحيين فى أورشليم ولمن منهما حق حمايتهم .

وتذكرنا هذه الهدايا بأنه فى نفس الوقت الذى كانت أوربا تصلى فيه إبان القرن التاسع نار فوضى الحروب ومايصحبها من تدمير ونهب ، كانت تزدهر بمصر وأرض الجزيرة إمبراطورية عربية عظيمة ، أشد حضارة من دول أوربا جميعاً . لقد كان الأدب والعلم لايزالان عندهم محتفظين بنشاطهما القوى ؛ وازدهرت الفنون لديهم ، كما أنه كان فى إمكان العقل البشرى أن يتنقل فى أبراج التفكير دون أن تعوقه مخاوف أو خزعبلات . وكذلك اشتدت قوة الحياة الفكرية فى إسبانيا وشمال إفريقية التى أخذت فيها الفوضى السياسية تدب فى أوصال الممالك العربية . كان هؤلاء اليهود والعرب يقرأون أرسطو ويتباحثون فى آرائه إبان تلك العصور التى رانت فيها الظلمات على أوربا ، لقد أقاموا من أنفسهم حراساً على بذور العلم والفلسفة التى طال إهمالها .

وكانت تنزل إلى الشمال الشرقى من دولة الخليفة مجموعة من القبائل التركية اتخذت

الإسلام دينا ، واعتنقت العقيدة بصورة أبسط وأعنف كثيراً مما لدى العرب والفرس الناشطين فكريا فى الجنوب . لقد أخذ الترك يزدادون قوة وحيوية فى أثناء القرن العاشر ، وذلك بينما دب دبيب الانقسام والاضمحلال فى دولة العرب . وتطورت العلاقات بين الأتراك ودولة الخلافة حتى أصبحت قوية الشبه بعلاقة الميديين بالإمبراطورية البابلية الأخيرة قبل ذلك بأربعة عشر قرنا ، وحدث فى القرن الحادى عشر ، أن مجموعة من القبائل التركية ، هى الأتراك السلچوقيون زحفت على أرض الجزيرة وجعلت الخليفة حاكما بالاسم فقط ، وأداة يسيرونها وفق هواهم ، وأسيرا فى أيديهم ، ثم غزوا أرمينية ، وأخذوا بعد ذلك ينزلون الضربات على بقايا الدولة البيزنطية بآسيا الصغرى. فهزم الجيش البيزنطى هزيمة نكراء فى ١٠٧١ فى معركة ملازجرد ، وعند ذلك اجتاح الأتراك البلاد قدما حتى لم يبق للدولة البيزنطية أثر بآسيا. ثم استولوا على قلعة نيقيا المقابلة للقسطنطينية وأخذوا يعدون العدة للاجهاز على المدينة نفسها .

دب الرعب فى قلب الإمبراطور البيزنطى ميشيل السابع ، وكان مشتبكا فى حرب ضروس مع ثلة من المغامرين النورمان استولت على مدينة دورازو ، ومع شعب تركى شديد الشراسة هو البشناق (البتشنخ)، الذين كانوا يغيرون على ضفاف الدانوب ، واضطر الإمبراطور وهو فى محنته أن يلتمس المعونة حيث استطاع أن يجدها ، ومما تجدر ملاحظته هنا أنه لم يلجأ إلى إمبراطور الغرب بل التمس العون من بابا روما بوصفه رئيساً للنصرانية اللاتينية ، فكتب إلى البابا جريجورى السابع ، كما كتب خلفه أليكسيوس كومنينوس مستغيثا بإربان الثانى.

حدث هذا ولم ينقض على انفصال الكنيستين الرومية واللاتينية ربع قرن ، — والخصومة بين الطرفين لم تزل ذكراها قوية الإشراق فى عقول الناس ، ولا شك أن هذه الكارثة التى أصابت بيزنطة قد تبدت لعين البابا فرصة ثمينة يعيد بها فرض سيادة الكنيسة اللاتينية على اليونان أهل الفرقة والخلاف ، وفضلا عن ذلك فإن البابا انتهزها فرصة لمعالجة أمرين أزعجا عالم النصرانية اللاتينى أيما إزعاج ، وأول الأمرين هو « عادة الحرب الخاصة » التى كانت تبث الفوضى فى الحياة الاجتماعية ، وثانيهما هى طاقة القتال الفياضة التى يتسم بها سكان السهول الجرمان والنورمان المتنصرون ولا سيما الفرنجة منهم والنورمانديون . وعندئذ شرع المبشرون ورجال الدين يبشرون بحرب مقدسة ، هى حرب الصليب ، أو الحروب الصليبية ، التى يراد أن تشن على الترك مغتصبى بيت المقدس ، كما يبشرون بوجوب قيام الهدنة وإيقاف كل قتال بين المسيحيين جميعاً (١٠٩٥) .

وقد أعلنوا أن الهدف من هذه الحرب هو استرداد القبر المقدس من يد الـكفرة . وراح رجل يدعى بطرس الناسك يجوب الآفاق ويبث دعايته فى الجماهير بكل من فرنسا وألمانيا ، وكان يتجول فى البلاد فى ثوب خشن حافى القدمين وممتطيا حماراً ، وهو يحمل صليباً ضخما ويخطب الناس فى الشوارع والأسواق والـكنائس .

وكان ينعى على الترك ما يرتـكبونه ضد الحجاج المسيحيين من قساوات ، ويذكر الناس بالعار الذى يعود عليهم من بقاء الناووس المقدس فى أيد غير مسيحية ، وعند ذلك ظهرت ثمار تلك القرون الطويلة من الدعوة المسيحية فى استجابة الناس لها . فإن موجة عظيمة من الحماسة اجتاحت العالم الغربى ، وعند ذلك اكتشفت النصرانية الغربية نفسها لأول مرة .

كانت مثل تلك الانتفاضة الواسعة الانتشار التى صدرت آنذاك عن عامة الشعب تحمساً لفـكرة واحدة ، شيئاً جديداً لم يعهد له مثيل فى تاريخ البشر ، هى شىء ليس له من ضريب فى سابق تاريخ الدولة الرومانية أو الهند أو الصين . ومع ذلك فقد حدثت فى نطاق أضيق حركات مشابهة لهذه بين الشعب اليهودى بعد تحرره من الأسر البابلى ، كما حدث فيما بعد أن الإسلام أظهر قابلية للشعور الحشدى مماثلة لهذه .

ومن المحقق أن هذه الحركات ارتبطت بالروح الجديدة التى ظهرت فى هذا العالم مع تطور ديانات التعليم والتبشير والمعلمين والمبشرين . فإن أنبياء العبرانيين وعيسى والحواريين ومانى ومحمداً ، كانوا جميعاً معلمين يناجون نفوس الناس كأفراد . وكانوا يواجهون ضمير الشخص بالله رأسا . وقبل ذلك الأوان كان الدين أقرب إلى الفتيشية والحزعبلات والعلم الزائف منه إلى أن يكون من شئون الضمير البشرى ، وكان النوع القديم من الدين يدور حول المعبد ، والـكاهن المتدرج فى أسرار العقيدة والقرابين الرمزية ، كما كان يحكم الرجل العادى بالخوف حتى لـكأنه العبد الرقيق . أما ذلك النوع الجديد من الدين فإنه اتخذ منه إنسانا .

وكان التبشير بالحرب الصليبية الأولى أول دعوة أثارت مشاعر العامة فى التاريخ الأوربى ، وربما كان من المبالغة القول بأنها تؤذن بمولد الديموقراطية الحديثة ، وإن لم يخالجنا شك فى أن الديموقراطية الحديثة تحركت فعلا فى ذلك الزمان ، وسنجدها

تتحرك من جديد قبل انقضاء زمن طويل ، وتسأل أسئلة اجتماعية ودينية تبعث على الانزعاج الشديد .

وليس من شك فى أن هذه الحركة الأولى الديموقراطية انتهت بنهاية أليمة فاجعة، فإن حشوداً ضخمة من العامة هى فى الواقع جماهير محتشدة أكثر منها جيوشاً ، انطلقت نحو الشرق من فرنسا ومنطقة الرين وأوربا الوسطى ، دون أن تنتظر الحصول على قائديقودها أو معدات تتزود بها ، وهى تريد إنقاذ القبر المقدس وتلك هى « الحملة الصليبية الشعبية » . وقد ضل الطريق منها جمهوران عظيمان دخلا بلاد المجر خطأ ، وزعما أن أهل المجر — الذين دخلوا عندئذ فى المسيحية وشيكا كانوا من الوثنيين،فارتكبوا بعض الفظائع ،وهب المجريون فأعملوا فيهم الذبح جميعاً ، وجاء جمهور عظيم ثالث اختلت عليه الأمور هو أيضا ، وتبلبل فكره كسابقيه فزحف شرقاً بعد أن أعمل الذبح بشدة فى يهود منطقة الرين، حتى إذا وصل بلاد المجر قضى عليه هناك ، ثم إن جمهورين هائلين آخرين بقيادة بطرس الناسك نفسه بلغا القسطنطينية وعبرا البوسفور حيث هزمهما الأتراك السلجوقيون ، بل ذبحوهما ذبحا ، وبذا ابتدأت وانتهت أول حركة للشعوب الأوربية بوصفها حركة شعبية .

وفى السنة التاليه (عام ١٠٩٧) عبرت البوسفور القوات المقاتلة الحقة ، وكانت بطبيعة الحال نورمانية فى الروح والقيادة ففتحوا نيقيه عنوة ، وساروا إلى أنطاكية سالكين تقريبا نفس الطريق الذى سلكه الإسكندر قبل ذلك بأربعة عشر قرنا .وقد عطلهم حصار أنطاكية سنة ، انطلقوا بعدها لمحاصرة بيت المقدس فى يونيه ١٠٩٩ ، وسقطت بيت المقدس بعد شهر من الحصار ،وكانت المذبحة التى دارت بها رهيبةفظيعة، فإن الراكب على جواده كان يصيبه رشاش الدم الذى سال فى الشوارع أنهارا ، وما أرخى ليل الخامس عشر من يولية سدوله حتى كان الصليبيون قد شقوا سبيلهم قتالا إلى كنيسة القبر المقدس وتغلبوا على كل مقاومة فى المدينة ؛ وهناك جثوا للصلاة ملطخين بالدماء ، متعبين مكدودين يبكون من فرط السرور .

وسرعان مااشتعلت من جديد نار العداوة بين اللاتين والروم ، ذلك أن الصليبيين كانوا من أنصار الكنيسة اللاتينية ، ولذا وجد بطريق القدس الرومى (الأرثوذكسى) نفسه وهو فى ظل اللاتين المنتصرين فى موقف أسوأ من موقفه فى ظل الأتراك ،

واكتشف الصليبيون أنهم وقعوا بين البيزنطيين من ناحية والأتراك من ناحية أخرى وأنهم يقاتلون الطرفين جميعاً . واستردت الإمبراطورية البيزنطية شطرا عظيما من ممتلكاتها بآسيا الصغرى ، كما أن الأمراء اللاتين وجدوا إماراتهم حاجزة[1] بين الأتراك والروم ، ولم يجدوا فى أيديهم سوى بيت المقدس وإمارات صغيرة قليلة ، فى سوريا كانت إمارة الرها من أكبرها

على أن قبضتهم حتى على هذه الإمارات نفسها كانت قلقة ضعيفة ، ولم تلبث الرها أن سقطت فى أيدى المسلمين فى ١١٤٤ ، فأفضى ذلك إلى قيام حرب صليبية ثانية فشلت فى استخلاص الرها من أيدى العرب ولكنها أنقذت أنطاكية من الوقوع فى نفس المصير .

وفى عام ١١٦٩ تجمعت جموع الإسلام حول راية قائد كردى اسمه صلاح الدين الأيوبى ، أصبح حاكما على مصر . فدعا إلى قتال الصليبين ، واسترد بيت المقدس فى ١١٨٧ ، وبذا استفز أوربا للقيام بالحرب الصليبية الثالثة . ولكنها أخفقت فى استرداد بيت المقدس . حتى إذا جردت الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٢ – ١٢٠٤) أظهرت الكنيسة اللاتينية عداءها الصريح لدولة الروم الشرقية ، ونسى القوم الأتراك تماما ولم يجردوا عليهم حساما ولو من باب التظاهر بالقتال . تحركت تلك الحملة من البندقية واجتاحت القسطنطينية عنوة فى ١٢٠٤ .

وكانت زعيمة هذه المغامرة هى مدينة البندقية الثغر التجارى الناهض العظيم ، ولم يلبث معظم سواحل الإمبراطورية البيزنطية وجزائرها أن ألحق بمدينة البندقية. ونصب فى القسطنطينية إمبراطور لاتينى هو بالدوين الفلاندرى ، الذى أعلن وحدة الكنيستين اللاتينية واليونانية من جديد . ودام حكم أباطرة اللاتين بالقسطنطية من ١٢٠٤ إلى ١٢٦١ ، يوم انتفض العالم اليونانى وتخلص مرة ثانية من تسلط روما عليه .

ومن ثم يكون القرن الثانى عشر ومستهل الثالث عشر عصر عظمة البابوية ، مثلما كان الحادى عشر عصر تفوق الأتراك السلجوقيين ، والعاشر عصر النورمان ، وفى هذا

---

(١) الدولة الحاجزة (**Buffer State**) : دولة محايدة تقع بين دولتين متعاديتين ويؤدى وجودها إلى التقليل من خطر الحرب بينهما . [المترجم]

العصر قرب تحقيق الحلم القديم بقيام اتحاد فى عالم المسيحية تحت حكم البابا ، وأصبح أدنى إلى الحقيقة الواقعة منه فى أى وقت قبل ذلك العصر أو بعده .

وفى إبان تلك القرون ، كان وجود العقيدة المسيحية البسيطة الواضحة من الأمور المقررة الواقعة الواسعة الانتشار فى مناطق كبيرة من أوربا . أجل إن روما نفسها مرت عليها أدوار حالكة مشينة غير كريمة ؛ فقلما جرؤ كاتب على النهوض لتبرير مسلك البابا يوحنا الحادى عشر والبابا يوحنا الثانى عشر فى أثناء القرن العاشر — فإنهما كانا من الكائنات الكريهة البشعة ؛ ولكن المسيحية اللاتينية ظلت وقورة بسيطة جادة فى روحها ومعناها ؛ وفى ظلالها قضت الأغلبية العظمى من القساوسة ، والرهبان والراهبات عمرها فى حياة مثالية رائدها الإخلاص والأمانة . وقامت قوة الكنيسة على كنوز من الثقة التى أوجدتها هذه الشخصيات . ومن أعظم باباوات الماضى « جريجورى الأكبر » وهو جريجورى الأول (٥٩٠ - ٦٠٤ م) وليو الثالث (٧٩٥ – ٨١٦ م) ، الذى دعا شرلمان ليكون قيصرا وتوجه على الرغم منه . ونشأ قرب نهاية القرن الحادى عشر ، رجل دير عظيم ذو سياسة وتدبير هو « هلدبراند » ، الذى تسمى فيما بعد باسم البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ – ١٠٧٥ م) ، وهو البابا الذى أثار الحرب الصليبية الأولى . وإلى هذين الرجلين يرجع الفضل فى قيام هذه الفترة التى عظم فيها شأن الباباوية والتى تسلط فيها الباباوات على الأباطرة . فكانت للبابا الكلمة العليا من بلغاريا شرقا إلى إيرلنده غربا ، ومن النرويج شمالا إلى صقلية وبيت المقدس جنوبا . وجريجورى السابع هو الذى أرغم الإمبراطور هنرى الرابع على الشخوص إليه تائبا منيبا بكانوسا وانتظار العفو منه ثلاثة أيام بلياليها واقفا فى ساحة القلعة ، فى ثوب من الخيش وهو حافى القدمين على الثلج . وفى ١١٧٦ ركع الإمبراطور فردريك الثانى الملقب بفردريك بربروسا على ركبتيه بين يدى البابا إسكندر الثالث بالبندقية وأقسم يمين الولاء .

لا جدال أن المصدر الأول للقوة الكبرى التى استمتعت بها الكنيسة فى القرن الحادى عشر هو إرادة الناس وضمائرهم . على أنها أخفقت فى الاحتفاظ بالمكانة الأدبية التى قامت عليها قوتها ونفوذها . حتى إذا أهل القرن الرابع عشر تلفت الناس ، وإذا بقوة البابا قد تبخرت . فما الذى قضى على ثقة العوام الساذجة فى عالم المسيحية بالكنيسة بحيث لم يعودوا يستجيبون لأى دعاء منها ولا يخدمون أهدافها ؟

إن أول مصدر لمتاعب الكنيسة هو على التحقيق تكديسها للثروة واستكثارها من الأموال . ذلك أنه من المعلوم أن الكنيسة هيئة دائمة ليس لوجودها نهاية ، وأنه كثيرا ما جنح من لا عقب لهم من الناس إلى حبس ممتلكاتهم على الكنيسة ، كما أن المذنبين التائبين كانوا ينصحون بفعل ذلك ، لذا أصبح ما يقارب ربع الأراضى من ممتلكات الكنيسة فى كثير من أقطار أوربا . ومن البدهيات التى لا جدال فيها أن شهوة المال تنمو كلما زاد المال ، وتسامع الناس وتناقلوا فى كل مكان منذ القرن الثالث عشر أن القساوسة لم يكونوا من الأخيار الطيبين ، وأن دأبهم الأول هو اصطياد المال والتماس التركات .

وقد كره الملوك والأمراء تحول الممتلكات من أيديهم إلى يد البابوية الأجنبية ، فإن أراضيهم التى كان ينبغى أن تمول أتباعهم الإقطاعيين القادرين على تقديم المدد العسكرى للملك أو الأمير ، كانت تعول الأديرة والرهبان والراهبات . وزاد الطين بلة أن تلك الأراضى كانت فى الواقع الذى لا شك فيه تحت سلطان الأجانب ، وقد نشب الكفاح بين الأمراء والبابوية حول مسألة « التعيينات » أعنى من هو صاحب الحق فى تعيين الأساقفة ، وذلك قبل زمن البابا جريجورى السابع نفسه ، فإن ظلت سلطة التعيين بيد البابا دون الملك ، كان معنى ذلك فقدان الأخير ليس فقط لضمائر رعاياه بل وحرمانه من شطر جسيم من ممتلكاته ، وذلك لأن رجال الدين كانوا يدعون بأن لهم الحق فى الإعفاء من الضرائب ، وكانوا يدفعون ضرائبهم لروما ، وليت الأمر اقتصر على ذلك ، بل إن الكنيسة ادعت أيضاً الحق فى جمع مكس قيمته العشر على ممتلكات الرجل العلمانى فوق الضرائب التى كان يدفعها لأميره .

ويكاد تاريخ كل قطر من أقطار المسيحية اللاتينية يتحدث عن حالة كهذه إبان القرن الحادى عشر ، وأعنى بذلك حالة الكفاح بين الملك والبابا حول مسألة التعيينات ، كما أنه يتحدث عن انتصار البابا فى ذلك الكفاح بوجه عام ، وذلك أن البابا ادعى القدرة على « حرم » الأمير ، وعلى جعل رعاياه فى حل من واجب الولاء والطاعة له ، وعلى الاعتراف بشخص آخر يخلفه ، وادعى كذلك أن من حقه حرم شعب بأكمله ، فتتعطل بذلك كل وظائف الكنيسة وقساوستها ، وذلك فيما عدا مراسم التعميد والتثبيت والتوبة ؛ وعند ذلك لم يكن القساوسة يستطيعون القيام بالصلوات العادية وأداء مراسم الزواج ودفن الموتى . وبهذين السلاحين تمكن باباوات القرن الثانى عشر من كبح

جماح أقوى الأمراء معارضة وأشدهم مراساً ، ومن بث الرعب فى أشد الشعوب جموحاً ، وكان هذان السلاحان قوة هائلة ، والقوة الهائلة لايجوز استعمالها إلا فى الظروف الاستثنائية البحتة . ولكن البابوات راحوا يستعملونهما فى النهاية بكثرة فلت مضاءها وأزالت تأثيرهما . ففى الثلاثين سنة الأخيرة من القرن الثانى عشر ، تحرم اسكتلنده وفرنسا وإنجلترا على التوالى . كما أن البابوات لم يستطيعوا مقاومة شيطان الدعوة إلى القيام بحرب صليبية على الأمراء الذين يخطئون ـ حتى تناهى الأمر إلى أن خمدت روح كل شىء صليبى .

ولو أن كنيسة روما قصرت الكفاح على الأمراء وعنيت بالمحافظة على قبضتها على عقول العامة ، لكان من المحتمل أن تحرز سلطاناً دائماً على عالم النصرانية بأكمله ، ولكن مدعيات البابا الكبرى انعكست عند رجال الدين فى صورة صلف وكبرياء ، وكان قساوسة الكاثوليكية يستطيعون الزواج قبل القرن الحادى عشر ، وكانت تقوم بينهم وبين من يعيشون حولهم من الناس أواصر وثيقة ، بل كانوا والحق يقال شطراً من الشعب ، ولكن جريجورى السابع حتم عليهم العزوبة ، وبذلك قطع الرابطة القوية التى كانت تصل بين القساوسة والعلمانيين قاصداً من وراء ذلك ربطهم أوثق ارتباط بعجلة روما ، ولكن الواقع أنه شق بين الكنيسة وعامة الناس أخدوداً عميقاً .

وكان للكنيسة محاكمها الخاصة . فهى تحتفظ لنفسها بالحق فى نظر القضايا التى يكون القساوسة طرفاً فيها ، بل والرهبان أيضاً والطلبة والصليبيون والأرامل والأيتام وكل من لامعين له ، كما تحتفظ لمحاكمها بجميع المسائل المتعلقة بالوصايا والأنكحة والأيمن وجميع قضايا السحر والزندقة والتجديف ، وكان على العلمانى أن يلجأ إلى المحاكم الكنسية إن حدث بينه وبين أحد رجال الدين نزاع ، وذلك كله فى حين أن التزامات السلم وأعباء الحرب تقع كلها على كاهله وحده دون القسيس . فليس عجيباً إذن أن تنمو فى النفوس العداوة والحسد لرجال الدين فى كل أرجاء عالم النصرانية .

ولم تظهر روما من الدلائل ما يدل على أنها تدرك أن قوتها إنما تعتمد على ضمائر الناس ، فكانت تحارب الحماسة الدينية التى كان يجب أن تتخذ منها حليفاً تعتمد عليه ، وكانت تفرض بالقوة صحة المعتقد على صاحب الشك البرىء وعلى المارق صاحب الانحراف فى الرأى دون تفريق بينهما ، وعندما كانت الكنيسة تتدخل فى الشئون الخلقية ،

كانت تجد الرجل العادى فى صفها ، ولكن لم يكن الحال كذلك حين تدخل فى الشئون المذهبية ، وعندما أخذ والدو يبشر فى جنوب فرنسا بالعودة إلى منهج يسوع فى بساطة العقيدة والحياة ، دعا إنوسنت الثالث إلى حملة صليبية ضد من اتبعوه ، وأذن لجنده بقمعهم بالنار والسيف وهتك الأعراض وبأشد أنواع القساوات بشاعة . ولما دعا القديس فرنسيس الأسيسى (١١٨١ - ١٢٢٦) إلى محاكاة المسيح وإلى حياة التقشف والفقر والعبادة ، اضطهد أتباعه الرهبان الفرنسيسكان وجلدوا وسجنوا وشتتوا ، ثم أحرق أربعة منهم بمرسيليا وهم أحياء فى ١٣١٨ ، وذلك فى حين أن جماعة الرهبان الدومينيكيين التى أسسها القديس دومينيك (١١٨٠ - ١٢٢١) والشهيرة بتمسكها العنيف بصحة الاعتقاد المذهبى كانت موضع التعضيد القوى من إنوسنت الثالث ، الذى استطاع بمساعدة تلك الجماعة أن ينشىء هيئة هى محاكم التفتيش ، بقصد تصيد الزنادقة وإنزال سوط العذاب بكل فكر حر .

وهكذا دمرت الكنيسة بمدعياتها المسرفة ، وامتيازاتها الأثيمة ، وبعدم تسامحها الخالى من كل حكمة وعقل ، تلك العقيدة الحرة التى للرجل العادى ، والتى هى فى النهاية مصدر سلطانها كله ، ولو اطلعت على قصة تدهورها لماحدثتك بظهور أى عدو كفء لها ناصبها العداء من الخارج ، بل عن الانحلال الذى ينخر فيها من الداخل .

الفصل السابع والأربعون

الأمراء المعارضون والصدع الأعظم

كانت طريقة انتخاب البابوات من أعظم نقط الضعف فى الكنيسة الكاثوليكية فى أثناء كفاحها للوصول إلى رئاسة العالم المسيحى بأكمله .

فلئن أريد للبابوية أن تفوز حقاً بأطماعها الظاهرة وأن تؤسس حكما واحداً وسلاما واحداً فى كل أرجاء العالم المسيحى ، كان من الواجب الضرورى أن تكون قيادتها فى أيد قوية حازمة ، وكان من ألزم الضرورات إبان تلك الأيام العظيمة التى سنحت فيها فرصتها ، ألا يتولى منصب البابوية إلا رجل كفء قادر فى عنفوان شبابه ، وأن يعين كل منهم خليفته ، حتى يستطيع أن يتناقش وإياه فى سياسة الكنيسة ، وأن تكون كيفية الانتخاب وطرائقه واضحة بينة ، محددة غير قابلة للتغيير ولا معرضة لطعن . ولكن شيئاً من هذه الأمور لم يحدث لسوء الحظ ، بل لم يكن الناس يعرفون بوضوح من له الحق فى التصويت فى انتخاب البابا ، وما إذا كان للامبراطورية البيزنطية أو الرومانية المقدسة صوت فى الأمر ، وقد بذل هلدبراند ذلك السياسى المحنك (وهو البابا جريجورى السابع ١٠٧٣ — ١٠٨٥) ، جهداً كبيرا فى تنظيم الانتخاب . فقصر الأصوات على الكرادلة الكاثوليك ، كما قصر نصيب الإمبراطور على موافقة شكلية منحته إياها الكنيسة ، بيد أنه لم يتخذ أى عدة لتعيين خلف بالتخصيص ، كما أنه جعل من الممكن أن تؤدى منازعات الكرادلة إلى ترك كرسى البابوية شاغراً ، الأمر الذى حدث فى بعض الحالات حين ترك شاغرا سنة أو أكثر .

هذه الحاجة إلى التحديد الجازم الدقيق لكل شىء تتجلى فى تاريخ البابوية بأكمله حتى القرن السادس عشر . فإن النزاع كان يلبدجو الانتخابات منذ أزمنة سحيقة جدا ، وكثيرا ما أعلن رجلان أو أكثر أن كلا منهم هو البابا الشرعى ، وهنالك تتعرض الكنيسة لمهانة الاحتكام إلى الإمبراطور أو أى حكم خارجى ليقضى برأيه فى النزاع ، وكانت حياة كل بابا عظيم تنتهى بخاتمة تثيرالتساؤل . وقد تترك الكنيسة بعد موته بغير

رئيس ، وتصبح عاجزة عديمة الأثر كأنها جسد بلا رأس . وربما حل محله منافس عجوز كل همه أن يقضى على جهوده وينتقصها ، وقد يخلفه شيخ ضعيف يترنح على حافة القبر.

لم يكن مفر من أن يدعو هذا الضعف الخاص فى نظام البابوية إلى تدخل الأمراء الألمان وملك فرنسا والملوك النورمانديين والفرنسيين الذين تولوا عرش إنجلترا ، كما لم يكن بد من أن يحاولوا جميعاً التأثير فى الانتخابات ، وأن يكون لهم فى قصر اللاتيران بروما بابا يهتم بمصالحهم ويرعاها ، وكلما زاد البابا قوة وعلا شأناً فى الشئون الأوربية ، زادت الضرورة إلى تلك التغييرات ، فليس عجيبا فى مثل تلك الظروف ، أن يكون كثير من الباباوات ضعافا لا غناء فيهم ، على أن وجه العجب حقاً ، أن كثيراً منهم كانوا رجالا شجعاناً أكفاء .

ومن أشد باباوات هذه الحقبة العظيمة قوة واستثارة لاهتمامنا ، البابا إنوسنت الثالث (١١٩٨ – ١٢١٦) ، الذى كان من حسن حظه أن أصبح بابا قبل أن يبلغ الثامنة والثلاثين ، وكان هو وخلفاؤه يناصبون العداء شخصية تكاد تبزهم إمتاعا وأهمية ، هى شخصية الإمبراطور فردريك الثانى ، الذى كان ينعت « أدهوشة العالم » ، وكفاح هذا العاهل ضد روما يعد نقطة تحول فى التاريخ ، أجل انتهى الأمر بأن هزمته روما وقضت على أسرته ، بيد أنه غادر كرامة الكنيسة والبابا وهيبتها جريحة جراحا بلغ من خطورتها أن نغرت[1] فى النهاية وأدت إلى انحلالها .

كان فردريك ابناً للامبراطور هنرى السادس ، وكانت أمه بنت روجر الأول ، ملك صقلية النورمانى ، ورث هذه المملكة فى ١١٩٨ عند ما كان طفلا فى الرابعة وقد عين إنوسنت الثالث وصياً عليه ، وكانت صقلية فى ذلك الحين حديثة العهد بالغزو النورمانى ؛ وكان بلاط الملك شرقياً أو يكاد حافلا بعلماء العرب الواسعى الاطلاع ، وقد أسهم بعض هؤلاء فى تعليم الملك الصغير ، ولا شك أنهم لقوا بعض العناء فى توضيح آرائهم له . فكون فى المسيحية رأيا إسلامياً ، كما كون فى الإسلام وجهة نظر مسيحية ، ومن هذه التربية المزدوجة ،خرج الملك بنتيجة تعسة تعد شيئا شاذاً فى عصر الإيمان،ذاك هى أن جميع الديانات دجل ، وطالما تكلم بملء حريته فى ذلك الموضوع ، ويسجل لنا التاريخ كفره (هرطقاته) وتجديفاته .

---

(١) نغر : يقال نغر بمعنى فسد كالجرح إذا سال منه الدم والصديد . [المترجم]

ولما أن شب الفتى ألفى نفسه فى نزاع مع وصيه ، ذلك أن إنوسنت الثالث كان يغلو فيما يطلبه من الفتى القاصر ، فلما آن لفردريك تولى عرش الإمبراطورية ، تدخل البابا مشترطا بعض الشروط ، فأصر على أن يعد فردريك بالقضاء بقوة على ما بألمانيا من كفر وزندقة ، وذلك فضلا عن تخليه عن عرش صقلية وجنوب إيطاليا ، وإلا قوى سلطانه ولم يقدر البابا على كبحه ، وعدا ذلك طلب البابا بإعفاء رجال الدين الألمان من الضرائب ، ووافق فردريك على الشروط دون أن يضمر البر بوعده بأى حال . وفى تلك الأثناء حمل البابا العاهل الفرنسى على شن الحرب على رعاياه بفرنسا ، وهى الحملة الصليبية القاسية الدامية التى شنت على أتباع والدو ، وقد أراد أن يفعل فردريك نفس الفعلة فى ألمانيا ، ولـكن لما كان فردريك أشد كفرا وزندقة من أى « ورعى »[1] بسيط من أولئك الذين جلبوا على أنفسهم عداوة البابا ، فمن البديهى أنه كان يعوزه التحمس لأمثال هذه الحملات الصليبية ، وعند ما حرضه إنوسنت على القيام بحملة صليبية على المسلمين واسترداد بيت المقدس ، لم يتردد فى المبادرة بالوعد ، كما لم يتردد بالمثل فى التباطؤ فى التنفيذ .

حتى إذا تم لفردريك الثانى الحصول على التاج الإمبراطورى أقام بصقلية ، التى كان يؤثر الإقامة فيها على المقام فى ألمانيا ، ولم يفعل شيئا للبر بأى وعد من وعوده لإنوسنت الثالث ، الذى مات فى ١٢١٦ بعد أن أعياه أمره .

ولم يستطع هونوريوس الثالث الذى خلف إنوسنت ، أن يكون أحسن حظا مع فردريك من سلفه ، ثم تولى جريجورى التاسع عرش الباباوية (١٢٢٧) وقد صمم تصميما واضحا على تسوية الحساب مع ذلك الفتى مهما يكن الثمن ، فأصدر قرارا بحرمانه وحيل بين فردريك الثانى وبين كل ما تستطيع الديانة تقديمه من وسائل العزاء والسلوى . ومن العجب أن هذا الإجراء لم يضايق البلاط الصقلى نصف العربى إلا أقل المضايقة . ثم إن البابا وجه إلى الإمبراطور أيضا خطابا مفتوحاً يسرد فيه رذائله « التى لا يستطيع إنسان إنـكارها » ، وزندقاته وسوء سيرته بوجه عام ، فما كان من فردريك إلا أن

(١) الورعيون : (*Pietists*) هم أتباع والدو كما هو ظاهر من السياق ، وهم يأخذون أنفسهم بالورع الشديد فى أبسط صور المسيحية الأولى . [المترجم]

أجابه على تلك الرسالة بوثيقة تنم عن مقدرة شيطانية ، وجهت تلك الرسالة إلى جميع أمراء أوربا ، كما أنها أول بيان واضح عن النزاع بين البابا والأمراء . وفيها أنحى بالطعن القاتل على مطامع البابا الواضحة : أن يكون الحاكم المطلق لأوربا بأكملها ، واقترح قيام اتحاد بين الأمراء ضد ذلك الاغتصاب . ووجه أنظار الأمراء بنوع خاص إلى ما تستمتع به الكنيسة من ثراء .

حتى إذا أطلق فردريك هذه القذيفة القاتلة ، صمم على البر بوعده الذى تأخر إنجازه اثنتى عشرة سنة بالخروج فى حملة صليبية ، وتلك هى الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٨) ، كانت كحملة صليبية تعد مهزلة ، فإن فردريك الثانى ذهب إلى مصر وتقابل مع سلطانها وتباحث وإياه فى الأمور ! راح هذان السيدان — وكلاهما ممن انطوت نفسه على التشكك — يتبادلان آراء متجانسة ، وأبرما معاهدة تجارية تعود عليهما بالنفع المشترك ، واتفقا على أن تنتقل بيت المقدس إلى يد فردريك ، ولا شك أن ذلك كان ضربا جديدا من الحرب الصليبية ، فهو حملة صليبية سلاحها المعاهدات والمواثيق ، وهنا لم يهرق دم ولا تطاير له على الفاتح رشاش . ولا حدث « بكاء من فرط السرور » ، ولما كان ذلك الصليبي المدهش رجلا محروما بأمر الكنيسة ، فإنه اضطر أن يقنع بتتويج علمانى محض كملك لبيت المقدس ، متناولا التاج من المذبح بيده — وذلك لأن جميع رجال الدين كانوا ملزمين أن يجتنبوه ، ثم عاد إلى إيطاليا بعد ذلك ، وما زال بالجيوش البابوية التى غزت بلاده حتى ردها إلى أراضيها الأصلية ، وأرغم البابا أن يرفع عنه قرار الحرمان ، تلك هى المشاكلة التى استطاع أحد الأمراء أن يعامل بها البابا ، فى القرن الثالث عشر ، دون أن تنفجر آنذاك عاصفة من الغضب الشعبى للانتقام له ، لأن تلك الأيام قد ولت ! ! .

ثم عاد جريجورى التاسع فاستأنف فى ١٢٣٩ كفاحه مع فردريك ، وحرمه للمرة الثانية وجدد حملة السباب العلنى ، التى سبق للبابوية أن لاقت منها شرا مستطيرا ، على أن الخصومة تجددت بعد وفاة جريجورى التاسع ، عندما تولى كرسى البابوية إنوسنت الرابع ، ومرة ثانية كتب فردريك ضد الكنيسة خطابا مدمرا من ذلك النوع الذى يضطر الناس إلى تذكره ، وفيه سب كبرياء رجال الدين وقلة تدينهم ، ونسب كل مفاسد

الزمان لـكبريائهم وثرائهم . واقترح على زملائه الأمراء مصادرة أملاك الـكنيسة بصورة عامة ، لمصلحة الـكنيسة نفسها ، وهو اقتراح لم يغادر ذاكرة الأمراء الأوربيين بعد ذلك أبدا .

وسنكف عن الاسترسال فى تتبع أخباره فى أخريات أيامه ، فإن أحداث حياته الخاصة أقل أهمية بكثير من جوها العام ، ومن الممكن أن نجمع لك شذرات عن حياة بلاطه فى صقلية . كان يعيش عيشة الترف ، كما كان مغرماً بالأشياء الجميلة . وهو يوصف بأنه رجل إباحى . ولـكن من الواضح أنه كان رجلا أوتى درجة عظيمة من حب الاستطلاع النفاذ والرغبة فى البحث النافع . وقد جمع فى بلاطه الفلاسفة من اليهود والعرب والمسيحيين ، وبذل جهودا كبيرة لغمر العقل الإيطالى وإروائه بالمؤثرات العربية ، وبفضله نقلت الأرقام العربية والجبر العربى إلى الطلاب المسيحيين ، ومن الفلاسفة الـكثيرين المقيمين ببلاطه ميخائيل اسكوت ، الذى ترجم بعض أجزاء من مؤلفات أرسطو ، والتعقيبات التى دونها عليها الفيلسوف العربى العظيم ابن رشد القرطبى . وفى ١٢٢٤ أسس فردريك جامعة نابولى ، كما وسع المدرسة الطبية الـكبيرة بجامعة سالرنو وأغدق عليها المـال . ثم إنه أسس كذلك حديقة للحيوان . وترك كتابا فى الصيد بوساطة الصقور ، يكشف عن قوة ملاحظة لطبائع الطيور ، وهو من أوائل من كتب الشعر بالإيطالية من الإيطاليين . بل الحق إن الشعر الإيطالى ولد فى بلاطه . وقديماً أطلق عليه أحد كبار الـكتاب ، اسم : « أول العصريين » ، والعبارة تعبر فى كفاية تامة عن بعده من الناحية العقلية عن كل تحيز أو تعصب .

وثمة بادرة أخرى أكثر استرعاء للأنظار تدل على تضاؤل حيوية البابابوية وانهيار الأركان الداعمة لها . ظهرت البادرة عند ما اشتبك البابوات فور ذلك فى نزاع مع ملك فرنسا وقوته النامية . فإن ألمانيا تردت فى مهاوى التمزق فى أثناء حياة الإمبراطور فردريك الثانى ، كما شرع الملك الفرنسى فى أن يلعب دور حامى البابا وظهيره ومنافسه وهو الدور الذى كان حتى آنذاك من نصيب أباطرة أسرة هوهنشتاوفن . وقد راحت جماعة متتالية من البابوات تنتهج سياسة مناصرة ملوك فرنسا . وكانت نتيجة ذلك أن نصب أمراء فرنسيون على عروش مملـكتى صقلية ونابولى ، بمساعدة روما وموافقتها ،

كما أن الملوك الفرنسيين أدركوا أن فى الإمكان استرجاع إمبراطورية شرلمان وتولى الحكم فيها . على أنه عندما حدث بعد ذلك أن انتهت فترة خلو العرش الألمانى التى أعقبت وفاة فردريك الثانى ، آخر أباطرة أسرة هوهنشتاوفن ، وانتخب رودلف الهابسبرجى أول إمبراطور من آل هابسبرج (١٢٧٣) ، ابتدأت سياسة روما فى التذبذب بين فرنسا وألمانيا ، وأصبحت تتنقل مع عواطف كل بابا جديد . فأما فى الشرق فإن الروم استردوا القسطنطينية فى (١٢٦١) من قبضة الأباطرة اللاتين ، وسرعان ما عمد مؤسس الأسرة الرومية الجديدة ميخائيل باليولوجوس ، وهو الإمبراطور ميخائيل الثامن ، إلى الانفصال عن المجتمع الكنسى الكاثوليكى تماما ، بعد إبداء محاولات غير حقيقية للصلح مع البابا ، وبذلك الانفصال ، وبسقوط الممالك اللاتينية فى آسيا ، انتهت عظمة البابا فى ربوع الشرق .

وفى ١٢٩٤ تولى بونيفاس الثامن عرش البابوية . وكان إيطالياً معادياً للفرنسيين ، قوى الشعور بعظيم تقاليد روما ورسالتها . فظل زمانا يدير الأمور بيد مستأثرة . وقد أقام حفلات اليوبيل فى ١٣٠٠ . وتقاطرت على روما جماهير غفيرة من الحجاج : « وبلغ من عظم مسيل الذهب إلى خزانة البابوية ، أن عين مساعدان اثنان بالمجاريف لجمع الهدايا التى وضعت على قبر القديس بطرس »[1] بيد أن هذا الاحتفال كان نصراً خداعا . إذ حدث لسوء حظ بونيفاس أن نشب نزاع بينه وبين ملك فرنسا فى ١٣٠٢ ، وفى ١٣٠٣ أعد البابا العدة للنطق بقرار حرمان ذلك الملك ولكن غليوم دى نوجاريه فاجأه واعتقله فى قصر أسلافه نفسه ببلدة أناجينى . دخل مندوب ملك فرنسا هذا إلى القصر عنوة ، وتقدم إلى حجرة نوم البابا المذعور — إذ إنه وجده راقداً فى فراشه وبيده الصليب — وانهال عليه بالتهديد والإهانة وهب أهل المدينة لإنقاذ البابا بعد يوم أو يومين ، فعاد إلى روما ؛ ولكن قبضت عليه هناك أسرة أورسينى وأخذته من جديد أسيراً ، ولم تنقض بضعة أسابيع حتى مات ذلك الشيخ مصدوما وقد زالت عن عينه غشاوة الأمل الكاذب .

لقد غضب سكان أناجينى للاعتداء الأول . وهبوا لتخليص بونيفاس من قبضة نوجاريه ، ولكن أناجينى كانت بلد البابا ومسقط رأسه ، وأهم ما يستلفت النظر هنا

---

(١) ج . هـ . ربنسون .

هو أن الملك الفرنسى ، كان فى هذه المعاملة الخشنة لرأس المسيحية يعمل مستمتعاً بكامل استحسان شعبه ، فإنه كان قد دعا مجلساً من طبقات فرنسا الثلاث وهم : (النبلاء والكنيسة والعامة) وحصل على موافقتهم قبل الإقدام على التصرفات المتطرفة ، ولم يتحرك أحد فى إيطاليا وألمانيا وإنجلترا ، ولم يبد من الناس أى مظهر عام لاستهجان هذا التصرف الجرىء الخادش لكرامة رأس المسيحية المتربع آنذاك على عرش الحبر الأعظم . ذلك أن الفكرة القائلة بقيام « عالم النصرانية ودولتها » اضمحلت حتى اندثر كل سلطان لها على أذهان الناس .

انقضى القرن الرابع عشر دون أن تفعل البابوية شيئاً لاسترداد سلطانها الأدبى وكان البابا الذى انتخب بعد ذلك ، وهو كليمنت الخامس فرنسياً ، اختاره فيليب ملك فرنسا ، فلم يحضر إلى روما أبداً . بل أقام بلاطه بمدينة أفينيون التى لم تكن تابعة آنذاك لفرنسا ، بل للكرسى البابوى ، وإن وقعت فى الأراضى الفرنسية ، وهناك ظل خلفاؤه حتى ١٣٧٧ ، عندما عاد البابا جريجورى الحادى عشر إلى قصر الفاتيكان فى روما . ولكن جريجورى الحادى عشر لم تنتقل معه بانتقاله إلى روما قلوب الكنيسة جمعاء ، وذلك لأن كثيراً من الكرادلة كانوا من أصل فرنسى، وقد تأصلت فى أفينيون عاداتهم وعلاقتهم بالناس . حتى إذا مات جريجورى الحادى عشر فى ١٣٧٨ ، وانتخب بدله إيطالى هو إربان السادس، وأعلن هؤلاء الكرادلة المنشقون عدم صحة الانتخاب وانتخبوا لمنصب البابوية شخصاً آخر هو البابا المعارض كليمنت السابع ، ويسمى هذا الانقسام بالصدع الأعظم ، على أن البابوات الأصلاء ظلوا فى روما ، كما ظلت جميع الدول المضادة للفرنسيس موالية لهم ، كالإمبراطور وملك إنجلترا وبلاد المجر وبولندة وشمال أوربا. أما البابوات المعارضون ، فقد ظلوا فى أفينيون يظاهرهم ملك فرنسا وحليفه ملك اسكتلندة وإسبانيا والبرتغال وأمراء ألمان مختلفون. وكان كل بابا يحرم أنصار منافسه ويلعنهم (١٣٧٨ — ١٤١٧) .

أعجيب إذن أن شرع كل إنسان ، فى كل أرجاء أوربا يفكر فى شئون دينه بنفسه ؟ .

لم تكن هيئتا الرهبان الفرنسسكانيين ولا الدومينيكيين إلا عاملين من بين العوامل الكثيرة الجديدة التى شرعت تنشأ فى المسيحية ، إما لتأييد الكنيسة وإما لتمزيقها ـ وهما

أمران يرجع البت فيهما لتقدير الكنيسة . وقد تبنت هاتين الجمعيتين فعلا واستفادت بخدماتهما ، وإن استخدمت فى البداية شيئاً من العنف مع الجماعة الأولى . بيد أن هناك عوامل وقوى أخرى كانت أصرح فى إظهار العصيان والانتقاد . فقد ظهر ويكليف (١٣٢٠ – ١٣٨٤) بعد ذلك بقرن ونصف : كان أستاذاً عظيم الاطلاع بأكسفورد. فشرع يوجه إلى الكنيسة وقد تقدمت به السن طائفة صريحة من الانتقادات لمفاسد رجال الدين وقلة حكمتهم ونظم من أتباعه جماعة من فقراء القسوس ، هم الويكليفيون لنشر آرائه فى كافة أرجاء إنجلترا ؛ ولكى يحكم الناس بينه وبين الكنيسة ترجم الكتاب المقدس إلى الإنجليزية . كان أوسع علما وأكثر اقتداراً من كل من القديسين فرنسيس ودومينيك . وقد كثر بين أفراد الطبقة المثقفة الراقية مؤيدوه ، كما عظم عدد أتباعه بين أفراد الشعب ؛ ومع أن روما ثارت ثائرتها سخطاً عليه ، وأمرت بحبسه ، فإنه مات حراً طليقاً لم تمس حريته بسوء . بيد أن الروح القديمة الشريرة التى كانت تدفع الكنيسة الكاثوليكية إلى مهاوى الدمار ، لم تطق ترك عظامه هادئة فى قبرها . إذ صدر عن مجمع كونستانس ١٤١٥ ، مرسوم يقضى بنبش عظامه وحرقها ، وهو قرار نفذه الأسقف فلمنج فى ١٤٢٨ بأمر من البابا مارتن الخامس . وجدير بالذكر أن هذا التدنيس للحرمات لم يكن من عمل متعصب مفرد ، بل كان عملا رسمياً صدر عن الكنيسة .

الفصل الثامن والأربعون

فتوح المغول

ولكن فى أثناء القرن الثالث عشر وبينما كان هذا الكفاح العجيب غير المثمر فى سبيل توحيد المسيحية تحت حكم البابا تتواصل أحداثه فى أوربا ، كانت أحداث أخرى أعظم خطرا قائمة على قدم وساق فى مسرح آسيا الأفسح مجالا. فإن شعباً تترياً من الإقليم الواقع إلى الشمال من بلاد الصين تسنم فجأة غارب السيادة فى الشئون العالمية ، وأحرز طائفة متعاقبة من الفتوح ليس لها فى التاريخ مثيل ، وهذا الشعب هو المغول ، كانوا عند مستهل القرن الثالث عشر ، قبيلة من الفرسان الرحل ، يعيشون على طريقة أسلافهم الهون تقريبا ، فيغتذون بوجه خاص باللحم ولبن الأفراس ، ويعيشون فى خيام من اللباد . ولقد نفضوا عن أنفسهم نير السيادة الصينية ، وأدخلوا عدداً من القبائل التركية الأخرى فى اتحاد عسكرى معهم . كان معسكرهم المركزى على نهر الأونون بسيبيريا .

وكانت الصين فى ذلك الأوان فى حالة انقسام . فإن سلطان أسرة تانج العظيمة قد اضمحل فى القرن العاشر الميلادى ، ثم هوت الصين فى هوة الانقسام وتحولت إلى ولايات متطاحنة ، حتى استقرت بها فى النهاية ثلاث إمبراطوريات رئيسية : هى إمبراطورية كن (Kin) فى الشمال وعاصمتها بيكين . وإمبراطورية صنج فى الجنوب وعاصمتها نانكين ، وإمبراطورية هسيا (Hsia) فى الوسط . وفى ١٢١٤ شن جانكيز خان قائد اتحاد المغول ، غارة على إمبراطورية كن واستولى على بيكين (١٢١٤) . ثم تحول بعد ذلك غربا وفتح التركستان الغربية وفارس وأرمينية وتوغل فى الهند حتى لاهور ، وفى جنوب الروسيا حتى بلاد المجر وسيليزيا . ومات جانكيزخان وقد صار سيدا على إمبراطورية هائلة تمتد من المحيط الهادى إلى نهر الدنيبر .

وأسس خلفه أوجداى خان عاصمة دائمة له فى « قره قورم » بمنغوليا وواصل سيرة ذلك الفتح المدهشة . وقد بلغت جيوشه درجة عالية جداً من الكفاية والنظام ؛ وكان معهم اختراع صينى جديد هو البارود ، كانوا يستخدمونه فى مدافع ميدان صغيرة .



خريطة رقم (١٢)

أتم أوجداى فتح إمبراطورية كن، ثم دفع بجيوشه قدماً عبر آسيا إلى الروسيا (١٢٣٥)، وهو زحف عظيم يبعث على أعظم الدهشة. فدمرت كييف فى ١٢٤٠، وأصبحت الروسيا كلها تقريباً تابعة للمغول وعاث المغول فى بولنده نهباً وتدميراً، ثم أبادوا جيشاً مختلطاً من البولنديين والألمان فى معركة لجنيز بمنطقة سيليزيا الدنيا ١٢٤١، والظاهر أن الإمبراطور فردريك الثانى لم يبذل أى جهد لإيقاف تقدم ذلك السيل المغولى المنهمر.

يقول بيورى فى ملحوظاته على كتاب جيبون المسمى انمحلال الدولة الرومانية وسقوطها: « إن المؤرخين الأوربيين لم يبدأوا إلا فى الآونة الاخيرة فى إدراك أن الانتصارات التى أحرزها الجيش المغولى باجتياحه بولندة واحتلاله بلاد المجر فى ربيع ١٢٤١، إنما اكتسبت بالأعمال الحربية المتقنة، ولا ترجع إلى مجرد التفوق العددى الجارف. بيد أن هذه الحقيقة لم تصبح بعد أمراً معلوما للجميع؛ إذ لا يزال منتشرا بين الناس الرأى الشائع الذى يمثل التتار فى صورة الجيش الوحشى الذى يجترف كل شىء أمامه بقوة الكثرة العددية وحدها، والذى يجرى بخيوله فى أرجاء أوربا الشرقية دون أية خطة حربية، مندفعاً على مايعترضه من عقبات ومتغلبا عليها بمجرد الوزن العددى.

« وكم كان من المدهش تنفيذ الخطط فى وقتها المحدد بالضبط وبكفاية فعالة متقنة ، فى عمليات حربية تمتد من الفستولا الأدنى إلى ترانسلفانيا . ولقد كانت مثل تلك الحملة تتجاوز تماماً طاقة أى جيش أوربى فى ذلك الزمان ، كما أنها كانت فوق مايحلم به خيال أى قائد أوربى . . لم يكن فى أوربا قائد واحد — وفى مقدمتهم فردريك الثانى — لايعد غمرا(١) قليل الدربة فى الخطط الحربية بالقياس إلى سوبوتاى . ومما هو جدير بالملاحظة أيضاً ، أن المغول أقدموا على تلك المغامرة وهم على تمام المعرفة بمركز المجر السياسى وبالأحوال الدائرة فى بولندة — ذلك أنهم حرصوا مقدما أن يجمعوا المعلومات الكافية بوساطة جهاز جاسوسية جيد التنظيم ، وذلك على حين أن المجريين والدول المسيحية الأخرى كانوا كالبرابرة الجهال ، لايكادون يعرفون شيئاً عن أعدائهم » .

على أن المغول وإن أحرزوا النصر فى لجنتز إلا أنهم واصلوا تقدمهم غربا . ذلك أنهم أخذوا يدخلون فى أرض تكسوها الغابات والتلال ، ولا تتناسب وطريقتهم فى القتال ، لذلك انحرفوا جنوبا واستعدوا للاستقرار ببلاد المجر ، وأخذوا يعملون الذبح فى ذوى قرباهم من المجريين أو يتمثلونهم ، على نحو مافعله هؤلاء من قبل فى الإسكيذيين والآفار والهون الذين اختلطت دماؤهم هناك ، ولعلهم كانوا يبغون أن يقوموا من وادى المجر بالإغارة غرباً وجنوباً مثلما فعل المجريون فى القرن التاسع والآفار فى السابع والثامن والهون فى الخامس ، ولكن أوجداى خان مات فجأة وترتب على وفاته نزاع على وراثة العرش فى ١٢٤٢ ، وعند ذلك أخذت جيوش المغول غير المنهزمة تتراجع نحو الشرق عبر بلاد المجر ورومانيا .

ومن بعدها ركز المغول اهتمامهم على فتوحهم الآسيوية ، فلم يحل منتصف القرن الثالث عشر حتى فتحوا إمبراطورية صنج . وقد خلفه «مانجو خان» فى منصب الخان الأكبر فى ١٢٥١ ، وعين أخاه قوبلاى خان حاكما على الصين . وأصبح قوبلاى خان إمبراطور الصين المعترف به فى ١٢٨٠ ، وبذلك أسس أسرة يوان التى دامت حتى ١٣٦٧ . وفى نفس الوقت الذى كانت أسرة صنج تلفظ فيه آخر أنفاسها فى بلاد الصين ، كان أخ آخر لمانجو هو «هولاكو» ، يفتح فارس وسوريا . وأظهر المغول فى ذلك الزمان

---

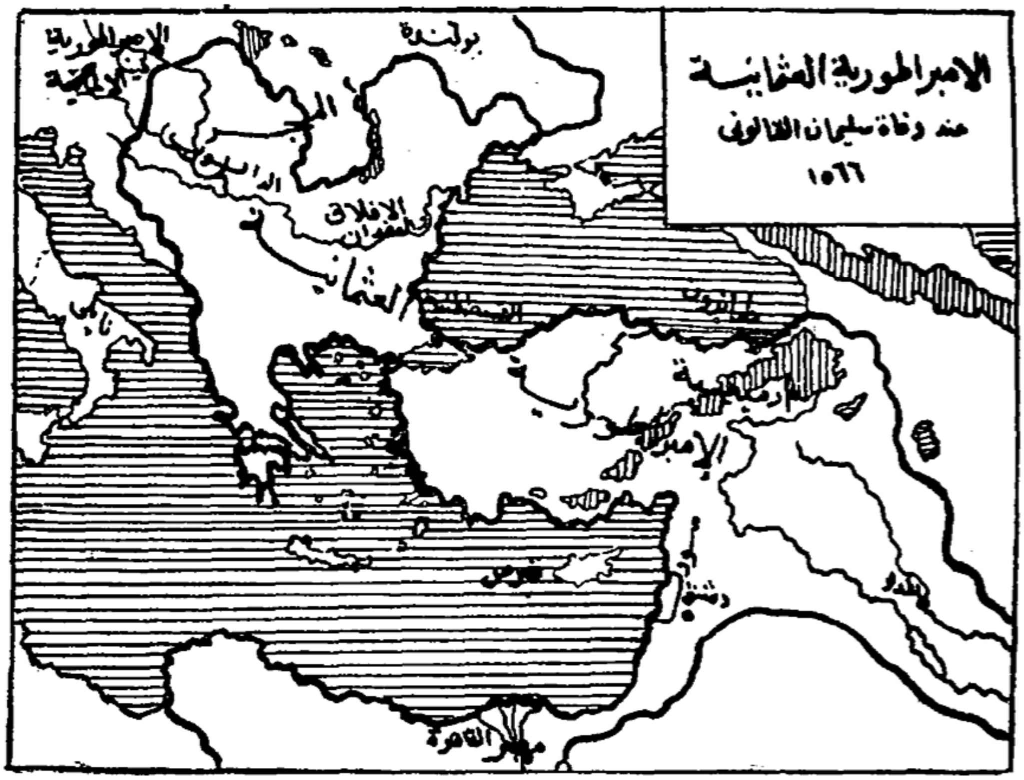
(١) الغمر (بكسر الغين) من لم يجرب الأمور من الرجال . [المترجم]

عداوة مريرة للاسلام ولم يكتفوا بتذبيح سكان بغداد عندما استولوا على تلك المدينة بل شرعوا فى تدمير نظام الرى السحيق القدم الذى ظل على الدوام يجعل من أرض الجزيرة بلادا رغيدة آهلة بالسكان منذ أيام سومر القديمة . وقد صارت أرض الجزيرة منذ تلك اللحظة التعسة يبابا من الخرائب والأطلال ، لا تتسع إلا للعدد القليل من السكان . ولم يدخل المغول أرض مصر قط ، فإن سلطان مصر هزم جيشاً لهولاكو هزيمة تامة بفلسطين ١٢٦٠ .

وانحسر سيل النصر المغولى بعد تلك الكارثة . وانقسمت ممتلكات الخان الأعظم بين عدد من الدول المتفرقة الشمل . فأصبح المغول الشرقيون بوذيين كالصينيين ؛ وأصبح الغربيون منهم مسلمين . ثم نفض الصينيون عن كواهلهم حكم أسرة يوان فى ١٣٦٨ ، وأقاموا أسرة منج القومية التى ازدهرت من ١٣٦٨ إلى ١٦٤٤ على أن الروس ظلوا تابعين للجموع المغولية فى السهوب الجنوبية الشرقية حتى ١٤٨٠ عندما نبذ غراندوق موسكو ولاءه ووضع أساس الروسيا الحديثة .

وقد انتعشت قوة المغول أمدا وجيزا فى القرن الرابع عشر فى عهد تيمورلنك ،وهو من سلالة جنكيزخان . فوطد ملكه بالتركستان الغربية ، واتخذ لقب الخان الأعظم فى ١٣٦٩ ، وفتح البلاد الواقعة بين سوريا ودلهى . ولكن الإمبراطورية التى أسسها انتهت بموته . ومهما يكن من شىء ، فإن حفيدا لذلك الفاتح تيمور وهو مغامر اسمه بابر استطاع فى ١٥٠٥ أن يجمع جيشاً مزودا بالمدافع هبط به على سهول الهند . وما لبث حفيده أكبر (١٥٥٦ — ١٦٠٥) أن أتم فتوحه ، واتخذت هذه الأسرة المغولية دلهى قصبة لها ، وحكمت معظم بلاد الهند حتى القرن الثامن عشر .

ومن عواقب الاكتساح المغولى الكبير الأول فى القرن الثالث عشر خروج قبيلة معينة من الترك سميت بعد ذلك باسم الأتراك العثمانيين من موطنها بالتركستان إلى آسيا الصغرى . بسط هؤلاء الأتراك سلطانهم ووطدوا أركانه بآسيا الصغرى ، ثم عبروا الدردنيل وأغاروا على مقدونيا وبلاد الصرب وبلغاريا . وانتهى الأمر بأن بقيت القسطنطينية ، قائمة وحدها كأنها جزيرة فى بحر من العثمانيين . وفى ١٤٥٣ استولى السلطان العثمانى محمد الفاتح على القسطنطينية ، بعد أن هاجمها من الجانب الأوربى بعدد كبير من المدافع . وأحدثت تلك الحادثة هياجا عظيما فى أوربا ، وتحدث الناس بحرب صليبية ، ولكن عهد الحروب الصليبية كان قد ولى .



خريطة رقم (١٣)

ولم ينقض القرن السادس عشر حتى تم لسلاطين آل عثمان فتح بغداد وبلاد المجر ومصر ومعظم إفريقية الشمالية ، كما أن أسطولهم جعلهم سادة البحر المتوسط . وكادوا أن يستولوا على فيينا ، كما أنهم فرضوا الجزية على الإمبراطور . ولم يكن هناك فى القرن الخامس عشر إلا شيئان عوضا المسيحية عما أصابها من نقص فى الممتلكات . وأول هذين الشيئين ، هو استرجاع موسكو لاستقلالها (١٤٨٠) ، وثانيهما استرداد المسيحيين إسبانيا رويداً رويداً من يد العرب . ففى ١٤٩٢ سقطت غرناطة ، آخر دولة إسلامية فى شبه الجزيرة فى يد فرديناند ملك آرجونه وزوجته إيزابيلا ملكة قشتالة.

ولكن كبرياء الترك لم تكسر شوكته إلا فى ١٥٧١ بعد معركة ليبانتو البحرية التى أعادت مياه البحر المتوسط إلى أيدى المسيحيين .

الفصل التاسع والأربعون

النهضة الفكرية للأوربيين

ظهرت إبان القرن الثانى عشر شواهد كثيرة تشهد بأن الذكاء الأوربى أخذ يسترد شجاعته وينتهز فرصته المواتية ، ويستعد ليتناول من جديد قصب المغامرات الذهنية الذى حمله أول من بحثوا فى العلم من الإغريق ، وصولجان النظر التأملى الذى تجلى لدى أمثال لوكريشيوس الإيطالى ، ويرجع ذلك الانتعاش لأسباب عديدة معقدة . ولا شك أن من بين الظروف الضرورية المهدة لذلك الأمر ، القضاء على الحرب الخاصة ، وارتفاع مستوى وسائل الراحة والأمن بعد الحروب الصليبية ، والاستثارة التى أحدثتها تلك الحملات فى عقول الناس بما جلبته إليهم من خيرات . أخذت التجارة تنتعش ، وبدأت المدن تسترد اليسر والأمن ، هذا إلى أن مستوى التعليم شرع يرتفع بين رجال الكنيسة وينتشر بين العلمانيين . وكان القرنان الثالث عشر والرابع عشر فترة مدن نامية ومستقلة أو شبه مستقلة ، نذكر منها على سبيل المثال ، البندقية وفلورنسا وجنوة ولشبونة وباريس وبروج ولندن وأنفرس وهمبورج ونورمبرج ونوفجورود وويسبى وبرجن . وكلها مدائن تجارية يؤمها المسافرون ، وبديهى أنه حيثما اتجر الناس وسافروا تحدثوا وفكروا . وكانت المجادلات الدائرة بين البابا والأمراء ، وما تجلى فى اضطهاد من يتهمون بالكفر من وحشية وشر ظاهرين ، تدفع بالناس إلى الشك فى سلطان الكنيسة وإلى التساؤل والمناقشة فى المسائل الجوهرية .

وقد رأينا كيف كان العرب هم الأصل فى إرجاع أرسطو إلى أوربا ، وكيف أن أميرا مثل فردريك الثانى كان كالمجاز الذى استطاعت من خلاله فلسفة العرب وعلمهم أن يعملا عملهما فى العقل الأوربى الناهض ، على أن اليهود كانوا أعظم أثراً فى تنشيط أفكار الناس . وكان وجود اليهود فى حد ذاته مثار استفسار حول مدعيات الكنيسة . ولا تنس أخيراً أبحاث قدامى الكيماويين السرية الفاتنة ، وكيف أخذت تنتشر فى كل مكان وتدفع بالرجال إلى معاودة جهودهم فى العلم التجريبى ، بصورة ضئيلة وخفية إلا أنها مثمرة أيضاً .

والحركة التى دبت فى عقول الناس لم تكن قاصرة عند ذاك بأى حال على الأثر على المتعلمين . فإن عقل الرجل العادى تيقظ فى هذا العالم ، على شاكلة ليس لها مثيل فى كل ما سلف من أيام الإنسانية . ويلوح أن المسيحية كانت تحمل إلى الناس الخمائر الفكرية حيثما انتشرت تعاليمها ، وذلك على الرغم من غباء القسيس وظلم الاضطهاد ، فأنشأت علاقة مباشرة بين ضمير الرجل الفرد وبين رب البر والصلاح ، حتى لقد أصبحت لديه آنذاك إذا لزم الأمر الشجاعة التى تفيض له إصدار حكمه الخاص على الأمير أو الأسقف أو العقيدة .

وأخذت رحى المناقشات والأبحاث الفلسفية تدور من جديد فى أوربا منذ زمن بعيد يرجع إلى القرن الحادى عشر ، كما أن جامعات عظيمة ناهضة أنشئت فى باريس وأوكسفورد وبولونيا وغيرها من المراكز العامة . وهنالك شرع علماء القرون الوسطى يثيرون من جديد طائفة من المسائل تتصل بقيمة الكلمات ومعناها ويقتلونها بحثاً ، وكان هذا تمهيداً لابد منه للتفكير الصافى فى أثناء عصر العلوم الذى جاء فى أعقاب ذلك . وهناك عالم يعد وحيد عصره لما هو عليه من نبوغ ممتاز ، هو روجر باكون (من قرابة ١٢١٠ إلى قرابة ١٢٩٣) ، وهو راهب فرنسسكانى من أوكسفورد ، يمكن أن يسمى أبا العلم التجريبى العصرى . ولا شك أن اسمه جدير بأن يمجد ويخلد فى كتابنا هذا تمجيدا لا يسبقه فيه إلا أرسطو وحده .

وكتاباته إنما هى حملة واحدة قوية على الجهل . فقد أخبر أهل عصره صراحة بأنهم جهلة ، وهو شىء ينطوى على جرأة لا يصدقها عقل ، وربما استطاع إنسان فى هذه الأيام أن يخبر عالمه أنه سخيف قدر ما هو جاد وقور ، وأن جميع أساليبه لا تزال ممجة شبيهة بعبث الأطفال ، وأن كل مذاهبه الاعتقادية فروض طفولية ، دون أن يتعرض لأى أذى جثمانى كبير ؛ بيد أن أناس القرون الوسطى كانوا — حين يخلو وقتهم من المذابح أو من أن تعمل فيهم يد المجاعة أو الأوبئة فتكا وإبادة — موقنين يقيناً عنيفاً بحكمة معتقداتهم واكتمالها وأنها خاتم المعتقدات جميعاً ، نزاعين إلى الغضب المرير من وضعها موضع البحث والتأمل ، وكانت كتابات روجر باكون أشبه ما تكون بضياء ساطع يخطف الأبصار فى ظلمة ليل حالك . وقد مزج هجماته على جهالة عصره بطائفة ثمينة من المقترحات الهادفة إلى زيادة المعرفة . وإنك لتشهد روح أرسطو تبعث حية من جديد حين ترى تحمسه وإصراره على الحاجة إلى التجريب وجمع المعارف . فالنغمة

التى لم يفتأ روجر باكون يرددها ، والتيمة التى رفعها على كواهله ، هى : «التجريب ، والتجريب » .

بيد أن روجر باكون شنع على أرسطو. ولم يسلك ذلك المسلك مع أرسطو إلا لأن الناس كانوا ، بدلا من أن يواجهوا الحقائق بشجاعة ، يقبعون فى بيوتهم مكبين على الترجمات اللاتينية الرديئة التى كانت آنذاك كل ما يستطاع الحصول عليه من مؤلفات الفيلسوف . كتب فى لهجته المتطرفة يقول : « لو تركت لى الحرية لأحرقت كتب أرسطو جميعاً ، وذلك لأن دراستها لا يمكن أن تؤدى إلا إلى الضياع وإلى الخطأ وزيادة الجهل » . وهو شعور ربما ردده أرسطو نفسه لو قدر له أن يعود إلى عالم لم تكن كتبه تقرأ فيه بل تعبد عبادة — مع أنها مدونة فى تلك الترجمات البغيضة كما أوضح لك روجر باكون .

وكان روجر باكون يهيب بالبشرية بملء فيه فى كل صفحات كتبه فى شىء من التقية دعت إليه ضرورة اصطناع التوفيق بين كتاباته والعقيدة الصحيحة السليمة خشية السجن أو ما هو أسوأ من السجن . « كفوا عن أن تحكمكم المذاهب الاعتقادية والسلطات المتحكمة ، وانظروا إلى عالمكم ! » ولطالما شهر باكون بمصادر أربعة للجهل هى : احترام ذوى السلطان ، والعرف ، وإحساس الجمهور بجهله ، وميولنا غير القابلة للتعلم مع اتصافها بالغرور والكبرياء . « فلو لم تتغلبوا إلا على هذه وحسب ، لانفتحت أمامكم أبواب عالم من القوة » .

« فى الإمكان وجود آلات تمخر البحر دون مجداف يحركها . ومن ثم فإن السفن الكبيرة اللائقة للنهر أو المحيط ، والتى يقودها رجل واحد ، ربما سارت بسرعة أكثر مما لو كانت مليئة بالرجال . وكذلك ، يمكن صنع العربات بحيث يتكن تحريكها دون الاحتياج إلى دواب الجر Gum impeto Inoe Stimabile ، وهى الصورة التى نتصورها للعربات ذات المناجل التى كان القدماء يحاربون فوقها . ثم إن فى الإمكان وجود آلات طائرة ، يستطيع الرجل أن يجلس فى وسطها ويدير شيئاً تخفق به أجنحة صناعية فى الهواء على منوال أجنحة الطير » .

هكذا كان روجر باكون يكتب ، ولكن كان لا بد أن تنقضى ثلاثة قرون أخرى

قبل أن يبدأ الإنسان محاولاته المنظمة فى ارتياد خبيئات القوى المجهولة المختزنة ، التى أدرك بوضوح وجودها وراء السياج الذى يحجب الشئون البشرية .

على أن العالم العربى لم يمنح المسيحية حافزاً يحفز فلاسفتها وكيماوييها فقط ، بل أعطاها الورق أيضاً . ولا إخالنا نبالغ إذا قلنا إن الورق هو الذى جعل فى الإمكان انتعاش أوربا فكريا .

نشأ الورق أصلا فى الصين ، حيث يرجع استخدامه فى الراجح إلى القرن الثانى ق . م . وقد حدث أن هاجم الصينيون العرب المسلمين فى سمرقند عام ٧٥١ م ؛ فردوهم على أعقابهم ، وأسروا منهم أسرى كان من بينهم بعض مهرة صناع الورق ، ومنهم تعلم العرب تلك الصنعة . ولا نزال عندنا إلى اليوم مخطوطات مسطرة على ورق عربى مصنوع فى القرن التاسع فما بعده . ثم دخلت تلك الصناعة البلاد المسيحية إما بطريق بلاد اليونان وإما بالاستيلاء على مصانع الورق ببلاد الأندلس فى أثناء استرداد المسيحيين لإسبانيا ، على أن الإنتاج تدهور فى ظل الإسبان المسيحيين تدهورا محزناً . ولم يتيسر صنع الورق الجيد فى أوربا المسيحية إلا فى نهاية القرن الثالث عشر ، وعند ذلك كانت إيطاليا رائدة العالم فى هذا المضمار . ولم تبلغ تلك الصناعة ألمانيا إلا فى القرن الرابع عشر ، على أنها لم تكثر ويرخص سعر الورق رخصا يجعل طبع الكتب أمرا ممكنا إلا عند نهاية ذلك القرن . وعند ذلك جاءت الطباعة كنتيجة طبيعية لا بد منها ، ذلك أن الطباعة أبسط الاختراعات وأشدها ظهورا للعيان ، وعند ذلك دخلت حياة العالم العقلية فى طور جديد أقوى كثيرا من كل ما سبقه . وكفت عن أن تكون رشحاً ضئيلا يتسلل من عقل إلى عقل ، وأصبحت فيضا غامرا ، اشتركت فيه آلاف من العقول تضاعفت للفور فغدت عشرات آلاف بل مئات الآلاف .

وثمة نتيجة مباشرة للوصول إلى الطباعة ، هى ظهور عدد وفير من نسخ الكتاب المقدس فى العالم وتداولها بين الناس . وأخرى هى رخص سعر الكتب المدرسية . وكان انتشار المعرفة بالقراءة سريعا فلم تزدد عدد الكتب فى العالم زيادة عظيمة وحسب ، بل إن الكتب التى كانت تطبع آنذاك كانت أوضح لبصر القارئ ، فهى لذلك أسهل عليه فهما وبدلا من الإكباب فوق متن كتابة معقدة ، ثم محاولة فهم مدلولها ، أصبح القراء يستطيعون آنذاك أن يفكروا فى أثناء القراءة دون أن يعوق

تفكيرهم عائق . وبفضل هذه الزيادة فى سهولة القراءة ، تزايد عدد القراء . وكف الكتاب عن أن يكون ألعوبة مبرقشة شديدة الزخرفة ، أو طلسما ينطوى على سر أحد العلماء ، وشرع الناس فى كتابة الكتب ليقرأها عامة الناس ويستمتعوا بمنظرها على السواء ، وأخذوا يكتبون باللغة العادية وليس باللاتينية ، فإذا أقبل القرن الرابع عشر ، بدأ معه التاريخ الحق للأدب الأوربى .

ظللنا حتى الآن نعالج نصيب العرب فى النهضة الأوربية ، فلنتجه الآن إلى تأثير الفتوح المغولية ، فإنها أثارت الخيال الجغرافى لدى الأوربيين إثارة هائلة إذ ظلت آسيا كلها وأوربا الغربية تنعمان ردحا من الزمان فى ظل الخان الأعظم باتصال حر مطلق ؛ فانفتحت كل الطرق إلى حين بين تلك البلاد جميعا ، وحضر ممثلو الشعوب جميعاً إلى بلاط الخان فى قره قورم . وأزيلت إلى حد ما جميع الحواجز التى فصلت بين أوربا وآسيا ، بسبب الخلاف بين المسيحية والإسلام . وعلقت البابوية آمالا كبارا على إدخال المغول فى المسيحية . وذلك لأن ديانتهم الوحيدة كانت حتى ذلك الحين هى الشامانية[1] ، وهى ضرب بدائى من الوثنية . فاجتمع فى بلاط المغول مبعوثو البابا ، وكهان بوذيون من الهند وفارس . وما أكثر ما يحدثنا التاريخ عن حملات المغول ومذابحهم ، دون أن نسمع القدر الكافى من الحديث عن حبهم للاستطلاع ورغبتهم فى العلم .

وقد كان فضل المغول جسيما وأثرهم فى تاريخ العالم عظيما . لا بوصفهم شعباً ذا أصالة واستحداث ، بل كنقلة للمعرفة والأساليب . وكل ما أمكننا أن نعلمه عن شخصيات جانكيز أوقوبلاى (الرومانسية) المبهمة ، يجنح إلى تقوية الرأى القائل بأن هؤلاء الرجال كانوا ملوكا لا يقلون فى الفهم والابتكار عن أى من الإسكندر الأكبر ، ذلك الإنسان الزاهى الوهاج والأنانى أيضا ، أو شرلمان ذلك اللاهوتى الأمى الناشط الذى ابتعث أشباح الماضى السياسية .

ومن أمتع هؤلاء الزوار للبلاط المغولى رجل من البندقية اسمه ماركو بولو ، دون قصته فيما بعد فى كتاب . ذهب إلى الصين حوالى ١٢٧٢ مع أبيه وعمه ، وكانا قد قاما بتلك الرحلة مرة قبل ذلك ، وكان تأثير هذين الرجلين فى نفس الخان الأعظم عظيما ،

(١) الشامانية : ديانة شمال آسيا وتقوم بوجه خاص على السحر والشعوذة . [المترجم]

وهما أول من شهد من أبناء الشعوب اللاتينية ، فأعادهما إلى بلادهما التماسا للبحث وطلب المعلمين والعلماء الذين يستطيعون تفسير المسيحية له ، ومن أجل مسائل أوربية منوعة أثارت حبه للاستطلاع ، فكأن زيارتهما بصحبة ماركو هي الثانية .

بدأ الثلاثة رحلتهم بطريق فلسطين وليس بطريق بلاد القرم ، كما حدث فى رحلتهم السالفة ، وكانوا يحملون لوحة من الذهب وأمارات أخرى من الخان الأعظم لابد أنها سهلت عليهم السفر تسهيلا عظيما ،وطلب منهم الخان الأعظم أن يحضروا شيئاً من زيت القنديل الذى يوقد فى بيت المقدس عند الناووس المقدس ؛ لذا ذهبوا إلى هناك أولا ، ثم ساروا بطريق كليكية إلى أرمينية ، إذ اضطرهم إلى التوغل شمالا على تلك الشاكلة إغارة سلطان مصر فى ذلك الوقت على ممتلكات المغول . ثم انحدروا بطريق أرض الجزيرة إلى هرمز على الخليج الفارسى ، كأنما يزمعون الرحلة بطريق البحر . والتقوا فى هرمز ببعض تجار الهنود . على أنهم لسبب مالم يقلعوا بالسفن ، بل عرجوا بدل ذلك شمالا مخترقين الصحارى الفارسية ، ثم ساروا بطريق بلخ فوق هضبة البامير إلى قشغر ، وبطريق خوتان وبحيرة لب نور إلى وادى نهر هوانجهو ومنه إلى بكين . وهناك فى بكين استقبلهم الخان الأعظم بحفاوة بالغة .

وسر قوبلاى بوجه خاص من ماركو ، الذى كان صغيراً ذكى الفؤاد ، ومن الجلى أنه كان يتقن اللغة التتارية تماما فعين فى أحد المناصب الحكومية وأرسل فى مهام كثيرة وبخاصة فى جنوب الصين الغربى ، والقصة التى يرويها عن وجود متسعات مترامية من الأراضى البسامة الرغيدة ، يقول فيها : « توجد دور الضيافة الممتازة المعدة للمسافرين على طول الطريق » ، ثم يقول « وعرائش كروم بديعة وحدائق وحقول » ويتحدث عن « الأديرة الكثيرة » والرهبان البوذيين ، وصناع الأقمشة من الحرير والذهب ، وأنواع كثيرة من قماش التفتاه الممتاز ، وسلسلة متصلة الحلقات من المدن والبلاد ، إلى غير ذلك مما أثار فى البداية عاصفة من التشكك فى أوربا ، ثم عاد فألهب خيال أوربا بأجمعها ، وتحدث عن بورما وعن جيوشها الكبيرة بما حوت من مئات الأفيال ، وكيف هزم ناشبة[1] المغول تلك الحيوانات ، كما ذكر فتح المغول لبيجو (pegu) . وتحدث عن اليابان ، وبالغ كثيرا فى مقـــدار مافى تلك البلاد من الذهب . وظل

---

(١) الناشب : صاحب النشاب أى السهام والرامى بها والجمع ناشبة. [المترجم]

ماركو ثلاث سنوات حاكما على مدينة يانج تشو ، ولعله — كأجنبى — لم يلفت أنظار الأهالى الصينيين أكثر من أى تترى آخر : ولعله أرسل كذلك فى بعثة إلى الهند . والسجلات الصينية تذكر شخصاً اسمه پولو ألحق بالمجلس الإمبراطورى فى ١٢٧٧ وهو تأكيد ثمين جدا لما تنطوى عليه رواية پولو من مسحة عامة من الصدق .

وأثر نشر رحلات ماركوپولو تأثيرا عميقاً فى الخيال الأوربى ، فإن الأدب الأوربى فى القرن الخامس عشر وبخاصة (الرومانس) الأوربى يتردد فيه صدى الأسماء المذكورة فى قصة ماركو پولو مثل كاثاى (شمال الصين) وكامبولاك (بكين) وماشابههما .

وبعد ذلك بقرنين اطلع على « رحلات ماركوبولو » بحار معين من جنوة هو كريستوفر كولمبس ، الذى تصور خياله الألمعى فكرة الإبحار غرباً إلى بلاد الصين حول العالم . وشاهد ذلك أنه توجد بمدينة أشبيلية نسخة من « رحلات بولو » على هوامشها بعض ملحوظات بخط كولمبس . وهناك أسباب متعددة دعت الجنوى إلى اتخاذ تلك الوجهة ، ذلك أن القسطنطينية ظلت ، حتى سقوطها بيد الأتراك فى ١٤٥٣ ، سوقا محايداً للتجارة بين العالم الغربى وبلاد الشرق ، وكان الجنويون يتاجرون فيها بحرية تامة . ولكن البنادقة اللاتينيين منافسى جنوة الألداء ، كانوا حلفاء الأتراك وأعوانهم على اليونانيين (الروم) ، فلما احتل الترك المدينة لم يعد للتجارة الجنوية مجال بها ،وفى تلك الآونة كان الاكتشاف القديم الذى نسيه الناس من زمن بعيد،والقائل بكروية الأرض قد أخذ يعود بالتدريج إلى مكانته الأولى من عقول الناس . لذا كانت فكرة الذهاب إلى الصين بطريق الغرب فكرة واضحة للعيان إلى حدما ، وكان يشجع على القيام بها أمران . أولهما ظهور البوصلة البحرية التى اخترعت فى تلك الأثناء ، وبفضلها لم يعد الناس تحت رحمة ليل صافى السماء بادى النجوم لتحديد الاتجاه الذى يبحرون إليه ، وثانيهما أن النورمان والقطلونيين والجنويين والبرتغاليين انطلقوا قبل ذلك فى عرض المحيط الأطلسى ، حتى بلغوا جزائر الكنارى وجزائر ماديرا والأزورس .

ومع ذلك فقد اضطر كولمبس أن يتغلب على صعاب كثيرة قبل أن يتيسر له الحصول على السفن اللازمة لتنفيذ فكرته أو اختبارها فأخذ يتنقل من بلاط ملكى فى أوربا إلى آخر . حتى استطاع فى النهاية أن يحصل بمدينة غرناطة المنتزعة حديثاً من يد العرب ،

على مناصرة فرديناند وإزابيلا . ورعايتهما لمشروعه . وأن يخترق مجاهل المحيط الخضم بثلاث سفن صغيرة . وسارت السفن شهرين وتسعة أيام طويلة مريرة ، ثم بلغت أرضاً زعم كولمبس أنها بلاد الهند ، ولكنها لم تكن فى الحقيقة إلا قارة جديدة لم يقدر العالم القديم وجودها قبل ذلك أبدا .

ثم عاد كولمبس إلى إسبانيا يحمل الذهب والقطن والحيوانات الغريبة واثنين من الهنود المنقوشى البشرة قد بدت عليهما الضراوة مالبث أن عمدهما مسيحيين . وقد أطلق عليهما كولمبس الهنديين لاعتقاده حتى يوم وفاته ، أن الأرض التى استكشفها هى بلاد الهند . ولم يدرك الناس إلا بعد انقضاء سنوات عدة أن الذى ضم إلى موارد العالم القديم هو قارة أمريكا الجديدة بأكملها .

وكان للنجاح الذى لقيه كولمبس فضل إثارة روح المغامرة البحرية إلى حد هائل . فدار البرتغاليون فى ١٤٩٧ حول قارة إفريقية إلى بلاد الهند ولم يحل سنة ١٥١٥ حتى كانت للبرتغاليين سفن عند جزيرة جاوة .

وفى ١٥١٩ أقلع ماجلان ، وهو بحار برتغالى يعمل فى خدمة الإسبان ، من مدينة أشبيلية بخمس سفن اتجه بها غرباً ، لم تعد منها إلا واحدة هى فيكتوريا . التى دخلت النهر حتى بلغت أشبيلية فى ١٥٢٢ . وهى أول سفينة دارت حول العالم : وكان عليها واحد وثلاثون بحارا ، هم البقية الباقية من مائتين وثمانين بدأت بهم الرحلة . أما ماجلان فإنه قتل بجزائر الفلبين .

لقد انبجست على العقل الأوربى أشياء كثيرة ضخمة منها الكتاب الورق المطبوع ، وأدرك الناس من جديد أن هذا العالم المستدير إنما هو شىء فى متناول اليد تماما ، وانبجست أيضاً صورة جديدة لأقاليم غريبة وحيوانات ونباتات غريبة وعادات عجيبة ومستكشفات تمت وراء البحار وفى أطباق السماء وفى أساليب الحياة وموادها ؛ فأقبلت العقول بسرعة على دراسة الآداب الكلاسيكية اليونانية وطبعها بعد أن طال العهد بدفنها ونسيان الناس لها ، فأخذت تداعب أفكار الناس بأحلام أفلاطون وبتقاليد عصر تفيأ ظلال الحرية والكرامة فى أكناف الحكم الجمهورى .

وقديماً أدخلت السيادة الرومانية القانون والنظام لأول مرة إلى ربوع أوربا الغربية

كما أن الكنيسة اللاتينية كانت صاحبة الفضل فى نشر لوائهما من جديد بها ؛ على أن حب الاستطلاع والقدرة على الابتكار والخلق كانا يخضعان لتنظيم يحدها ويقيدهما فى عهد روما الوثنية والمسيحية سواء بسواء . لقد أخذ عهد تسلط العقل اللاتينى يقترب عندئذ من نهايته . ذلك أن الأوربيين الآريين أخذوا ينفصلون فيما بين القرن الثالث عشر والسادس عشر عن التقاليد اللاتينية بفضل أثر الساميين والمغول المنبه للعقول ، وبفضل العثور من جديد على آداب اليونان الكلاسيكية ؛ انفصلوا عن تلك التقاليد وأخذوا يرقون الطريق ثانية إلى منزلة الصدارة الفكرية والمادية بين البشر جميعاً .

الفصل الخمسون

إصلاح الكنيسة اللاتينية

تأثرت الكنيسة اللاتينية ذاتها تأثراً هائلا بهذا البعث العقلي . لقد بترت منها أجزاء ولم ينج الجزء الذي بقي منها من يد التجديد الشامل .

أسلفنا القول كيف أوشكت الكنيسة على تولي الزعامة الاستبدادية للنصرانية بأكملها إبان القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، وكيف اضمحل بعد ذلك سلطانها على عقول الناس وشئونهم . ووصفنا كيف أدى كبرياؤها واضطهادها للناس ونظامها المركزي إلى تحامل النفوس عليها وانصراف حماسة الشعوب الدينية عنها ، وهي الحماسة التي كانت فيما سلف من الزمان عدتها ودعامتها ، وذكرنا كيف أثمر مكر فردريك الثاني وتشككه ثمارهما على صورة ما تجلى من الأمراء من عصيان لم يبرح يزداد وينمو .

انتشرت تعاليم ويكليف الإنجليزي في كل أرجاء أوربا . وحدث في ١٣٩٨ أن عالما تشيكيا هو چون هس ، ألقى بجامعة براغ مجموعة من المحاضرات حول تعاليم ويكليف. وسرعان ما انتشرت هذه الآراء حتى تجاوزت الطبقة المتعلمة ، وأثارت حماسة شعبية عظيمة . وتصادف أن انعقد بمدينة كونستانس بين ١٤١٤ ، ١٤١٨ مجلس للكنيسة بكامل هيئتها ليفصل في الصدع الأعظم . ودعى هس للمثول أمام ذلك المجلس بعد أن تلقى وعداً من الإمبراطور بالأمان في الذهاب والعودة ، ولكن قبض عليه وحوكم بتهمة الإلحاد وأحرق حياً (١٤١٥) . وبدلا من أن يؤدي ذلك التصرف إلى تهدئة الشعب البوهيمي إذا به يفضي إلى تمرد أتباع هس بتلك البلاد ، وإلى نشوب أول حرب من سلسلة متلاحقة من الحروب الدينية كانت فاتحة تمزق عالم النصرانية اللاتينية .وعندذلك دعا البابا مارتن الخامس إلى حرب صليبية لقمع ذلك العصيان ، وذلك البابا هو الذي انتخب خاصة بمجلس كونستانس ليكون رئيساً للمسيحية يوم أعيد توحيدها .

سيرت على هذا الشعب الصغير الباسل حملات صليبية عدتها خمس ، فباءت جميعاً بالفشل . لقد وجهت الكنيسة على بوهيميا في القرن الخامس عشر كل متشردي أوربا

وزعانفها المتعطلين ، مثلما سير الزعانف بالضبط فى القرن الثالث عشر على أتباع والدو. بيد أن أهالى بوهيميا التشيك كانوا على النقيض من أتباع والدو يؤمنون بالمقاومة المسلحة . ولم تكد الحملة الصليبية المسيرة على بوهيميا تسمع قعقعة عجلات أتباع هس وأناشيد جنودهم من بعيد ، حتى تبخرت وتسللت من ميدان القتال ؛ وبلغ من أمرها أنها لم تنتظر قط حتى تقاتل (معركة دومازليس ١٤٣١) . وانعقد بمدينة بال فى ١٤٣٦ مجلس جديد للكنيسة عقد صلحاً كيفما اتفق مع أتباع هس ، أزيلت بمقتضاه كثير من الاعتراضات الخاصة على تصرفات الكنيسة وعرفها .

وحدث فى القرن الخامس عشر وباء عظيم تولد عنه انهيار النظام الاجتماعى إلى درجة كبيرة فى كل أرجاء أوربا ؛ ولقى العامة من هذا الوباء عنتاوتعاسةشديدةوانتشر بينهم مفرط السخط والتذمر ، كما ثار الفلاحون على أصحاب الأملاك بكل من إنجلترة وفرنسا . وزادت خطورة ثورات الفلاحين هذه فى ألمانيا بعد الحرب مع أتباع هس وتقنعت بقناع دينى . وجاءت الطباعة فكانت مؤثراً قويا زاد فى ذلك التطور ؛ إذ إنه لما انتصف القرن الخامس عشر كان عمال الطباعة فى هولندة ومنطقة الرين يستخدمون حروفا قابلة للحركة والفك . ثم انتشر فن الطباعة فى إيطاليا وإنجلتره ، حيث كان كاكستون يعمل فى طبع الكتب بوستمنستر فى ١٤٧٧ .

وكانت النتيجة المباشرة لانتشار الطباعة تضاعف عدد نسخ الكتاب المقدس وانتشاره بين الناس بدرجة عظيمة ، وتيسير سبل ذيوع الجدل بين أفراد الشعب . لقد أصبح العالم الأوربى عالم قراء ، إلى حد ليس لأى مجتمع فى الماضى عهد بمثله : ومن سوء حظ الكنيسة أن إرواء عقول الناس عامة ، على هذه الصورة الفاجئة ، بالأفكار التى هى أكثر وضوحاً والمعلومات التى هى أقرب منالا ، حدث فى وقت غشيها فيه الارتباك والفرقة ، وأصبحت فى موقف لاتستطيع فيه أن تبذل دفاعاً فعال الأثر . وفى يوم كان كثير من الأمراء يبحثون عن وسيلة يضعفون بها قبضتها على الثروة الهائلة التى كانت تدعى امتلاكها فى بلادهم .

أما فى ألمانيا فإن الحملة على الكنيسة تجمعت حول شخصية راهب سابق يدعى مارتن لوثر (١٤٨٣ — ١٥٤٦) ، ظهر بمدينة ويتنبرج عام ١٥١٧ ، مثيرا بعض اعتراضات على أنواع شتى مما تمارسه الكنيسة من عرف ومذاهب تقليدية سلفية ، فراح

فى بدء الأمر يتجادل باللغة اللاتينية على طريقة علماء ذلك الزمان . ثم أقبل على السلاح الجديد سلاح الكلام المطبوع ، فاستعمله ونشر بذلك آراءه فى كل مكان باللغة الألمانية مخاطباً عامة الناس . وحاولت الكنيسة القضاء عليه كما قضت قبلا على هس . ولكن المطبعة غيرت أحوال الدنيا ، كما أن لوثر كان له بين أمراء الألمان عدد كبير من الأصدقاء ما بين مظهر لصداقته وكاتم لها ، فحالوا بينه وبين ورود ذلك المصير .

ومما يجمل ذكره عن ذلك العصر الذى تكاثرت فيه الأفكار وضعفت فيه العقائد ، أن كثيراً من حكامه كانوا يرون مصلحتهم فى فصم عرى الروابط الدينية التى تربط شعوبهم بروما ، فحاولوا أن يجعلوا من أنفسهم شخصياً رؤساء لعقيدة ذات طابع قومى أقوى . فأخذت كل من إنجلترة واسكتلندة والسويد والنرويج والدانمارك وشمال ألمانيا وبوهيميا تنفصل عن المجتمع الدينى الكاثوليكى الواحدة بعد الأخرى . ومنذ ذلك الحين لم تعد واحدة منها إلى حظيرته .

وبديهى أن أحداً من هؤلاء الأمراء على اختلاف أجناسهم لم يعن أدنى عناية بحرية رعاياه من الناحية الخلقية أو الذهنية ، وكل مافى الأمر أنهم استخدموا الشكوك الدينية وثورات شعوبهم ذريعة لتقوية أنفسهم ضد روما . على أنهم حاولوا أن يحافظوا على إحكام قبضتهم على الحركة الشعبية التماساً لكبحها ، بمجرد أن تم لهم ذلك الانفصال عن روما ، وإنشاء كنيسة قومية تحت هيمنة التاج . ولكن تعاليم يسوع تنطوى دائما على حيوية عجيبة ، فهى دعوة مباشرة للبر والصلاح ، وتقديم احترام الذات على كل ولاء وكل خضوع — علمانيا كان ذلك أو دينيا . فلم يحدث مرة أن انفصلت كنيسة واحدة من كنائس الأمراء تلك دون أن ينفصل معها أيضاً عدد من الطوائف الفرعية التى لاتعترف بتدخل أمير ولا بابا بين الرجل وربه . فقد ظهرت فى إنجلترة واسكتلندة مثلا عدة طوائف استمسكت بالكتاب المقدس بشدة ، متخذة منه هاديها الوحيد فى الحياة والعقيدة ، ورفضت كل تنظيمات كنيسة الدولة . وقد سمى هؤلاء المخالفون فى إنجلترة باسم المنشقين (Non Conformists) ، وقد لعبوا دوراً كبيراً جداً فى سياسة تلك البلاد فى أثناء القرن السابع عشر والثامن عشر ، وبلغ من قوة اعتراضهم فى إنجلترة على أن يكون رئيس الكنيسة أميراً ، أنهم قطعوا رأس الملك شارل الأول (١٦٤٩) ، ثم أقاموا بها حكومة جمهوريه من المنشقين دامت إحد عشر عاما حافلة بالرخاء والرغد .

وانفصال هذا الشطر الكبير من أوربا الشمالية عن عالم المسيحية اللاتينية هو ما يعرف على وجه الإجمال باسم « الإصلاح الدينى » . على أن وقع هذه الخسائر الجسيمة ذاتها وشدة قوتها أحدث فى الكنيسة الكاثوليكية تغييرات لاتقل فى عمقها عنها فى أى مكان آخر . فأعيد تنظيم الكنيسة من جديد وتغلغل روح جديد فى حياتها، وكان من أبرز العاملين على هـــذا البعث الجديد جندى إسبانى شاب يدعى أينيجو لويزدى ريكالدى ، وهو الذى يعرف فى العالم باسم القديس إغناطيوس دى ليولا . أصبح ذلك الفتى قسيساً فى (١٥٣٨) بعد أن بدأ أمره بدءاً (رومانسياً) إلى حدما ، ثم سمح له بأن يؤسس جمعية يسوع ، ومنذ ذلك الحين أصبحت جمعية اليسوعيين من أكبر جماعات التعليم والتبشير التى ظهرت فى العالم . وبلغ نشاطها أن حملت لواء المسيحية إلى بلاد الهند والصين وأمريكا . وكان لها الفضل الأكبر فى إيقاف الانحلال السريع الذى انتاب الكنيسة الكاثوليكية . كما أنها رفعت المستوى العلمى فى كل أرجاء العالم الكاثوليكى ؛ وبفضل منافستها نشطت أوربا البروتستنتية لبذل الجهود الكبيرة فى التعليم مجاراة لها . لذا فإن الكنيسة الكاثوليكية القوية الشديدة المراس فى العهد الحاضر ما هى إلا الثمرة اليانعة لهذا الانتعاش الجيزويتى .

الفصل الحادى والخمسون

الإمبراطور شارل الخامس

وصلت الإمبراطورية الرومانية المقدسة إلى مكانة رفيعة الشأن فى عهد الإمبراطور شارل الخامس ، الذى كان من أعجب من شهدتهم أوربا من الملوك . وقد ظل ردحاً من الزمان يبدو لأعين الناس أعظم ملك تولى الملك منذ عهد شرلمان .

على أن عظمته لم تكن من صنع يديه ، بل هى إلى حد كبير ثمرة جهود جده الإمبراطور مكسمليان (١٤٦٩ — ١٥١٩) . ولا يخفى أن بعض الأسر الملكية تبلغ حظها من السلطان العالى عن طريق القتال ، وأن بعضها الآخر يبلغه بالمؤامرة والتدبير. أما آل هابسبرج فالتمسوا العظمة العالية عن طريق المصاهرة والزواج .

وقد ابتدأ مكسمليان حياته عاهلا للنمسا وإستيريا والجزء من الألزاس ومناطق أخرى ، وهى ميراثه الأصلى عن آل هابسبرج ؛ فتزوج ملكة الأراضى المنخفضة وبرغنديا (ولا يكاد اسم زوجته يعنينا هنا فى قليل أو كثير) .

على أن معظم برغنديا ما لبث أن أفلت من يده بوفاة زوجته الأولى ، ولكن بقيت له الأراضى المنخفضة . ثم حاول أن يتزوج أميرة بريتانى بفرنسا فلم يوفق ،وتولى عرش الإمبراطورية بعد أبيه فريدريك الثالث عام ١٤٩٣ ، ثم تزوج دوقة ميلانو أوقل تزوج دوقيها . وأخيراً زوج ابنه من ابنة فرديناند وإزابيلا الضعيفة العقل وهما نصيرا كولمبس اللذان لم يحكما وحسب بلاد إسبانيا الحديثة التوحيد وسردينيا والصقليتين[1]، بل حكما أيضاً أمريكا كلها غرب بلاد البرازيل . وهكذا تم لشرلكان[2] حفيده ميراث معظم القارة الأمريكية ، وقد يتراوح بين ثلث مالم يقع من أوربا ونصفها بأيدى الترك . وانتقل إليه ملك الأراضى المنخفضة فى ١٥٠٦ فلما توفى جده فرديناند

---

(١) ويقصد بهذا جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا . [المترجم]

(٢) شرلكان : هو شارل الخامس نفسه . [المترجم]

فى ١٥١٦ أصبح بالفعل ملكا على الدولة الإسبانية المترامية نظراً لبلاهة أمه وضعف عقلها ، حتى إذا مات جده مكسميليان فى ١٥١٩ ، انتخب عام ١٥٢٠ إمبراطوراً وهو لايزال فى العشرين ، سن نعومة الأظفار نسبياً .

كان شاباً أشقر لاتبدو على وجهه مخايل النجابة ، فشفته العليا غليظة وذقنه طويل قبيح . ونظر حوله فإذا عالمه حافل بالشخصيات الفتية القوية . فإن عصره كان عصر ملوك شبان أذكياء ، منهم فرنسيس الأول الذى تولى عرش فرنسا فى ١٥١٥ وعمره إحدى وعشرون سنة ، ومنهم هنرى الثامن الذى ارتقى عرش إنجلترة عام ١٥٠٩ فى سن الثامنة عشرة . وهو عصر بابر ببلاد الهند (١٥٢٦ — ١٥٣٠) ، وسليمان القانونى بتركيا (١٥٢٠) ، وكلاهما ملك عظيم مقتدر ، هذا إلى أن البابا ليون العاشر (١٥١٣) كان كذلك رجلا ممتازاً جداً . وحاول البابا بمعاضدة فرنسيس الأول أن يحول دون انتخاب شرلكان لعرش الإمبراطورية لما خشياه من تركز ذلك القدر الهائل من السلطان فى يد رجل واحد . ثم تقدم كل من فرنسيس الأول وهنرى الثامن يعرضان نفسيهما على ناخبى الإمبراطور . ولكن انتخاب الأباطرة من آل هابسبرج كان قد أصبح آنذاك تقليدا مديد الأجل وطيد الأركان (منذ ١٢٧٣) ونشطت الرشوة حتى كفلت لشرلكان النجاح فى الانتخاب .

ابتدأ الملك الشاب حكمه ألعوبة فاخرة رفيعة فى أيدى وزرائه . ثم شرع بعد ذلك يبرز شخصيته على مهل ويمسك بقيادة الأمور . وما لبث أن بدأ يدرك ما يحيط بمركزه السامى من معقدات حافلة بالأخطار . وأحس أنه وإن كان مركزا فاخراً فإنه ضعيف مضطرب كذلك .

وأول ما واجهه منذ ساعة توليه الحكم الموقف الذى أوجدته الاضطرابات الناشئة عن دعوة لوثر بألمانيا . وكانت معارضة البابا فى انتخابه إمبراطوراً من الأسباب التى دعته إلى الانحياز إلى دعاة الإصلاح الدينى . ولكنه نشأ فى إسبانيا بلاد الكاثوليكية المتعصبة ، ومن ثم قرر أن يناصب لوثر العداء . ومن هنا بدأ النزاع بينه وبين الأمراء البروتستنت وخاصة منتخب سكسونيا ، وعند ذلك وجد نفسه يواجه صدعا قد أخذ يتسع ويتهدد بتمزيق الوحدة البالية للمسيحية إلى معسكرين متناحرين . فبذل فى سبيل رأب ذلك الصدع جهودا مضنية شريفة لم يكتب لها التوفيق . وقام الفلاحون فى ألمانيا

بثورة متسعة الأطراف ، اختلطت بالفتن والاضطرابات الدينية والسياسية العامة . ومما زادالأمر تعقيداً اجتماع هذه الفتن الداخلية على رأس الإمبراطور مع هجمات الأعداءعلى إمبراطوريته من الشرق والغرب جميعاً . وكان جارشرلكان فى ناحية الغرب هو فرنسيس الأول منافسه الجرىء الطموح . ونازعه من الشرق الأتراك الذين كانوا يتقدمون بلا انقطاع ، والذين استولوا عند ذاك على بلاد المجر ، وتحالفوا مع فرنسيس وأخذوا يطالبون بما لهم على دولة النمسا وممتلكاتها من متأخرات الجزية ، أجل إن أموال إسبانيا وجيوشها كانت رهن إشارة من شارل ، ولكن الحصول على أية مساعدة مالية فعالة من ألمانيا كان من أعسر الأمور . وزادت الأزمات المالية متاعبه الاجتماعية والسياسية تعقيدا . فاضطرته ضائقته إلى الاستدانة التى جلبت عليه الخراب والإفلاس .

على أن شارل وفق على العموم بتحالفه مع هنرى الثامن إلى التغلب على فرنسيس الأول وحلفائه الأتراك . وكان ميدان القتال الرئيسى بينهما هو شمال إيطاليا ؛ أجل إن قيادة الطرفين كانت تتسم بالبلادة والغباء ، كما أن حركات التقدم والتأخر التى كانا يقومان بها اعتمدت قبل كل شىء على وصول الإمدادات . ثم غزا الجيش الألمانى فرنسا وأخفق دون الاستيلاء على مرسيليا ، ثم تراجع إلى إيطاليا ، حيث ضاعت ميلانو من يده ، وحوصر بمدينة بافيا . وقد ألقى فرنسيس الأول حول بافيا حصاراً طويلا باء بالفشل ، ثم حاصرته قوات ألمانية جديدة وهزمت جيوشه وجرحته وأخذته أسيراً وعند ذلك انقلب البابا وهنرى الثامن على شرلكان لما كان يساورهما دائماً من خوف من زيادة قوته إلى حد مفرط ، وماعتمت القوات الألمانية المقاتلة فى ميلانو بقيادة كونستابل بوربون وقد تأخرت أعطياتها ، أن أرغمت قائدها على الزحف بها على روما ، وهناك فتحوا المدينة عنوة وانتهبوها فى (١٥٢٧) .

ولجأ البابا إلى قلعة القديس أنجيلو ، على حين واصل المغيرون النهب والقتل فى المدينة ، ثم استطاع فى النهاية أن يشترى رحيل القوات الألمانية بأن دفع لها أربعمائة ألف بندق[١] ، واستمرت هذه الحروب المضطربة عشر سنين لقيت منها أوربا الفقر والإفلاس ، حتى تراءى الأمر فى النهاية أن وجد الإمبراطور نفسه مظفرا فى إيطاليا ، ومانشب البابا أن توجه فى ١٥٣٠ بمدينة بولونيا ، فكان آخر من توج من أباطرة الألمان على هذا النحو .

---

(١) البندق (Dueats) هو عملة ذهبية مصدرها البندقية .

وفى نفس ذلك الوقت كان الأتراك يجتاحون بلاد المجر اجتياحا . بعد أن هزموا ملك المجر وقتلوه فى ١٥٢٦ ، ثم استولوا على بودابست وأوشكت فيينا أن تقع فى قبضة سليمان القانونى فى ١٥٢٩ . واغتم الإمبراطور غما عظيما لهذا التقدم ، وبذل كل مافى مستطاعه لرد الأتراك عن بلاده ، ولكنه لقى أعظم العسر فى جمع كلمة أمراء الألمان على الرغم من وجود ذلك العدو القوى العاتى على أبوابهم جميعاً . وظل فرنسيس الأول عاجزاً عن القتال ردحاً من الزمان ، ثم نهض للحرب مرة ثانية ؛ على أن شارل ما لبث أن تمكن من استمالة منافسه إليه (١٥٣٨) وحمله على التزام جانب المودة إزاءه بعد أن أعمل فى جنوب فرنسا يد النهب والتخريب . وعندئذ عقد فرنسيس مع شرلكان محالفة ضد الترك .

ولكن الأمراء البروتستنت وهم أمراء الألمان الذين عقدوا العزم على الانفصال عن روما ، كانوا قد كونوا وقتذاك ضد الإمبراطور حلفا ، هو حلف الشملكلد Schmalkaldic فاضطر شارل أن يوجه همه إلى الكفاح الداخلى الذى أخذت عناصره تتجمع فى ألمانيا ، بدلا من أن يقوم بحملة كبرى ليسترد بلاد المجر من قبضة المسلمين ويضمها إلى حظيرة المسيحية . ولكنه لم يعمر طويلا ، فلم يشهد لذلك من هذا الكفاح إلا أول حرب نشبت فيه . وقد اتصف ذلك الكفاح بأنه مناوشات دامية خلت من كل حكمة وعقل ، اقتتل فيها الأمراء على السيادة . وكانت تندلع نيرانها أحياناً فتصبح حربا عنيفة تأتى على الحرث والنسل وتجر وراءها الخراب ، أو تهبط فإذا هى مؤامرات ومؤامرات دبلوماسية ، لقد كانت ألمانيا كجراب ملىء بالأفاعى من الأمراء ، الذين ظلت سياساتهم تتلوى فى ذلك الجراب وتنفح إلى مالانهاية حتى تقدم الزمن بالقرن التاسع عشر ، وما زالت هذه الدبلوماسيات تعمل فى أوربا الوسطى تدميرا وتخريباً مرة فى إثر أخرى .

ويلوح أن الإمبراطور لم يدرك قط العوامل الحقيقية التى كانت تعمل عملها فى تلك المتاعب التى أخذت تتجمع على رأسه . لقد كان بالنسبة لعصره ومركزه رجلا فاضلا إلى أقصى حد ، والظاهر أنه توهم أن الخلافات الدينية التى كانت تمزق أوربا إلى أشلاء متناحرة إنما هى خلافات دينية حقة ، فأكثر من عقد مجالس الدايت[١] والمجامع الكنسية محاولا بذلك التوفيق والصلح دون جدوى . وكم من مرة أعيد البحث فى قانون الإيمان الكنسى

---

(١) الدايت : مجلس أو مؤتمر يجتمع فيه أمراء وكبراء الدولة الرومانية (الألمانية) المقدسة . [المترجم]

وفى مسألة الاعتراف . ودارس التاريخ الألمانى مضطر على الرغم منه أن يكدح التماسا لبحث تفاصيل صلح نورمبرج الدينى. والتسوية التى أقرها دايت راتسبون وصلح أوجزبرج وما إليها . وهى أمور لاتذكر هنا إلا كتفاصيل لحياة ذلك الإمبراطور الباذخ ، تلك الحياة التعسة الزاخرة بالهموم. والواقع الذى لاشك فيه أن واحدا من هذه الكثرة العديدة من الأمراء والحكام الأوربيين لايبدو عليه أنه كان يعمل بإخلاص . وماكان الاضطراب الدينى الذى عم أرجاء العالم كافة ولا رغبة العامة فى الحق والصدق والبر الاجتماعى ، ولا انتشار المعرفة فى ذلك ، ماكانت هذه الأشياء جميعا إلا مجرد ذرائع للخلاف والمعاكسة اتخذتها أخيلة الأمراء ودبلوماسياتهم ، مثال ذلك أن هنرى الثامن ملك إنجلترا الذى بدأ حياته العملية بتأليف كتاب يندد فيه بالكفر والزندقة ، والذى كافأه البابا بالإنعام عليه بلقب « حامى العقيدة » قد انضم إلى زمرة الأمراء البروتستنت فى ١٥٣٠ ، لرغبته فى الطلاق من زوجته الأولى إيثاراً منه لفتاة صغيرة تسمى آن بولين ، ولأنه شاء أيضا أن ينتهب ثروة الكنيسة الإنجليزية الهائلة ، ومن قبله كانت السويد والدانمرك والنرويج قد انضوت تحت لواء البروتستنتية .

بدأت الحروب الدينية بألمانيا فى ١٥٤٦ بعد وفاة مارتن لوثر ببضعة أشهر . ولسنا فى حاجة إلى الاهتمام بتفاصيل القتال ، وبحسبك أن تعلم أن الجيش السكسونى البروتستنتى لقى هزيمة منكرة عند لوشاو ، وأن فيليب ، أمير هيس، آخر وأكبر خصم للامبراطور قبض عليه وأخذ أسيرا بطريقة تدانى نقض العهد ، واشترى رحيل الترك لقاء وعد بدفع جزية سنوية . ثم إن فرنسيس مات فى ١٥٤٧ فأراح الإمبراطور راحة عظيمة . لذا حصل شارل فى ١٥٤٧ على ضرب من التسوية لأموره ، وأخذ يبذل قصارى جهده لإقرار سلم فى عالم الإسلام فيه . فما وافت سنة ١٥٥٢ حتى اندلع لهيب الحرب فى كل أرجاء ألمانيا، ولم ينج الإمبراطور من الأسر فى إينزبروك إلا بمبادرته بالفرار السريع منها ، ثم جاءت معاهدة بساو فأحدثت فى سنة ١٥٥٢ هدوءا آخر غير ثابت الأركان .

تلك هى المعالم الموجزة لسياسة الإمبراطورية فى مدى اثنين وثلاثين عاما . ولايفوتنا أن نذكر أن عقل الأوربيين كان متركزا تماما حول فكرة الكفاح من أجل إحراز قصب السيادة فى أوربا . وذلك أن أحدا ممن عاشوا فى ذلك الزمان ــ لا الترك منهم ولا الفرنسيون ولا الإنجليز ولا الألمان ــ لم يحس حتى ذلك الحين بأى اهتمام سياسى بقارة أمريكا العظيمة ، ولم يدرك أى مغزى للطرق البحرية الجديدة المؤدية إلى آسيا . ومع ذلك

فإن أمريكا كانت عند ذلك مسرحا لأحداث عظيمة ؛ فإن كورتيز انطلق بحفنة من الرجال وفتح باسم إسبانيا إمبراطورية المكسيك النيوليثية[1] العظيمة ، كما أن بيزارو عبر مضيق بنما (١٥٣٠) ، وأخضع قطراً آخر من أقطار العجائب هو بيرو . ولكن هذه الأحداث لم يكن لها حتى ذلك الحين من معنى فى أوربا إلا تدفق الفضة إلى الخزانة الإسبانية تدفقاً عاد عليها بالنفع الكبير ونبه الأذهان إليها .

ولم يبدأ شارل فى إظهار أصالته الذهنية المميزة إلا بعد عقد معاهدة بساو . إذ اعتراه عند ذاك السأم من عظمته كإمبراطور وزالت عن عينه غشاوة الانخداع بها . كما ألم به شعور قوى بأن كل هذه المنافسات الأوربية عبث لايطاق . ولم تكن بنيته سليمة جداً فى أى يوم من أيام حياته إذ كان بفطرته ميالا للخمول والكسل، كما كان يقاسى من النقرس أشد الآلام . فتنازل عن عرشه ؛ ونقل كل سلطانه الملكية بألمانيا إلى أخيه فرديناند ، كما عهد بشئون إسبانيا والأراضى المنخفضة لابنه فيليب ثم انسحب يظله جو من الجلال والامتعاض إلى دير بمدينة يوست ، تحيط به أحراش البلوط والقسطل فى التلال الواقعة شمال وادى التاجة . وهناك قضى نحبه فى ١٥٥٨ .

ولقد أكثر الكتاب من الحديث عن تقاعده هذا بلهجة عاطفية ، وعدوه تخليا عن العالم من ذلك الجبار المكدود الجليل الذى برم بهذه الدنيا والتمس السلام فى أكناف الله عن طريق العزلة الصارمة ، ولكن انسحابه من الدنيا لم يتميز بعزلة ولا صرامة ، ذلك أنه صحب معه حوالى مائة وخمسين تابعاً ، وكان مقره يحوى كل ما للبلاط من فخامة وملذات مع انتفاء متاعب البلاط ومشاغله ، كما أن فيليب الثانى كان من البر بوالده بحيث كانت كل نصيحة منه إليه أمراً واجب النفاذ .

ولئن فقد شارل كان كل اهتمام حق بإدارة شئون أوربا ، فلقد كان مرد ذلك دوافع أخرى مباشرة أكثر . يقول بريسكوت :

« لاتكاد رسالة من الرسائل اليومية المتبادلة بين كويكسادا أو جازتللو ، وبين الوزير المقيم بمدينة بلد الوليد ، إلا تدور بدرجة ماحول طعام الإمبراطور أو مرضه .

---

(١) النيولثية المنطبعة بطابع العصر الحجرى الحديث [المترجم]

إذ يلوح الواحد منهما كأنما يعقب الآخر بصورة طبيعية كأنه تعليق مستمر عليه . ومن النادر أن تكون مثل هذه الموضوعات مدار المراسلات مع مصلحة من مصالح الحكومة. ولا بد أن الوزير كان يجد عسراً كبيراً فى الاحتفاظ بوقاره فى أثناء تلاوته لرسائل تختلط فيها السياسة والبطنة مثل ذلك الاختلاط العجيب. وتلقى الرسول القادم من بلد الوليد إلى لشبونة أمراً بأن ينحرف عن طريقة السوى ليمر على جاراندبلا ، ويحضر للمائدة الملكية مايلزمها من أغذية . وكان عليه أن يحضر السمك يوم الخميس من كل أسبوع لتقديمه فى يوم الصيام الذى يليه . فإن شارل كان يرى أن سمك النقط الموجود بالمنطقة التى يعيش بها صغيرا جدا ، ولذا رحب أن يرسل إليه من بلد الوليد سمك من نفس النوع أكبر حجما . وكانت الأسماك بجميع أنواعها تلذ له وتعجبه ، وكل شىء يدانى السمك فى طبيعته أو عادته . فثعابين الماء والضفادع وأم الخلول تحتل مكاناً عالياً فى قائمة الأطعمة الملكية . كما أن الأسماك المحفوظة ولا سيما الأنشوجة كانت تلقى منه حظوة عظيمة ؛ وكم أسف العاهل لأنه لم يحضر من تلك الأنشوجة قدراً كبيرا من الأراضى المنخفضة ، وإنه لمولع بوجه خاص بفطيرة ثعبان الماء ... »(١) .

وقد حصل شارل فى ١٥٥٤ على مرسوم من البابا يوليوس الثالث يبيح له التحلة من الصوم ويبيح له الإفطار فى الصباح الباكر وإن كان على نية تناول الأسرار المقدسة .

أكل وتطبيب ....!! إن ذلك رجوع إلى الأشياء البدائية الأولى، لم يتعود ذلك الملك قط القراءة ، ولكنه كان يصغى إلى من يقرأ عليه فى أثناء تناوله الطعام جريا على عادة شرلمان ، ثم يعلق على ما يسمع « بتعليقات حلوة سماوية » ـ كما عبر عن ذلك أحد الرواة .

وكثيرا ما كان يسلى نفسه باللعب الميكانيكية ، أو بالإصغاء إلى الموسيقى أو العظات الدينية ، أو النظر فى شئون الإمبراطورية التى لم تفتأ تتقاطر عليه . وكانت وفاة الإمبراطورة ، التى اشتد بها تعلقه ، سبباً فى تحول عقله نحو الدين ، الذى اتخذ عنده صورة التدقيق الشديد والاهتمام بالطقوس ؛ وقد دأب فى كل يوم جمعة من أيام

---

(١) prescotts Appendix Robertson's History of Charles V.

الصوم الكبير على جلد نفسه هو وبقية الرهبان عن طيب خاطر جلدا كان يبلغ من الشدة أن تدمى له جلودهم .

وقد دفعت هذه الرياضات هى والنقرس بشرلكان إلى حال من التعصب كانت اعتبارات السياسة تكبحها حتى تلك الساعة ، فأثار حنقه ظهور التعاليم البروتستنتية بمدينة بلد الوليد القريبة . وكتب يقول : « أبلغ عنى القاضى الأعظم لمحكمة التفتيش أن يكون بمقر عمله هو ورجال مجلسه ، وأن يستأصلوا شأفة الشر قبل أن يستفحل » ...

وإنه ليبدى الشك فيما إذا لم يكن من الأنسب فى حالة مثل هذا الأمر الكريه الاستغناء عن نظام القضاء العادى ، وعدم أخذ المجرمين بأدنى شفقة « خشية أن يعطى المجرمون ، إذا عفى عنهم فرصة العود إلى جريمتهم . » ثم يطرى الإمبراطور على سبيل المثال الطريقة التى اتبعها بالأراضى المنخفضة ، « حيث أحرق حيا كل من أصر على عناده ، وقطع رأس كل من سمح له بتقديم التوبة » .

ويكاد انشغاله بالجنازات يكون رمزاً لمركزه فى التاريخ وكأن ضربا من الإلهام أوحى إليه أن شيئاً عظيما بأوربا قد قضى نحبه ، وأنه بحاجة ماسة إلى من يدفنه ، وأن الحاجة إلى كتابة لفظة « انتهى » ، قد أزفت وزيادة . فلم يقتصر على حضور كل جنازة واقعية تقام فى يوست ، بل كان يقيم صلاة الجنازة على الموتى الغائبين ، وأقام جنازا لزوجته يوم ذكراها السنوية ، ثم أقام فى النهاية جنازته هو : « جللت جدران الكنيسة بالسواد ، لذا لم يكن نور مئات الشموع التى أوقدت كافيا لتبديد سدف الظلام التى رانت على المكان، وتجمع الرهبان فى ثياب الدير ومعهم حاشية الإمبراطور جميعاً، وقد ارتدت ثياب الحداد القاتمة ، حول نعش ضخم قد جلل هو أيضاً بالسواد ورفع فى وسط الكنيسة، وعند ذلك أديت صلاة دفن الموتى ،وتصاعدت الصلوات للروح الراحل بين عويل الرهبان المحزن ، داعية لها بأن تلقى فى الآخرة منازل الأبرار . وذابت نفوس الأتباع المحزونة دموعا وأسى ، إذ تصورت لخواطرهم صورة وفاة مولاهم ، أو لعلهم مستهم الرحمة لهذا المظهر المحزن من مظاهر الضعف . وتغشى شارل برداء أسود وحمل فى يده شمعة موقدة ، وسار بها بين رجال حاشيته ، ليشهد بنفسه جنازته ، وانتهى الحفل الأسيف بوضعه الشمعة بيد القسيس رمزا لتسليمه . روحه للقوى القاهر » .

توفى الإمبراطور بعد هذا الحفل الساخر بأربعة أشهر . وانطوت بموته العظمة القصيرة الأجل التى حظيت بها الإمبراطورية الرومانية المقدسة . فإن دولته تقسمت قبل موته بين أخيه وابنه . حقا إن الإمبراطورية الرومانية المقدسة لم تبرح تكافح الأقدار إلى أيام نابليون الأول ، ولكنها كانت أشبه بعليل يعانى سكرات الموت . ولا تزال تقاليدها البالية الرميم تسمم الجو السياسى إلى يومنا هذا .

الفصل الثاني والخمسون

عصر تجارب سياسية
وملكيات عظمى وبرلمانات وجمهوريات بأوربا

تحطمت الكنيسة اللاتينية ، وهوت الدولة الرومانية المقدسة فى دركات الانحلال المفرط ، وأصبح تاريخ أوربا منذ مستهل القرن السادس عشر عبارة عن قصة شعوب تلمس فى دامس الظلام طريقها بحثاً وراء نوع جديد من أنواع الحكومة ، يطابق الظروف الجديدة التى أخذت تنشأ . وقد ظلت التغيرات فى العصور الخوالى وفى آماد طويلة من الزمان تمس الأسر المالكة ، بل حق الجنس الحاكم واللغة الغالبة دون غيرها. ولكن شكل الحكومة القائم على الملك والمعبد ظل واضح الثبات ، كما أن طريقة العيش العادية ظلت أثبت وأرسخ قدما . على أن تغيرات الأسر المالكة فى أوربا الحديثة هذه ، أى منذ القرن السادس عشر لم تعد تهم أحداً فى قليل ولا كثير . وأصبح وجه اهتمام التاريخ منصباً على تلك الأنواع الكثيرة المتزايدة العدد من التجارب التى تجرى فى حقول التنظيم السياسى والاجتماعى .

والتاريخ السياسى للعالم منذ القرن السادس عشر كان كما أسلفنا جهداً لاشعوريا إلى حد كبير ، أنفقته الإنسانية رغبة منها فى تكييف أساليبها السياسية والاجتماعية وفق ظروف جديدة معينة نشأت فى العالم منذ ذلك الحين ، وكانت تخالط جهود التكيف حقيقة لا شك فيها ، هى أن الظروف نفسها كانت تتغير بسرعة مطردة الازدياد ، كما أن التكيف ظل يزداد فى كل آن توانياً وتخلفاً عن الظروف المتغيرة ، خاصة وأنه كان فى الغالب تكيفاً لاشعوريا يحدث فى جميع الأحوال تقريباً عن غير رغبة من الناس (ذلك أن الإنسان فى جملته يكره التغير الإرادى) . ولذا فإن تاريخ الإنسانية يصبح منذ القرن السادس عشر إلى اليوم قصة نظم سياسية واجتماعية غير صالحة لما خلقت له مثيرة للقلق والكدر ، كما يصبح قصة إدراك الناس على كره للحاجة إلى تحديد أوضاع المجتمعات البشرية تحديدا واعيا عمليا لمواجهة الحاجات والإمكانيات التى لا عهد لجميع الخبرات السابقة للحياة بها .

فما هذه التغيرات التى اعترت ظروف الحياة البشرية ، والتى أفسدت ذلك الاتزان الذى كان يخيم على الإمبراطورية والكاهن والفلاح والتاجر ، مع إيقاظها بين الفينة والفينة بسبب غزوات البرابرة ، التى عرضت أحوال الناس فى العالم القديم لنوع من الموجات المتتابعةالتى دامت أكثر من مائة قرن ؟.

لا شك أن هذه التغيرات منوعة كثيرة الجوانب ، وما ذلك إلا لأن الشئون الإنسانية معقدة إلى أقصى حد، ولكن الظاهر أن جميع التغيرات الرئيسية تدور جميعا حول سبب واحد ، هو نمو وامتداد المعرفة بطبيعة الأشياء ، تلك المعرفة التى بدأت أولا وقبل كل شىء بين جماعات صغيرة من الأذكياء ــ وانتشرت ببطء فى البداية ، ثم بسرعة عظيمة جداً فى القرون الخمسة الأخيرة ــ بين جماعات متكاثرة ونسب متزايدة من مجموع السكان عامة .

على أن حياة الناس تغيرت بدورها تغيراً عظيما يرجع إلى تغير حدث فى روح الحياة الإنسانية . وسار هذا التغير جنبا إلى جنب مع زيادة المعرفة واتساع مداها ، كما أنه متصل بها اتصالا خفيا دقيقا . وزاد جنوح الناس إلى النظر بعين النفور وعدم الرضا إلى إقامة حياة الفرد على الرغبات والشهوات الأولية وعلى إشباع تلك الرغبات ، كما زاد ميلهم إلى التماس إقامة العلاقات مع حياة أشمل هى حياة الناس كافة وتقديم الخدمات لها ومشاركتها فى كل شئونها . تلك هى الخصيصة العامة التى تشترك فيها الديانات العظمى جميعا التى انتشرت فى كافة أرجاء العالم فى أثناء النيف والعشرين قرنا الأخيرة من حياة البشرية سواء فى ذلك البوذية والمسيحية والإسلام ، فإنها جعلت هدفها روح الإنسان بطريقة لم تتبعها الديانات القديمة . فهى قوى تختلف تماما فى طبيعتها ومفعولها عن ديانات القربان الدموى الفتيشية القديمة بكاهنها ومعبدها ، التى عدلتها من ناحية ، وحلت محلها من ناحية أخرى . فأثارت فى الفرد بالتدريج الشعور باحترامه لنفسه وشعوره بالمشاركة والمسئولية فى كل الشئون البشرية العامة مما لم يسبق له مثيل بين أناس الحضارات الحالية .

وكان أول تغير جسيم ألم بأحوال الحياة السياسية والاجتماعية تبسيط الكتابة فى الحضارات القديمة واتساع مدى استخدامها وهو أمر جعل قيام إمبراطوريات أكبر حجما ونشوء تفاهم سياسى أوسع مجالا ، شيئا ميسوراً بل أمراً لا بد منه . وجاءت حركة

التقدم الثانية حين استخدم الحصان ، ومن بعــده الجمل كوسيلة للمواصلات ، وحين استعملت المركبة ذات العجلات ، وحين مدت الطرق وزادت الـكفاية العسكرية كنتيجة لاستكشاف الحديد الأرضى . ثم حلت فى أعقاب ذلك الاضطرابات الاقتصادية الناجمة عن اختراع النقود المسكوكة ، وعن تغير طبيعة الديون والملـكية والتجارة نتيجة لظهور هذا التقليد النافع والضار معا ، فزادت الإمبراطوريات سعة ومجالا ، ونمت أفـكار الناس بالمثل نموا يواجه هذه الأشياء الجديدة . ثم آن أوان اختفاء الآلهة المحلية ، وجاء بعده عهد إدماج الآلهة (الثيوكرازيا) فعهد تعاليم الديانات العالية الـكبرى . وأقبلت أيضا تباشير التاريخ والجغرافيا المعقولة المدونة ، وإدراك الإنسان جهله المطبق لأول مرة ، وأول بحث منظم فى سبيل المعرفة .

لقد انقطع إلى حين من الدهر حبل الطريقة العلمية الذى بدأ ببلاد الإغريق والإسكندرية تلك البداية الرائعة . ذلك أن النظام السياسى والاجتماعى لقى أعظم الضر والعنت من جراء غارات البرابرة التيوتون ، وزحف الشعوب المغولية نحو الغرب وأدوار الإصلاحات الدينية العنيفة والأوبئة الجائحة . حتى إذا انفضت الحضارة عنها ثانية غبار تلك المرحلة القاسية من الصراع والاضطراب ، إذا بالرق لم يعد أساسا للحياة الاقتصادية ، وإذا بأول مصانع الورق تتخذ من المطبوعات وسيلة جديدة للاحاطة الجماعية وللتعاون الاجتماعى . ولم يلبث البحث عن المعرفة : العملية والعلمية المنظمة ، أن عاد سيرته الأولى بالتدريج وعند المناسبات .

ثم ظهرت ابتداء من القرن السادس عشر فصاعداً مجموعة متزايدة العدد من المستحدثات والمخترعات أثرت فيما بين الناس من تواصل وتفاعل ، وكانت نتاجا ثانويا للتفـكير المنظم لا مفر منه وكانت كل هذه المستحدثات تنزع إلى توسيع مجال العمل والنشاط وزيادة المنافع أو الأضرار المتبادلة ، وإلى المزيد من التعاون . كما أن سرعة مجيئها لم تزل فى ازدياد يوما فى إثر يوم . ولم تـكن عقول الناس مهيأة لشىء من ذلك القبيل ، كما أن المؤرخ لا يجد إلى يوم حلول الـكارثة الـكبرى فى أوائل القرن العشرين وتنشيطها للأذهان — إلا أقل القليل يحدثك به عن أية محاولات مصممة محكمة لمواجهة الظروف الجديدة التى كان يخلقها ذلك التدفق الجديد للمخترعات . وكأنى بتاريخ الإنسانية فى أثناء القرون الأربعة الأخيرة أشبه شىء بقصة نائم حبيس يتحرك فى ثقل وتململ بينما تندلع النيران فى السجن الذى يؤويه ويقيد حريته ، دون أن يستيقظ ، بل

تدخل طقطقة النار ودفؤها فى أضغاث أحلام عتيقة لا تتناسب والمقام ـ أشبه بهذا كله منه بحال رجل فى يقظة شعورية يحس بالخطر المحدق والفرصة الدنية القطوف .

والتاريخ يسجل قصة المجتمعات لا حياة الأفراد ، لذا لم يكن بد من أن تكون معظم المخترعات التى تظهر فى صفحات السجل التاريخى مستحدثات لها أثر فيما بين الناس من مواصلات . وأهم ما ينبغى علينا أن نلاحظ ظهوره من أشياء جديدة فى أثناء القرن السادس عشر ظهور الورق المطبوع والسفينة الشراعية القوية القادرة على عبور المحيط والتى تستعمل الاختراع الجديد المسمى بالبوصلة البحرية . أما الاختراع الأول فإنه نشر التعليم وجعله رخيصا بل أحدث فيه انقلابا تاما ، كما عاد بنفس الفوائد على إذاعة الأخبار وعلى المناقشات ، وعلى عمليات النشاط السياسى الجوهرية . وأما الاختراع الثانى فإنه حول الكرة الأرضية إلى قطعة واحدة متماسكة. ولا يقل عن هذين الأمرين فى الأهمية زيادة استخدام المدافع والبارود التى نقلها المغول إلى الغرب لأول مرة فى القرن الثالث عشر وإدخال التحسينات عليها . وبفضل المدافع والبارود تحطمت الحصانة والمنعة التى حظى بها البارونات داخل قلاعهم ومدنهم المسورة وقضت المدافع على نظام الإقطاع جملة . ولا تنس أن المدافع هى التى أسقطت القسطنطينية بيد الأتراك ، وكذلك تداعت دولتا المكسيك وبيرو حيال ما أصابهما من رعب من مدافع الإسبان .

وكان القرن السابع عشر مسرحا تطور فيه النشر المنظم للمطبوعات العلمية ،وهو تجديد أقل شأنا من سابقيه ، وإن عاد فى النهاية بفوائد أعظم . ومن أبرز رواد هذه الخطوة التقدمية العظيمة السير فرنسيس باكون (١٥١١ – ١٦٢٦) ، وهو الذى تسمى فيما بعد باسم لورد فيريولام ، وزير مالية إنجلتره .كان تلميذا لعالم إنجليزى آخر بل لعله هو اللسان المعبر عن ذلك الإنجليزى الذى هو الدكتور جلبرت فيلسوف كولشستر التجريبى (١٥٤٠ – ١٦٠٣) ، وكان باكون الثانى هذا يدعو الناس كسميه الأول إلى الملاحظة والتجريب ، كما أنه اتخذ طريقه القصص اليوتوبى الملهمة المثمرة فى كتاب له أسماه « الأطلانطس الجديد » وسيلة يعبر بها عما يحلم به من قيام هيئة عظيمة من العلماء بالأبحاث العلمية .

وسرعان ما نشأت الجمعية الملكية بلندن والجمعية الفلورنسية ، كما نشأت فيما بعد هيئات قومية أخرى لتشجيع الأبحاث العلمية ونشر المعرفة وتبادلها ، لم تصبح هذه

الجمعيات العلمية الأوربية ينابيع فقط تنضح بما لا يقع تحت حصر من الاختراعات ، بل صارت أيضا منبعا للنقد الهدام الذى قضى فى النهاية على ذلك التاريخ اللاهوتى العالمى المضحك الذى تسلط على الفكر البشرى وعاقه عن العمل عدة قرون .

ولم يقدر للقرن السابع عشر ولا الثامن عشر أن يشهدا اختراعات بلغت من الأثر العميق فى حياة الناس مبلغ الطباعة والسفينة القادرة على اختراق المحيط ، وإن تجمعت فى أثنائهما المعرفة والطاقة العلمية بصورة قدر لها أن تؤتى ثمارها كاملة فى القرن التاسع عشر . وتواصلت الاستكشافات ووضع الخرائط الجغرافية لأصقاع العالم . فظهرت أشكال تسمانيا واستراليا وزيلندة الجديدة فى المصورات الجغرافية . وشرع الناس فى بريطانيا العظمى يستخدمون كوك الفحم الحجرى فى صناعة المعادن ، فأدى ذلك إلى رخص ثمن الحديد وإلى إمكان صبه واستخدامه على صورة قطع أكبر حجما مما كان يستطاع إنتاجه قبل ذلك ، حين كان الفحم النباتى هو المستخدم فى صهره . وبذلك بزغ فجر الآلات العصرية الحديثة .

والعلم كأشجار جنة الفردوس ، يحمل الأكمام والأزهار والثمار فى نفس الوقت وبلا انقطاع . وابتدأ العلم يؤتى ثماره الحقة منذ بداية القرن التاسع عشر ، ولعله لن يكف بعد ذلك عن الإثمار . فكان البخار والصلب أول قطرات الغيث ، وتلتهما السكة الحديدية والباخرة الحديدية والكبارى الضخمة والمبانى الكبيرة والماكينات التى لا حد لقوتها تقريبا ، ولاح أن فى الإمكان سد كل حاجة مادية للانسان بوفرة وغزارة لم يسبق لهما مثيل ، ثم انفتحت أمام الناس أبواب الكنوز المستورة للعلم الكهربى .

سبق أن شبهنا الحياة السياسية والاقتصادية للانسان منذ القرن السادس عشر فصاعدا بحالة سجين نائم يرقد غارقا فى أحلامه والسجن يحترق من حوله . وكان الأوربى فى القرن السادس عشر لا يزال مستغرقا فى أحلامه بالإمبراطورية اللاتينية الدابرة ، أى حلمه بإمبراطورية رومانية مقدسة تتحدد كلمتها بزعامة الكنيسة الكاثوليكية ولكن الذى حدث هو أنه كما أن بعض عناصر تكويننا التى لا سلطان لأحد عليها لا تزال تدأب فى بعض الأحايين على إدخال أشد أنواع الأفكار سخفا وتدميرا فى مجرى أحلامنا ، فكذلك اندس فى هذا الحلم الوجه النائم للامبراطور شارل الخامس ومعدته المتهافتة على الطعام ، على حين كان هنرى الثامن ولوثر يمزقان وحدة العالم الكاثوليكى إربا .

وتحول الحلم فى القرنين السابع عشر والثامن عشر إلى ملكية شخصية مستبدة. فلا يكاد تاريخ أوربا خلال تلك الفترة يحوى إلا قصة تروى بصورة مختلفة ، محاولة ما لتوحيد ملكية من الملكيات ، وجعل سلطان عاهلها استبداديا مطلقاً وبسط كلمتها على الضعفاء من جيرانها ، أو تقص على مسامعنا حديث المقاومة الدائمة التى يظهرها أصحاب الأراضى ، كما تحدثنا عندما تتزايد التجارة الخارجية والصناعة فى الداخل عن مقاومة طبقة التجار والماليين التى تزداد عند ذلك عددا — تحدثنا عن مقاومة هؤلاء لكل تدخل للتاج فى شئونهم أو فرض يفرضه عليهم ولم يحرز أى من الطرفين نصرا شاملا أو حاسما ؛ فقد يفوز الملك هنا بالكلمة العليا ، بينما يتغلب صاحب الأملاك فى مكان آخر على العاهل الملك . وثم مكان يكون فيه الملك منار عالمه القومى وقطب رحاه على حين نجد وراء حدوده المتاخمة له تماما طبقة تجارية قوية الشكيمة تقيم صرح جمهورية وطيدة . ووجود مثل هذا البون البعيد من الاختلاف بين البلاد يبين إلى أى حد كانت الحكومات المتنوعة لتلك الفترة تجريبية بحتة ، أو عارضة أنتجتها الصدفة المحلية .

وهناك شخصية شهيرة جداً فى هذه المسرحيات القومية ، هى « وزير الملك » الذى كثيراً مايكون فى الدول المستمسكة بالعقيدة الكاثوليكية أسقفا يقف من وراء الملك ، ويخدمه ويتسلط عليه بما يؤديه من خدمات لايستغنى عنها .

ولا يتسع المقام لتتبع هذه المسرحيات القومية بالتفصيل . وحسبك أن تعلم أن شعب هولندة التجارى تحول إلى المذهب البروتستانتى والجمهورى معاً ، وأزاح عن كاهله حكم فيليب الثانى ملك إسبانيا ،وابن الإمبراطور شارلكان . فأما إنجلتره فإن هنرى الثامن ووزيره ولزى والملكة إليزابيث ووزيرها بورلى ، وضعوا أسس نظام استبدادى حطمته حماقة جيمس الأول . وكانت نتيجة ذلك أن قطعت رأس الملك شارل الأول جزاء له على خيانته لشعبه (١٦٤٩) ، وفى ذلك تحول جديد لمجرى الفكر السياسى بأوربا . وانقضت بعد ذلك اثنتا عشرة سنة كانت فيها إنجلتره جمهورية (حتى ١٦٦٠)؛ ثم غدا التاج مزعزع القوى تغلبه كثيرا كلمة البرلمان ، حتى بذل الملك جورج الثالث (١٧٦٠ — ١٨٢٠) جهدا عظيما وفق فيه إلى حد ما إلى استعادة سلطانه. على أن ملك فرنسا من الناحية الأخرى كان أكثر ملوك أوربا توفيقاً ونجاحا فى النهوض بالملكية إلى حد الكمال . فقد رزقه الله وزيرين عظيمين هما ريشليو (١٥٨٥ — ١٦٤٢)

ومازاران (١٦٠٢ – ١٦٦١) شادا له بتلك البلاد قوة التاج ، وزاد من قوة تأثيرها طول عهد الملك لويس الرابع عشر (الملقب بالعاهل الأعظم ١٦٤٣ – ١٧١٥) وصفاته الاستثنائية الخارقة .

والحق إن لويس الرابع عشر كان الملك المثالى الذى تحتذيه أوربا كلها . وكان – على مابه من معايب – ملكا ذا اقتدار استثنائى ، كما أن مطامعه كانت أقوى من شهواته الدنيا ، لذا اقتاد بلاده إلى الإفلاس بتورطه فى سياسة خارجية مفرطة النشاط مع هيبة وكرامة عظيمة لاتزال تنتزع منا الإعجاب انتزاعا . وكانت الرغبة المباشرة التى رانت عليه هى توحيد بلاده وبسط تخومها إلى نهر الرين وجبال البرانس ، وامتصاص الأراضى المنخفضة الإسبانية ، أما فكرته البعيدة التى هدف إليها فهى أن يصبح ملوك فرنسا خلفاء لشارلمان فى دولة رومانية مقدسة يعاد بناؤها . فجعل الرشوة وسيلة لدولته تعتمد عليها أكثر مما تعتمد على الحرب . فكان شارل الثانى ملك انجلتره يتلقى منه الأموال ، وكذلك معظم نبلاء بولندة الذين سنصفهم لك من فورنا . لذا يمكن القول إن نقوده أو بالحرى نقود الطبقات الدافعة للضرائب كانت تصل إلى كل مكان . على أن شغله الشاغل كان الأبهة والفخامة . فإن قصره العظيم بفرساى بما حوى من صالونات ودهاليز ومرايا وشرفات ضخمة ونافورات وجنات غناء ومجالات تمرح فيها الأنظار – كان مثار حسد العالم وإعجابه العظيم .

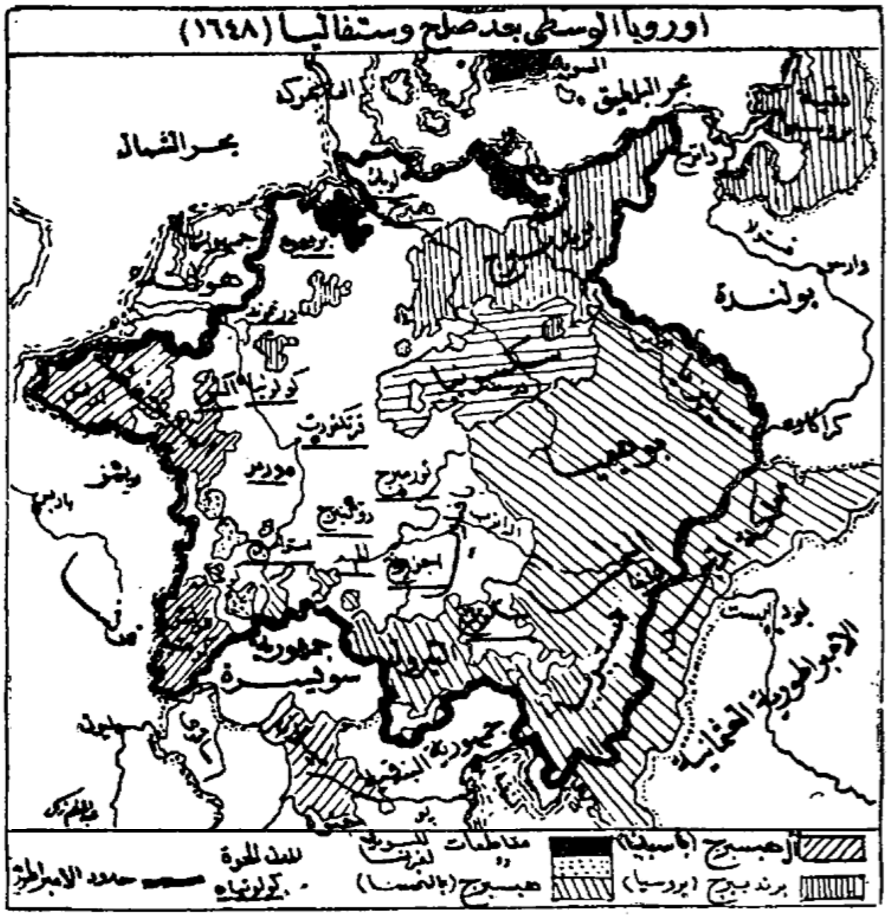
وتبارى من حوله المقلدون . وهب كل ملك أو أمير صغير بأوربا يشيد قصره على نمط قصر فرساى متجاوزا بذلك موارده . ولكن على قدر مايسمح له رعاياه ودائنوه! وهب كل النبلاء فى كل مكان يعيدون بناء قلاعهم وقصورهم أو يوسعون فيها على مثال الطراز الجديد . وحدثت نهضة عظيمة فى صناعة المنسوجات والأثاث الجميلة وازدهرت فنون الكماليات وتحف الترف فى كل مكان ، فانتعشت صناعات نحت الرمر والقاشانى وأشغال الخشب المذهب وصياغة المعادن والجلد المضغوط بالرسوم الفنية ، وتكاثر الإنتاج الموسيقى والتصوير الفاخر والطباعة الجميلة والتجليد الأنيق وأبدع الخزف وأعجب الخمور . وبين هذه المرايا الصقيلة والرياش الفاخرة ، كان جنس عجيب من السادة يغدو ويروح على رأسه شعور مستعارة مرتفعة ذرت عليها المساحيق ويرتدى الحرائر والمخرمات (الدنتلا) ويترنح فوق أحذية ذات كعوب عالية حمراء حافظاً توازنه بعصى مونقة مدهشة ومع هؤلاء سيدات أعجب منهن شأنا فوق رءوسهن أبراج من الشعور المغطاة

بالمساحيق، وعلى أجسامهن مقادير ضخمة منفوشة من الحرير والساتان تحملها الأسلاك. ومن بين هؤلاء جميعاً ، وقعت شخصية لويس العظيم ، شمس عالمه المنيرة ، غير شاعر بالوجوه الهزيلة المتجهمة الحانقة التي ترقبه من تلك الظلمات الدنيا دون أن تنفذ إليها أشعة شمسه.

ظل الشعب الألماني منقسما على نفسه سياسيا طوال تلك الفترة التي سادتها الملكيات وعمل التجارب في أنواع الحكومات ، وراح عدد جسيم من بلاطات الدوقات والأمراء يحاكي كالقردة أبهة فرساي كل حسب درجته . وكانت حرب الثلاثين سنة (١٦١٨ ، ١٦٤٨) وبالا على الألمان ، إذ إنها ظلت جرحا داميا ينزف منه نشاطهم وهمتهم لمدة مائة عام بعد ذلك ، وهي نزاع مخرب نشب بين الألمان والسويديين والبوهيميين على مغانم سياسية متقلبة غير ثابتة . ولابد للقارئ من خريطة يشهد فيها هذا الترقيع الجنوني الذي انتهى به ذلك الصراع ، وهي الخريطة التي تصور لك أوربا بعد صلح وستفاليا الذي عقد في ١٦٤٨ وفيها تجد عددا كبيرا من الإمارات والدوقيات والدول الحرة وما إلى ذلك ، ومنها ما هو من ناحية جزء من الإمبراطورية كما هو خارج عنها من ناحية أخرى . وسيلحظ القارئ أن ذراع السويد توغلت كثيرا في أرض ألمانيا ، وأن فرنسا كانت لا تزال بعيدة عن نهر الرين على الرغم من امتلاكها لقطع متباعدة من الأرض تقوم كالجزائر وسط ممتلكات الإمبراطور . وأخذت مملكة بروسيا (التي أصبحت مملكة منذ ١٧٠١) تواصل النهوض إلى مرتبه الصدارة وتشن سلسلة متصلة الحلقات من الحروب الظافرة الموفقة . وأقام فريدريك الأكبر (١٧٤٠–١٧٨٦) قصره الفرسالي الطراز عند بوتسدام، وكانت الفرنسية لغة بلاطه. فهو يتحدث بها ويقرأ الأدب الفرنسي وينافس الملك الفرنسي في ثقافته.

وفي ١٧١٤ أصبح منتخب هانوفر ملكا على إنجلتره ، فزاد فرد آخر في قائمة الملوك الداخلين في الإمبراطورية من ناحية والمستقلين عنها من ناحية أخرى .

احتفظ الفرع النمسوي من سلالة شارل الخامس باللقب الإمبراطوري ، كما احتفظ الفرع الإسباني بإسبانيا . ولكن ظهر الآن للمرة الثانية إمبراطور للشرق ، ذلك أن



خريطة رقم (١٤)

غراندوق موسكو ، إيفان الأعظم (١٤٦٢ – ١٥٠٥) ، ادعى بعد سقوط القسطنطينية (١٤٥٣) أنه الوارث للعرش البيزنطى، ووضع شارة النسر البيزنطى ذى الرأسين على دروعه وأسلحته . واتخذ حفيده ، إيفان الرابع (إيفان الرهيب) (١٥٣٣–١٥٨٤) اللقب الإمبراطورى : قيصر . على أن الروسيا كانت تبدو دائماً فى أعين الأوربيين قطراً بعيداً آسيويا حتى النصف الثانى من القرن السابع عشر . فإن القيصر بطرس الأكبر (١٦٨٢ – ١٧٢٥) أدخل الروسيا فى معترك الشئون الغربية . فشاد لإمبراطوريته عاصمة جديدة على نهر النيفا ، هى بطرسبرج ، كانت بمثابة نافذة تطل منها الروسيا على أوربا . كما أنه أقام قصره المماثل لقصر فرساى قرب بترهوف التى تبعد عن العاصمة ثمانية عشر ميلا ، مستخدماً فى ذلك مهندساً معمارياً فرنسياً ، شيد له شرفة

عظيمة ونافورات ومساقط مائية (شلالات) ومعرضا للصور وجنة غناء إلى غير ذلك من مظاهر الملكية العظمى . وصارت الفرنسية لغة البلاط فى الروسيا مثلما صارت من قبل لغته فى بروسيا .

ومن سوء حظ المملكة البولندية أنها كانت تقع ذلك الموقع التعس بين الروسيا وبروسيا والنمسا .

وكانت بولندة دولة سيئة التنظيم من ملاك كبار يحرص كل منهم على عظمته الفردية حرصاً شديداً حتى لايطيق أن تقوم بالبلاد إلا ملكية اسمية للملك الذى كانوا ينتخبونه. وكان مصيرها هو التقسيم بين هؤلاء الجيران الثلاثة ، على الرغم مما بذلته فرنسا من الجهود للاحتفاظ بها حليفا مستقلا .

وكانت سويسرا فى ذلك الأوان مكونة من مجموعة من « السكانتونات الجمهورية» ؛ ثم إن البندقية كانت هى الأخرى جمهورية ؛ على حين أن إيطاليا كمعظم ألمانيا تقسمها دوقات وأمراء صغار . أما البابا فكان يقيم فى دولته البابوية حكما كحكم الأمراء ، وقد أصبح الآن من شدة الخوف من فقدان طاعة وولاء من بقى مواليا له من الأمراء الكاثوليك بحيث لم يعد يجرؤ على التدخل بينهم وبين رعاياهم أو على تذكير العالم بدولة النصرانية الشاملة .

والحق إنه لم يعد هناك بأوربا مطلقا أية فكرة سياسية مشتركة ؛ إذ إنها وقعت تماما بين براثن الفرقة واستسلمت كلية للخلاف .

وكان كل من هؤلاء الأمراء وتلك الجمهوريات يدبر الخطط الرامية إلى التوسع على حساب غيره . وكان لكل منهم سياسة خارجية تنطوى على العدوان على جيرانه وعلى التحالف العدوانى . ونحن الأوربيين لانزال نعيش فى أيامنا هذه فى آخر مرحلة من مراحل الدول المتعددة ذات السيادة ، كما أننا لانزال نكابد الآلام من تلك الكراهيات والعداوات والشكوك التى تولدت عن تلك المرحلة . ولا يلبث تاريخ تلك الفترة أن يفقد كل معنى ويصبح دردشة جوفاء وخوضا فى الأعراض تمجه أذن الناقد العصرى الألمعى . فهو يحدثنا تارة كيف أن خليلة هذا الملك أججت تلك الحروب ، وكيف تولدت هذه الحرب الأخرى من غيرة وزير من آخر . وتثور ريح القيل والقال فتزكم أنف الدارس الذكى بأخبار الرشوة والمنافسات وتملأ نفسه اشمئزازاً . على أن هناك حقيقة

مائلة ولها دلالتها التى لاتنقطع ، هى أن القراءة والفكر لم تكف مع ذلك عن الانتشار والاتساع ، وأن الاختراعات لم تكف عن التكاثر ، على الرغم من تلك العشرات من الحدود والتخوم التى تفصل بين الدول . وظهر فى القرن الثامن عشر أدب عميق فى تشككه ، نفاذ فى نقده لبلاطات ذلك العصر وسياساته. ولو أنك قرأت كتابا كقصة فولتير المسماة « قنديد » لشهدت فيها بوضوح تعبيراً صريحاً عن حالة لاحد لها من التبرم بوقوع أوربا فى لجة الارتباكات دون توفر أحد على رسم خطة لإنقاذها .

الفصل الثالث والخمسون

إمبراطوريات الأوربيين الجديدة في آسيا وما وراء البحار

وفى نفس الوقت الذى ظلت فيه أوربا الوسطى مضطربة منقسمة على نفسها على النحو الذى رأيت ، راح سكان غرب أوربا ، خاصة الهولنديين والإسكندناويين والإسبان والبرتغاليين والبريطانيين يمدون منطقة كفاحهم وراء بحار العالم أجمع. ومن قبل ذلك كانت المطبعة قد دفعت بالأفكار السياسية والأوربية إلى غمرة ثوران شديد كان غير معين فى بدايته ، على أن الاختراع العظيم الثانى : السفينة الشراعية التى تخترق المحيطات ، كان يمتد نطاق خبرة الأوربيين بلا هوادة إلى آخر حدود المياه الملحة .

ولاشك أن أول ماأقيم وراء البحار من مستقرات الهولنديين ، النازلين حول الأ طى الشمالى من الأوربيين لم يكن يهدف إلى الاستعمار ، بل التجارة والتعدين . و الإسبان أول من اقتحم الميدان ، فادعوا السيادة على كل هذا العالم الجديد المسمى أمريكا . ومع ذلك فسرعان ماطالب البرتغاليون بنصيبهم فى الغنيمة . وعندئذ تولى البابا تقسيم القارة الجديدة بين هذين الشعبين السباقين إلى الارتياد والفتح، فأعطى البرازيل للبرتغال ، كما أعطاها كل شىء آخر يقع إلى الشرق من خط يمتد على بعد ٣٧٠ فرسخا غرب جزائر رأس فردى ، كما منح مابقى بعد ذلك لإسبانيا (١٤٩٤) ، (وكان ذلك من أواخر الأعمال التى قامت بها روما كسيدة للعالم) وفى ذلك الحين نفسه كان البرتغاليون يدفعون بمعترك المغامرة وراء البحار نحو الجنوب والشرق . فلم تحل ١٤٩٧ حتى كان فاسكو دى جاما قد أبحر من لشبونه حول رأس الرجاء الصالح إلى زنجبار ثم انطلق إلى قاليقوط ببلاد الهند . وإذا بالسفن البرتغالية تمخر فى ١٥١٥ عباب بحار جاوة وملقا ، وإذا بالبرتغاليين ينشئون المحطات التجارية ويحصنونها على سواحل المحيط الهندى. ولاتزال البرتغال تملك إلى اليوم موزمبيق وجوا وممتلكتين صغيرتين أخريين بالهند وماكاو بالصين وجزءاً من جزيرة تيمور .

على أن الشعوب التى استبعدت من أمريكا بحكم التسوية البابابوية لم تعرحقول إسبانيا والبرتغال أدنى اهتمام ، وسرعان ماشرع الإنجليز والدانمركيون والسويديون من ورائهم والهولنديون يدعون الدعاوى فى امتلاك أمريكا الشمالية وجزر الهند الغربية ، كما أن صاحب الجلالة ملك فرنسا الكاثوليكى الورع لم يعر تلك التسوية البابابوية من الاهتمام إلا بقدر ماأعارها أى أمير بروتستانتى خارج على البابا . وعندئذ امتدت حروب أوربا إلى مناطق هذه الدعيات والممتلكات .

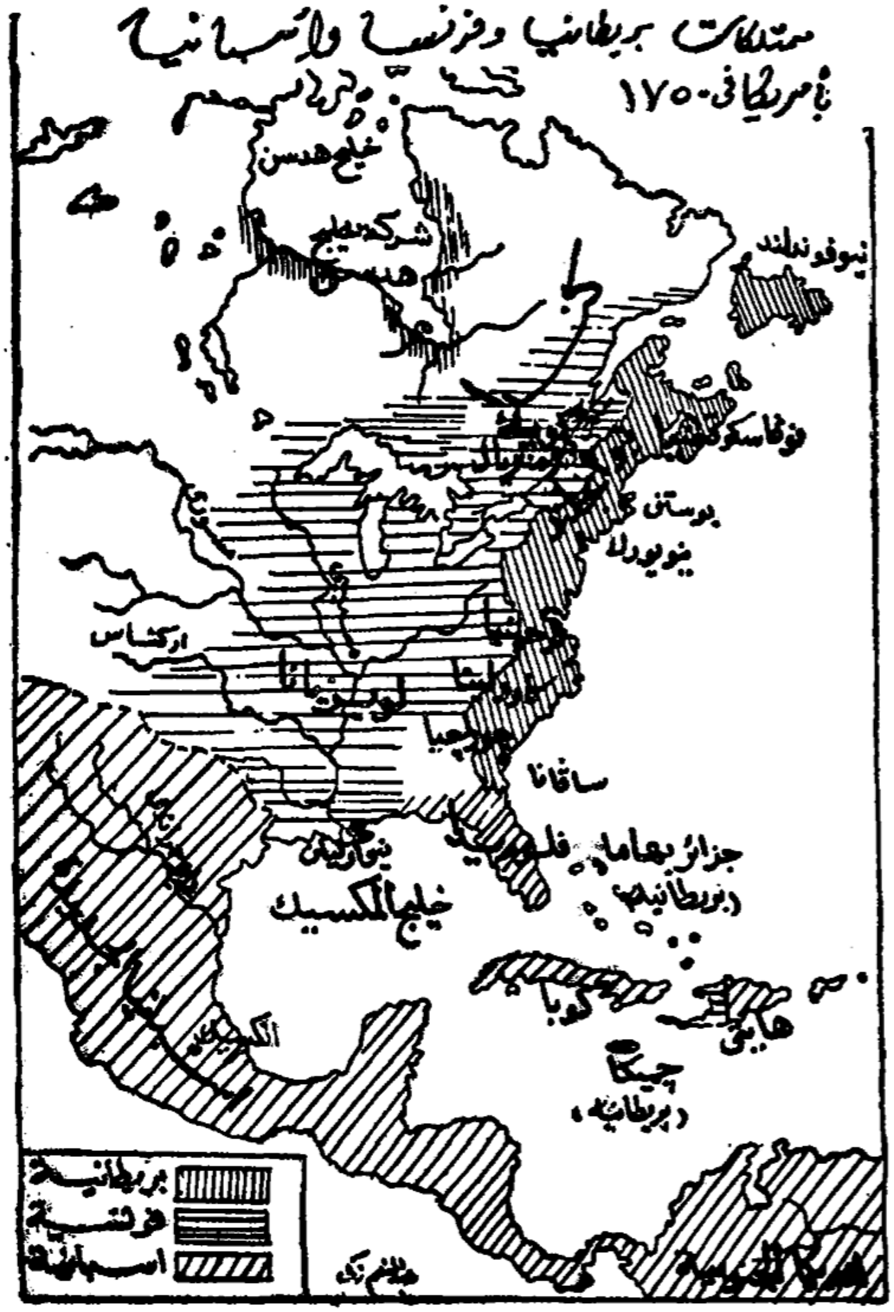
وكان الإنجليز فى النهاية أنجح من دخل حلبة هذا السباق على الممتلكات وراء البحار مذ كان أهل الدانمرك والسويد متورطين إلى أقصى حد فى شئون ألمانيا المضطربة المعقدة، بحيث لم يستطيعوا مواصلة إرسال الحملات الفعالة إلى الخارج . ثم انتهى الأمر بأن تبددت قوة السويد فى ميدان القتال على يد ملك فاتن جذاب هو جوستاف أدولف « أسد الشمال » البروتستانتى . ومالبث الهولنديون أن ورثوا تلك المستقرات الصغيرة التى أنشأها السويديون بأمريكا ، كما أن الهولنديين بدورهم كانوا شديدى القرب من فرنسا وعدوانها بحيث لم يتمكنوا من الصمود فى وجه البريطانيين . وكان أهم المتنافسين فى بلاد الشرق الأقصى على تكوين الإمبراطوريات هم البريطانيون والهولنديون والفرنسيون كما أن أهمهم بأمريكا هم البريطانيون والفرنسيون والإسبان . ومن حسن حظ البريطانيين أن كانت لهم على أوربا ميزة عظمى تحميهم منها وهى بحر المانش ، تلك التخوم المائية المسماة « الشعاع الفضى silver streak » . لذا كانوا أقل الناس اشتباكا فى شئون الإمبراطورية اللاتينية وتقاليدها .

وقد دأبت فرنسا دائما على المبالغة فى الاهتمام بالشئون الأوربية فظلت طوال القرن الثامن عشر بأجمعه تضيع مايسنح أمامها من فرص التوسع فى الشرق والغرب على السواء ، رغبة منها فى التسلط على إسبانيا وإيطاليا وعلى تلك الفوضى المجسمة المسماة ألمانيا . ثم إن الخلافات الدينية والسياسية ببريطانيا إبان القرن السابع عشر كانت قد دفعت كثيرا من الإنجليز إلى البحث عن وطن دائم لهم بأمريكا . لذا توطدت بها أقدامهم وتزايد عددهم وتكاثر نسلهم ، الأمر الذى عاد على الإنجليز بميزة كبرى من التفوق العددى فى أثناء الكفاح على أمريكا . ولم يلبث الفرنسيون أن خسروا فى ١٧٥٦ ، ١٧٦٠ كندا التى سقطت بيد البريطانيين ورجالهم مستعمرى أمريكا ، وانقضت بضع سنوات أخرى ، وإذا بالشركة التجارية البريطانية تجد نفسها مسيطرة تماما على جميع من ينزل بأرض

شبه الجزيرة الهندية من فرنسيين وهولنديين وبرتغاليين ، ذلك أن الإمبراطورية المغولية العظيمة التى شادها بابر وأكبر وخلفاؤهما ، قد نخر فيها الآن سوس الانحلال الشديد ، كما أن قصة استيلاء شركة لندنية للتجارة عليها (هى شركة الهند البريطانية الشرقية) من أعجب ماحوى تاريخ الفتوح كله من حوادث .

ولم تكن شركة الهند الشرقية هذه يوم إنشائها فى عهد الملكة إليزابث إلاشركة من مغامرى البحار ، واضطرتهم الأحوال خطوة فخطوة إلى إنشاء الجيوش وتسليح السفن ، وعلى حين فجأة وجدت هذه الشركة التجارية بمالها من تقاليد أساسها الربح والمكاسب أنها لاتتعامل فقط فى التوابل والأصباغ والشاى والجواهر ، بل وفى إيرادات الأمراء وممتلكاتهم بل حتى فى مصائر الهند ومقدراتها ، جاءت لتشترى وتبيع وإذا بها تحصل على غنيمة هائلة ، ولم يكن ثمة أحد يستطيع تحدى إجراءاتها. أفعجيب إذن أن زعماءها وقادتها وموظفيها ، بل حتى كتبتها وعامة جنودها ، كانوا يعودون إلى انجلترا محملين بالأسلاب ؟ !

ومن البديهى أن الرجال الذين يعيشون فى مثل تلك الظروف ويجدون تحت رحمتهم قطرا عظيما ثريا كالهند ، يمكنهم أن يقرروا ماذا يستطيعون عمله وماذا لايستطيعون ومايجوز ومالا يجوز ، فالهند فى نظرهم أرض عجيبة ذات شمس عجيبة : كما أن سكانها النحاسيين كانوا يبدون شعباً مختلفاً عنهم يخرج تماما عن مجال عطفهم ، هذا إلى أن معابدها الغامضة تدعو إلى معايير للسلوك غريبة وخيالية . وتحيرت عقول الإنجليز فى بلادهم كلما عاد إليهم هؤلاء القادة أو الموظفون ليتراشقوا بالتهم القذرةالشنيعة بين ابتزاز للأموال وقساوات تقشعر لها الأبدان . وأصدر البرلمان على كلايف قراراً باللوم ، ومالبث أن انتحر فى ١٧٧٤ ، ثم حوكم وارن هاستنجس فى ١٧٨٨ ، وهو مدير عظيم ثان لبلاد الهند ، ثم أخلى سبيله فى ١٧٩٢ . حقا إنه لموقف غريب ليس له من سابقة فى تاريخ العالم . ذلك أن البرلمان الإنجليزى ألفى نفسه يحكم من وراء شركة تجارية ، كانت بدورها تتسلط على إمبراطورية أعظم كثيراً وأكثر سكانا من ممتلكات التاج البريطانى جميعاً . وكانت الكثرة العظمى من الشعب الإنجليزى تعد الهند بلداً قصيا لايمت إلى الحقيقة بسبب ، ولا يكاد إنسان يستطيع بلوغه ، ينطلق إليه الشبان المغامرون الفقراء ليعودوا بعد سنوات جمة كهولا واسعى الثراء ذوى أخلاق شكسة عنيفة ــ وعسر على الإنجليز أن يتصوروا طريقة


ممتلكات بريطانيا وفرنسا وإسبانيا
بأمريكا في ١٧٥٠
خليج هدسن
شركة خليج هدسن
نيوفوندلند
نوفاسكوشيا
بوستن
نيويورك
اركنساس
لويزيانا
سافانا
فلوريدا
نيوأورليانز
خليج المكسيك
جزائر بهاما
(بريطانية)
كوبا
هايتي
جميكا
(بريطانية)
بريطانية
فرنسية
اسبانية

خريطة رقم (١٥)

عيش هؤلاء الملايين التى لاحصر لها من السمر السابحين فى ضياء شمس بلاد الشرق . ذلك أن أخيلتهم أبت عليهم إقامة تلك الصورة . وظلت الهند بناء على ذلك قطرا « رومانسيا » لايمت إلى الواقع بأدنى سبب ، لذا صار من المستحيل على الإنجليز أن يقوموا بأى إشراف فعال أو هيمنة مثمرة على تصرفات الشركة .

وفى نفس الوقت الذى كانت فيه دول أوربا الغربية تتقاتل على هذه الإمبراطوريات الخيالية وراء البحار مشتبكة بعضها مع بعض على صفحة كل محيط فى هذا العالم ، حدثت بآسيا غزوتان بريتان عظيمتان فإن الصين ألقت عن كواهلها نير المغول فى ١٣٦٠ ، وازدهرت الحياة فيها بظل أسرة منج القومية العظيمة حتى ١٦٤٤ ، ثم عاد شعب المانشو ، وهو شعب مغولى آخر ، وظل سيدا على بلاد الصين حتى ١٩١٢ .وفى نفس الحين كانت الروسيا تتقدم شرقا وتزداد عظمة بين دول العالم .

ولاشك أن نهوض تلك القوة العظيمة المركزية فى العالم القديم ، التى لاهى إلى الشرق تماما ولاهى إلى الغرب تماما له أهمية قصوى هائلة على مصير الإنسانية ، ويعود الفضل فى توسعها ذاك إلى حد كبير إلى ظهور شعب مسيحى بمنطقة السهوب بها ، هو شعب القوزاق ، الذى أقام من نفسه حاجزاً بين الإقطاعيين ببولندة والمجر فى الغرب وبين التتار شرقا ، فالقوزاق هم الشعب الضارى القاطن شرق أوربا ، وهم يشبهون من وجوه كثيرة غرب الولايات المتحدة الضارى فى منتصف القرن التاسع عشر ، فكل من أحنق عليه الروسيا حتى ضاقت به ذرعا ، سواء أكان من المجرمين أم من الأبرياء المضطهدين . وفيهم الموالى الثائرون والطوائف الدينية واللصوص المتشردون والقتلة ، كانوا يلتمسون سهوب الجنوب ملجأ ، وهناك يبدأون حياتهم بدءا جديدا . ويقاتلون من أجل الحياة والحرية كلا من البولنديين والروسيين والتتار على السواء . ولايخالجنا أدنى شك فى أن خليط القوزاق كان يساهم فيه لاجئون من التتار شرقا .

ثم أخذ هذا الشعب النازل على التخوم يدخل رويدا رويدا فى خدمة القيصر الروسى العسكرية . على نفس الشاكلة التى تم بها للحكومة البريطانية تحويل عشائر مرتفعات اسكتلندة إلى جند وفرق ، وعند ذلك منحتهم الحكومة أرضا جديدة بآسيا حيث أصبحوا سلاحا حادا لها ضد قوة المغول الرحل الذاوية المتناقصة، فحلوا أولا ببلاد التركستان ثم توغلوا عبر سيبيريا حتى نهر عامور .

ومن العسير تفسير الاضمحلال الذى طرأ على قوة المغول إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر . فلم تنقض على أيام جانكيز وتيمورلنك قرنان أو ثلاثة حتى انحدرت آسيا الوسطى من عصرها الذهبي الذى سادت فيه العالم إلى الانحلال والوهن السياسى البالغ . ولعل عوامل من أمثال تغيرات المناخ أو الأوبئة التى لم يسجلها التاريخ أو إصابات من نوع الملاريا أصابت الناس ، قد اجتمعت كلها فأفضت إلى ذلك التدهور الذى ألم بشعوب آسيا الوسطى ـ والذى يحتمل أن يكون مؤقتا ليس إلا ، إذا قيس بمقياس التاريخ العالمى العام . ويعتقد بعض الثقات أن انتقال التعاليم البوذية إليهم فى بلاد الصين كان بدوره عاملا مهدئا لنفوسهم . ومهما تكن الحال ، فإن التتار المغوليين والشعوب التركية لم يعد لهم فى القرن السادس عشر أى اتجاه إلى الضغط نحو الخارج ، بل كانوا على الضد من ذلك يغزون فى بلادهم ويلزمون بالخضوع أو يدفعون إلى الوراء من جانب كل من الروسيا المسيحية فى الغرب والصين فى الشرق .

وانقضى القرن السادس عشر بأكمله والقوزاق ينتشرون شرقا من روسيا الأوربية ويستقرون حيثما وجدوا ما يناسبهم من ظروف زراعية . وكانت حلقات من القلاع والمواقع الحصينة تفصل هؤلاء المستقرين عن جيرانهم كأنها التخوم وتتحرك دائما إلى الأمام وتحمى هذه المستقرات فى الجنوب ، حيث لم يبرح التركمان أقوياء ناشطين ؛ على أن الروسيا لم يكن لها مع ذلك أى حدود إلى الشمال الشرقى أبدا حتى بلغت المحيط الهادى نفسه .

الفصل الرابع والخمسون

حرب استقلال أمريكا

هكذا شهد الربع الثالث من القرن الثامن عشر قارة أوربا المنقسمة على نفسها وهى فى حالة عجيبة من الاضطراب وعدم الاستقرار ، كما شهدها محرومة من كل فكرة سياسية أو دينية جامعة تدعو إلى الوحدة والتآلف ، ولكنها مع ذلك قادرة ولو بصورة مختلة يسودها النزاع والخلاف ، على التسلط على جميع شواطئ بلاد العالم بفضل الاستثارة الهائلة التى أحدثها فى أخيلة الناس ظهور الكتاب المطبوع والخريطة المطبوعة ، والفرص التى خلقتها السفينة القادرة على عبور المحيط . لقد أصاب أوربا ضرب من حمى المغامرة المفككة التى ليس لها خطة مرسومة ، مغامرة ترجع إلى مزايا مؤقتة وعارضة ، أو تكاد ، هبطت عليهم دون سائر البشر . وبفضل هذه المزايا التى اكتسبوها ، فإن قارة أمريكا الجديدة هذه والخالية إلى حد كبير من السكان امتلأت بصفة رئيسية بأقوام من غرب أوربا . كما حجزت جنوب إفريقية واستراليا ونيوزيلندة لتكون وطناً معداً لسكان من الأوربيين .

ولم يكن مبعث كولمبس إلى أمريكا أو فاسكودى جاما إلى الهند إلا الدافع الأول الدائم للبحارة جميعاً منذ بدء الخليقة ألا وهو التجارة . ولكن على حين حدث فى الشرق الآهل آنفا بالسكان والحافل بالمنتجات ، أن الباعث التجارى ظل غالباً متسلطاً وظلت مستقرات الأوربيين به تجارية بحتة ، وكان سكانها (الأوربيون) يرجون دائماً أن يعودوا إلى أوطانهم لإنفاق أموالهم ، فإن الأوربيين فى أمريكا ، ألفوا أنفسهم أمام باعث جديد يحملهم على التشبث بتلك البلاد بحثاً عن الذهب والفضة ، وذلك لأنهم كانوا يتعاملون هناك مع مجتمعات مستوى نشاطها الإنتاجى أخفض كثيراً جداً . ولقد ذهب الأوربيون إلى أمريكا لا بوصفهم تجاراً مسلحين ، بل كباحثين عن المعادن النفيسة ومعدنين ومنقبين عن المنتجات الطبيعية ، ثم عادوا فتحولوا بعد ذلك إلى الزراعة ، وكانوا فى المناطق الشمالية يجمعون الفراء ، ثم استلزمت المناجم والمزارع قيام المستقرات (المستوطنات) . فكأنهما اضطرا هؤلاء الناس إلى إقامة الأوطان الدائمة لأنفسهم

وراء البحار . ثم ترامى الأمر أن أصبح الأوربيون يعبرون البحار بهدف قاطع صريح هو أن يجدوا لأنفسهم أوطانا جديدة يسكنونها إلى الأبد ، كما حدث فى بعض الحالات عند ما هاجرت طائفة من البيوريتان الإنجليز إلى نيو إنجلند بأمريكا فى أوائل القرن السابع عشر فراراً من الاضطهاد الدينى ، وكما حدث فى القرن الثامن عشر عند ما أرسل أوجليثورب أقواما استخلصهم من سجون المدينين بانجلترا إلى ولاية جورجيا ، وكما حدث فى نهاية القرن الثامن عشر عند ما أرسل الهولنديون الأيتام إلى رأس الرجاء الصالح . وجاء القرن التاسع عشر وظهرت السفينة البخارية ، فارتفع سيل النازحين الأوربيين إلى أراضى أمريكا واستراليا الجديدة الخاوية . ولم يزل كذلك بضع عشرات من السنين حتى صار كأنما هو هجرة عظيمة .

وهكذا تضخمت وراء البحار جماعات دائمة من السكان الأوربيين ، وانتقلت الثقافة الأوربية إلى مناطق أوسع كثيراً من تلك التى نشأت وتطورت بها . إن هذه المجتمعات الجديدة التى أحضرت معها مدنية مهيأة من قبل إلى تلك البلاد الجديدة ، تضخمت فى الواقع دون أن يدبر خطة تضخمها إنسان أو حتى يدرك وجودها ، ولم تتنبأ السياسة الأوربية بظهورها ، لذا لم تعد أية خطة لمواجهتها أو فكرة لمعاملتها . فظل ساسة أوربا ووزراؤها يعدونها مؤسسات عسكرية فى جوهر أمرها ، وموارد إيراد للدولة أو « ممتلكات » — أو « بلادا تدين بالتبعية » ، وذلك بعد أن تأصل فى سكانها بزمن طويل إحساسهم الحاد بانفصال حياتهم الاجتماعية عن كل ما عداها . ثم إنهم ظلوا يعاملونهم كشعب ذليل عاجز خاضع للدولة الأم بعد أن انتشر السكان بزمن مديد فى داخل البلاد وأصبحوا بعيدين عن طائلة أى عمليات تأديبية فعالة توجه إليهم من البحر .

ذلك أنه يجب ألا يغرب عن بالنا ، أن السفينة الشراعية الماخرة للمحيط كانت همزة الوصل بين أجزاء هذه الإمبراطوريات الممتدة وراء البحار إلى أن تقدم الزمن تماما بالقرن التاسع عشر . أما على البر فإن أسرع وسيلة للمواصلات لم تبرح هى الحصان ، كما لم يزل تماسك النظم السياسية ووحدتها فى البر محدودا بما تفرضه عليه مواصلات الحصان من قيود .

وما إن انتهى الربع الثالث من القرن الثامن عشر حتى كان الثلثان الشماليان من أمريكا الشمالية تابعين للتاج البريطانى وكانت فرنسا قد تخلت عن أمريكا . وفيما عدا

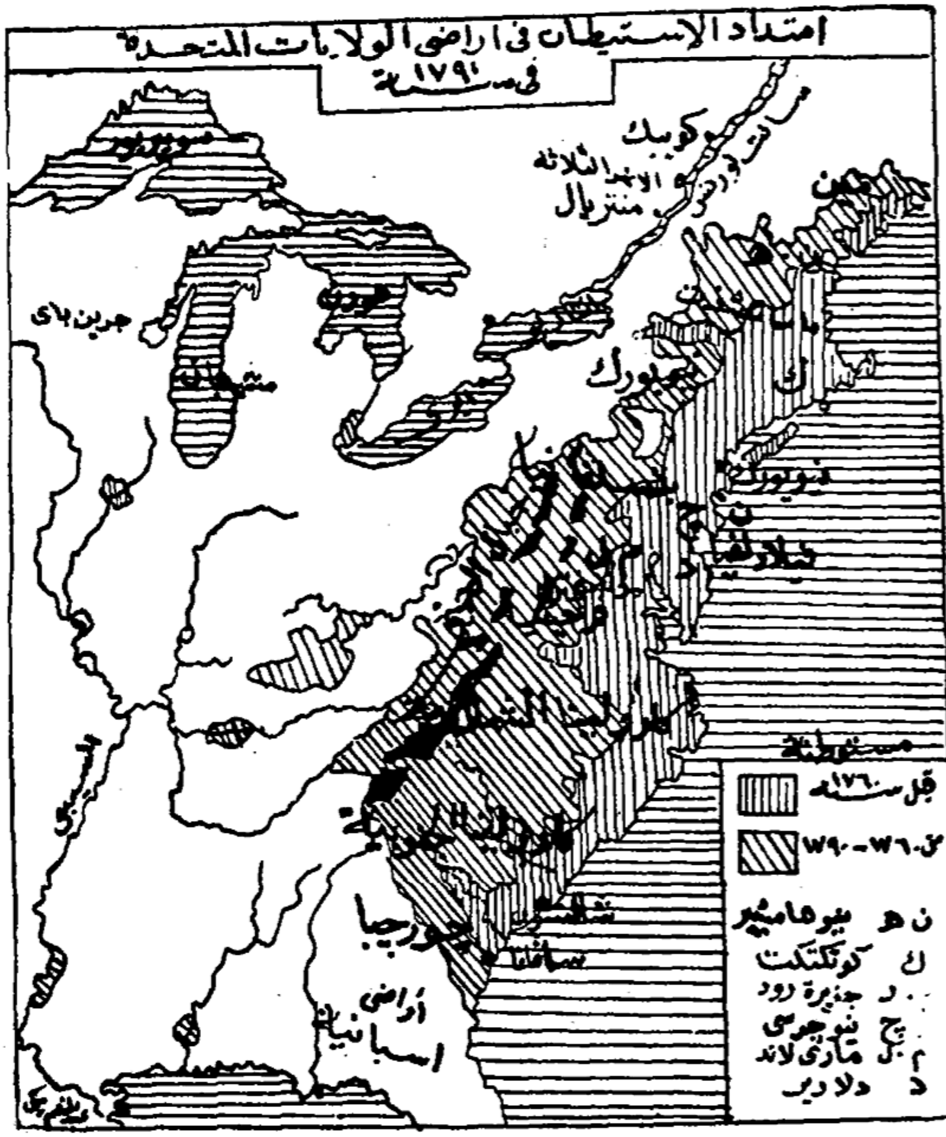
البرازيل التى كانت تابعة للبرتغال ، وجزيرة صغيرة أو جزيرتين ومنطقة ما أو منطقتين فى أيدى الفرنسيين أو البريطانيين أو الهولنديين أو الدانمركيين — فإن منطقة فلوريدا ولويزيانا وكاليفورنيا وجميع ما تبقى من أمريكا إلى الجنوب كان تابعاً لإسبانيا . وكان سكان المستعمرات البريطانية الواقعة إلى الجنوب من نهر الين وبحيرة أونتاريو أول من أظهر عدم كفاية السفينة الشراعية لربط مجتمعات وراء البحار بعضها مع بعض فى نظام سياسى واحد .

كانت هذه المستعمرات البريطانية متباينة فى منشئها وصفاتها . فقد قامت بها المستقرات الفرنسية والسويدية والهولندية فضلا عن البريطانية ، وكان سكان منطقة مارى لاند من الكاثوليك وسكان نيو إنجلند من متطرفة البروتستنت ، وبينما راح أهل نيو إنجلند يزرعون أراضيهم ويعيبون امتلاك الرقيق ، فإن البريطانيين من سكان فرجينيا وما وراءها جنوبا كانوا زراعا يستخدمون عددا متضخما من العبيد الزنوج المجلوبين من الخارج . فمثل تلك الولايات لا تقوم بينها وحدة طبيعية مشتركة . وربما كان معنى الانتقال من إحداها إلى الأخرى دفع نفقات رحلة غالية لا تكاد متاعبها تقل عن مشاق عبور الأطلنطى .

غير أن الاتحاد الذى أنكرته على تلك الولايات أصولها المتباينة وظروفها الطبيعية وحالت دون قيامه بين هؤلاء الأمريكيين البريطانيين لم يلبث أن فرضته عليهم فرضاً أنانية الحكومة البريطانية بلندن وغباؤها . ذلك أنهم كانت تفرض عليهم الضرائب دون أن يكون لهم أى صوت ولا رأى فى إنفاق تلك الضرائب ، وكان تجارتهم يضحى بها من أجل المصالح البريطانية ، وواصلت الحكومة البريطانية القيام بتجارة الرقيق لأنها تدر الأرباح الوفيرة ، على الرغم من معارضة سكان فرجينيا الذين خشوا أن يغرقهم تيار الشعب البربرى الأسود الذى لا يفتأ يتزايد عدده ، وإن رغب هؤلاء الفرجينيون فى الوقت ذاته رغبة أكيدة فى امتلاك الرقيق واستخدامهم .

وفى ذلك الوقت نفسه أخذت بريطانيا تتجه صوب نوع جديد من الحكم الملكى يتصف بالقوة والشدة ، وأفضى عناد الملك جورج الثالث (١٧٦٠ — ١٨٢٠) إلى إلى دفع المستعمرات دفعاً إلى القتال مع الحكومة البريطانية .

ومما عجل باندلاع لهيب الصراع ذلك التشريع الذى آثر بالتفضيل مصالح شركة الهند الشرقية بلندن على حساب أرباب السفن الأمريكيين . لذا هاجمت ثلة من الرجال


امتداد الاستيطان فى اراضى الولايات المتحدة
فى سنة ١٧٩١
كويبك
مونتريال
جرين باى
نيويورك
فيلادلفيا
جورجيا
سافانا
اراضى اسبانيا
المسيسبى
قبل سنة ١٧٦٠
من ١٧٦٠-١٧٩٠
ن هـ نيوهامشير
ك كونكتكت
ر جزيرة رود
ج نيوجرسى
م ماريلاند
د دلاوير

خريطة رقم (١٦)

تنكرت فى زى الهنود الحمر فى ١٧٧٣ ثلاث سفن بميناء بوسطن وألقت فى الماء بما كانت تحمل من الشاى الذى استورد فى ظل القانون الجديد . ولم يبدأ القتال إلا عام ١٧٧٥ عند ما حاولت الحكومة البريطانية أن تعتقل اثنين من زعماء الأمريكيين بمدينة لكنجستون قرب بوسطن . وأطلق البريطانيون أول طلقات الحرب بمدينة لكنجستون وتلاحم الجمعان فى أول قتال بينهما قرب كونكورد .

هكذا بدأت حرب الاستقلال الأمريكية . وإن ظل المستعمرون الأمريكيون أكثر من سنة كاملة يقفون موقف الإحجام البالغ عن القتال وعدم الرغبة فى قطع علاقتهم ببلادهم الأصلية . فلم يصدر مجلس كنجرس Congress ونواب الولايات الثائرة وثيقة « إعلان الاستقلال » إلا بعد منتصف عام ١٧٧٦ ، وعين جورج واشنطن قائدا عاما للجيوش الأمريكية ، وكان قد تعلم فنون الحرب فى أثناء الكفاح الذى نشب مع الفرنسيين شأنه فى ذلك شأن كثير من المستوطنين الأمريكيين فى ذلك الزمان . وفى عام ١٧٧٧ هزم عند مزرعة فريمان قائدا بريطانيا ، هو الجنرال بورجوين واضطره إلى التسليم عند ساراتوجا فى أثناء محاولته التقدم من كندا إلى نيويورك . وفى نفس تلك السنة أعلن الفرنسيون والإسبان الحرب على بريطانيا العظمى . فأدى ذلك إلى تعطيل مواصلاتها البحرية تعطيلا بالغاً . ثم طرق جيش بريطانى آخر تحت إمرة الجنرال كورنوالبس بشبه جزيرة يوركتاون بفرجينيا واضطر بدوره إلى التسليم دون شرط ١٧٨١ . ثم عقد الصلح بباريس فى ١٧٨٣ وبمقتضاه أصبحت المستعمرات الثلاث عشرة الممتدة من المين إلى فرجينيا اتحادا مكوناً من ولايات مستقلة ذات سيادة . وهكذا ظهرت الولايات المتحدة الأمريكية فى عالم الوجود . وظلت كندا موالية للراية البريطانية .

ظلت هذه الولايات أربع سنوات وليس لها إلا حكومة عامة ضعيفة السلطان تتولى الشئون بمقتضى بعض مواد لدستور ينص على قيام اتحاد مفكك بينها ، ولاح فى أثناء تلك المدة أنه لا مفر لها من الانقسام إلى مجتمعات مستقلة منفصلة بعضها عن بعض . ولكن أمرين أديا إلى إرجاء ذلك الانفصال وهما عداء البريطانيين لهم وإظهار الفرنسيين شيئاً من الرغبة فى الاعتداء عليهم مما جسم أمام نواظرهم الخطر القريب المترتب على الانقسام والفرقة، وتنبه القوم فوضعوا فى ١٧٨٨ دستورا اعتمدوه للفور ، فقامت بمقتضاه حكومة اتحادية أشد قوة لها رئيس يتمتع بسلطات ضخمة جدا ، وما لبثت حرب ثانية شبت مع البريطانيين فى ١٨١٢ ، أن قضت على كل ضعف فى الشعور بالوحدة القومية ومع ذلك

فإن رقعة الولايات كانت من الاتساع ، كما أن مصالحها كانت من التفرق والتضارب بحيث إنها لو استمرت تعتمد على وسيلة المواصلات الوحيدة الموجودة آنذاك [وهى الحصان] ، فإن تفرق الاتحاد إلى ولايات منفصلة على غرار الدول الأوربية وفى مثل اتساعها كان أمرا لا مفر منه بمضى الأيام ، إذ لم يكن لحضور الجلسات بواشنطن من معنى سوى القيام برحلة شاقة طويلة خطرة لكل عضو بمجلس الشيوخ أو النواب يقيم بالمناطق القاصية ، فضلا عن أن العوائق التى كانت تحول دون نشر تعليم موحد وأدب موحد وفكر موحد كانت مما لا يكاد يستطاع تذليله ، ومع ذلك فقد أخذت تنشأ آنذاك فى العالم قوى قدر لها أن توقف عملية التفرق وقفاً تاما ، إذ سرعان ما ظهر الزورق البحارى النهرى ثم السكة الحديد والتلغراف ، فأنقذت الولايات المتحدة من التمزق ، وضمت أهلها المشتتين فى نسيج واحد هو أول الأمم العصرية العظيمة .

وما هى إلا اثنتان وعشرون سنة حتى حذت المستعمرات الإسبانية بأمريكا حذو الثلاث عشرة مستعمرة وقطعت كل علاقة بينها وبين أوربا . على أنها لم تستطع أن تضم شملها فى اتحاد يجمعها نظرا لشدة توزعها فى أرجاء القارة ، ولانفصالها بعضها عن بعض بسلاسل جبلية عظيمة وصحارى وغابات وبإمبراطورية البرازيل البرتغالية . لذا أصبحت تلك المستعمرات مجموعة من الدويلات الجمهورية ، وصارت شديدة الميل فى البداية لإشعال نار الحروب فيما بينها والثورات فى داخلها .

أما البرازيل فإنها سلكت طريقاً آخر إلى ذلك الانفصال الذى لم يكن منه مفر . إذ حدث فى ١٨٠٧ أن الجيوش الفرنسية بقيادة نابليون احتلت بلاد البرتغال الأصلية، ففرت الأسرة المالكة إلى البرازيل ، ومنذ تلك اللحظة إلى يوم أن افترق البلدان ، أمست البرتغال هى التابعة تقريبا للبرازيل وليس العكس ! ثم أعلنت البرازيل استقلالها فى ١٨٢٢ كإمبراطورية مستقلة تحت حكم بدرو الأول ، أحد أبناء ملك البرتغال . ولكن العالم الجديد لم يرمق الملكية مطلقا بعين الرضا . لذا أرسل إمبراطور البرازيل بهدوء إلى أوربا على ظهر إحدى السفن فى ١٨٨٩ ، وتساوت الولايات المتحدة البرازيلية بسائر أمريكا الجمهورية .

الفصل الخامس والخمسون

الثورة الفرنسية وعودة الملكية فى فرنسا

لم تكد بريطانيا تفقد المستعمرات الثلاث عشرة بأمريكا حتى قيض الله لحركة ثورية عنيفة سياسية واجتماعية قامت فى قلب الملكية العظمى نفسها ، أن تذكر أوربا بصورة أجلى وأوضح كثيرا ، بأن كل ما بالعالم من نظم سياسية شىء وقتى تماما لا دوام له .

سبق أن ذكرنا أن الملكية الفرنسية كانت أنجح الملكيات المستبدة بأوربا ، وذكرنا أنها كانت مثار حسد عدد جم من البلاطات المتنافسة أو الصغرى ، كما كانت مثالها المحتذى . ولكنها لم تزدهر إلا على أساس من الظلم والطغيان أفضى إلى ما أصابها من انهيار مسرحى هائل . أجل إنها اتصفت بالذكاء والشجاعة والعدوان . ولكنها فرطت فى حياة من بها من العامة وكيانهم . وكان رجال الدين والنبلاء بمأمن من الضرائب بسبب القوانين التى تعفيهم والتى تلقى على عواتق الطبقتين الوسطى والدنيا ، وكانت الضرائب تسحق الفلاحين سحقا ، وكان النبلاء يتسلطون على الطبقات الوسطى ويستذلونها .

ولم تلبث تلك الملكية العظمى أن ألفت نفسها مفلسة خاوية الوفاض فى ١٧٨٧ ، وإن اضطرت إلى استدعاء ممثلى الطبقات المختلفة بالمملكة لتشاورهم فى أمر مشكلات نقص الإيرادات وشدة زيادة المصروفات ؛ واجتمع مجلس طبقات الأمة بفرساى فى ١٧٨٩ ، وهو مجلس من النبلاء ورجال الدين والعامة يماثل إلى حدما الصورة الأولى للبرلمان الإنجليزى ولم يعقد ذلك المجلس منذ ١٦١٠ ، وهى فترة من الزمن كانت تحكم فرنسافى أثنائها ملكية مطلقة . فلما انعقد آنذاك أصبح للناس وسيلة تتحدث عن تذمرهم القوى المديد الأجل وسرعان مانشبت الخلافات بين الطبقات الثلاث. بسبب إصرار الطبقة الثالثة وهى العامة على الهيمنة على المجلس .وكانت للعامة الغلبة فى هذه المنازعات، فتحول مجلس طبقات الأمة إلى جمعية وطنية واضحة العزم على إلزام التاج بالنظام ، مثلما ألزم